

جمال البنا

ظهور وسقوط جمهورية قايما

مأساة التخطيط
في اتخاذ الموافقة

مطبعة حسان

٢٤١ شارع الجيش - ت. ٨٣٣٥١٠ القاهرة

مقدمة

تتكون قصة جمهورية فايمار منذ ظهورها في سنة ١٩١٨ حتى تحللها سنة ١٩٣٣ من ثلاثة فصول أساسية .

الفصل الاول : تحديد المسار وهذا الفصل على قصره — إذ قد بت فيه قبل نهاية العام الثانی للثورة ، وعلى ظلم البعض له وجهالة الآخرين به ، يستحق الأهمية العظمى إذ يتوقف عليه المستقبل ويمكن لانحراف قد لا يكون محسوسا في البداية أن ينتهي به من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين ، وعندما لا يكون واضحا ومحددا فقد يوقع البلاد في دوامة ، أو متاهة ، أو حلقة مفرغة ، أو طريق مسدود . . .

وبالنسبة لجمهورية فايمار ، فإن هذا الفصل خضع لعدد كبير من اللفرقات أوجدت تمازجا حادا بين اليسار الثوري واليمين الاصلاحى ، وظهرت آثارها من البداية ، أى من اعلان الجمهورية في نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى اجتماع الجمعية الوطنية سنة ١٩١٩ واتخاذها النظام البرلمانى الكلاسيكى ، وليس نظام المندوبين أساسا للحكم .

الفصل الثانى : المسيرة المتمثرة وهذا الفصل يبدأ من النهاية الدرامية للفصل الأول وانسحاب آثاره مما جعل مسيرة الجمهورية الناشئة متمثرة حافلة

بالأخاديد والمعوقات والمضاعفات بحيث لم تكن لتخرج من مأزق إلا لتقع في مأزق آخر ...

الفصل الثالث : النهاية المحتومة التي لم يعد مناص عنها عندما ترا كمت الأخطاء وظهر جلياً عجز النظام وعمقه وتمزقه . . بحيث انفسح المجال لظهور قوة جديدة باطشه تبرأ تماماً من آثار المفارقات التي تحكمت في حياة الجمهورية منذ ميلادها . . وكانت أشبه بلعنة أوصلتها إلى قبرها ولما تبلغ الخامسة عشر ربيعاً .

* * *

وقصة فإيمار هي في جوهرها مأساة التخبط في تحديد المواقف واتخاذ القرارات السليمة ، وهي تصور كما لو كانت مأساة رومانتيكية التعارض بين العواطف والوقائع ، تمقيد الأوضاع وتبسيط الأفراد ، فقد أخذت ألمانيا النازية بسحر الفكر الماركسي الذي تبدي لها في أبهى ما يمكن أن يتبدى فيه فكر محكم ، فتورطت معه كما تورط الفناه الفريرة في عشق بطل اسطوري ولم تكن هذه العلاقة من زاوية التكافؤ أو الدوام أمراً سليماً . ولكنها حدثت بالفعل ورزقت مساعدة عوامل طارئة بحيث وصلت إلى غايتها عندما أعلنت الجمهورية وظهرت مجالس العمال والجنود ، وعندئذ فحسب ، تنبتهت ألمانيا إلى خطئها التاريخي ، وتبينت أن علاقتها تلك كانت سفاحاً مذهيباً ، وليست زواجاً شرعياً . . فما أن أحست بشمرة هذه العلاقة تنقلب بين جنبيها ، وأن هذا الوليد الخوف يتسكون في رحمها حتى أسرعت باجهاضه ، وتم ذلك بطرق عنيفة حتى سقط مضرجا بالدماء (مقتل روزا لوكسمبرج) ولكن آثار النزيف ، والانتهاب وحي النفاس كلها جعلت حياة الأم جحيماً . . خاصة وأن النظام البرلماني الذي أخذت به لم يساعد على التثام جراحها بل إنه فاقمها . . واضطرت

لأن تدفع ثمن لحظة الغرام المذهبي كما دفعت من قبل لحظة استعلاء حاكمها المتعجرف وكما دفعت بعد ذلك ثمن غرور ديكتاتورها المتهور... وكان ثمن هذه الحلقات المتوالية هو: الحرب العالمية الأولى، سقوط جمهورية فايمار، الحرب العالمية الثانية، فاقسى الثمن الذى تدفعه الشعوب والجمهير ثمننا لأخطاء قادتها وحكامها المسيطرين أو دعاتها المتعجلين وجزاء لطاعتها لهم.. «إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا».

* * *

وفي المسرحية السياسية «طبول فى الليل» قدم الكاتب المسرحى الألمانى «برتولد بريخت» الذى عاصر أحداث فايمار وشاهد ظهورها وسقوطها تصوراً يماثل تصورنا. وإن كان قد رجع عنه وكفر به فيما بعد. وقد كتب بريخت مسرحيته تلك عام ١٩٢٠ ومثلت عام ١٩٢٢ فى ميونيخ وكانت أسماً لشهرة بريخت الشاب ككاتب مسرحى وصور لنا فيها بريخت جندياً يدعى «كراجلر» ينخرط فى الحرب العالمية وتنقطع أخباره عن خطيبته آنا التى ترتبط بعلاقة جديدة مع صديق آخر يدعى بورك تتمخض عن جنين يدفع آنا لتسكون خطيبة بورك. ويتم الاتفاق والاحتفال بذلك فى مساء اليوم الذى يعود فيه كراجلر، فيشهد مراسم الاحتفال بالخطبة، ويصدمه ذلك صدمة عنيفة. فيخرج هائماً على وجه لينضم إلى الثوار فى ذلك الأسبوع الأحمر الذى شاهد قومه «سبرتاكوس». وبعد فترة تسأم آنا عشرة بورك وتأخذ فى البحث عن كراجلر حتى تهتدى إليه. وعندئذ يتغير موقف كراجلر تماماً، إذ يقطع علاقته بالنشاط الثورى قائلاً «الآن جاء دور السرير الناصع البياض» ويعيش مع آنا فى سلام حريصاً على حياته «البورجوازية» الرتيبة.

وبعد عشرين عاماً من إصدار بريخت لفنّة المسرحية، عندما أصبح

اشتراكيا مرموقاً تنسك لهذه الخاتمة واعتذر عنها بأنه لم يكن قد توصل إلى عمق وأهمية الثورة البلوريتاريه . ودعا القراء والمشاهدين لأن يجولوا عطفهم على كراجار إلى كراهية لتصرفه « الخسيس » ولكن الحقيقة تظل بعد هذا أن الانطباع الأول الذى دفع بريخت لتكليف المواقف والخاتمة ، كما جاءت فى « طبول فى الليل » هو الانطباع الطبيعى ، والسليم أيضاً . فلم يكن تصرف كراجار خسيساً كما أدعى بريخت عندما غلب على الفنان فيه الداعيه السياسى . ولولا غلبة التأثير السياسى عليه لرأى أن تصرف كراجار كان تصرفاً طبيعياً وسليماً لأن اتجاهه الأول إلى الثورة لم يكن عن ايمان منه بها ، وإنما جاء رد فعل لانصراف حبيبته عنه — أى أن الاتجاه الثورى لم يكن أصيلاً، وإنما كان بديلاً فعندما عاد الأصيل انتفى البديل . وقد قال الزمن نفسه قولته فإن بريخت نفسه فقد فى أيامه الأخيره حماسه للاشتراكية ، أو على الأقل بهتت هذه الحماسة ، وقد نجد فى هذا الكتاب إشارة إلى ذلك ...

* * *

وقد يضيق بعض القراء لأننا لم نلجأ إلى التبسيط المريح ، ولم نصدر حكماً بادانه باته أو بترئته تامة لكل الذين قدسهم جمهورية فايمار وأسهموا فى قيامها وسقوطها : الحزب الاشتراكى الديمقراطى . النقابات . النازى الخ . . . وربما كان الشيوعيون هم الاستثناء الوحيد ، ومع هذا فقد عرضنا الجوانب الانسانية والكريمه فى زعيمة الشيوعيين روزا لوكسمبرج . ولعل هؤلاء القراء كانوا يؤثرون أن تقدم لهم الصورة « بالأبيض والأسود » ولكن السياسة التى استهدف الكتاب تقديمها لا تصور بالأبيض والأسود . . . وإنما بالألوان ، التى يتكون معظمها من امتزاج الألوان الأصلية بعضها ببعض . إن السياسة فن كماهى علم والجانب الفنى فيها يجعل أى تقديم لها فى شكل رياضى حاد الزوايا ، محدد الأطراف ظلاً لها وتحيةً عليها . وقد حاولنا أن نقدم الصورة

كاملة بأعماقها وسطوحها . حسناتها وسوءاتها .. قوتها وضعفها ليكون الانطباع عنها شاملا وأميناً وعادلاً .

* * *

لكي يمكن التلخيص من مثل مازق فايمار ، الذي تتخبط فيه بعض مناطق الوطن العربي ، أو يتمدد مناطق أخرى كتبنا هذه الدراسة ، وقدمناها تحت شعار « تعلموا السياسة » لآيماننا بأن نقص التثقيف السياسي بعد من أكبر وجوه النقص والضعف التي تتعرض لها الشعوب . وفي نظرنا أن نكسه ١٩٦٧ المدوية لا تعود إلى أسباب عسكرية خارجية بقدر ما كانت نتيجة للجهالة السياسية التي أطبقت على المجتمع المصري قادة وجمهوراً . ولا ريب أن المجتمع المصري قد تعلم منها درساً قاسياً ودفع ثمناً فادحاً . ومع هذا فلا يزال ينقصنا تأصيل هذا الدرس وتعميقه بحيث نخرج منه بثقافة سياسية راسخة وورصينة . والواقع أن نكسه ١٩٦٧ كانت هي الدافع الأول للتفكير في إصدار هذه الدراسة . وكانت الصورة الأولى لها أن تصدر في كتاب واحد تحت عنوان « الالام ساعات محنتها » وأن يتضمن ثلاثة فصول عن فايمار ، وعن الاتحاد السوفيتي وعن تركيا غداة معاهدته سيفر ، ولكني ما أن بدأت الكتابة حتى استفاضت السطور ووجدت أن من الظلم للموضوع أن يصدر في كتاب واحد وأن الأفضل ان يصدر كل فصل في دراسة مستقلة تبرز جانباً معيناً من الجوانب المأساوية في تاريخ هذه الدول . وكانت الأولى هي فايمار والجانب المأساوي فيها هو « التخبط في تحديد المواقف » ونرجو إن شاء الله أن يصدر كتابا للاتحاد السوفيتي وتركيا .

وأنا أهدي هذه الدراسة إلى القيادات الشابة في التكتلات الجماهيرية .
فقد لست بنفسى جريرة الجهالة السياسية على كتلتين من أعظم تكتلات

المجتمع المصرى . فقد أراد الله أن أعاش معاشه وثيقه « الاخوان المسلمين »
فى عهدى الأول . وكانت وقتئذ أصدق الهيئات المصرية تمثيلاً للشعب .
ويوجه خاص قاعدته العريضة — الريفين . وكانت أكبر التكتلات الجماهيرية
المصرية واكثرها شجاعة وايماناً وأطهرها ذمه ويدا ، ورزقت قيادة نابغة ،
ولكن هذا كله لم يشفع لها تجاه ضحالة وغيها السياسى الذى جعلها تضيع
الفرص التى سنحت لها . والتى لو أحسنت انتهازها لأفادت المجتمع المصرى
والعربى ولوقته كثيراً من المزالق التى انزلق اليها ، ثم طويت هذه الصفحة
لأعاش عن كسب كتله جماهيرية أخرى هى الحركة العمالية التى لم يتوفر
لقياماتها ولا لجمهورها ثقافة ميسية فكانت النتيجة أن أصبحت لعبة
الحكام . . وأن جاءت فى ذيل الهيئات . ولم تستطع أن تخدم جمهورها
أو تخدم المجتمع المصرى . مع أنها هى الهيئة الوحيدة التى احتفظت بوجودها
من أيام ما قبل الثورة . . . وأنها هى التى تحرك عجلة المجتمع والإنتاج .
ولا تنقصها الجماهير . . أو الإمكانيات .

مع هذا ، ورغم أننا تقدم بحثنا تحت شعار « تعلموا السياسة » فنحن
لانساورنا أية أوهم عن أثر عاجل لهذا الكتاب . فقد خبرنا من الضعف
البشرى ، ومن فجور الأقوياء واستخذاء الضعفاء وغلبة السلبية والأمر
الواقع ما فيه الكفاية . . ونحن نعلم حق العلم أن هذه الكلمات التى نكتبها
فى وحدة ، ونطبعها على حسابنا الخاص قد تكون « صيحة فى واد » ولكن
هذا لن يمنع من أنها — كما ارتأى ذلك الكواكبى فى طبائع الاستبداد —

... إن ذهبت اليوم مع الريح

فقد تذهب خدأً بالآوتاد ...

وقبل هذا حدثنا القرآن عن الذين يعظون قوماً لله مهلكهم أو معدنهم

عذاباً شديداً . وأن هذا لم ينتهم « قالوا معذرة إلى ربكم ، ولعلمهم يتقون » وهو ما يعطينا درسا . ان على الداعية أن يقوم بدعوته وإن بداله أن الهلاك قد حُق على قومه . إن على الكاتب أن يكتب حتى لو لم يجد قارئين . وعلى الخطيب أن يخطب حتى وإن لم يجد مستمعين ، لأن هذا هو واجبه ، وأداؤه له يبرىء ساحته ، ولأن هذا الأداء لن يذهب هدراً كما يبدو ، إن الكلمة المكتوبة ستهدى إلى قارئها المفقود . والكلمة المنطوقة ستجذب سامعها الفائب . . فلا بأس . . حتى وإن لم يكن هناك أمل في حاضر مائل أو مستقبل وشيك . .

بهذه الروح نقدم « ظهور وسقوط جمهورية فايمار » .

يناير ١٩٧٧

جمال البنا

الباب الأول

ألمانيا حتى الحرب العالمية الأولى

الفصل الأول : التطور السياسى .

الفصل الثانى : الحركات التحررية والشعبية حتى ثورة ١٨٤٨ .

الفصل الثالث : تطور الحركة الاشتراكية الألمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر .

الفصل الرابع : صراع الأفسكار والوقائع « تطور الاشتراكية الألمانية من بداية القرن العشرين حتى الحرب العالمية الأولى .

الفصل الأول

التطور السياسي

في بعض الحالات يكون الموقع الجغرافي لدولة ما شئوما عليها ولعنه تلاحق حاضرها ومستقبلها وتفرض عليها أعباء إضافية تجاه الدفاع عن كيانها أو تحقيق وحدتها . الأمر الذي تنجو منه دولة أخرى بفضل بجزر أو نهر أو جبل أو حتى مجرى مائى ضيق كالمناش يفصل بينها وبين جيرانها الطامعين ويحقق لها الأمن والطمأنينة وتكوين وحدتها تكويننا ثابتا مستقراً .

وقد أراد الله لألمانيا أن تتوسط السهل الأوربي للمفتوح الذى كان لا بد أن تعبره موجات الهجرة من الشرق الآسيوى القاحل إلى السهل الأوربي الخصب ، وأن لا تحيط بها من الحدود الجغرافية للمنيعة ما يصددها . وأصبح على شعبها وأهلها أن يكونوا فى رباط دائم لرد الغزاة وأن يتعرضوا لكل ما تلحقه الحروب من دمار وخراب واضطراب .

ومنذ أقدم العصور ، وقد بدت جريرة الموقع الجغرافي على ألمانيا فكانت أرضها معبراً للهجرات ، وكانت الغنسية الكبرى للأمبراطورية الرومانية التى أزجت إليها الفياثق بعضها أثر بعض ، واصطلى الجرمان — الذين كانوا وقتئذ قبائل حرة ، محاربة ، تحيا حياة البداوة ، ولا تمتصم بالأسوار والجدران — بنار هذه الحرب . وأثبتوا أنهم أهل للرومان . . وهزمهم أكثر من مرة . . واستحقوا إعجابهم حيناً وتقمّتهم حيناً آخر . فقال قيصر عنهم فى رسالته عن حرب الغول « لقد قيل إن لديهم مائة « كاتون » يقدم كل كاتون ألف

محارب مسلح للحرب خارج حدودهم بينما يظل الآخرون تحت السلاح ويستغلون بالفلاحة ليتمكن إرسالهم في العام القادم إلى الميدان بينما يعود زملاؤهم وبهذه الطريقة لا تنقطع الحرب أو الفلاحة .

و ضرب سنيكا في رسالته عن الغضب المثل بسيطرة الغضب على الألمان واستطرد « من ذالديه روح حيوانية animal spirits أكثر من الجرمان . . من ذا يندفع بحماس إلى حملة أكثر منهم . . من ذا يجب السلاح الذي شبوا عليه وأصبح وحده محل عنايتهم دون أى شيء آخر . . من ذا أكثر تحملا لكل نوع من المشاق » وأوضح سنيكا أنه رغم هذه الصفات ، فإن سيطرة الغضب عليهم تفقدهم النصر .

و وصف تاسيتوس في قرابة عشرين صفحة مظاهرهم وعاداتهم « عيون زرقاء مفترسة ، شعور شقراء . . أجسام فتية عريضة ويحملون أسلحتهم دوما في الحرب والسلم وعندما لا يحاربون فإنهم يشتغلون بالصيد ويكفون العناية ببيوتهم وغدائهم إلى زوجاتهم . . وشغلهم الحقيقي هو القتال . . يقاتل الزعيم في سبيل النصر . . ويقاوم الأتباع في سبيل الزعيم . . ومن الصعب إقناعهم بحرث الأرض وبذر الحب وانتظار الحصاد بينما يستطيعون مباغته العدو ونهب ثرواته . . ويبدو لهم أن من الغباء أن يعيش الإنسان بمرق جيئه عندما يستطيع أن يعيش بحمد سيفه » .

وتحدث تاسيتوس عن صيحاتهم الحربية التي تصدع القلوب وكيف أنهم يدنون تروسهم من أفواههم ليكون صدى هذه الأصوات مدمراً .

وأجمع مؤرخو الرومان على أن الجرمان ليس لهم آلهة . كآلهة الشرق القديمة . فقد آمنوا بأرواح تسيطر على الطبيعة وتنمص الأنهار والبحار والنبات والعواصف ونسجوا من ذلك كله أساطير كانت نواة «الفولكلور» الجرمانى

الذى تغنى به - فيما بعد - الشعراء والكتاب وأقام عليه الموسيقيون والمسرحيون رواثهم .

ولم ينتصر التنظيم العسكري الرومانى على الشجاعة الألمانية إلا بعد كفاح مرير وعندئذ أصبحت ألمانيا ذخى الأبراطورية الثمن ومينها الذى يجدد شبابها ويحيى مواتها ويصلح ما أفسدته الشهوات ويزودها بالجيش الفنى والدماء الأبية وزهرة الحرس البريتورى وانتهى الأمر بأن أصبحت أولى بالأبراطورية من نفسها فورثت اسمها وحملت تقاليدها .

ومرت القرون . . .

وتصدعت الأبراطورية الرومانية . . . وقامت على أنقاضها مملكة الفرنجة بزعامة كلوفيس (سنة ٤٨١) . الأبراطور الأول الذى اهتنق المسيحية وأسس دولة الميرفنجيين - وبعد وفاته انقسمت دولته إلى ثلاثة أقسام هى امتراسيا فى الشرق ونويستريا فى الغرب وبورجنديا على جانبي نهر الرور . وفى سنة ٦٢٢ استطاع يبين الأول أن يوحد نويستريا واستراسيا وأن يورث هذه المملكة إلى ابنه يبين الثانى ثم إلى ابن هذا الأخير - شارل مارتل - وهو القائد الذى قدر له أن يجلب الحضارة العربية هن أوروبا عندما هزم عبد الرحمن العافى فى بواتيه - ولولا هذه المعركة الحاسمة لما كان لأوروبا حاجة الآن تقضى قرونها الوسطى فى ظلام .

وبوفاة يبين ابن شارل مارتل طويت دولة كلوفيس التى يطلق عليها دولة الفرنجة أو الميروفنجيين ، وبدأت دولة الكارولنجيين بداية باهرة على يد شارلمان الذى توجه البابا فى كنيسة القديس بطرس فى روما سنة ٨١٤ امبراطورا على الدولة الرومانية ، وحكم أوروبا - تقريبا - بمزيج من الحزم والعدل ، و إن لم يقدر لهذه الدولة البقاء طويلا إذ انتهت بوفاة كونراد الأول

سنة ٩١٩ لتبدأ أولى الدولات الألمانية الخالصة عندما انتخب بعض النبلاء الألمان هنرى دوق سكسونيا ملكا عليهم . وكان من أبرز شخصيات تلك الأسرة السكسونية (٩١٩ - ١٠٢٤) أوتو الأول الذى استطاع أن يقضى على مقاومة الهنغاريين والسلاف . ويموت هنرى الثانى انقضت الأسرة السكسونية وبدأت الأسرة الفرانكونية عندما انتخب النبلاء ورجال الدين كوزاد الثانى دوق فرانكونيا ملكا على ألمانيا سنة ١٢٠٤ وضمت هذه الأسرة هنرى الرابع الذى قاوم البابا جريجورى السابع حتى أعلن هذا حرمانه وأجبره على أن يستسلم وأن يقف على باب البابا فى كانوسا ثلاثة أيام قبل أن يأذن له بالدخول .

وأوهن هذا الصراع الأسرة الفرانكونية وتفككت بوفاة هنرى الخامس لتبدأ أسرة هوهنشتاوفن التى كان أشهر أفرادها فردريك الأول (بارباروسا) وهو فى رأى فلجنر مؤسس الريخ الأول ، ولا ريب أنه من أبرز الشخصيات المأساوية التى حفل بها التاريخ الألمانى ومثلت على مر العصور . وبنفس البطولة والإصرار ، ورغم الهزيمة الأخيرة تراجيديا «التحدى الألمانى» التى تجعل الحياة نوعا من البطولة التدريية والمأساوية رغم أنه لم يرزق النهاية المجيدة التى تليق بالفارس . . إذ غرق فى أحد أنهار آسيا الصغرى وهو يقود الحملة الصليبية الثالثة التى أراد بها استرجاع بيت المقدس من صلاح الدين .

وفردريك بارباروسا « واسم فردريك هو الاسم الأثير ، أو حتى المقرر ، لدى الأسرات الألمانية الحاكمة على اختلافها » هو جد فردريك الثانى الذى ترك ألمانيا وآثر عليها بالرمو وكان يمد نسيجا وحده بين ملوك الألمان لأنه كان يجيد اللغة العربية لإجادة تامة بالإضافة إلى اليونانية واللاتينية والعبرية ، وكان حاميا للفنون والآداب ولا سيما العربية وكاتباً ومؤلفاً .

وأنتهت دولة الهوهنشتاوفن في منتصف القرن الثالث عشر وتعرضت ألمانيا لفترة من التفكك هيمن فيها أسراء المدن والولايات وحددوا عدد من يحق لهم انتخاب الملك بسبعة أمراء : ثلاثة من أساقفة الكنيسة وأربعة من الأمراء وأطلق عليهم « الأمراء الناخبون » وفي عام ١٢٧٣ أُنْتُخِبَ هُوْلَاءِ رودلف هابسبورج ملكًا. وما أن مات حتى احكوا قبضتهم على ألمانيا وحلوا دون أن يخاف ملوك أقياء. وفي سنة ١٣٥٦ اجتمعوا « اسقف ماينز - اسقف زير - اسقف كولونيا - ملك بوهيميا - كونت الراين - دوق ساكسونيا - دوق براندبورج » وعقدوا ماسي بالاتفاق الذهبي وكان يوجب إنتخاب القيصر في فرانكفورت ، وتويجه في آخن (التي دفن فيها شارلمان) وحول هؤلاء الامراء السبعة وجد بضعة مئات من الكونتات والنبلاء الأقل شأنًا .

وكان لحركة الإصلاح الديني التي بدأها لوثر عندما تحدى سلطة البابا سنة ١٥١٧ - والتي تعد عادة نهاية للقرون الوسطى وبداية العصر الحديث - آثار بعيدة المدى فقد أدت إلى تعزيز سلطة الامراء واحتدام النزاع المذهبي ما بين البروتستانتين والكاثوليكين . وأدى هذا كله إلى حرب الثلاثين عامًا التي اندلعت شرارتها في بوهيميا سنة ١٦١٨ وظلت حتى سنة ١٦٤٨ عندما عقدت معاهدة وستفاليا .

وأنزلت هذه الحروب بألمانيا من الدمار والخراب ما هبط بسكانها إلى النصف . وما جعلها خلال الفترة التي اعقبت معاهدة وستفاليا حتى الثورة الفرنسية أكثر تفككا وضعفا مما كانت عليه قبلها .

وفي هذه الفترة من فترات الضعف والتفكك أخذ نجم بروسيا في الظهور وبدأت في القيام بدورها التاريخي لتوحيد ألمانيا وبلورة فلسفتها القومية .

وكانت بروسيا عام ١٦٤٠ عندما تولى حاكمها الأمير فردريك وليم - أول
٢ - أساسة التصبط

حكام الهوهنزولون — تضم امارة براندبرج في الوسط وبروسيا في الشرق وعدداً من الدوقيات الصغيرة على ضفاف الرين .

وكون فردريك جيشاً مدرباً قوياً وعمل على توحيد بروسيا بحيث استطاع أبنته فردريك الثالث أن يجهل منها مملكة وأن يلي عرشها باسم فردريك الأول . ومع هذا فإن أبنته فردريك وليم الذي اعتلى العرش سنة ١٧١٣ هو الذي يعد المؤسس الحقيقي لبروسيا ، فقد صعد بالجيش من ثلاثين ألف أو أقل إلى ثمانين ألفاً — أو أكثر — وخصص له ثلثي موارد مملكته — ووضع نظم الخدمة المدنية على أسس عسكرية صارمة تقوم على الطاعة والنظام والعمل والدأب وتقديس الواجب وأن خدمة الدولة هي الرسالة العظمى للفرد في الحياة .

وواصل أبنته فردريك (الكبير) سياسة والده في تعزيز الجيش وقاده في سلسلة من المعارك الظافره حصل بها على سيليزيا وبروسيا الغربية التي كانت جزءاً من بولندا .

على أنه من الخطأ أن يظن أن الذين كونوا بروسيا، وأرسوا أسس نظمها ومجتمعها كانوا من الملوك أو القواد، فلو حدث ذلك لما رزقت تلك الصلاية التي اتسمت بها والتي مكنتها من مقارعة الخطوب . لقد أسهم في تكوين بروسيا، وربما بنسبة أكبر مما أسهم به الملوك والقواد ، مجموعة كبيرة من المفكرين والفلاسفة والفنانين آمنوا برسالة بروسيا وسكبوا روحهم وعبقريتهم في هذا السبيل ووضعوا الأساس الفكري والتنظير الفلسفي للنظم العملية التي أرساها الملوك والقواد . ولعل أبرز هؤلاء هو الفيلسوف العظيم ايما نويل كانت (١٧٢٤ — ١٨٠٤) الذي استطاع بموهبة فذة أن يبأور أفكاره عن المثالية والواجب والقانون في اطار محكم جذاب . وقد استغللت هذه الأفكار — التي كانت تتلاقى مع بعض القيم التي قامت عليها النظم البروسية لتعزيز مكانة

وسلطة الدولة حتى وإن لم يكن « كانت » نفسه في حديثه المجرد والموضوعي يرمى إلى تدعيم الدولة البروسية بالذات . ويجب أن يذكر أيضاً فيشته الذي بدأ حياته ليبراليا وتأثر حيناً بكتاب كانت عن « السلام الدائم » بحيث كان من الممكن أن يكون أحد أنصار التعاون الدولي ولكن الفترة الحاسمة التي عاش فيها والتي جرعت بروسيا كأس المهانة وأذاقتها عار الهزيمة جعلته في النهاية وطنياً متمصباً ، وبينما كانت سنابك فرمان نابليون تطأ التراب الألماني اثر هزيمة جينا المدوية ، كان فيشته يوجه خطاباته الملتهبة إلى الأمة الألمانية التي استهنض فيها العزائم وأحيا الهمم واستطاع بوهبته الفلسفية أن يقيم بناءاً فلسفياً وطنياً يدور حول روح الشعب وثقافته التي تحملها اللغة والآداب ، ويفسر تاريخ البشرية تفسيراً يجعل للشعب الجرمانى القدر المعلى في إظهار الحضارة الأوربية ، ويطوع الاقتصاد لخدمة الدولة . وبعد موت فيشته بأربع سنوات شغل كرسيه في جامعة برلين جورج فردريك هييجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) الذي جمع ما بين الموهبة التجريدية والتنظيرية التي كانت لكانت ، وما بين الاتجاه الوطنى والجرمانى الذى كان لفشته . وبهذا أوجد لنا أ كمل صورة فلسفية للدولة المقدمة التي تجسم الارادة الالهية والمثل الأعلى وروح الشعب ومن ثم يكون التفانى فيها نوعاً من العبادة وتحقيق الفرد لذاته وادائه لواجبه .

ولا يشق على الباحث أن يلمحظ أن فلسفة هؤلاء جميعاً جعلت التاريخ والمثل والواجب والدين والاقتصاد تدور حول الدولة ، وتتبلور في الدولة وأنهم جميعاً كانوا يرون أن الحضارة الإنسانية بدأت مع اليونان وانتقلت إلى الرومان ثم إلى الجرمان وأن ألمانيا أكثر من أى دولة أخرى مؤهلة لحل لواء الحضارة الأوربية وأن هذه الفلسفات — من كانت إلى هييجل — كانت تسيير خدمة خطوة من التعميم إلى التخصيص .

وصاحب هؤلاء الفلاسفة الذين تفقوا العقل الألماني ومرنوه مجموعة أخرى من الكتاب والمؤرخين والفنانين والادباء الهبوا حماسه مثل جو تفريد هردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣) الذي تغنى بألمانيا : غاباتها وسماواتها وأساطيرها الرومانكية القديمة ومثل فاجنر الذي بعث الأبطال الامطوريين في مسرحياته والحانه واحيا « سي جفريد » ومثله حيا في بارباروسا . . وتنبا بأنه سيبعث مرة أخرى ليعيد تكوين « الريخ » ومثل فردريك لودفيج جان الذي أثار شباب ألمانيا وأدخل الروح العسكرية الجامعات الألمانية بحيث أشبهت الشكنات ، وأصبحت المبارزات هي الرياضة ، والجروح والندوب هي الأوسمة ومثل المؤرخ هنريش فون تريتشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) الذي أكد أن الشعب الألماني يتميز بسمق الفكر والاحساس بالولاء والاخلاص والدقة في العمل . ومجد الحرب باعتبارها « العلاج الوحيد لكل شعب مريض » وأنها أكبر مناسبة يتجلى فيها الولاء وتفانى الفرد في الجماعة . ومثل نيتشه الذي شن غارة شعواء على الأخلاق والمعونات المسيحية ومجد القسوة ورأى النبيل في أن يكون الإنسان وحشا آربا مفترسا وأن الأهداف المقدسة ليست هي التي تبرر الحرب ولكنها الحرب التي تضيف القداسة على الأهداف .

وكان هؤلاء الفلاسفة والكتاب أثر عميق في تكوين المجتمع البروسي وبلورة نظرية الدولة وإقامتها على أسس فلسفية ونظرية . وقد ظهر بجانبهم عدد آخر من عباقرة الفكر الألماني اتسموا بطابع إنساني مثل جوته وهينه ولكن التيار الجارف أعلى صوت الأولين وأعطاهم الغلبة وجعلتهم يمثلون فلسفة الدولة والسياسة ، بينما لا يمثل جون وهينه سوى الجانب الرومانتيكي .

وعندما ظهر نابليون وأوقع هزيمة جينا المنسكرة بالجيش البروسي تراجعتم بروسيا تحتم وطأة الهزيمة . . واضطرت الملكة «لويزا» التي تمثلت : بالأكثر مما تمثلت في زوجها الهزيمة على المتناومة أن تنحني أمام الطاغية . ولكن في

الوقت الذي كانت الجنود الفرنسية تطأ بأحذيتها الثقيله طرقات برلين . وكان نابليون يقف أمام قبر « فردريك الكبير » ويمسك سيفه كان فيشته بوجه خطاباته الملتهبة وكان شيلبي يرمز للمقاومة ويتنبأ بالأنتصار في روايته « وليم تل » وتكونت هنا وهناك جمعيات سرية وهيئات تنفخ روح الوطنية في الشعب وتضم الجنود وطلبة الجامعة وغيرهم بينما ظهر لفييف من رجال الإدارة عملوا لاستنقاذ بروسيا من وهدة المهانة والتأخر ونجحوا في ذلك بفضل إيمانهم وواهبهم .

وكان أبرز هؤلاء الرجال المصالح والإداري القدير البارون فوق شتين (١٧٥٧ — ١٨٣١) الذي عهد إليه الملك فردريك وليم بإدارة شئون البلاد في أعقاب معاهدة تلسيت ولم يبق شتين في منصبه سوى قرابة عام واضطر مولاه إلى نفيه خضوعاً لارادة نابليون ولكنه خلال المدة الوجيزة حقق من الاصلاحات ما وضع أساس نهضة بروسيا الإدارية وجعلها تتحرر شيئاً ما من روح القرون الوسطى التي كانت تقيد جهازها الحكومي فأصدر في سنة ١٨٠٧ مرسوم التحرير الذي حرم أمواً صور الاستعباد والقنانة والنظام الطبقي وحرر المدن من التبعية للوردات وأوكل إدارتها إلى مجالس منتخبة وأصل الإدارة الحكومية وأدخل نظام الوزارة المسئولة ولو لم يبعدهن منصبه بهذه السرعة لكان هذا كله بوضع دستور برلماني .

وادخرت مهمة احياء الدفاع القومي وتعزيز الجيش لشارنهورست وزميله جنسنو وكان يجب طبقاً لمعاهدة ايرفورت التي املاها نابليون أن يقتصر الجيش البروسي على ٤٢ ألفاً ففتح هذا التقييد لشارنهورست وسيلة للتعظيم لا الزيادة فحسب فجعل مدة الخدمة العسكرية قصيرة وأصبح على كل بروسى أن يمضيها ويعد جندياً في الجيش الاحتياطي وبهذه الطريقة أصبح معظم البروسيين جنوداً بينما يكون الأربعون ألفاً في حكم الضباط .

بفضل هؤلاء الرجال وغيرهم من الاداريين الذين توفرت لهم القدرة والكفاية والايان امتعادت بروسيا ثقتها في نفسها واستطاعت أن تحارب نابليون مرة أخرى وأن تحرر أرضها من إسطار التبعية المذلة وإن لم يستطع مندوبها: في مؤتمر فيينا (١٨١٤) هاردنبرج أن يستعيد الألتزاس من فرنسا المهزومة .

وبرزت قضية الوحدة الألمانية مع الألتصار على نابليون ولكن كان هناك اختلاف جسيم في وزن هذه القضية ، كما كان هناك مصالح مكتسبة عميقة الجذور تعارض الوحدة .

كان هناك من يريدون الوحدة العظمى أى ألمانيا التي تضم كل الذين يتحدثون الألمانية بما في ذلك بروسيا والنمسا ، وكان هناك من يرى إقامة دولتين ألمانيتين بزعامة بروسيا والنمسا على التعاقب ، تستقطب كل واحدة أقرب الولايات إليها (وقد كان شتين من هذا الرأي) وكان هناك من يريد وحدة محدودة تقوم على بروسيا وولاياتها ، وكان بعض هؤلاء يريدون الوحدة الكبرى ولكنهم لا يريدونها بحيث تذوب بروسيا في ألمانيا ، ولكن أن تستقطب بروسيا ألمانيا ، لأن بروسيا في نظر هؤلاء هي روح ألمانيا وملاذها، ومثلة قيمها . ويجب دائماً الحفاظ على هذه الطبيعة فيها . وكان هذا هو رأى بدمارك وبمقتضاه رسم خطة لتكوين إمبراطورية ألمانيا مع الاحتفاظ بالطابع البروسي . أو بمد « برؤسه ألمانيا » كما يقومون Prusianisation of Germany .

وتجاه هؤلاء الذين كانوا يريدون الوحدة ويجهدون لها . . كانت المصالح المكتسبة تعمل لتعويق الوحدة . كان الدوقات والأرءاء والنبلء والكونتات يريدون إعادة الساعة إلى ما كانت عليه قبل الثورة الفرنسية . كان كل واحد منهم لا يعنيه إلا علمه وقصره ودرعه وحرسه . وياوره وشاعره . وأرضه التي يكسح له فيها فلاحون تتحكم فيهم تفاليد الخضوع والتبعية للسيد الأعلى . .

وكان كل واحد منهم يريد علما يكون هو محوره حتى وإن لم يكن إلا ولاية صغيرة . وكان هناك النمسا التي كان وزيرها « مترنيخ » هو يمثل سياسة الحفاظ وحامي حماها في أوروبا بأسرها . وعندما حدثت بعض القلاقل سنة ١٨١٩ أمر مترنيخ مندوبي الولايات الألمانية بالاجتماع في كارلسباد حيث أعلن « أنني لأمل بمعونة الله أن أوفق في قمع الثورة الألمانية . كما وفقت في هزيمة فاتح العالم » .

ومن حسن حظ الوحدة الألمانية أن هؤلاء جميعاً كانوا في واد . . . والتطور في واد آخر . ففي الوقت الذي لم يعن فيه النبلاء والأمراء إلا بأوضاعهم الخاصة كانت الصناعة والتجارة تشق طريقها وتفرض نوعاً من الوحدة الاقتصادية وتمطم الحواجز والجمارك التي أقامها النبلاء . وبهذه الطريقة حققت حركة الزولفرين نوعاً من الوحدة الاقتصادية ومهدت للوحدة السياسية ولم يكن صوت الصناعة والتجارة بأقل من صوت الأحرار والكتاب . . .

ثم جاءت ثورة ١٨٤٨ فكانت كما صفة - وإن لم تكن أحصارا - هزت عميقاً كل الأوضاع السياسية . وقد بدأت الثورة في فرنسا ولكنها انتقلت بسرعة إلى ألمانيا التي كانت في حالة استهداف ، فأودت بمترنيخ العتيد فكما أزاحت بذلك رمز عهد بأسره ، وفر امبراطور النمسا ، وفي كل المدن الألمانية هبت الجماهير وسلحت نفسها وإقامت المتاريس واصطدمت مع الجنود ونجحت في بعض الحالات إلى درجة إعلان الجمهورية وأعلن الملوك والأمراء الحريات في بلادهم ، واحتلت الجماهير في برلين القصر الملكي ، وفر ولي العهد ناجياً بجلده ووضعت الجماهير يدها على قصره ، واضطر الملك ثلاث مرات لأن يخضع لارادة الجماهير ، وأن يسير مع وزرائه في جناز تشييع ضحايا الصدام هاري الرأس ، وأن يحمل شارة الثائرين ذات الألوان الحمراء والسوداء والذهبية وأن يعد الجماهير بأن يضع نفسه على رأس امبراطورية ألمانية تندمج فيها بروسيا .

وبدأ كما لو أن « ثورة مارس » كما اطلق عليها قد حققت هدفها .

ولكن الحقيقة لم تكن كذلك . . .

فمع أن ممثلي الولايات الألمانية اجتمعوا في فرانكفورت في صيف ١٨٤٨ بفكرة وضع دستور لألمانيا الموحدة ، إلا أن سير الأحداث والانحسار الذي اعتقب المد الثورى والفتور الذى تملك الجماهير بمجرد اعلان عقد جمعية فرانكفورت وعدم وجود قيادة سياسية شعبية موحدة قادرة على فرض ارادتها . هنا كما أفسح للجمعية سبيل التراجع بحيث كانت نمرة الاجتماع الذى امتنع لقرابة عام دستور مهمل ، تسكونت بمقتضاه دلة اتحادية تحت الراسة الوراثية لامبراطو هو ملك بروسيا ، وأن يكون هناك مجلسان نيا بيان يكونان البرلمان أحدهما يمثل الولايات والثانى يمثل الشعوب . ويكون الوزراء مسئولين أمامه ، وفى ٢٨ مارس سنة ١٨٤٩ قلم التاج الامبراطورى إلى الملك فردريك وليم الرابع — ولكن هذا وقد سنحت له الفرصة لينتقم من المهانة التى أوقمها به الثائرون فى العام الماضى رفضه باباء وشم قائلاً « إن هذا الشئ لا يحمل سمة الصليب المقدس ، إنه ليس تاجاً وإنما هو قلاده استعباد يصبح بها سليل أكثر من أربعة وعشرين أميراً وملكا قن الثورة وعبدها » وتحدث أحد ثناته عن التاج الامبراطورى بأعتباره « قبعة أحق ، قدره حمراء الاطار ، يقدمها ثوريون » وهكذا هزم رفض مارس ١٨٤٩ ثورة مارس ١٨٤٨ واستعادت القوى الرجعية سلطانها وانصرفت بروسيا لتعزىز قواتها العسكرية وتدعيم سلطانها وتحقيق الوحدة بطريفة تخضاف كل الاختلاف عما تصوره مؤتمر فرانكفورت . وكانت هذه هى المهمة المدخرة لبسمارك والتى أدبت خلال العقد الخامس من سنة ١٨٦٩ حتى ١٨٧٩

فى سنة ١٨٦٩ توفى الملك فردريك وليم الرابع وخلفه أخوه الذى ولى

العرش بأسم وليم الأول . وفي السنة التالية دعا الكونت أوتوفون بسمارك ووكيل إليه إدارة شئون البلاد . . .

وكان بسمارك رجل دولة من الطراز الأول . كشف عن فكره في جملة جاءت عرضاً في حديث له « إن القضايا العظيمة الراهنة لا يمكن أن تحل بالخطابات والأصوات البرلمانية ولكن بالدم والحديد » وأخذت عليه الكلمة وحاول هو تأويلها . ولكن الحقيقة أنها كانت سقطة لسان فرويدية الدلالة . ولم يكن له بعد أن يندم عليها . فقد جمع القرآن الكريم في آية واحدة ما بين الحديد والأنبياء . وكان دم الشهداء أنبل ما يمكن أن يطرز به لواء أو تسكل به دعوة ، ولكن ما يمكن أن يؤخذ على بسمارك أنه لم يقيم « الدم والحديد » على جماهير . . . أو نظرية . كما هو الحال في الإسلام . أو الاشتراكية (فلانكران في أن لينين كان رجل دم وحديد أكثر من بسمارك) كانت الجماهير في حالة بسمارك هي الجيش . . . وكانت النظرية هي شخص بسمارك وما يراه ، وهذا هو الخطأ في أسلوب بسمارك .

ووجد بسمارك في فون رون وزير الحربية وفون مولتكه رئيس الأركان مساعدين قديرين ومع أنه لم يجد دائماً من يفهمه أو يساعده . وأنه تعرض لمكائد عديدة من البلاط والأمراء فإنه شق طريقه . ومهد له بسلسلة من المناورات السياسية الذكية التي فرق بها اعداءه ، وحقق هدفه مع كل واحد منهم على حدة ، وفي وقته . وبفضل إصراره وإرادته وتصميمه أستطاع أن ينتصر أخيراً . ففي حرب الأسابيع السبعة (١٨٦١) هزم النمسا في سادوا وضم عدداً كبيراً من الولايات إلى بروسيا وضمن ولاء ومحالفة الباقي بحيث امتدت بروسيا من الرين إلى البلطيق ثم أحكم خططه بحيث تعلن فرنسا بنفسها عليه الحرب التي يريدتها ، وقد حدث ذلك وخلال ثلاثة أسابيع من إعلان فرنسا

الحرب في ١٩ يوليو سنة ١٨٧٠ دفع فون رون بخمسمائة ألف جندي إلى فرنسا فتوالى هزائمها حتى وقعت كارثة سيدان (١ سبتمبر ١٨٧٠) التي اضطر فيها الإمبراطور نابليون الثالث إلى التسليم وتهاوت الإمبراطورية الثانية وبدأت الجمهورية الثالثة ورأسها حكومة للدفاع القومي ضمت الجنرال ترشو حاكم باريس وجول فيفر وغامبتا . وفرض الألمان الحصار على باريس وانتقلت الحكومة إلى تور ، ولكن تسليم بازان لقلعة ميتر في ٢٨ أكتوبر كان ضربة لم يثبت لها سوى غامبتا الذي حاول بجهود مستيثة انقاذ الموقف ، ولكنه بعد نجاح جزئي فشل واضطرت باريس إلى التسليم في ٢٨ يناير ٧١ وأعلنت هدنة ليتمكن انتخاب جمعية عمومية وانعقدت هذه في بوردو وانتخب تير رئيسا للدولة . وفي ١٠ مايو وقعت معاهدة الصلح التي كانت تقضى على فرنسا بتسليم الأجزاء كاملة (باستثناء بلفورت) والمنطقة الشرقية للورين وقلعتي Metz وستراسبورج . وأن تدفع غرامة باهظة وأن تظل الجيوش الألمانية مرابطة حين اتمام الدفع .

وكما هو معروف فإن هذه الحرب هي التي أدت إلى تفجر ثورة الكوميون المشهورة . فقد ثار الباريسيون واستولوا على معظم نواحي العاصمة . وهربت الحكومة إلى فرساي . وبينما كان علم الجيش الألماني يخفق فوق ضاحية « سان دنيس » كان العلم المثلث يرتفع فوق ضاحية فرساي بينما يرتفع علم الثوار الأحمر فوق باريس نفسها . وفرضت قوات الحكومة على باريس حصارا كان أشد من حصار الألمان لها . وارتكبت فظائع من الجانبين . وبعد ستة أسابيع اقتحمت قوات الحكومة طريقها نحو المدينة التي أصبحت أطلالا . وأعدم عشرات الألوف بلا رحمة بينما سجن أوفى أخرى . وطويت صفحة هذه التجربة الأولى لحكومة شيوعية .

وعلى أطلال الكوميون ، وعلى أطلال الامبراطورية الفرنسية الثانية قامت الامبراطورية الألمانية ، وفي قاعة المرايا بقصر فرساي اجتمع نبلاء وأمراء المقاطعات الألمانية ليقدموا التاج الامبراطوري إلى ملك بروسيا الذي تقبله منهم ، بعد أن رفضه سلفه من ممثلى شعوب هذه الولايات . وكان بسمارك قد أجرى ترتيبات الوحدة من قبل وتغلب على كل الصعوبات التي قامت في وجهه ، وأدجت كل الولايات في إمبراطورية فدرالية يرأسها امبراطور ورأى هو ملك بروسيا . ويدير الامبراطور بمساعدة المستشار السلطة التنفيذية بينما وكلت السلطة التشريعية إلى مجلسين هما البند سترات الذي يمثل النبلاء والريستاج الذي يمثل الجماهير وينتخب مرة كل خمس سنوات .

وهكذا تحقق حلم الوحدة الألمانية وقامت الامبراطورية الألمانية .

ولكن . .

هل كان المستشار المديدى يعرف أنه وهو ينسج المؤامرات ويزجى الجيوش ويحقق الانتصارات ويستولى على الأزرار والورين ويفرض جزية ثقيلة على فرنسا أنه إنما كان يقدم سابقة ستمهجها فرنسا . . وتطبقها على ألمانيا نفسها . وأنه إنما كان يعطى الحجة لفرنسا لاملأ معاهدة فرساي بعد ذلك بخمسين عاما .

بالطبع لا . .

إن وهج المعركة . وبريق الانتصار والتركيز التام في تحقيق الغاية دون نظر إلى عواقبها البعيدة كان يعمى عينه . كان الواقعي هنا هو واقعي الحاضر وليس المستقبل في حين أن حساسية الفنان واستشفافه لأبعاد المستقبل جعلت جورج صاند تتنبأ في أشد ساعات فرنسا ظلمة وحلمكة بكل ما سيحدث . .

« ألمانيا المسكينة . . إن قدح النعمة الأزلية قد قُتق عليك كما قُتق علينا

لقد أتملك الانتصار ، ولكن روح الحكمة تبكيك وتعد مرثاتك . إن الشيء المهلهل الذى يسمى فرنسا لا يزال يمسك فى يديه بقطعة من ثوب المستقبل المرصع بينما تلفين نفسك فى علم ملطخ سيصبح كفضك^(١) .

وكانت سياسة بسمارك التى تلت الانتصار تستهدف تأيين هذا الانتصار وحياطته بسلسلة من المعاهدات الدولية أمن بها جانب روسيا والنمسا واسترضى فرنسا وحاول أن ينسبها خسارة الازناس واللورين بتوسيع مستعمراتها وأوضح لها أهمية تونس . والتقطت فرنسا الطعم واستولت على تونس سنة ١٨٨١ ولكن هذا جعلها تدخل فى صراع مع إيطاليا التى كانت تمنى نفسها باحتلال تونس وانتهز بسمارك الفرصة فعمد تفاقية مع إيطاليا .

وفى الوقت نفسه فقد استطاع بسمارك بسلسلة من المناورات وادعاءات حماية التجار والمستكشفين الألمان أن يفرض الحماية على إقليم جنوب غرب إفريقيا وتوجو والكاميرون وغنيا الجديدة وجزائر السلومون وجزائر مارشال . وتصور فى وقت ما إمكان جعل ألمانيا قادرة على الاكتفاء الذاتى الاقتصادى بفضل مواردها وموارد مستعمراتها .

وكانت الرأسمالية الألمانية تسير بخطاسريمة وتضع الأمس للتوسع الكبير الذى سيؤدى ثماره فى الفترة ما بين الحرب السبعينية والحرب العالمية الأولى ، وكان أبرز مميزاتة الجمع ما بين البحث العلمى والتطبيق العملى والاتجاه نحو التكتل والتركيز . وحاول بسمارك أن يكسب ولاء الطبقة العاملة التى كانت قد أهملت حتى سنة ١٨٨٠ خاصة وأنه كان يضيق بالحزب الاشتراكى الديمقراطى ضيقا شديدا . ودخل فى صراع مرير معه وتصور أنه يستطيع بذلك أن يحول العمال عن الحزب إن لم يكسب ولاءهم فأصدر عام ١٨٨٣ قانون التأمين الصحى وكان

(1) George Sand and Gustave Flaubert Letters p. 200.

يحمل العمال ثلث تكاليف العلاج ويحمل أصحاب الأعمال بالثلثين الباقين ، وأعقبه بقانون التأمين من الحوادث وعند الشيخوخة اللذين يجهلان للعمال الحق في معاش ثابت عند إصابتهم أثناء العمل بإصابات تعجزهم عن العمل أو عند الشيخوخة وكانت هذه القوانين تعد الأولى من نوعها في العالم .

وكانت سنة ١٨٧١ هي القمة التي انتهى إليها القرن التاسع عشر ورسمت خريطة أوروبا ولم يحدث بعدها حتى نهاية القرن أو حتى قيام الحرب العالمية الأولى تغيرات أو تطورات حاسمة .

وكانت هي أيضا قمة المسيرة الألمانية نحو الوحدة حتى وإن لم تحقق ضم النساء . . .

ولكنها ككل قمة وبصفة خاصة لما شابها بالذات من ملاسات التقطت بسرعة داء القمم .

فقد اعتقد بسمارك أنه بعد أن حقق الإمبراطورية لن يقهر ، وأنه سيظل أبداً ربان الدولة وقبطانها الحكيم وأنه مهما وقع من شكاس بينه وبين الإمبراطور المسن أو غيره من الامراء . . فإنه في النهاية المنتصر . .

ولكن نهايته جاءت على يد شاب مغرور متهور فقد مات ولهم الأول في ٩ مارس سنة ١٨٨٨ وولى الحكم بعده ابنه فرديك لمدة ٩٩ يوماً توفي بعدها ليحكم ابنه ولهم الثاني « فليوم » الثاني ، كما أطلقت عليه بعض الكتابات العربية .

كان ويلهم الثاني حاكماً مطلقاً كبسمارك ، ولكن لم يكن لديه شجاعة الحسم ، ولكن ضعف المناورة ، فكان يحاول أن يندرك الثورة وأن يستل المقاومة من الجماهير ، لا بخطط أو اصلاحات أو على أساس أفكار ، ولكن بالادعاءات أو التقريب الشخصي . وقد كان بسمارك في أيامه الأولى قد حاول

أن يدراً ثورة الجماهير بادخال عدد من الاصلاحات كنظم التأمين التي
أشرنا إليها ، ورضخ لمنح الشعب حق التصويت في مستهل حكمه ، ولكنه
في سنواته الأخيرة أصبح يميل لاستخدام القمع والسكبت وكان في هذا ،
وفي غيره يختلف عن الإمبراطور . فقام خلاف بينه وبين الإمبراطور حول
ما يتبع نحو الاشتراكية الصاعدة فبسمارك يريد الضرب بقوة ويقترح حل
الرشستاج والإمبراطور يؤثر المصانعة والتخدير ، كما كان بسمارك يريد تجديد
الاتفاقية المعقودة مع روسيا والقيصر يتردد ويحتدم النزاع . ويعمل القيصر
وراء ظهر بسمارك وإثر مقابلة عاصفة أثار فيها بسمارك أحاسيس القيصر
وأشعره الأهانه . . لم يعد هناك وفاق . وكان على بسمارك أن ينسحب .

وفي عزلته الخلوية وأيامه الأخيرة رأى بسمارك ما كان وهج السلطة يخفيه
عنه وتبين الأعماق التي كان العمل اليومي يحول دون أن يراها فتنبأ بالحرب
القادمة وتنبأ بالجمهورية في روسيا ، وبانتصار العمال حيث يحتدم نزاع بين
العمال وأصحاب الأعمال .

« . . . إذا أحسنت سياسة البلاد أمكن الحكومة اجتتاب الحرب القادمة .
وإذا ما أسئنت سياستها دامت تلك الحرب سبع سنين على ما يحتمل . والمدفعية
هي التي تقرر مصير الحرب القادمة وقد تعلمن روسيا النظام الجمهورى في وقت
أقرب مما يظن . والعمل أكثر نيلا للانتصارات في الكفاح بينه وبين رأس
المال . ولا يلبث أن يحدث هذا في كل مكان يكون للعمال فيه حق التصويت .
وسيكون النصر النهائى الحاسم للعمال^(١) . »

* * *

وفي السنوات التي أعقبت تخلى بسمارك انتهجت ألمانيا سياسة التوسع

(١) بسمارك لاميل لود فيج ص ٢٧٧ للترجمة العربية عادل زعيتر وص ٦٨٢

من الترجمة الانجليزية ترجمة Eden and Cedar Paul

التجارى والامتعمارى وكان هناك فرق بين توسعه، وتوسع الذين خلفوه . فقد توسع بسمارك إلى الدرجة التى أحس فيها بحماسته الذكية أن عليه أن يقف عندها . فوقف . وكان كل همه أن يعزز الوضع الذى انتهى إليه وأن يصونه ويحافظ عليه بسلسلة من المعاهدات والسياسات اللبقة التى تعزز موقف ألمانيا وتعزل أعداءها . ولم يكن بسمارك ليستسلم للسعار الرأسمالى والفهم التجارى الذى لا يشبع لأن جنوده كانت جنود النبيل الأقطاعى . ولم يكن لدى خلفاء بسمارك الشخصية القوية والبصيرة النافذة التى كانت له فانساقوا وراء أطماع الرأسمالية الصاعدة والقيصر المغرور ، وليس أدل على هذا من أنهم عنوا — أول ما عنوا — بتقوية الأسطول الحربى والتجارى فأثاروا مخاوف بريطانيا، وأعتقدوا أنهم وصلوا من القوة درجة لم يحتاجو معها إلى السور السياسى الذى أقامه بسمارك بحكمته ليحمى ألمانيا ، فلم يجددوا الاتفاق مع روسيا فنارت مخاوفها وأخذت تتقرب من فرنسا، ورحبت فرنسا بهذا التقرب الذى يكشف ظهر عدوتها الصاعدة ويخرجها من عزلتها التى فرضها عليها بسمارك ، كما حدث تقارب آخر بين فرنسا وإنجلترا نتيجة لاستيحاء هذه من السياسة البحرية لألمانيا . . كل هذا والقيصر سادر فى غيه يستعرض عضلاته ويوقف الدبلوماسية الأوربية على شفاهاوية .

وفى يوليو سنة ١٩١٤ وقعت حادثه لا قيمة لها فى حد ذاتها وكان يمكن تفادى عواقبها فى الظروف والملابسات العادية . ولكنها فى الجو المتوتر والتحيز والطمع والعداوة وتجاه سلسلة المعاهدات التى كانت تربط الدول بعضها ببعض .. كانت كافية لأن تلقى بالعالم فى أتون الحرب العالمية الأولى.

الفصل الثاني

الحركات التحررية والشعبية

حتى ثورة ١٨٤٨

كان يسير بجانب التيار الوطني العسكري الذي حقق الوحدة الألمانية وجعل من ألمانيا دولة عظمى والذي بدأه فردريك وليم سنة ١٧١٣ وتكامل بالنجاح على يدي بسمارك سنة ١٨٧٠ نيار آخر اجتماعي واقتصادي حملت لواءه الائتلاجنسيا البورجوازية والطبقة العاملة التي كانت تكبر وتنضخم مع دخول الصناعة الحديثة وازدهار التجارة .

وكان التياران يتلاقيان في بعض الحالات ويتعارضان في حالات أخرى . فالائتاجنسيا والطبقة العاملة أرادا كالعسكريين والوطنين الوحدة القومية . وكان العامل الاقتصادي بالذات فعالا في تحقيق هذه الوحدة على ما أشرنا ، ولكن تأخر الوحدة القومية ، وتخلف ألمانيا عن السباق الاستعماري الذي برزت فيه الدول الأوروبية حتى الصغيرة منها كهولندا وباجيكا ، دع عنك بطلا السباق إنجلترا وفرنسا ، جعل المثل الأعلى الوطني والعسكري يواصل السير ولا يقف عند تكوين الوحدة وأبعده عن أن يتأثر بالمثل الاشتراكية والشعبية . على تقيض ما حدث في دولة أخرى كروسيا مثلا . التي تحق لها الاستقلال والوحدة واستعمرت جيرانها الآسيويين ، فلم تكن المشكلة فيها استبدال الدول الأخرى بها ولكن استبدال الارستقراطية بالجمهير . ومن هنا أخذت المثل العليا فيها الطابع الجماهيري والشعبي واقتربت من الاشتراكية قدر ما أغتربت عن الوطنية ولم ينظم طلبة الجامعات الروسية أنفسهم في جمعيات

وطنية لمل السيف والمبارزة — كما فعل طلبة الجامعات الألمانية — ولكن في جمعيات سرية للدعاية وإثارة الشعب وانصافه .

ولكن ليس معنى هذا أن التيار الاشتراكي — الشعبي لم يوجد ، لقد كان لا بد أن يوجد بوجود إنتاجنسيا شعبية وطبقة عاملة وكصدى للدعوات الاشتراكية إلى كانت تضطرم في جارة ألمانيا اللصيقة — فرنسا — كما أن عددا كبيرا من المفكرين الذين كانوا يطالبون بالوحدة كانوا يطالبون بالحرية الفكرية والسياسية كوسيلة لتحقيق الوحدة ، وعندما تحققت الوحدة فكشمة لها . . .

ومن هنا فمع أن المثل الأعلى الوطني — العسكري ظل دائما بارزا وسموعا ، وله الغلبة ، إلا أنه وجد بجانبه دعوات شعبية ديمقراطية تتعالى وتضطرم في الفترة المضطربة التي تمسبقت استقرار الأوضاع ، ويزيد فيها ضغط الحكام والملوك على الجماهير والشعوب ، وتضعف وتهن عندما تستقر هذه الأوضاع وتظفر الشعوب بحقوقها — أو بجزء منها — لتنصرف إلى مجالات أخرى .

وفي الفترة التي نتحدث عنها كانت ألمانيا تمر بفترة الانتقال السياسي التي مهدت للوحدة والتي اتسمت بالكفاح الأخير للأمرء للاحتفاظ بسلطتهم الاستبدادية في مواجهة مد الوحدة . ومن هنا فقد اشترك فيها معظم المفكرين كل بطريقته الخاصة . فكان منهم شعراء مثل هينه وفوليجرات Heine and Freiligrath وهوسيةين مثل فلجنر ورجال اقتصاد مثل ليست وماركس وأنجلز وكتاب دراما مثل بوخنر واشترك بهض هؤلاء اشتراكا عمليا في الاصطدامات والمعارك وقادوا الجماهير وسقطوا صرعى . كما ظهرت بين الطلبة حركات مثل مؤتمر الطلبة Junges Deutschland ومثل ألمانيا ظهور وسترط

الغناة Bursensciaftertag وكان الهدف الدائم والملح لهم جميعا (باستثناء
ماركس وانجاز) الحريات : حرية الفكر والذشر والمعارضة السياسية .

ومن أبرز صور الاحتجاج والمقاومة ما قام به سبعة من أساتذة جامعة تنجن
الصفيرة عندما حل ملك هانوفر الجديد أرلست أوجست في نوفمبر ١٨٣٧
بمجلس الديث والى دستور ١٨٣٣ وأعاد دستور ١٨١٩ ، وأوقع ذلك
أساتذة الجامعة في مأزق لأنهم حلفوا بيمين ولاء لدستور ١٨٣٣ الذى الفى
بدون موافقه البرلمان . وبعد أن ناقش بعض الأساتذة الأمر رفعوا لإدارة
الجامعة مذكرة أعربوا فيها عن معارضتهم لإلغاء الدستور وختموها بأنهم كانوا
دائما يحنون طلبتهم من الشطط السياسى . . وأن عملهم كأساتذة يقوم على
الاستقامة والأمانة ، وبدونها لا يمكن لدروسهم أن تكون مجدية « وأى قيمة
لحلف يمين ولاء لصاحب الجلالة ملكنا إذا أخذ من رجال يخادعون أنفسهم »
وكان الموقعون على هذه الوثيقة هم الأساتذة : فردريك داهلمان الذى كان
كأحد المحامين البارزين سابقا من الذين أسهموا فى وضع الدستور الملغى .
ولهم البرخت أستاذ القانون الألمانى وجاكوب جريم وولهم جريم أستاذى
الميثولوجية والتاريخ الألمانى وجورج جوتفريد جرفينس Gervinus أستاذ
الآداب وجورج أفالد Ewald العالم اللغوى ولهم أدوار فيبر Weber أستاذ
الطبيعيات .

وأنارت هذه المذكرة الاهتمام ، وأنتشر نبؤها انتشار النار فى الهشيم لما
عرف به هؤلاء الأساتذة من الاتزان وتشجعت بعض الهيئات الأخرى فقدمت
احتجاجات مماثلة . وحن جنون الملك ، وخطر له أن يذهب إلى الجامعة
ويسوى الأمر بنفسه هناك . ولكنه استبعد هذا الخاطر وذهب إلى أحد
الحصون القريبة من الجامعة وطلب ايفاد عمداء الكليات وعندما وصلوا

أستقبلهم ياور الملك وسألهم عما إذا كانوا قد أعدوا خطاباً. فوضعوا من وحي اللحظة خطاباً قصيراً، ولكنه نبذ، فأعدوا آخر أعربوا فيه عن ثقتهم في نوايا الملك الطيبة التي يعتزون بها ولا يقبلون شيئاً يسفها. وحاز الخطاب موافقة الياور وأدخلهم على الملك وخلال الحديث قال الملك متفضلاً إنه لن يعاقب الجامعة. ولكن المذنبين فحسب!

وفي أوائل ديسمبر نشرت إحدى الصحف ذات الصفة الرسمية مقالين دون توقيع، أنتقد الأول تصرف الأساتذة ووصفه بأن غير قانوني لانهم إذا كانوا يعارضون إلغاء الدستور فقد كان عليهم الاستقالة. ويكشف المقال الثاني ما دار في لقاء الملك بالوفد وأن الوفد تبرأ من تصرف الأساتذة السبعة. وأثار المقالان دويماً شديداً، وفي الوقت نفسه بدأت الإجراءات الرسمية ضد الأساتذة السبعة فدعوا في ٤ ديسمبر للمثول أمام محكمة الجامعة وبعد التحقيق معهم بفترة أرسل الملك أحد ضباط الحرس بأوامر فصل كل أستاذ من الأساتذة السبعة على أساس أنهم رفضوا طاعة حاكمهم الشرعي وسيدهم. كما طلب إلى ثلاثة منهم مغادرة الولاية خلال ثلاثة أيام.

وبين عشية وضحاها أصبح الأساتذة السبعة أبطالا قوميين ونظمت المظاهرات لتوديع الثلاثة المطرودين. وأرسلت الجامعات الأخرى رسائل تشجيع وتأييد ومنحت بعضهم ألقاباً فخرية. وتكونت في ليبزج هيئة لجمع الإعانات لإزالة الأساتذة لحين إعادة تعيينهم وعلا دواؤها نوفر ضيق وتجهيم لم يستطع الملك إزاعه شيئاً خوفاً من الانفجار ولكنه بذل كل جهده لتنضيق هلى الأساتذة والاحتجاج على الولايات التي رحبت بهم. وحال ذلك دون أن يشغل أى واحد منهم منصبا في الجامعات الألمانية رغم ترحيب هذه الجامعات ووفشت المحاولة التي توسط فيها المشرع المشهور سافيني لتعيين أربعة منهم في الجامعات البروسية. وكان الاستثناء الوحيد هو ملك ورتمبرج الذي عين

البروفيسور فالدي في جامعة توبنجن وعندما قدر للملكين أن يجتمعا سأل
أرنست أوجست زميله ملك ورتمبرج لماذا يعين أستاذاً فضله هو فأجاب « لهذا
السبب نفسه » .

وأثارت هذه القضية جدلاً شديداً فيما بعد في الدايت الاتحادي وقسمته إلى
قسمين ولم يستطع أرنست أوجست الدفاع عن موقفه إلا بصعوبة كبرى .
وخسرت جامعة جوتنجن مركزها ولم تستطع تعويض أساتذتها الذين استأنفوا
بعد مدة نشاطهم الجامعي في مختلف الولايات الألمانية أو سويسرا وأسهم بعضهم
في اكتشاف التلغراف المغناطيسي .

وكانت لقضية الأساتذة السبعة آثار بعيدة المدى فقد عززت العمل السياسي
في الجامعات الألمانية ، كما كانت سابقة للتدخل لاختصاص الجامعات الأمر الذي
سيارمه بسمارك بصفة شبه منهجية .

وكما يحق لنا أن نتوقع — فإن حركات الشباب والطلبة كانت أكثر
عنفاً واتجهت وجهة العمل الثوري والتأمري وقد تصورها قضية ويدج
Weidig وבוخنر Buschner .

وقد كان ممثلو طلبة الجامعات الألمانية على اختلافها قد اجتمعوا
سنة ١٨٣٢ فيما سمي « المؤتمر » وانتهوا إلى أن الأغلبية الكبرى من الشعب
على استعداد للثورة لو وجد التنظيم الذي يتولى القيادة . وارتأت مجموعة
صغيرة من طلبة جامعات جيزن وهيدلبرج وويزبرج Wueszburg وارلانجن
أن تقوم بالضربة الأولى بأمل أن تتبعها بقية الجامعات . ووضعت خطة كان
يجب بمقتضاها أن يحتل ستون رجلاً المرأ كز الهامة في فرانكفورت بما فيها
مقر الدايت الاتحادي وبنك روتشيلد (ليتمكن ضمان تمويل الحركة) .

وكان زعيم هؤلاء المتآمرين محاضراً جامعياً سابقاً هو الدكتور أرنست

فون روثنبلات وقد استطاع أن يضم إليهم عددا من الحرفيين والمهنيين
وغيرهم . وبوجه خاص الواعظ السابق وناظر المدرسة ويدج Weidig الذى
كان يمت بأجداده إلى كبير ثوار الألمان « لوثر » . والذى سيمى أحفاده
ثائراً آخر هو ليبكنشت .

ولكن أحد المتآمرين ، ويدعى كهل Kehl عرض على السلطات إفشاء سر
للمؤامرة إذا قدمت إليه مبلغاً من المال وعفوا تاماً عنه وماطلت السلطات
فى هذا ولكنها قبلت أخيراً ، وقبل بدأ التنفيذ بيوم واحد فأرسلت
التعليمات بسرعة إلى عمدة فرانكفورت بينما كان المتآمرون يتجمعون
ويتجهون نحوها وقد خباؤها أسلحتهم تحت ثيابهم . وعند منتصف ليل
٣٠ أبريل سنة ١٨٣٣ هاجموا مركزين من راجز البوليس واستولوا عليهما
وأخذوا يقرعون الأجراس لإثارة المواطنين وحملهم على الانضمام إليهم .
ولكن هذا الانتصار كان قصير المدى . فقد وصلت القوات التى أرسلت
ولم تجد صعوبة تذكر فى الانتصار على المجموعة بعد صدام أصيب فيه بعض
الطلبة والجنود . واستطاع زعماء المؤامرة الهرب إلى فرنسا وسويسرا وكان
منهم كارل شابر وتيودور شوستر اللذين أسهما فى تكوين عصابة العدول
Bund der Gerechten فى لندن فيما بعد . ولم يكشف أمر هؤلاء الزعماء
أو غيرهم لأن كهل أراد أن يحتفظ لنفسه بالأسماء الكبيرة فى المؤامرة ليساوم
عليها فيما بعد .

وبعد هذا الوقت ببضعة شهور كان أحد طلبة جوتنجن ويدعى بوختر
بيلنتى بطالب آخر يدعى بكر . ويطلق عليه فى بعض الحالات بكر الأحمر
Red Becker لحمره شعره .

وأسر بكر إلى صديقه أنه عضو فى جمعية سرية يرأسها شخص مؤمن هو

الواعظ ويدج ، وجمع بينهما ، ومع أنهما كانا يختلفان في الطبيعة ، إذ كان بوختر يستهدف بالدرجة الأولى استنهاض الجماهير للقيام بثورة اجتماعية على حين كان ويدج يستهدف الإصلاح الدستوري والوحدة القومية ، فإن عداوتهما المشتركة للأوضاع القائمة وحدثت بينهما . واقترح بوختر تكوين جمعية سرية لإثارة الاضطراب والإعداد للثورة في كل ناحية يوجد بها ثلاثة أفراد يؤمنون بفكرتها ، وإصدار منشور لإثارة الجماهير ، وبعد شيء من التردد قبل ويدج الفكرة .

وعاد بوختر إلى جيزن ، واستطاع أن يجند عشرين طالباً وأن يكون منهم جمعية باسم « جمعية حقوق الإنسان » وهو اسم جمعية كانت موجودة بالفعل في استراسبورج وتعرف بوختر عليها . وبعد بضعة أسابيع كتب بوختر المنشور المتفق عليه باسم « رسول هس The Hessian Messenger » وحاول ويدج أن يلطف من حدة وقسوة لهجة المنشور ، وحذف بعض فقرات كان بوختر يرى أنها أفضل ما فيه ، وأقحم بعض آيات الإنجيل . ومع هذا فقد ظل المنشور جمره ملتهبة من إثارة الفلاحين على الملاك ، الفقراء على الأغنياء ، المحكومين على الحكام

وبعد طبع المنشور بدأت عملية توزيعه وأخذ بوختر يوسع نطاق عضوية الجمعية بحيث ضمت ممثلين لعدد كبير من الجامعات .

ومن سوء حظ المؤتمرين ان كان كهل ، وهو الذي وشى بالحركة الأولى من بينهم - ولم تكن هذه الحقيقة معروفة . فوضع خطة متقنة لاستغلال السلطات لقاء الوشاية بهذه الحركة . فاتصل بالسلطات وأنهى إليهما أن بعض الطلبة سينقل عددا من المنشورات الثورية من المطبعة في أوفنباخ إلى جيزن . وبذلك استطاعت السلطات أن تقبض عليهم - وعلم بوختر بذلك في الوقت

المناسب واستطاع باتصالات سريته أن يخاطر المؤتمرين الآخرين ، وأن ينقذ النسخ الباقية في المطبعة .

وظلت تقصيات السلطات المؤامرة تنخبط وتستطيل ، فإن كهل لم يشأ إفشاء الأسماء الكبيرة - وبذلك تمكن بوخنر من الفرار واقتنعت السلطات بأن ويدج هو محرر المنشور واعتقلته في أبريل سنة ١٨٣٤ وعرضته لتعذيب أدى به لأن يموت أو ينتحر - بعد ثلاث سنوات .

وكان يمكن للسلطات أن تلاحق مثل هذه التحركات السرية والثورية المحدودة ، ولكنها لم تكن لتستطيع شيئاً عندما هبت عاصفة الثورات عام ١٨٤٨ . وقد أشرنا إلى الأثر السياسي لهذه الثورة . وكيف تمكنت القوى الرجعية من أن تحتويه وتستحوذ عليه . أما الأثر الاجتماعي والدعائي والشعبى لها فإنه يفوق بمراحل حصيلتها السياسية .

وأهمية ثورة ١٨٤٨ من الزاوية الشعبية والدعائية أنها كانت نقطة الإنطلاق والبدية للاشتراكية وظهور الطبقة العاملة واشتراكيها في العمل الثورى . وأنها كانت الفرصة التى أتاحت لكارل ماركس أن يقوم بدور بارز في الدعاية السياسية عمقت مفاهيمه وزادتها صلاحة .

ومن هنا ، فمع أن الثورة بدأت أساساً في فرنسا ، ونجحت في إقناع النظام القائم وإحلال نظام آخر كان من بين رجاله داعية اشتراكي إلا أن ، وامرة لويس بونابرت أجهضتها . وكان الأثر الأعظم لها في ألمانيا ، فمع أنها أخذت عيكرياً ، وفشلت سياسياً ، فإن البنود المذهبية التى وضعها لم تلبث . أن نمت وازدهرت وأوجدت الاشتراكية الألمانية .

وحق ثورة ١٨٤٨ كان الفكر الاشتراكي فى الأغلب فرنسياً يستلهم سان سيمون وفورييه وبرودون . ويدور فى تلك الحلقة التى أطلق عليها ماركس

— ظالمها — الاشتراكية المثالية « اليوتوبية » وعندما ظهرت بدايات الفكر الاشتراكي الألماني تأثرت بالأفكار الفرنسية ، كما استلهم بعضها أفكار الثورة الفرنسية التي لم يكن قد طال عليها الأمد وقتئذ ، خاصة وقد بلغ عدد المهاجرين الألمان الهاربين من العسف البروسي إلى باريس وحدها قرابة ثمانين ألفاً .

وقبيل ثورة ١٨٤٨ ظهر أبرز داعية اشتراكي في ألمانيا وهو الحائك ويتلينخ — كما ظهرت المجموعة التي كونت عصابة العدول في لندن — وكان أبرز دعاةها الموسيقي كارل شابر والاسكافي هنريش باور والساعاتي جوزيف مول والرسام فندر Pefender وأيكاروس ووللم ولف (الذي أهدى إليه ماركس فيما بعد كتابه رأس المال) .

وفي سنة ١٨٤٦ أوفدت العصابة جوزيف مول إلى بروكسل ليتصل باثنين من المثقفين ظهرا وقتئذ هما الدكتور كارل ماركس من ترير وفردريك أنجلز من بارمن وليدعوهما للالتحاق بالجماعة وأبدى هذان السيدان شكهما ، ولكنهما سافرا إلى إنجلترا حيث أعادا تنظيم الجماعة .

ولا شيء مثل ظهور ماركس في هذه الساعة يوضح الأثر البالغ للفرد القدير ، فقبل ماركس كانت الهيئة تحمل اسم « عصابة العدول » فتغيرت إلى « عصابة الشيوعيين » وكان شعارها « كل الناس إخوة » فأصبح شعارها « يا أعمال العالم اتحدوا » بل إن البيان الشيوعي نفسه كان يمكن أن يصدر في صورة أسئلة وأجوبة — كما ارتأى ذلك أنجلز وهو شريك ماركس وصفيه — ولكن ماركس أصدره سببها ملتزمة ، وثيقة اتهام وحكم بالإعدام . . . ومن الطبع الناري والمزاج الحاد والعدواني لماركس أخذت الحركة الاشتراكية الحديثة سمتها وطابعها .

وفي سنة ١٨٤٨ عاد ماركس إلى ألمانيا ووجه زملائه والهاربين الألمان للعودة لاعلى رأس حملة عسكرية كما كانوا يرون بالفعل، ولكن للدعاية والتنظيم والإثارة في المناطق العمالية . واختار ماركس نفسه « كولون » مقراً ليس فحسب لأنها إحدى المناطق الصناعية المتقدمة ، ولكن أيضاً لأنها تطبق قانون نابليون الذى كان يقضى بأن ينظر المحلفون في القضايا السياسية .

وأصدر ماركس مجلة الرين الجديدة من أول يونيو ١٨٤٨ حتى ١٩ مايو ١٨٤٩ عندما صدر العدد الأخير مطبوعاً بالأحمر ، وعرضت للمرة الأولى ذلك الفكر الثورى الباتر كالسيف .. البارد كالصلب الذى ينضح بشنآن العداوة والبغضاء والتعصب .

« إننا لا نتساح ، ولا نسألکم تسامحاً ، وعندما تكون الغلبة لنا فلن نمتذر عن الارهاب » .

« إن القضية هي الملك أو الشعب .. وقد قضى الأمر وسينتصر الشعب .. »
« إن دفع الضرائب خيانة عظمى ، ورفض دفعها هو الواجب الأول للمواطن » .

« إننا لا نخفي قط منطلقنا ، وليس هو بالمنطلق القانونى إنه بالمنطلق الثورى » .

هذه هي « الرين الجديدة » وتلك بعض مقاطعها .. كانت شيئاً جديداً يمثل الصلابة ، ويبعد عن المساومة ويتسلح بالثقة المطلقة والتعصب المصمت . لقد أعطى ماركس وصحيفته الرين الجديدة الحركة العمالية شيئاً ثميناً لاغاية . شيئاً كانت في أشد الحاجة إليه . أعطها الصلابة . كانت الماركسية أشبه بمعدن صلب قاس اختلط بالدعوة العمالية الطرية المرنة التى كانت تخضع لأى تأثير وتقبل أى مساومة وترضى بأصناف الحلول — فحول ماركس هذا الطين

الرخو الطرى إلى أسمنت مسلح . ومن المحتمل أن ماركس جاوز الدرجة المثلى في هذا ولسكن من المشاهد أن الطبقة العاملة تغلب عليها المسكنة وتحكم تصرفاتها ضعة كمنمت في خبيثة النفس وأعماقها عبر أجيال من الانقهار والخضوع حتى أصبحت وكأنها إحدى الصفات الوراثية الكامنة التي يظهرها اللقاء مع الطبقات المميزة فامتداد الارستقراطية تبدى أقل تنازل أو تल्पف حتى يبدو ذلك إغراء لا يمكن للجماهير مقاومته وتتلشى إزاءه كل ذكريات الإهانة والاذلال القديم وتسى الهدف وترضى بالفنات أو بأقل مما كانت الارستقراطية على استعداد لتقديمه، وفي كثير من الحالات يكون ذلك مفاجأة للارستقراطية التي تملكها انطوف إزاء قوة الجماهير . ولكننه يعزز فكرتها الطبقية عن دونية العامة ، وأنها لا تستطيع أن تتصدى لساتها تصدى الأكفاء ، إزاء ذلك يكون من الضروري أن تعطى الجماهير تلك الجرعة المضاعفة من الثقة والزهو والصلابة . وهذا القدر من الشئآن ، على أن يخفف ذلك فيما بعد شيئاً ما حتى لا يتحول إلى صلف أو استملاء .

وفي كل أنحاء ألمانيا قامت المظاهرات وحدثت المصادمات وأسهم معظم دعاة الفكر الاثتراكى في قيادة هذه المظاهرات والدعوة إلى تكوين جمهورية وقتل مول وولف ونجا ليبسكنشت من القتل بأعجوبة وقبض على الباقين من دعاة الثورة وأقام أهل كولون المتاريس وأعلنت الأحكام العرفية وعطلت « الرين الجديدة » وعبر محرروها الحدود إلى باجيكيا وانحسرت موجه الثورة وفقدت مدها . وفي فبراير ١٨٤٩ حوكم ماركس . وخلال دفاعه عن نفسه أمسك بنسخه من قانون نابليون كانت على المائدة وعرضها على المحلفين قائلاً « إن قانون نابليون هذا لم يوجد المجتمع البورجوازى . على العكس ، لقد رأى المجتمع البورجوازى فيه التعبير الشرعى له ، وفي اللحظة التي لا يتجاوب هذا القانون مع بنيان المجتمع لا يصبح شيئاً

« وتسامح » المجتمع البورجوازي معه ، ولكن ماركس تأكيد أن المد الثوري انتهى وفي الوقت نفسه طلبت السلطات إلى ماركس - الذي كان قد تخلى عن جنسيته البروسية - مغادرة البلاد .

وكان على ماركس أن يصنى ديون المجلة ، فمع أنها كانت قد أخذت تندرج ، ووصل عدد المشتركين إلى ستة آلاف ، إلا أن مواردها لم تكن لتفي بديونها طوال فترة التأسيس ورهنت زوجه ماركس - التي كانت تمت بصلة نسب إلى دوقة أرجيل - كل « فضيات » الأسرة ، وبيع الأثاث وكل ما تملكه قبل أن يستطيع ماركس مغادرة ألمانيا إلى الأبد والذهاب إلى لندن . .

ومغادرة ماركس لألمانيا انتهى عمله الشخصى والمباشر فى الحركة الاشتراكية الألمانية ومع أنه لم يقض فيها إلا قرابة عام إلا أنها كانت كافية لبندر بنور الماركسية .

الفصل الثالث

تطور الحركة الاشتراكية الألمانية

حتى نهاية القرن التاسع عشر

انتاب الحركة الاشتراكية والعمالية بعد انحسار ثورة ١٨٤٨ سبات طويل. وتقلدت القوى الرجعية مرة أخرى زمام الأمور وكان يجب أن تمضى عشرة أعوام قبل أن تبدأ بوادر اليقظة من جديد .

وفي هذا الفصل ، كما في الفصل السابق، نجد أن ظهور الرجل القدير كان هو الذى يبدق الناقوس ويبدأ المسيرة .

وعندما غادر ماركس وصحبه ألمانيا لم تجد الحركة الاشتراكية من يقودها ولم تجد الحركة العمالية التى بدأت تكبر وتضخم مع كبر وتضخم الصناعة من يوحد شعبها ويلم شعبها .

وكان هناك عدد من الهيئات والجمعيات العمالية ولكنها كانت محدودة . كما كان القائمون عليها من ذوى الافاق الضيقة ، وقد كان أكبر هذه الهيئات هى أخوية العمال Workers Brotherhood التى كونها «بورن» زميل ماركس فى كفاخ ٤٨ ، وكانت سياستها بصفة عامة هى الخطوط التى وضعها البيان الشيوعى ، ووصل عدد أعضائها إلى عشرة آلاف ، وطالبت بجعل ساعات العمل عشرة وتحريم تشغيل الأطفال حتى من الرابعة عشر ومنح العمال حق التصويت . وفرض الضرائب التصاعدية وتخفيف مدة الخدمة العسكرية .

كان هذا هو الموقف عندما ظهر لاسال على المسرح ظهور البطل فى

المسرحية فتزعم الحركة وشاركها في أبحاثها حتى معين وأعطاهما بعض السمات التي لازمتها طويلاً . . .

ولد فرديناند لاسال من أسرة يهودية من الطبقة الوسطى في أبريل عام ١٨٢٥ ودرس الفلسفة في الجامعة وأمل أبواه أن يصبح أستاذاً جامعياً ، مرموقاً ولكن فطرته وطبيعته كانت تؤهله ليكون داعية . وبدأ ذلك جلياً من أيامه الأولى : فلم يكفد يسوع ، وهو في العشرين ، عما تعرضت له إحدى النبيات على يد زوجها من عسف واستغلال حتى تبني قضيتها ونذر نفسه للدفاع عنها .

وكان زوج الكونتس هاتز فيلد قد أساء معاملتها واستحوذ على مالها ولم تجد محامياً يطالب لها بحقوقها خوفاً من زوجها الغني والقوي ولعدد كبير آخر من الأسباب الفنية ولكن شيئاً من هذا لم يكن يشي لاسال الشاب كما لم يئنه أنه لم يكن يعرف شيئاً عن القانون ، ومواء كان الباعث رومانتيكياً كأجلى ما يمكن أن تقدم الرومانتيكية وتجعله الفارس المنتهز للسيدة المعذبة ، أو أنه كان حالة من حالات الظلم الاجتماعي ونسب الأوضاع يكون العمل لها « جهداً أميناً للضمان الاعتراف بحقوق الإنسان المنتهكة » على حد قول لاسال . فإن لاسال ترك كل شيء للدفاع عنها وشارك بالقضية طوال ثمان سنوات وعرضها على ٣٦ محكمة وقدم ٣٥٨ شهادتاً وتقبل السجن عندما اشترك في سرقة بعض أوراق الكونتس التي أمل أن يجد فيها أدلة خاصة بالقضية . حتى استطاع سنة ١٨٥٤ أن ينتصر على الكونتس وأن يظفر للكونتس بأهوالها — بضعة ملايين من التاليرات ، وأصرت الكونتس الوفيه على أن يسكون للاسال معاش سنوي سخى منها . . .

وهذا الفصل من حياة لاسال لا يمكن أن يغفل . لاسال له من دلالة قوية وبارزه على طبع لاسال الذي تحكم فيه وعجل بوفاته ، ولكن أيضاً لما ترتب عليه من آثار وثيقة بالحركة العمالية كما سترى .

وعندما اشتملت ثورة ١٨٤٨ أسهم لاسال فيها وتعرف على ماركس وقامت
بينها علاقة توثقها وحدة الهدف وتوحيها فرقة الطبع . كان لاسال جماهيريا
عاطفيا ، خطيبا ، كما كان إلى - عندما ثريا - بينما كان ماركس سوداويا فقيرا
منظرا ومنطويا على نفسه . وكان في لاسال خيلاء وديماجوجيه . ولم تكن لديه من
العبرة الخلاقة ما يجعله يساوى ماركس أو يستقل عنه وفي الوقت نفسه فلم يكن
يسمح له ذكاءه المتألق بأن يكون تابعا أليفاً لماركس . ومع أن ماركس عندما
كتب إلى الكونتس معزيا إثر مقتل لاسال شبهه بأشيل الذي مات في شرح
الشباب . فإنه شبهه - فيما بينه وبين اصفياه - بفأر أحدث ضجيجا كبيرا^(١)
وكان يطلق عليه العبد اليهودي ، وقد أعترف لاسال دواما باستاذية ماركس .
ولكن ماركس لم يغفر له إقبال الدنيا عليه وترحيب الجماهير به في الوقت الذي
كان يعاني فيه مرارة الفاقة وكآبة الوحدة .

وانغمس لاسال في العمل الجماهيري فترة الثورة وسجن أكثر من ستة
شهور واستغل محاكمته - وقتئذ في الدعاية لسياسته والدفاع عن قضية
الطبقة العاملة .

وعندما انتشع غبار المعركة وانحسر مدها آب لاسال إلى دراساته التي كانت
قضية الكونتس وثورة الجماهير قد قطعها فأخرج « فلسفة هيراقليطس »
و « نظام الحقوق المكتسبة » وكتب مسرحية عن « فرايزفون سيكنجن »
النبيل الاقطاعي الذي ثار على النبلاء عام ١٥٥٢ . وعندما اندلعت حرب
التحرير الإيطالية عام ١٨٥٩ اصدر رسالة بعنوان « الحرب الإيطالية ورسالة
بروسيا » خالف فيها الاتجاه العام الذي كان يدعو لشن الحرب على فرنسا

(١) وكان ماركس يطلق في بعض مراسلاته الخاصة على الكونتس كلمة
the old bitch وهي ما يمكن أن يترجم إلى البغي المعجوز أو الكلبة أو
القذية المعجوز .

لاعتدائها على النمسا ، وتنبأ فيها بكثير من التوقعات والتطورات التي حدثت بالفعل مثل ضم فرنسا نيس وسافوى . واستقلال إيطاليا وإعلان بروسيا الحرب على الدنمرك وضم شلويج وهو لشتين . وأرسل لاسال نسخا من هذه الرسالة إلى كل الوزراء البروسيين — بما فيهم بسمارك — كما اصدر أيضاً رسالة عن « لسنج » الذي كان يراه الشخصية الألمانية التي تأتي بعد لوثر مباشرة ، وكتابتها عن الاحزاب وعلاقتها بالبلوريتاريا .

وخلال هذا الكفاح الجماهيري والعمل الفكري ذاع اسم لاسال ووجدت فيه قيادات بعض الهيئات العمالية الرجل الأمثل الذي يقود الحركة العمالية . وفي سنة ١٨٦٢ كتب إليه ثلاثة من هؤلاء هم فاهليتس Vahlteich وفريتزش Fritzsche ودامر Dammer رسالة قالوا فيها .

« إننا الثلاثة قد ناقشنا هذا الموضوع كأعضاء في اللجنة ، ولا نعلم أحدا في ألمانيا غيرك يمكن أن يقود حركة بهذه الأهمية ، أو يستطيع أن يتحمل هذه المهمة الثقيلة ويكون في الوقت نفسه مستأهلا للثقة المطلقة . إنك الرجل لهذا العمل ، و كلنا يضعه يسرور أمامك . . . »

وفي خطاب تال كتب دامر :

« إن تأسيس اتحاد عمالي واحد في أذهاننا جميعا وتستطيع أن تعتمد على أكثر من ثلاثين ألفا » .

وقبل لاسال الدعوة ، وفي مارس وضع برنامج السياسي في صورة خطاب مفتوح وجهه إلى العمال وتضمن إلى جانب المطالب الكلاسيكية التي طالب بها العمال سنة ١٨٤٨ ، مثل حق التصويت المباشر للجميع ، مبادئ ذات أهمية خاصة منها أن الطبقة العاملة يجب أن تتحرر من نفوذ الحزب التقدمي الذي كان قد ظهر وقتئذ في ألمانيا وضم البورجوازية الصغيره والمهنيين وكان يعطف

على الطبقة العاملة ، قدر ما كان يثبط قيامها كحزب مستقل . كما تضمن البرنامج مطلباً يبدو غريباً هو اعانة الدولة للجمعيات الإنتاجية العمالية .

وهذه النقطة الأخيرة التي بدت غير مفهومه وانتقدتها ماركس بقوة تعود إلى فكرة لاسال عن الدولة وعن الاشتراكية وأختلافها عن فكرة ماركس عنهما . فلم يكن لاسال يرى في الدولة أداة كبت أو وقع أو مجرد تعبير اقتصادي ولم تكن نظراته إليها طبقية ، مفرقة أو نظرية مجردة ، فقد رأى فيها بلورة لروح الشعب ونفسيته تربط المواطنين بها وشأخ تسكاد تكون عضوية . وتوجد التزامات متبادلة وتناثر بعد كبير من العوامل ، بما فيها العوامل الاقتصادية ورأى لاسال أن الطبقة العاملة عندما تمنح حق الانتخاب من ناحية وتعاون في مشروعاتها التعاونية والإنتاجية من ناحية أخرى فإنها توجد في كنف الدولة البورجوازية الدولة العمالية ، أو تساعد التطور على أنه يسير في هذا الاتجاه . كان ثمة خلاف جذري بين ماركس ولاسال نشأ عن الاختلاف في المزاج والوضع والملايسات :

كان ماركس وهو يستكشف نظريته يتحول شيئاً ما من سيدها إلى عبدها من الجابل لها إلى المفتون بها . فبالإضافة إلى أن هذه النظرية كانت من الإحكام والجمال كتمثال بجماليون القديم — بحيث تسببه وتسترقه . فإنها كانت في حقيقة الحال فلسفة جبرية إلى حد كبير ، يسير فيها التطور تبعاً لقوانين الماديه الجدلية التي لا يستطيع الناس (ولا حتى العمال) تغييرها كانت المعاني الذاتية والإنسانية^(١) والقصدية مستبعدة تماماً استبعاداً قد يصور التأويل

(١) انظر مثلاً « ان لقول أن كل فرد له قيمة كما لو كان كائناً له سيارة a sovereign being إنما هو وهم وحلم وافتراس من المسيحية التي تؤكد أن لكل فرد روحاً » .

الماركسى للحرية بأنها السلم بالضرورة . كان ماركس كعالم الرياضية لا يستهدف أن يجعل ناتج الضرب والطرح شيئاً يريد به هو . . وإنما قصارى ما يطمع فيه هو أن يصل إلى الناتج الصحيح . وساعده على ذلك أنه كان يعمل في منغاه القصى ، وفي صالة المتحف البريطانى ، وبين الكتب والمراجع فى معزل تام عن الاحداث . ولم يكن يتعامل مع الرجال والصراع والمواقف المعينة فى ظروف معينة فى مواقع معينة ، ولكن مع الفروض الرياضية الخالدة التى لا تتغير .

وفى مقابل هذا كان هناك عدد من المؤثرات الشخصية كاضطهاده وفائقته وأصله اليهودى وما ترسب خلال أجيال وأجيال فى أعماقه من بغض أو حقد وذكاؤه الخارق واعتماده بنفسه الخ . . وهى كلها عوامل ذاتية كانت تناقض المناخ الموضوعى للنظرية وجمعات ماركس . يجمع بين النقيضين : سيد النظرية وعبيدها ، الداعية المتعصب والعالم الموضوعى ، المندد بيهود والممثل للخلق اليهودى .

نتيجة لهذه العوامل كلها ، آمن ماركس إيماناً لا يتطرق إليه الشك أن المعيار الوحيد للحكم على الآخرين هو تقبل نظريته تقبلاً تاماً دون أى ميل ، وفاته أنه عندما يلزم أتباعه تطبيق نظريته الجامدة المحكمة على الظروف المتغيرة ، فإنه سيابس عليهم الأحكام ويجعلهم كدون كيشوت يحسبون طواحين الهواء فوارس الأعداء .

== وكذلك ما جاء فى الطبعة الأولى لرأس المال :

« إذا كنت أحدث عن الأفراد ، فلأنما يكون ذلك بقدر تجسيمهم للأشياء الاقتصادية وتحميلهم العلاقات ومصالح طبقية خاصة » .

٤ — ظهور وسقوط

وإذا استثنينا أنجاز الذي رُزق عددًا من العوامل الخاصة والاستثنائية جعلت الود صافياً إلى النهاية بينه وبين ماركس ، فقد تعرض كل أصفياء ماركس بين حين وآخر لثورة غضبه لتصوره انحرافهم بما في ذلك ليبسكنشت وبيل اللذين تتلمذنا عليه وساماه ، ولكنهما لم يستطيعا ، وإلى حد ما لم يستسيغا ، التطبيق الحرفي لما أراه ماركس للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني .

ولم يكن لاسال مثل ماركس ، فصحيح أنه أعجب بماركس وأفاد منه وتلمذ عليه حيناً من الدهر ، ولكنه كان زعيماً مرموقاً لأكثر كتلة عمالية في ألمانيا وعليه أن يتعامل مع المجتمع الحى النامى والأحداث المتطورة المتغيرة ، ولم يكن ليستطيع أن يقبل التجريد الماركسى الذى جعل ماركس يتخلى عن جنسيته ويعتقد أن العمال لا وطن لهم . لقد كان يرى بملأ عينيه أن من العسير تجريد العمال من المؤثرات التى تحملها إليهم جنسياتهم وأن من الخطأ نظرياً وعملياً أن يتصور المرء إمكان جعل الإنسان الماركسى كالإنسان الاقتصادى . فرضاً عقلانياً مجرداً أو كائناً فى حالة من انعدام الوزن والانبثات عن الأوضاع والجذور الموجودة بالفعل والتى تمسك به من كل ناحية باستثناء العامل الاقتصادى .

كان فهم لاسال للدولة بصفة عامة ، والدولة الألمانية بالذات ووضعه كزعيم لكتلة كبيرة فعالة وتحرره من التحديد النظرى والتعقيد السيكلوجى ، كل هذا يجعله لا يرفض التعامل مع المستشار الحديدى « إسمارك » الذى كان يمسك فى يديه بزمام السلطة ولم يكن ليرى فى هذا ضعفاً أو خيانة أو انتهازية ، وإنما سبيلاً لتحقيق أهداف دعوته ، وفى مقدمتها المطالبين الأساسيين : التصويت العام . وإعانة التعاونيات العمالية .

وقد شجب ماركس - انطلاقاً من فكرته عن الدولة كأداة كتبت - فكرة

إعانة الدولة للتعاونيات العمالية وحاول تلوين علاقة لاسال بيسمارك وتصويرها بأنها نوع من الخيانة ولكن لاسال اعتقد أنه أكثر فهما لبسمارك من ماركس كما كان بينه وبين بيسمارك عامل مشترك دق على ماركس الإمام به ، ذلك هو عداوة الأحرار فقد أبدت الأرستقراطية الزراعية في ألمانيا - كما أبدت في بريطانيا من قبل - نوعاً من التعاطف مع الطبقة العاملة والتقارب معها . وكان العدو المشترك لهما - ولو لفترة معينة - هو الأحرار ورجال الصناعة والتجارة . وقد تنبأ لاسال بأن بيسمارك سيمثل دور روبرت بيل (زعيم المحافظين في بريطانيا سنة ١٨٤٠) فيمنح حق التصويت العام المباشر ، ولم تكن هذه النبوة بالكاذبة .

وقد تحدث « بيبيل » عن هذه الاتصالات - كما تحدث عنها بيسمارك فقال
بيبيل في جلسة الرشتاج في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٨ .

« تملقت هذه المحادثات والمفاوضات بأمرين : الأول الانتخاب العام المباشر والثاني إعانة الدولة لجمعيات التعاون الإلتاجي . وقد كسب لاسال البرانس بيسمارك لمشروعه ولو أنه رفض إقرار الانتخاب العام قبل إنهاء الحرب الدانمركية ولكن لاسال كان يريد إقراره فوراً ودون أى تأخير ومن هنا قامت خلافات خطيرة بين لاسال وبيسمارك ولم يكن الأخير هو الذى أوقف المفاوضات ، ولكن - وعلى أن أو كد ذلك - لاسال » .

وقال بيسمارك : « كان في شخص لاسال شيء جذبني بطريقة غير عادية . وقد كان واحداً من أكثر من تعاملت معهم ذكاه وطموحاً وأنى للأسف حتماً أن وضعه ووضعى السياسى لم يسمح بمواصلة العلاقة الشخصية . وقد كان يسعدنى لو أن رجلاً يمثل هذه المواهب والمقدرة الذهنية كان جارياً - وكان يابه إلى بابى » .

فحتى لو صرفنا — جدلاً — النظر عما أكد به بديل من أن لاسال هو الذى قطع العلاقة عندما لم يستجب بسمارك استجابة فورية لإقرار الانتخاب العام المباشر ولو أخذنا بما ذهبت إليه مصادر أخرى من أن بسمارك هو الذى قطع المفاوضات فإننا لا نرى فى هذا كله انتهازية أو خيانة والقول بهذا ليس إلا قطعة من سياسة « تلويث المخالفين » التى انبثقت من طبع ماركس وأصبحت إرثاً للماركسية، وجزءاً لا يتجزأ من التكتيكات الشيوعية .

وهذا كله لا يبنى أن يكون لاسال قد أخطأ لا فى مبدأ الاتصال ببسمارك — كما ذهب إلى ذلك ماركس — ولكن فى أسلوب هذا الاتصال ، إذ يجب دائماً على الزعيم الجماهيرى أن لا يتخذ مثل هذه الخطوة الهامة دون ارتكاز على قاعدته العريضة الصلبة ليتمكن له أن يتحدث من مركز قوة ، فإذا كان من المصلحة .. لاعتبارات معينة . الاحتفاظ لها بقدر من السرية فلا بد من إخطار اللجنة التنفيذية والحصول على موافقتها . ومعرفة القاعدة أو اللجنة التنفيذية تعطيمها الشرعية والتصديق والاعتراف وتبعد عنها طابع التأميرية والانتهازية الذى قد يظن بها قدر ما سيحملها تنطلق من مركز القوة . ولو أن لاسال خاض مع العمال الماركس من البداية لسلك هذا المسلك ولكن لما كانت القيادة قد أته منقاد « تجرر أذيالها » فإنه فيما يبدو أساء تقدير قوته الشخصية، وكان مسلكه الفردى هذا يتلاقى مع المسلك الفردى لبسمارك . وجلب لاسال على نفسه المتاعب والشبهات بهذا المسلك وأفقد محاولته بعض القوة التى كانت تتألى لها لو حقق لها تصديق القاعدة .

* * *

بعد أن عرض زعماء العمال على لاسال قيادة الحركة وقبل هو ، وأوضح برنامجها السياسى فى خطاب مفتوح نشرت بعض الصحف إعلاناً فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٦٣ جاء فيه : .

د تقرر في الاجتماعات العمالية التي عقدت في ليزج وهامبرج وديسلدورف وسلونجن وكولون تكوين هيئة عامة للعمال الألمان على أساس المبادئ التي عرضها لاسال في خطابه المفتوح ونحن نضع فيما يلي لأئحة النظام الأساسي لهذه الهيئة رجاء مناقشتها في الاجتماعات العمالية ، وسندعو خلال الأسبوع القادم لعقد جمعية عمومية في ليزج لاقرار الأئحة وانتخاب اللجنة التنفيذية .
ووقع على هذا الإعلان باسم اللجنة التنفيذية لاتحاد العمال ف. فاهلنتش .
واوتودامر .

وفي ٢٣ مايو سنة ١٨٦٣ وبعد سلسلة من الاجتماعات التي خطب لاسال في بعضها لأكثر من أربع ساعات تكون الاتحاد العام للعمال وانتخب لجنة تنفيذية لمدة خمس سنوات وكانت تضم لاسال رئيسا ودامر نائبا للرئيس وفاهلنتش مسكرتيرا .

ولكن هذه البداية المبشرة لم تحقق ما أنتظر منها ، فلم يضم الإتحاد أكثر من بضعة ألوف ، واستمرت الخلافات ما بين اللجنة التنفيذية . واستقال فاهلنتش من منصب السكرتير احتجاجا على دكتور تورية لاسال ، واستقال لاسال نفسه من منصب الرئاسة في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٦٤ وسافر إلى سويسرا حيث كان ينتظره قدره ، ففي مبارزة بينه وبين أحد النبلاء البروسيين أصيب بجرح مميت توفي بسببه بعد ثلاثة أيام .

وكان لاسال عندما توفي في التاسعة والثلاثين ، عندما لم يكن الكثيرون من القادة قد بدأوا المسيرة . . ومن الصعب على الإنسان أن يمنع نفسه من لوم لاسال لزوجته بنفسه في مثل هذه المناسبة خاصة وأنه كان البادئ فيها ، إن الرجل العام ليس ملك نفسه إنه ملك دعوته ويجب أن يحتفظ بنفسه — كل نفسه — لها . وأن لا يسمح لأي اعتبار — بما في ذلك دعاوى الكرامة الفردية — أن

تحول دون ذلك . أو تحرم دعوته منه . وهو ما ينطبق على الشاعر الموهوب الذى قد يكون بحكم ، وهبته أسير العاطفة .

ومع هذا فإذا كنا نلوم لاسال ، أو حتى بوشكين ، فماذا نفعل فى رجل دولة وماليه مثل هاماتن ، يعرض نفسه للدوت . ويموت فعلا . فى ريمان الشباب .

لم يتسع الوقت للاسال لىكى يعمق بصماته على الحركة العمالية والإشتراكية الألمانية أو يهبطها شخصيتها الخاصة التى كان يمكن أن تحصنها من إغراء الماركسية ، ذلك لأنه لم يعمل فيها عملا مباشرا سوى قرابة طاهين ، ومع هذا فليس من المبالغة القول أنه الأب الشرعى للحركة العمالية الألمانية وأنه أورها بعض الخصائص التى لازمتها إلى النهاية ومثلت الخلاف الرئيسى ما بين الحركة العمالية وما بين الفكر الماركسى فإن الإشتراكية لدى لاسال وبالتالي لدى الحركة العمالية الألمانية كانت أداة الطبقة العاملة لنيل حقوقها ولكن الحركة العمالية فى الفكرة الماركسى هى أداة الثورة الإشتراكية ، ولو اتسع الوقت للاسال وأصل هذا الاتجاه ، وعمقه ، لكان من المحتمل أن تتجنب جمهورية فايمار مصيرها المؤلم .

وبعد وفاة لاسال تعرض إتحاد العمال لفترة عصيبة . فقد فقد رئيسه وسكرتيره وتوقف العون المالى الذى كان يقدمه لاسال ، ودخلت الكونناتس هانز فيلد الحلبة وأرادت أن تواصل الكفاح الذى بدأه حامياها ، وأصرت على أن تسير الهيمته على الخطوط نفسها التى وضعها لاسال وتلا ذلك موجة أخرى من الخلافات انتهت بأن أصبح الزعيم النقابى شفايتزر رئيسا لإتحاد العمال ولكن الخلافات تجددت خاصة وقد أضيف إلى تدخل الكونناتس تدخل ماركس وانجلز ومحاولتهما توجيه الحركة من منفاها البعيد توجيها شيوعيا ، ورغم هذه الخلافات التى كانت قينة بأن تمزق الإتحاد فإن المد العمالى حمل الإتحاد فزادت عضويته

وفي بعض المناطق مثل مكسونيا — حيث كان يحرم تكوين أحزاب عمالية سياسية ظهرت عدة هيئات عمالية ذات طابع ثقافي ، وبرزت أوجست بيبل في قيادة الحركة العمالية المردهره هناك .

كانت التطورات السياسية تدفع الحركة العمالية والاشتراكية إلى الأمام فبينما كانت بسمارك يرسى أسس الرينخ ويحقق الوحدة الألمانية ، ويرضخ لمنح العمال حق التصويت « كما تنبأ لامال » كانت القوى الاجتماعية والاقتصادية تتجمع وتتباور وتتضح قسماتها وكانت الطبقة العاملة تتحفز وتتكتل وكانت مجموعات الرأسماليين والأحرار والملاك تكون أحزابا خاصة بها . .

وفي أول انتخابات عقدت بعد الحرب البروسية - النمسية رشح ليبكنشت الذي كان وقتئذ مسجوناً في برلين وكونت الهيئات الثقافية العمالية حزب الشعب السكسوني على أسس قريبة من أسس إتحاد العمال وفي مؤتمر إتحاد العمال الذي عقد في إيرفرت في ديسمبر سنة ١٨٦٦ أعتمد — بشيء من الصعوبة — البرنامج الذي وضعته السكوتس هانزفيلد ، والذي كان يتضمن تكوين جمعيات عمالية تعينها الدولة تطبيقاً لمبادئ لاسال . ولكن عندما انتخب مرشح غير مرشح السكوتس للرئاسة انشقت هذه وكونت حزبا يرأسه مرشحها .

وجابهت الطبقة العاملة انتخابات ١٨٦٧ وهي ممزقة ما بين ثلاثة أحزاب كل يحارب الآخر . ومع هذا فقد فازت في كثير من الدوائر ونالت أصواتا ساحقة ففي إحدى الدوائر نال مرشحها ١٨٠٠٠ صوتا بينما لم ينل بسمارك في دأرته سوى ٦٥٠٠ صوتا وفاز ليبكنشت ، وبيبل ، وشفاتيزر بمقاعد في الرشتاج الجديد . ويمثل هذا الثالث إلى حد ما القوى الثلاث التي تجاذبت الحركة العمالية الألمانية أعنى بها النقابية والماركسية واللامالية .

وكان قطبا الحركة الاشتراكية في الستينات — حتى مطلع القرن هما —

دون منازع — ويلهلم ليبكنشت وأوجست بيبل، وأول هذين ينتمى بإيجاده إلى لوثر ، وويدج الذي تحدثنا عنه ، كما أنه أنجب كارل ليبكنشت ثأر الحركة السيرتاكوسية وشهيدها — كما سنرى — وكان ليبكنشت ثوريا هاجر في العشرين من عمره إلى إنجلترا ولكنه عاد منها سنة ١٨٤٨ وقام بدور بطولى في الثورة وكاد أن يقتل رميا بالرصاص . أما أوجست بيبل فقد كان يحكم المهنة « خراطا » وانتخب سنة ١٨٦٥ رئيسا لأحدى النقابات الحرفية — وهاجر إلى لندن حيث تعلم على يدى ماركس وأصبح من أصفائه ولما عاد أخذ يعلم العمال في جمعيات الثقافة العمالية .

وكان ليبكنشت وبيبل يوجهان الحركة العمالية الألمانية نحو الماركسية واقترحا أن يكون حزب الشعب السكسونى فرعاً للدولية الأولى ، وكان مركز بيبل بالذات قوياً فى مسكونيا التى اعتبرت من قلاع الحركة العمالية والاشتراكية وفى مؤتمر نورمبرج الذى عقده حزب الشعب فى سبتمبر عام ١٨٦٨ — وحضره مندوبون عن النمسا ومويسرا ومندوب عن الدولية « هو ايكاروس » انتخب بيبل رئيسا بأغلبية الثلثين ووضع برنامجه على خطوط ماركسية ، وأثار ذلك ثائرة بعض العناصر واتخذت مجموعة منها .

وتضمن برنامج نورمبرج فقرات نقل بعضها من مقدمة الدولية أو استلهمت من روح كتابات ماركس مثل « إن تحرير الطبقات العاملة إنما هى مهمة الطبقات العاملة نفسها » إن الحرب السياسية شرط لازم لتحرير الاقتصادى للبلوريتاريا « إن القضية الاجتماعية جزء لا تتجزأ عن القضية السياسية » « إن تحرير العمال ليس بالمشكلة القومية أو المحلية . ولكنها مشكلة اجتماعية تعنى كل دولة » .

وكلمات جهود بيبل وليبكنشت بالنجاح عندما عقد فى ايزناخ

(٧ أغسطس ١٨٦٩) مؤتمر ضم عدداً من التشكيلات العمالية والاشتراكية « التي أطلق عليها مجموعة اينزاخ » وتمخض عن تكوين « حزب العمال الاشتراكي » .

وعندما قامت الحرب الألمانية الفرنسية كان على الاشتراكيين أن يحددوا موقفهم من الحرب وأن يقرروا هل هي حرب دفاعية ومن هو المعتدى ومن هو المعتدى عليه . وكان القسم الفرنسي من الدولية قد أدان الحرب قبل إعلانها بأسبوع « إن حرباً للسيادة أو حول الأسرة المالكة هي حماقة إجرامية » ورأى الزعيم النقابي شفايتزر ومن ناحيته أن الحرب دفاعية ، وأيد المجلس العام للدولية ذلك ببرقية أرسلها في ٢٣ يوليو وأكد فيها ضرورة إبراز الطامع الدفاعي للحرب ، ومع هذا فقد أعلن عميدا الحركة الاشتراكية الألمانية ليبكنشت وبيبل أن مسئولية ألمانيا جسيمة ، كمسئولية فرنسا ، ورفضاً في البرلمان الموافقة على اعتمادات الحرب .

وبعد الانتصار قدمت الأحزاب القومية مذكرة إلى الملك طالبت بضم الألزاس واللورين واستدراك ما أغفله مؤتمر سنة ١٨١٥ وعارضت ذلك التشكيلات العمالية على اختلافها بما في ذلك النقابات التي ظلت تحت زمامة شفايتزر المعروف بميله القومية وتمصبه لبروسيا ووضعت مذكرة مضادة تنبأت فيها بأن ذلك سيضرم نار العداوة بين فرنسا وألمانيا ، وسيبير حرباً جديدة .

وأثارت هذه المذكرة حرباً على الاشتراكيين ، وأخذ بسمارك يعتقل زعماءها - وعلى رأسهم ليبكنشت وبيبل - ولكن هذا الاضطهاد أوجد أثراً مضاداً ، فقد انتشرت الكتابات الاشتراكية والثورية ، وزاد اقتراب النقابات من الفكر الاشتراكي وكان من الدلالات البارزة على ذلك سحب الثقة من شفايتزر الذي كان يحكم الحركة النقابية بيد من حديد وبعدها عن الاتجاه

الاشتراكي وفي الانتخابات التي أجريت سنة ١٨٧٤ لرشستاج نال
الاشتراكيون أكثر من ٣٥٠ ألفاً من الأصوات تمثل ٦٪ من مجموع الأصوات
ونجحوا في انتخاب تسعة نواب كان منهم بيبل ولييكنشت اللذان كانا في
السجن وظلا في السجن حقبة أخرى لأن الرشستاج رفض إطلاق سراحهما
ومن ثم فلم يدخل المجلس عملياً سوى سبعة .

وضاعف نجاح الحركة الاشتراكية من اضطهاد بسمارك لها . وضاعف هذا
الاضطهاد في نجاحها كما حدث أولاً ودفعتها للتحرك نحو الوحدة خاصة بعد إقالة
شفائتزر . وفي أكتوبر سنة ١٨٧٤ دخل لبيكنشت في مفاوضات مع تولكه
Toelke ممثل اللاساليين وهاسونكلوفر Hasonclaver الذي حل محل شفائتزر
في رأسه اتحاد معمال لتوحيد الحركة . وفي سنة ١٨٧٥ عقد مؤتمر جوتا ومثل
الايزناخيين ٥٦ مندوباً ، بينما مثل اللاساليين ٧٣ مندوباً وانتخب رئيسان هما
هاسونكلوفر للاساليين وجيب (geil) للايزناخيين بسلطات متعادلة . ووقع على
لييكنشت المهمة التي لا يحسد عليها ، مهمة وضع برنامج يجمع ما بين فريقين
متقاربين قوة ، ومتباعدين فكرة . وهكذا خرج برنامج جوتا نوعاً من
التسوية واتسم بما تنسم به كل التسويات من ضحالة ووهن . وأنه في محاولته
التقريب بين هذا وذاك يوهن هذا وذاك . .

وتقدد ماركس برنامج جوتا تقداً مرأ ، وفنده مادة مادة بأملوب حاد لاذع ،
وقد دفعه إلى ذلك - كما ذكر أنجلز - أمران : الأول بروز المضامين اللاسالية
بشكل قضى على المضامين الماركسية ، والثاني أن ماركس كان لا يزال متعظماً من
جراح معركة مؤتمر هوج Hugue Congress للدولية الذي تعرض فيها المنازلة باكونين
وبندل جداً كبيراً لإبعاده ، وكان باكونين يتهم ماركس بأنه وراء كل ما يحدث
للحركة العمالية الألمانية ، وأرسل هذا النقد الذي يحتمل مكاناً بارزاً بين كتابات

ماركس إلى بريك Bracke في ٥ مايو سنة ١٨٧٥ لمرضه على بيبل وليبيكنشت. وجيب ، ولكن هذا النقد القارص لم ينشر على الملأ أو يعلم به جمهور الأعضاء. وحفظ سرا لأكثر من خمسة عشر عاما .

وتضمن برنامج جوتا نصوصا عن إلغاء نظام الأجور وعن قانون الأجور الحديدي وعن الدولة الحرة وعن التعاونيات العمالية الإنتاجية المائة من الدولة وتحريم تشغيل الأطفال وتنظيم تشغيل النساء الخ . .

وحاول ليبكنشت إرضاء لماركس أن يعدل شيئا ما ولكنه لم يوفق تماما ، وإن كان قد نجح في تغيير اسم الحزب فحذف كلمة « الديمقراطية » وأصبح الاسم الجديد للحزب هو حزب العمال الاشتراكي (١) . ولكن هذا أيضا لم يقدر له البقاء .

ونجح البرنامج من الناحية العملية وأثبت أن ما قد يراه المنظر انتحارا قد يكون من الناحية العملية انتصارا . ففي ظل الشعارات الحماسية والمرنة التي رفعها الحزب تقاطرت الألوف وتضخمت العضوية وأصبح للحزب ١٤٥ خطيبا عاما و ٢٤ مجلة يبلغ عدد المشتركين فيها مائة ألف . وفي انتخاب يناير ٧٧ ارتفع عدد النواب الاشتراكيين إلى ١٢ نائبا .

وأقضى ذلك مضجع المستشار بسمارك ، فع أنه في فترات عديدة كان يدخل في منازعات مع الأحزاب إلا أن الحزب الاشتراكي لم يكن من أحزاب «النظام» كما قيل وكان يحمل حملة شعواء على سياسة بسمارك التوسعية والامبريالية. وفي ١٩ مايو سنة ٧٨ أطلق عامل يدعى هودل Hotel النار على عربة

(١) الحزب الاشتراكي الديمقراطي تأليف عبد الرحمن المشهداني ص ١٤ مؤسسة فردريك ايبرت .

الإمبراطور وهي تعبر الا تردن لندن ، ولم يصب أحد وقبض على هودل . واستغل بسمارك هذا الحادث لكي يضرب الاشتراكيين ضربة قاضية ففي مايو عرض على الوشتناج قانوناً لمكافحة الاشتراكية ، وفي مواجهة هذا الاتجاه قدم لينكشت باسم الاشتراكيين بياناً جاء فيه :

« إن النية المبيتة على استغلال عمل رجل مجنون ، قبل أن تقول العدالة كلمتها للقيام بإجراءات كالبحة وضعت من وقت بعيد ضد حزب يدين الجريمة في كافة صورها هو أمر من الواضح لسكل محايد بحيث يجعلنا نحن الاشتراكيين الديمقراطيين — نقدم الآتي :

« إننا نعتقد أنه مما لا يتفق مع كرامتنا أن نقوم بدور في مناقشة قوانين الإقصاء exclusion الموضوعة أمام البرلمان ولن نسمح بأى إهانة كائنة ما كان مصدرها — بأن تثيرنا . ومنشترك في التصويت لأننا نرى من واجبنا أن نأكد من أن هجوماً مثل هذا لن يشن على إرادة الشعب وسنعمل كل شيء ممكن للحيلولة دون مثل هذا الهجوم . وسنثبت أصواتنا .

« إن الوشتناج سيتفق على الإجراء الذي يفضله وسيواجه الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان — وقد ألفوا الكفاح والاتهام — أى كفاح واتهام جديد بالهدوء المطلوب لقضية عادلة ومنيعة » .

وقهر بسمارك في هذه الجولة فقد أيده ٥٧ عضواً وعارضه ٢٥١ . ولكن فرصة جديدة منحت له لإعادة الكرة ، ففي يونيو أطلق الدكتور كارك نوبينج من شقته المطلة على انتردن لندن طلقتين على الإمبراطور وأصابه بجرح بالغ ودخل الجاني إحدى الغرف وأغلق عليه الباب وأطلق على نفسه النار . . . ولم يكن بسمارك بالطبع ليفلت هذه الفرصة فحل الرشتناج وأثارت الصحافة المشاعر على العمال والحزب الاشتراكي بحيث ألصقت الجريمتان

بالحزب، وربطت الثانية بالأولى وامتنعت العناصر الموضوعية - كعلاقة الجائين بالحزب أو البواعث على الجريمة - من التحقيق، وأديرت الانتخابات التي أعقبت الحل بذكاه، وفي مناخ يضطرم بالسخط على الاشتراكيين، ففقد الاشتراكيون عدداً من مقاعدهم، وكسب المحافظون ٣٨ مقعداً، ورغم ذلك فقد احتفظ الاشتراكيون بنسبة مقاعد وعاد أبرز زعمائهم - بيبيل وليكنشت لأن سكسونيا ثبتت مع الاشتراكيين ولم تخذلهم ساعة الحنة .

وقدم بسمارك قانونه الاستثنائي للمجلس، وكانت الفكرة التي قام عليها إن الآراء المريضة « الباثولوجية » للاشتراكية - عدوة المجتمع والدولة - لا يمكن أن تقع بالقانون العادي ومن هنا كانت الحاجة إلى هذا القانون الاستثنائي « ووافقت كل المجموعات البرلمانية عليه بحماسة، باستثناء الحزب الكاثوليكي الذي تردد شياء ما وعرض فكرة أن تشديد قانون العقوبات قد يكفي^(١)، بينما رأى المحافظون أن يجرم كل الناخبين الاشتراكيين من حق الانتخاب . وفي النهاية ظفر القانون بمرافقة ٢٢١ صوت ضد ١٤٩ ووضع موضع التنفيذ بعد يومين، فالغيت كل الصحف الاشتراكية وحل الحزب وكافة منظماته وكل التشكيلات العمالية بما فيها النقابية، وصدورت الأموال ونفي أو سجن الألو ف . ومن لم ينف أو يسجن فصل من عمله . وشبه أحد الاشتراكيين هذا الاضطهاد الجماعي بما وقع للسيحيين أيام الاضطهاد الروماني وقال « إنهم لا يدفنونا تحت الأرض، وإنما يفرسون بذورنا » وتنبأ ليكنشت بأن هذا الاضطهاد سيوحد صفوف الحزب، ويحول دون انقسامه، وأن بسمارك سيكون هو الخاسر في النهاية .

(١) والسكى تفهم هذا الموقف يجب أن نعلم أن الحزب الكاثوليكي نفسه كان حزباً أفضلية . مضطهداً، وقد أعلن عليه بسمارك سنة ١٨٧٣ - ر.أ. ضروساً هو التي حملت اسم « الحركة الثقافية Kultur kumpf » .

وتحققت هذه النبوءة . فرغم كل صور السكبت واستخدام الأحكام العرفية فإن الحركة الاشتراكية لم تتحمل ، على العكس . . لقد ازدادت قوة وغير بسمارك من سياسته فأراد أن يكسب العمال لصفة بإدخال بعض صور الإصلاحات والتأمينات الإجتماعية ، ولكن هذا . وأن أثر على بعض الاشتراكيين ، فإن الهدف منه لم يندق على ذكاء معظم الاشتراكيين ، خاصة وقد كانت تلك هي الفترة التي ظهر فيها جيل جديد من المفكرين الاشتراكيين كان أبرزهم « برنشتين » الذي عهد إليه بتحرير مجلة الحزب السرية « الاشتراكي الديمقراطي » بعد أن استقال فولمار من رئاسة تحريرها . ومثل « كاواسكي » وهو من أصل تشيكي . وكان أبنا لممثلة أشتهرت بتمثيلها قدر أشهرها بكتابتها الاشتراكية وأخذ يعرض أفكار ماركس وإنجلز في صحيفة أصدرها في ستوتجارت . وفي ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣ عمده الحزب مؤتمرا في كوبنهاجن حضره ستون مندوبا من كل أنحاء ألمانيا ، ورفض المؤتمر تقبل إصلاحات بسمارك وقرر التمسك بكل الأفكار الاشتراكية وعندما عقدت الانتخابات في أكتوبر سنة ١٨٨٤ حاز الحزب الاشتراكي المنحل ٢٤ مقعدا ، وأثار هذا المستنثار الحديدي . وفي سنة ١٨٨٧ أراد بسمارك زيادة عدد الجيش ووضع ميزانية عسكرية لسبع سنوات ولكن المجلس رفض هذه المطالب ولم يستجب إلا لجزء منها فأستصدر بسمارك قراراً بحله ، وشن حملة دعائية شرسة وأدعى أن فرنسا متعلن حربا على ألمانيا لا تكون مستعده لها . واستخدم أساليب الأرهاب بحيث فاز في الانتخابات التي عقدت في فبراير سنة ١٨٨٧ بأغلبية كبرى وحقق مطالبه .

ولكن حدث وقتئذ ما أنزل بسمارك من عليائه ، فقد مات الملك وللم الأول وتولى حفيده الملك وكان يريد أن يظهر بمظهر حامى العمال والشعب ونصير العدالة وأميراطور الألمان جميعا . وعندما أضرب تسعون ألفا من فخامى

وستفاليا ومنطقة الرين أستقبل وفد المضربين ووعدهم خيراً ، وإن كان قد أعرب عن رضائه عن أن الاضراب ليس من فعل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي يراه « عدوا للوطن والامبراطور » .

وفي سنة ١٨٩٠ إلى الرشتاج قانون مكافحة الاشتراكية وعندما حانت الانتخابات كسب الاشتراكيون ٣٥ مقعدا وخسر المحافظون والوطنيون ٨٥ مقعدا . وجن المستشار فبعد عشرين عاما من مقاومة الاشتراكية ، زاد عدد النواب الاشتراكيين عما كانوا عليه في أى وقت مضى وأراد بسمارك حل المجلس ولكن الامبراطور رفض . . وكان ذلك من المسائل التي كانت محل خلاف بين المستشار والامبراطور . . وأدت في النهاية إلى انسحاب المستشار . . .

وبقدر ما كانت هزيمة المستشار ممضة ، بقدر ما كان أنتصار الاشتراكيين مدويا . فزادت الصحف الاشتراكية إلى ستين وجاوز عدد المشتركين فيها ٢٥٠ ألفا وفاقته عضوية الحزب مليوناً والتحققت للمرة الأولى بإعداد كبيرة من النساء . وبدا جليا أن الحزب يستقبل فترة جديدة يكون عليه أن يستمد لها استعداداً مذهبياً وتنظيمياً .

وفي أواخر عام ١٨٩٠ دعا أوجست بيبل إلى عقد مؤتمر استثنائي للحزب في مدينة هال . وفي هذا المؤتمر تقدم ليبكنشت ، الذي تولى وضع برنامج جوتاه ، بإقتراح إعداد برنامج جديد للمؤتمر القادم للحزب وهو مؤتمر أيرفوت .

وفجر هذا المؤتمر كل النزعات المكبوتة التي كانت سياسة الاضطهاد قد أبعدها حفاظاً أعلى وحدة الحزب ، وأسرع انجاز فأعلن نقد ماركس لبرنامج جوتاه الذي لم تعرفه جماهير الأعضاء حتى ذلك التاريخ لكي لا يتكرر الأخطاء وواصل الاتصال خاصة بـ ككاوتسكى — النجم الصاعد في سماء التنظير الماركسي ،

ومنفذ وصية أنجلز فيما بعد — وكانت هناك مواقف حرجه وحسامه كان يجب على المؤتمر أن يفصل فيها كمنظرة الحزب إلى القانون والدين والكنيسة . وموقفه من التجمعات الرجعية والأحزاب الأخرى والفلاحين . . . الخ . . .

وبرز في مؤتمر أير فورث ثلاثة فرسان هم ليبكنشت وكاوتسكي وبيبل . وكان أولهم ليبكنشت - يؤثر على أعتراه بنقص برنامج جوتا القصد وعدم التطرف في رفع الشعارات النظرية . وكان يرى أن أنجلز وأن كان حجة في التنظير ، إلا أنه لا يلم بالتطورات والوقائع والاضاع العملية في ألمانيا . وأعتقد أن التمسك بالشعارات قد يؤدي إلى عدم الحصول على مكاسب ، أو فقد ما أمكن الوصول إليه منها في حين أن تحقيق الانتصارات الجزئية سيشجع الجماهير على الاستمرار في النضال

ولكن كاوتسكي — كأي « غربال » جديد مشدود — قاوم هنا الاتجاه ورأى أن الأخذ به سيمكن القوى الرجعية من أن تنطلق ضد الطبقة العاملة وأن تنظير البرنامج والإلتزام به سيكون أكبر كمنز إحتياطي يهود إليه الحزب لتعميق أفكاره ويحول دون افلاسه الفكرى .

وتوسط بيبيل — وهو رئيس الحزب . . . الاتجاهين وحرص على الاحتفاظ بوحدة الحزب ، ولما كان الفريقان السابقان متكافآن تقريبا ، فقد قام بيبيل بالصياغة وحقق لكاوتسكي أكثر مما حقق لليبكنشت ، وتقبل أنجلز البرنامج دون رضا كامل . وإن كان قد هنا كاوتسكي وشكره على جهده .

والواقع أن أنجلز كان قد أرسل نقد ماركس لبرنامج جوتا لا بفكرة . تجنب أخطاء جوتا فحسب . ولكن للأخذ بما اقترحه ماركس ، ولكن برنامج أير فورث لم يحقق إلا الجانب السلبي من هذا الفرض . فلافكار اللامالية التي أتتدها ماركس بشدة — « التعاونيات المعانه — قانون الاجور

الحديدي — الدولة الحرة) أستبعدت ولكن البرنامج أغفل المبادئ الايجابية التي اقترحها ماركس ، كالثورية ، وديكتاتورية البلوكتاريا .

وكشف أيرفرت عن وجود خلاف منتهي كان محصورا من قبل بين المنظرين ، أو حتى في أذهانهم ، ولم يتسرب إلى الجماهير وكان هؤلاء المنظرون لاسباب عديدة لا يتسع لها المجال هنا وقد نشير إليها في مناسبات لاحقة يقدر بعضهم بعضا وكان يمكن لكل واحد أن يقف موقفه ولكن السنوات التي تلت أيرفورت أدت إلى تطورات جديدة وأظهرت أيضاً فرسانا أكثر حدة وتصميا مثل روزا لوكسمبرج وبارفوس وفجرت قضايا أكثر اشتعالا حملت في مجموعها اسم « التنقيحية » فبدأت الدوامة الكبرى للجدل اللذهي وكشفت المناقشات عما كان مستورا من نطق الضعف وكان كل منفي فيها يعمقها ويوسع الهوة حتى قامت الحرب العالمية الأولى ووضعت الجميع أمام الأمر الواقع والاختيار الذي لا يحتمل المعارض أو التسوية وكشف مرة واحدة وبكل قسوة المأساة .

ومع أن التنقيحية التي كانت أولى الأعراض — وفي الوقت نفسه الأسباب — في الجدل العظيم لم ترزق شهرتها إلا مع أوائل القرن العشرين فإنها قد بدأت في تسعينات القرن التاسع عشر ، ولم يكن الرجل الذي فجرها بعيداً عن الماركسية أو خارجا عليها ، لقد كان في قلب الحزب وأحد رجالاته البارزين . ذلكم هو ادوار برنشتين الذي كان يشرف على جريدة الحزب وعند الاضطهاد البسماركى هاجر إلى لندن حيث تعلمد على يدى أنجلز وأصبح محل ثقته ، وعكف مثل ماركس على الدراسة النظرية ، وتأثر مثله بالأوضاع البريطانية ، ولكنه خرج من دراسته بوقائع ونتائج تختلف عما انتهى إليه ماركس . فقد كان ماركس يعيش في أعقاب « الأربعينات الجامعة » بينما عاش

• — ظهور وسترط

برنشتين فترة الازدهار الرأسمالى وشاهد بعينه كيف أن الرأسمالية تمضى قدما وأنها أبعد ما تكون عن التحلل وأن الطبقة العاملة البريطانية تزيد حصتها من مكاسب الرأسمالية وترفع مستوى معيشتها بفضل العمل النقابى والتشريع البرلمانى . ولم ينكر برنشتين للماركسية ولكنه لم يرب فيها العقيدة الدينية المعصومة ، وقد أراد أن يفصل ما بين الناحية العلمية المجردة وبين التطبيق العملى لها فى ظروف خاصة وتبعاً لتطور النظام الرأسمالى ، فلما كانت الرأسمالية قد أثبتت قدرتها على التكيف فن اخطأ أن يعلق الحزب أهمية كبرى أو أن يضع استراتيجيته على أساس الأزمات الفادحة التى تزلزل الرأسمالية . ولما كان التقطب الذى تصوره ماركس لم يحدث ، بل حدث العكس فالتسعت قاعدة الطبقة الوسطى كما تحسنت حال العمال ، فإن الصورة الثورية القائمة على التقطب تفتنى ويصبح الحديث عنها عنها ضاراً لأنه يثير مخاوف حلفاء محتملين .

وعندما نشر برنشتين هذه الآراء فى مجلة نيوزيت Neue Zeit لم تثر وقتئذ هجوماً كاسحاً . ولكنها ما أن رزقت قدراً من الذبوع حتى ظهر شعور بالعداء لها بين المنظرين الماركسيين ، وعلى رأسهم كاوتسكى ، وعندما علم برنشتين أن كاوتسكى سينير هذا الموضوع فى مؤتمر الحزب فى ستوتجارت سنة ١٨٩٨ أرسل دفعا قرءه ببيل وتلاه كاوتسكى فأعرب عن دهشته لأن برنشتين يناقش موضوعات لا خلاف عليها « فالاشتراكية الديمقراطية ستفعل ما بوسعها للقيام بالإصلاحات الديمقراطية والاقتصادية وتنظيم الطبقة العاملة » واستطرد « ان برنشتين يعتقد أن التطور الاجتماعى سيتم بسلام - لا دون كفاح ولكن دون كوارت كبيرة - فالبلورينارىيا تكسب يومياً حقوقاً أكثر فأكثر وتكسب قوة اقتصادية عن طريق الحركة النقابية وبفضل نفوذها فى الجمعيات والتعاونيات . الخ . . . وبهذا سيحل الانتاج الاشتراكى محل الإنتاج الرأسمالى حتى يتحقق المجتمع الاشتراكى . وقد أقام برنشتين

هذه الفروض على أساس دراسته للحركة النقابية البريطانية ، ولكن النقابات البريطانية لما تصبح بعد اشتراكية ولا تزال تحت نفوذ الليبرالية البورجوازية . ولو أن الطبقة العاملة شجعت السياسة الاشتراكية المستقلة لانقلبت عليها البورجوازية ولوضعت نهاية لهذا التطور السامى . وقد تخلت التحررية الألمانية منذ مدة عن تظاهرها بالديمقراطية . وليس هناك اليوم حديث عن توسيع دائرة الحقوق . ولكن عن الانقلاب وإلغاء الحقوق الانتخابية . والسجون .

إن انتصار الديمقراطية في ألمانيا لن يتحقق إلا عن طريق انتصار البروليتاريا ، والصراع في سبيل الديمقراطية يجب أن لا يتمجنباً إلى جنب البورجوازية . ولكن ضدها وما من واحد يستطيع أن يقول إن هذه المعركة ستنتهى بكارثة . وإنما يكون على الاشتراكية الديمقراطية أن تقوم بهذا الكفاح وما دامت واثقة من نفسها ، وعليها أن تقوم به لا على الأسس التي وضعها برنشتين ولكن تبعاً للملابسات . -

ولكن هذا دفاع كسيح ، وفي السنة التالية (١٨٩٩) أصدر برنشتين كتابه « مقدمات الاشتراكية ومهام الاشتراكية الديمقراطية » .

وخصص المؤتمر الثانى — مؤتمر هانوفر — لمناقشة هذه القضية وحدها . وتحمّل عبء الهجوم ببيل الذى تحدث لمدة خمس ساعات متواصلة استعملها بأن الحزب لا يؤمن بمقيدة جامدة (dogma) حيث أن برنامجنا تغير ثلاث مرات خلال ثلاثين عاماً وقد نبذنا قانون الأجور الحديدى وأن العمل مصدر الثروة وأن البورجوازية كلها رجعية ، كما شفيينا من وهم أن التعاونيات المعانة فيها خلاص الطبقة العاملة ولكن برنشتين يبنذ أساسيات الماركسية حيث أنه يهاجم فسكرة مادية التاريخ ونظرية القيمة ، ونظرية البأساء المتفاقة .

وظلت المناقشات المذهبية محتدمة لأكثر من ثلاثة أيام وأخيراً أصدر المؤتمر القرار الآتي (بأغلبية ٢١٦ إلى ٢١) .

« إن تطور المجتمع البورجوازي يدفع الحزب لأن يحتفظ بأفكاره الأساسية ..
إن الحزب اليوم - كما كان بالأمس ينشغل في الصراع الطبقي وطبقا لتواعد هذا الصراع فإن تحرير الطبقات العاملة إنما يكون بالعمل أنفسهم وأن غزوة السلطة السياسية بمساعدة العمال « وتشريك » وسائل الإنتاج والتبادل بهدف إيجاد أفضل حال يمكن الوصول إليه للجميع هي المهمة التاريخية للبوريتاريا .

ولتحقيق هذه الغاية ، فإن على الحزب أن يستخدم وسيلة تتفق معها دون أن يقع في أي وهم يتعلق بطبيعة الأحزاب البورجوازية . والحزب الاشتراكي لا يرفض التعاون العرضي معها ، وإن كان في الوقت نفسه يتخذ كل الإجراءات لتعزيز نفسه وتوسيع الحقوق السياسية وحرية الشعب وتحسين الوضع الاقتصادي للطبقات العاملة والكفاح في سبيل التعليم العام ، ولكن الحزب يظل مستقلا ، ويرى في كل نجاح يناله مجرد خطوة تقربه من الغاية المنشودة ..

وبالنسبة لتكوين التعاونيات فإن الحزب يمان حيناده . وهو يرى أن تكوين مثل هذه التعاونيات من ناحية المبدأ وسيلة مناسبة لتحسين الحالة الاقتصادية لأعضائها وهو يرى أنها - كالتنظيمات البروليتارية التي تؤسس لضمان مصالح الطبقات العاملة وتوسيعها - وسيلة لتعليم العمال وإعطائهم استقلالاً في شئونهم ، وعلى الرغم من ذلك فإن الحزب الاشتراكي لا يعلق أهمية حاسمة على التعاونيات في موضوع تحرير الطبقات العاملة من عبودية نظام الأجور .

ويواصل الحزب سياسته في مقاومة العسكرية ويؤيد سياسته الخارجية التي توجه نحو مواخاة الشعوب وبوجه خاص بلوريتاريا الشعوب الأخرى .

وكما يمكن أن يرى — فليس هناك من سبب يجعل الحزب يغير مبادئه أو تكتيكاته أو إسمه ليصبح مجتمعاً ديمقراطياً اشتراكياً وإصلاحياً، ومن هنا فإن موقفه من الدولة والمجتمع والأحزاب البورجوازية لا يمكن أن يغير، وجاء الرد الذي مزق التذقيحيه وهتك استارها من روزالو كسمبرج التي كانت وقتئذ في ميعة العمر وأوج التآلق والنبوغ .

وعنيت روزا بتنفيذ ما أورده برلشتين من وقائع على أساس أنها غير صحيحة أو كاملة أو أنه اساء فهمها وتأويلها . ولما كانت ذات مقدره فذه على الجدل وذاكاء حد ينفذ إلى الأعماق ويتبين بسرعه الوجه الآخر في كل شيء فقد توصلت بسهولة إلى تنفيذ بعض نتائج برلشتين وتشويه البعض الآخر بعرض الوجه المقابل لها وتعميقه ، فالازمات مثلا لا تعوق الرأسمالية تماما، ولا تمد عرضا سيئا في الرأسمالية وإنما هي أدوات للتنفيس والتخلص من الفوائض ليتمكن تسيير عجله الانتاج من جديد فإذا توقفت الازمات ، كما لاحظ ذلك برلشتين فسيؤدي هذا إلى اختناق النظام ، والائتمان المصرفي وما أوجده من مرونة يخضع لالية النظام ، ومن ثم فلا يمكن أن ينظر إليه باعتباره وسيلة للتسكين إذ هو جزء لا يتجزأ من النظام وهو يدفعه ولكنه يدمره في النهاية لأنه يفاقم للتناقضات الداخلية للرأسمالية، بل إن مضى النظام الرأسمالي دون هوائق سيؤدي إلى التخفيض المتوالى في نسبة الربح نتيجة لنمو إنتاجية العامل ، وهذا يؤدي إلى استحالة ظهور المنشآت الصغيرة والمتوسطة .

ولكن هذا الجانب لا يمثل إلا الجانب الأقل شأنًا من رد روزا لأن الشيء الذي كان يهها كمنظرة ماركسية هو كشف خطورة منطق برلشتين وكيف أنه يسلم أحبابه من جوهر الماركسيه ويحملهم يرقون منها ولا يتمسكون منها إلا بالقشور ، وأنه يحل نماذج الفكر البورجوازي يحل التفكير البلوريتارى

ويجعل المؤمنين به يمتصون الأساليب البورجوازية كالحكم على كل حالة طبقية لمزاياها وحسب الوقت الخاص بها ، الأمر الذي يؤدي إلى تحكم التجربة في النظرية بدلا من الاستهداء بالنظرية عند التطبيق وبذلك تمزق الوحدانية بين النظرية والتطبيق ويضحي بالمبادئ في سبيل التكتيك وأن المقدمات التي ساقها تستتبع الاقلاع عن الكفاح السياسي الثوري للسيطرة على السلطة ما دام العمل النقابي / البرلماني سيحقق للاشتراكية ما تريده فأوضحت روزا أن العمل النقابي / البرلماني إنما يكون هاما للاشتراكية باعتباره وسيلة لتوعية العمال وتدعيم تنظيمهم . الأمر الذي يوجد العامل الذاتي subjective للتحويل الاشتراكي أما برنشتين فإنه يرى أن العمل النقابي / البرلماني يخفض شيئا فشيئا من الاستغلال الرأسمالي وبهذا يجرّد النظام من طبيعته الرأسمالية وبالتالي يتحقق موضوعيا objectively التغيير الاشتراكي .

وأظهرت روزا النقطة التي فانت برنشتين ، إلا وهي أنه ما لم يكن وراء العمل النقابي / البرلماني فكرة اشتراكية أصيلة (بالمعنى الماركسي الحقيقي) أو إذا حدث انفصال بينهما . فإن العمل النقابي / البرلماني سيكون غاية في حد ذاته وبالتالي لن يكون اشتراكيًا بل وقد يسير في اتجاه عكس . .

ورد برنشتين أن النقابات ما أن تبدأ المكابح حتى تمضي قدما لأن الشبهة تتفتح مع الأكل « ولن يقنع العمال حتى يحققوا التحول الاشتراكي » ولكن روزا قالت إن هذا الكلام صحيح من الناحية النظرية فحسب ولكنه ليس كذلك من الناحية العملية إلا إذا كان من الممكن إقامة سلسلة متكاملة متصلة من الإصلاحات تؤدي في النهاية إلى الاشتراكية وهو أمر خيالي . والاكثر احتمالا أن تنقطع السلسلة في نقطة قبل الاشتراكية بكثير أمام عدد من الطرق البديلة والمتنوعة .

ومن ناحية للنشاط الحزبي فإنه ما أن يجمل الحزب « النتائج العاجلة » هي الغاية الرئيسية فإن فكرة الكفاح للاستحواز على السلطة ستتضاءل والنتيجة أن يصطنع الحزب خطة المناجزة السياسية والتنازل عن نقطة لقاء كسب نقطة أخرى ، والتسوية الخ... وأهم من هذا أن اهتمام السلطات بالحزب ورضوخها لمطالبه وتسليمها بتحقيق اصلاحات إنما يعود في حقيقته الحال إلى القوة الثورية للحزب وأن هذه الاصلاحات ليست إلا ترصيه للحزب وابعاد فكرة الثورة أو تسويقها فإذا جرد الحزب نفسه من هذه الفكرة ، فإنه سيجرد نفسه من رأسماله ومصدر قوته ، وعندئذ فأغلب الظن أن لا تأبه به السلطات ولا تحقق شيئاً من الاصلاحات ، فالمنهج الاصلاحى يهزم نفسه بنفسه .

يمثل هذا المنطق تناولت روزا لوكسمبرج التنقيحية في رسالتها « من الاصلاح الاجتماعى إلى الثورة » ومجموعة مقالاتها التي نشرت سنة ١٩٨ ، ٩٩ ولا تعطى هذه الاشارات إلا صورة مقتضبة ، وقد تكون باهته ، لما اتسمت به من قوة ونفاذ .

مع هذا كله لم ينجح النقد النافذ ولا قراوات الحزب في القضاء على التنقيحية أو ابعاد برنشتين لا من الحزب ولا من الرشتاج ، وظل برنشتين محل تقدير الأغلبية وقص ادولف ستورمال كيف أنه عندما توفي هرمان مولر سنة ١٩٣٠ واحضر برنشتين الذى كان قد شل نصفه الأسفل ليحيى للذرة الأخيرة زميله القديم « خلع كل الموجودين قبعاتهم » .

ولو نساء لنا لماذا قاومت التنقيحية هذه الهجمات لسكانت الإجابة عدداً من الحقائق أبرزها أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى وإن كان قد خاض معركة كفاحية أيام الاضطهاد وأنه أظل يحمل لواء الاشتراكية وأن أوامر عديده تجمت ما بينه وبين ماركس باعتباره المفكر الاشتراكى

الألمان الإشبهر ، إلا أن الحزب لم يقل ابدا أنه ماركسي تماما ، حتى عندما نبد الأفكار اللاسالية في مؤتمر ايرفورت ، ورغم نقد ماركس لبرنامج جوتا ، وما ظم به أنجز من جهود واتصالات ، فقد أغفل الحزب الجوانب الماركسية الايجابية والثورية . ولم يقف الحزب هذا الموقف لأنه يماضى الماركسية ، على العكس إن قائديه البارزين ليبيكنشت وبيل تلمندا على ماركس وكانا يكتنان له عاطفة عميقة ، وبالمثل فإن كاوتسكى وبراشتين تلمندا على يد أنجز وكانا يريان فيه استاذهما غير منازع . فلو أنساق قاداته مع ميولهم الشخصية لمضوا قدما في الماركسية ، ولكن الأوضاع حالت دون ذلك وكانت بعض هذه الأوضاع خاصة بالمانيا وبعضها الآخر خاص بالحزب ، فبالنسبة لألمانيا فإن إزدهار الاقتصاد الألماني وكثرة عدد الطبقة العاملة ونجاح الحركة النقابية وعناية الدولة بالنظم التأمينية والمؤثرات الشعبية والنفسية الألمانية التي تبرز فيها الوطنية بالطاعة والولاء هذه كلها لم تكن تشجع الاتجاه الثورى . وبالنسبة للحزب فإن نجاحه في دخول البرلمان وصلته الوثيقة بالنقابات وتعدد فروعه وصحفه ومقارعه وموظفيه كلها كانت تمقل به وتجعله أشبه «بالارمادا» الذى يعجز عن المناورة السريعة فنجاحه نفسه كان يجعله يعجز عن العمل الثورى قدر ما لا يجد داعيا له حتى لو امتطاع . فقد كان هناك علاقة وثيقة ما بين حجمه وطبيعته . . والوسيلة التي ينجحها ، فحجمه الثقيل كان يجعله أداة ضغط ويكفل له النجاح قدر ما كان يحول دون أن يكون أداة مناورة وثورية ، بل قد يمكن المضى إلى ما هو أعق ، فنشأة الحزب الأولى كانت مطلبية أكثر منها نظرية وكان العرق اللاسالى — العمالى أكثر عمقا وتأثيرا من العرق الماركسى — الاشتراكى . ومعنى هذا أن الحزب لم يكن يطلب الثورة للثورة . ولكن كان يريد تحقيق مطالب ، وبقدر ما تتحقق المطالب بقدر ما تقل الحاجة إلى الثورة .

ومن الناحية الموضوعية المطالعة ، فن الواضح أن النتائج التي انتهى إليها برنشتين كانت واقعية إلى حد كبير ، حتى وإن كان الأساس النظري الذي قدمه واهيا بعض الشيء وأن عرض روزا لمتناقضات الرأسمالية رغم أحكامه للنظري أو ربما لهذا السبب نفسه لم يكن واقعيا دائما ، وأن إصرار روزا على مهاجمة التنقيحية قدم لها دعاية لم يكن برنشتين نفسه ليستطيع تقديمها ، ولعل هذا كان من العوامل التي جعلت كاوتسكي وغيره من أقطاب الحزب يؤثرون أن تمر التنقيحية حتى لا تفجر مناقشتها ضجه تحول المتهم إلى شاهد وتثير أزمة عقائدية تؤدي بالبقية الباقية من الايمان في الأغلبية المترددة، حتى وإن زادت الإقلية المؤمنة إيماننا .

الفصل الرابع

صراع الأفكار والوقائع

تطور الاشتراكية الألمانية من بداية القرن العشرين
حتى الحرب العالمية الأولى .

كانت ألمانيا تودع القرن التاسع عشر ، وتستهل القرن العشرين في مناخ
أبرز ما إتسم به هو الصراع بين الأفكار والوقائع .

من الناحية السياسية كانت ألمانيا قد حققت وحدتها ودعمتها ، وطوت تلك
المشاعر القومية التي تملكتهم أحرار ألمانيا وكتابها العظام وارادوا بها استنهاض
ألمانيا المنكسكة للثورة على الهيمنة الفرنسية ، وأفسحت المجال لمشاعر أخرى
لا تقل عمقا عن الأولى : إن ألمانيا أشبهت « الضيف الثالث عشر على مائدة
التاريخ » وأنها ظلمت حقها « المشروع » في التوسع الاستعماري وعمل أعداؤها
على تفويت الفرصة عليها ، وأنها ، وهي التي يماثل سكانها سكان فرنسا وبلجيكا
وهولندا معا ، لاتضع يدها على مثل ما توضع عليه أصغر هذه الدول . وأن
« العدالة » الأوروبية تقضى بأن تتحمل ألمانيا نصيبها من عبأ الرجل الأبيض ،
ولم يكن ما حصلت عليه بالفعل في الصين أو أفريقيا الغربية ليقنعها ، على
العكس إنه كان ينتح شهيتها . .

كانت هذه المشاعر عميقة فعلا ، وتقمصت لبوسا وطنيا لأن المناخ الأوربي
كله كان يسبح في تيار استعماري ، ولم يكن من الطبيعي أن يحرم على ألمانيا

ما يحلل لبريطانيا وفرنسا ، أما أن الاستعمار بأسره جريمة بشعة ، ووصفة في التاريخ الأوروبي ، وأن عبأ الرجل الأبيض المزعوم ليس في حقيقة الحال إلا أخس صور النهب والسلب والقتل والوحشية ، فهذا ما لم يختر «الوطنيين» الألمان ، بل ولا لغيرهم . إذ لم يكن أهل أفريقيا السود أو أهل آسيا الصغر ناسا كناس أوروبا . ولم يكن أكثر المفكرين الأوروبيين تحررا وأسانية ليتصور تطبيق القيم والنظم التي تطبق في المجتمع الأوروبي من حرية أو عدالة أو احترام للحقوق على الشعوب والجماعات الأفريقية . . أو يخطر له تلك المثل الإنسانية العالمية التي نادى بها الإسلام وطبقها محمد وخلفاؤه الراشدون منذ أكثر من عشرة قرون ، فجريمة ألمانيا هنا هي كجريمة بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا ، وإذا كانت الوحشية الألمانية قد فاقت في بعض الحالات وحشية بريطانيا أو فرنسا فلأنها كانت قد تعلمت على يد السابقين بحيث فاق التقليد أستاذه .

ولم يقتنبه الوطنيون الألمان ، وقد استغرقهم هذه السيكولوجية الأوروبية التي ورثها أوروبا عن الرومان أن هناك تفرقة حادة بين مشاعر الوطنية القديمة التي استهدفت تحقيق الوحدة والاستقلال لألمانيا وإنقاذها من السيطرة الفرنسية، ومشاعر التوسع الاستعماري والعمل لاستعمار البقية الباقية من آسيا وأفريقيا ، فقد اعتبرت كلها مشاعر وطنية نبيلة تستهدف عزة ألمانيا وكرامتها وأن لا تقل منزلتها عن منزلتها الأوربية بحيث أستمز ذلك التقليد الجماهي الذي جعل من الجامعات أيام التحرير مدارس للمبارزة واستخدام السيف . ولم توضع السيوف في أعناقها بمد تحقيق التحرير بوقت طويل ، لقد ظلت مجردة ، مشهورة لكي تنيل ألمانيا حقها المشروع في الاستعمار ومكانها تحت الشمس ، ومقعدها في المجتمع الدولي ، وظل الطلبة يستشعرون بعد الوحدة المرارة التي كانوا يحسونها قبل الوحدة .

وأضرم هذا كله أن كان على رأس ألمانيا قيصر بروسي يؤمن بالمسكرية كسكل أسلافه ، ولا يظهر إلا مرتدياً زيه العسكري بخوذته المعدنية اللامعة التي يملوها نسر محلق ، ووسط الضباط والجنود ، وأن زين له هذا الاتجاه بطانه تمد له في غيه . . وقد كانت وصية هذا القيصر لجنوده الذاهبين لتأديب الصينين أن يقسو ويقتلوا . . « حتى لا يجرؤ صيني . . لألف عام أن يرفع عينه في وجهه ألماني » . ١ .

وراء هذا الفيصر وضباطه كانت القوة الحقيقية الصلبة للتوسع ألا وهي الرأسمالية الصناعية الألمانية التي كانت قد بلغت أعلى مراحلها واستطاعت أن تعوض تخلفها بالعلم والإدارة والتركيز بحيث أصبحت القوة الثالثة في العالم بعد الولايات المتحدة ، وبريطانيا وكانت بريطانيا تتأخر شيئاً ما بقدر سبقها القديم ، وارتباطها بوسائل إنتاج قديمة ، وابتعادها عن التنظيم الإداري والتركيز التي كانت ألمانيا سباقه فيها ، ولولا ما كانت بريطانيا تستمد من مستعمراتها لتخلفت اقتصادياً في كل شيء تقريباً وراء ألمانيا .

وقبل سنة ١٩٠٢ لم تصدر ألمانيا شيئاً يذكر من رؤوس الأموال إلى الخارج ، ولكنها سنة ١٩٠٢ صدرت ١٢٥ بلليون فرنك وفي سنة ١٩١٤ ارتفع الرقم إلى ٥٤ بلليون .

وسارت عملية التركيز الصناعي بدرجة لم تسبق حتى في الولايات المتحدة . ففي صناعة الكهرباء . مثلاً كانت سبع أو ثمان مجموعات من الشركات تسيطر — في مستهل القرن — على الصناعة . وفيها بين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٣ أندجت هذه المجموعات في شركتين عملاقتين هما جنرال الكتريك A.E.G. وشركة سيمس . وسيطرت الأولى على ١٠ بين ١٧٥ و ٢٠٠ شركة ، وعلى رأس مال يقارب بلليون ونصف بلليون مارك بينما قدر رأس المال الذي تستثمره

صناعة السكر بآء الألمانية فى المارج بمبلغ ٢٣٣ مليون مارك .

وفى ١٩١٠ أنفقت الشركتان العملاقتان ، شركة جنرال اليكترىك الأمريكية وشركة جنرال اليكترىك الألمانية على إقتسام أسواق العالم فصارت الولايات المتحدة وكندا من نصيب الشركة الأمريكية، وألمانيا وفرنسا والروسيا وهولندا وبنمرىك وسويسرا من نصيب الشركة الألمانية . .

وفى الملاحة أيضا أنهى التركىز بشركتىن هما همبورج-أمريكا ونوردتشر لويد، ورأس مال كل منهما ٢٠٠ مليون مارك . وفى سنة ١٩٠٣ اتفقنا مع شركة مورجان الموحدة للملاحة التجارىة التى يبلغ رأسمالها ١٢٠ مليون دولار على عدم المنافسة وتحديد الخطوط الملاحية والموانى لكل شركة . .

وفى صناعة الصلب أيضا أقتسمت « نقابة » الصلب الألمانية مع الشركات الأخرى التجارة الدولية فخص بريطانيا ٥٣.٥٪ وألمانيا ٣٨.٥٪ وبلجيكا ١٢.٥٪ .

بلاختصار وصل التركىز درجة زودت لينين بمعظم إحصائيات كتابه عن « الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية » .

وكان النظام السياسى لألمانيا أيضا يؤهلها لمستقبل كبير . .

فقد كانت دولة تعاهدية تقوم على ٢٥ دويلة أو أماره أو مملكة تكون فى مجموعها الامبراطورية الألمانية .

وتتمثل السيادة فى مجلس « البندسترات » المسكون من مندوبى الأمراء والرستناج المسكون من مندوبى الشعوب .

ورئيس الدولة هو القيصر ، وهو ملك بروسيا وله من الاختصاصات مايزيد عادة عن الاختصاصات التقليدية للملك الدستورى ، فقد كان من حقه حل

مجلس الرشتاج واتخاذ القرارات الحربية ، واعلان الحرب إذا هوجمت البلاد . دون أخذ موافقة البند سترات . .

والامبراطور هو الذى يعين المستشار ، وهو الرئيس التنفيذى للبلاد ، ويرأس مجلس البند سترات ويعاونه وزراء يعدون مساعدين له ومسؤولين أمامه .

والبند سترات يمثل أمراء الدول الألمانية وحكوماتها وينص القانون على ضرورة موافقة البند سترات على القوانين حتى تكون نافذة وهو يتكون من ٦١ عضوا لبروسيا منهم قرابة ٢١ عضوا . والرشتاج ويمثل الشعوب وينتخب أعضاءه ، جميع الذكور البالغين فى اقتراع عام سرى ومباشر على أساس نائب لكل مائة ألف ناخب وله حق إقترح القوانين وتوجيه الأمثلة إلى المستشار وهو يضم ٣٩٧ عضوا . .

ومن هذا يتضح أن الدستور الألمانى لم يكن ديمقراطيا تماما لأن مجلس الرشتاج أضعف من مجلس البند سترات ولا يستطيع أن يُقبل المستشار . ولما كان لبروسيا الأغلبية فى مجلس البند سترات ، فقد كان يكفى لايقاف أى تعديل دستورى أن يعترض ١٤ من المندوبين البروسيين (وقد كان عددهم يقارب ٢١ كما ذكرنا) كما كان لبروسيا ٢٣٦ نائبا من نواب الرشتاج .

وكان هناك عدد من الأحزاب ابرزها حزب المحافظين وحزب الأحرار وحزب الوسط الذى يضم الكاثوليك وحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي ، كما وجدت صحافة قوية تمثل هذه الأحزاب وغيرها . .

والخلاصة أن النظام السياسى وإن كان متخلفا عن نظم ديمقراطية أخرى إلا أنه كان يحقق قنرا من الديمقراطية والحرية ، ولم يكن هناك شك فى أنه مع التطور وزيادة ثقل الجماهير ، فإن كفة الشعوب ستكون هى الراجحة ،

والواقع أن الحرب أرغمت القيصر — كما سيلي — على التنازل عن كثير من سلطاته ، ودفعته ليعلمن تعديلات دستورية جذرية تحقق المسئولية الوزارية ، وكان يوسع الشعب أن يحتفظ بها حتى لو لم تقم الثورة .
وماذا كان الوضع بالنسبة للعمال . .

كانت الطبقة العاملة تزداد عددا وقوة . فبقدر ما كانت الرأسمالية تتقدم كانت الطبقة العاملة تتقدم ويرتفع المستوى المادى والاجتماعى للعمال ، وبقدر ما كان من الممكن إطراح سياسة العمل الرخيص ووسائل التشغيل المرهقة . وقد استطاع العمال رغم كل الصعوبات أن ينظموا نقابات قوية ، وأن تفوق العضوية فيها أى عضوية أخرى فى أى دولة أوروبية أخرى ، وكانت دلالة ذلك أن الطبقة العاملة الألمانية تستطيع بفضل نقاباتها أن تحمى حاضرها وتؤمن مستقبلها ، وأنه يمكن مع نجاح الرأسمالية فى الاستعمار أن ينالها نصيب من المائدة الخافضة ، وقد لا يكون سوى الفئات ولكنه يكفى وصور ذلك أحد الكتاب فقال « كانت كل الكتابات قبل ١٩١٤ تعلن مرة بعد أخرى أن الطريق الوحيد لا تفاق مصالح العمال وأصحاب الاعمال هو الإمبريالية الألمانية ، وبعبارة الأخرى ، الاتفاق على حساب مصالح الدول الأخرى ، فإذا اتفق العمال وأصحاب الاعمال فى هذا السبيل فإن الغنيمة ستكونى لأشباعهما معا (١) . »

وكان يمكن للعمال الألمان — ولو حتى فى الظاهر — أن يلعنوا من الطبيعة الاتهازيه والنفعية لمثل هذه السياسة بفكرة بناء الدولة الألمانية ، وأنهم لا يعملون لحساب أنفسهم فحسب . أو تحقيقا لإرادة الرأسماليين وحدهم ، ولكنهم يستهدفون أيضا بناء دولتهم الناهضة وتدعيم أسسها .

(1) Annihilation of Mansy Leslie Paul p. 135.

كما كان يمكن أن يشفع للنظام القائم لدى العمال وضعه لقوانين التأمينات الاجتماعية ، ولم يكن من شأن العداوة الحادة ما بين القيصر والحزب الاشتراكي الديمقراطي أن يثنى الحكومة عن هذه السياسة . على العكس ، لقد دفعت الحكومة لان تمضى فيها إلى درجة جعلت القيصر الاتوقراطي يقول « دعونا نبني الاشتراكية وعندئذ سيهجر العمال الاشتراكية / الديمقراطية » وخضع المستشار كاريفي الذي خلف بسمارك لهذه النزوة الإمبراطورية فعينت الحكومة عناية خاصة بالتشريعات الاجتماعية وتحديثت عن رغبتها في إقامة اشتراكية دولة (1) state Socialism أى تحويل ملكية بعض المنشآت من الملكية الخاصة إلى ملكية الدولة . ولم يسع الحزب الاشتراكي الديمقراطي تجاهل هذا الامر ، وفي مؤتمر برلين سنة ١٨٩٢ أصدر بيانا قال فيه « ان الحزب لا يرفض أى إجراء قد يفيد الطبقة العاملة في النظام الاقتصادي القائم . ولكنه لا يرى في هذه الاجراءات سوى تقدم ضئيل لا يمكن أن يؤثر على محاولاته لبناء دولة اشتراكية ومجتمع اشتراكي . وبالنسبة للحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وهو تشكيل ثوري ، فإن اشتراكية الدولة تعد محافظة ، ومن ثم فإن كلمتي اشتراكية دولة ، والاشتراكية الديمقراطية يضافان بعضها بعضا ، ولا يمكن أن يتفقا » .

وبالطبع ، فإن عمل النقابات من ناحية ، ومحاولات الدولة من ناحية أخرى لا يمتنان أن العمال الالمان قد تقبلوا الوضع تماما أو أنهم تحصنوا من نفوذ الاشتراكية والماركسية ، فالذي لا ريب فيه أن جزءا كبيرا من العمال - ولعله الاغلبية - قد آمن بأفكار اشتراكية تتفاوت في كثافتها وتركيزها . وكانت الاكثية تؤمن بالمبادئ العامة للاشتراكية دون أن تصل إليها

(1) A. People's History of Germany by Ramos Oliveira
p. 59.

إلى النهاية التي تصورها ماركس . وكان لهم في هذا مقنع برضى ضميرهم القومي والطبقي على سواء . كانوا يجدون في الاشتراكية ما يشبع زهوهم الطبقي ، وفي الرأسمالية ما يشبع بطونهم . فكانوا يصلون للاشتراكية وياً كلون على مائدة الرأسمالية . . ألسنتهم مع الاشتراكية . . وأيديهم مع الرأسمالية . . يتحدثون لغة إشتراكية ويمارسون أسلوباً رأسمالياً . . ولا يجدون في هذا تعارضاً يثير النقده .

فإذا كان هذا هو حال العمال ، فلنا أن نتصور أن الطبقة الوسطى من تجار أو مهنيين كانت أكثر رضا وتقبلاً للوضع القائم ، إذ كان يفسح لهم مكاناً طيباً في حاضرهم ويعدم بالمزيد من الفرص والاحتمالات في المستقبل . ولأن التقطب المزعوم الذي تنبأ به ماركس لم يحدث أو على الأقل لم يكن محسوساً .

* * *

هذا التحليل للوقائع التي كانت تعيش فيها ألمانيا وهي تدخل القرن العشرين تؤكد لنا أن الوضع السياسي والاقتصادي والطبقي لم تكن يتطلب — بالضرورة — تغييراً ثورياً . فلم تكن ألمانيا بالدولة المفلسة أو المتخلفة أو المستبدة ، بل كانت مزدهرة ، متقدمة ، لها صحافتها ونوابها وأحزابها وتستشرف مستقبلاً أكثر نجاحاً وازدهاراً وبالطبع كانت هناك مأخذ وأخطاء ، ووجوه نقص خاصة في المجال السياسي ، ولكن التطور كان يسير في اتجاه إصلاحها ، وقد أظهر سقوط بسمارك أن التطوير السياسي في الاتجاه الديمقراطي لم يكن مستحيلاً .

ولكن في مواجهة هذا الواقع الذي لم يكن ليتطلب إلا فسحة من الوقت وحسكة في معالجة المشكلات . . كان هناك عدد من التيارات الفكرية تتلاقى ظهوره وسقط

في أنها تستحث الخطأ أو تشدد التغيير ، وأنها لا تستلهم في طلبتها حاجة الواقع الألماني وإنما تحقيق نظريات وأفكار ومبادئ آمنت بها إيماناً . لا يتطرق إليه الشك .

كان هناك التيار الماركسي الذي فرض نفسه على السياق الطبيعي للأمر وعرقل مضيه المحتمل ، وجعله يدخل في المتاهات الجدلية العقيمة . .

ذلك أن ماركس — بدأ في وضع نظريته في أربعينات للقرن التاسع عشر عندما كانت الطبقة العاملة تسقى من حميم الاستغلال الرأسمالي وتعيش في جهيمه وتخضع لسطوة سلطاته السيامية ونظرياته الاقتصادية، وبوجه خاص في بريطانيا . وكان الناظر في الأفق المدمم المثلث بسحب الجهالة والسخيمة والمرارة من ناحية العمال والجشع والطمع والوحشية من جانب الرأسماليين ينتهي إلى تلك المقدمة الدراماتيكية التي بدأ بها البيان الشيوعي ، وما يقوم عليها من صراع طبقي ما بين الرأسماليين والعمال ينتهي بالثورة الجائحة التي تأتي على الرأسمالية .

وعنما استقر ماركس بعد ذلك بعشرين عاماً في لندن ، وعكف على وضع كتابه الضخم « رأس المال » كانت بريطانيا — رغم بداية ضئيلة لاتكاد تلمحظ للتقدم — لا تزال تعيش في الظلال المقبضة للاربعينات الجائعة . وكان ماركس ككاتب وباحث يعكف في المتحف البريطاني معظم وقته ، ويجد من المادة المطبوعة عن فترة الأربعينات وما تلاها أكثر مما يجد عن الفترة التي يعيش فيها ولما يكتب تاريخها . فجاء رأس المال تنظيراً محكماً لوضع اقتصادي ينقطب فيه معسكر العمل ما بين طبقة عمالية جائعة عارية جاهله ، فاقدة للنفوذ والسلطة ، وطبقة رأسمالية ثرية ، قوية تسيطر على أجهزة الدولة بأسرها . وكان هذا التنظير ، وما ينتهي إليه من نتائج سلباً في جملته ومن الناحية الموضوعية ، فإذا وجد هذا الوضع ، ولم تتدخل فيه عوامل أخرى ،

فليس إلا ما تنبأ به البيان الشيوعي ورأس المال : الثورة العارمة المدمرة . . .
وكان يجب على ماركس كمفكر أن يخصص هامشا في نظريته لاحتمالات
العوامل الأخرى التي كانت قد بدأت بالفعل بداية غير محسوسة في بريطانيا .
ولكن البناء النظري الذي أقامه ماركس بدأ متاسكا متكاملا ، غنى بنفسه
عن العوامل الأخرى ، ولأن هذه العوامل الأخرى عندما بدأت بدايتها
المتواضعة كان هو قد انتهى بالفعل من بنائه الشامخ وعمله العظيم ، وكان
استغراقه في صبه وصياغته ينسيه كل أثر للعوامل الأخرى ، ولأن ماركس إذا
كان بحكم العقلية عالما فإنه كان بحكم المزاج فنانا وصاحب دعوة ، ومنظراً ،
وليس تعصبه المصمت وطبعه الحاد واستعلاؤه على الآخرين وابتعاده عن تواضع
العلماء إلا انعكاسات لهذا المزاج الذي لم يسمح له لا بتقدير وجهات النظر
الأخرى ، أو حساب العوامل المحتملة ، أو التعديل ، وأدى به إصراره على
الوصول إلى التكمال النظري البعد عن الواقع وحافت فكرة النظرية المحركة
الشاملة على حساب المرونة والتفاصيل في الزمان والمكان .

وكانت النتيجة أنه ترك لنا تمثالا رائدا لا يقل في ابداعه وصدق الفنى عن
« لا كبتون » ويمثل تمثيلا دقيقا لحظة الألم المروعة للمجتمع البشرى عندما
التفت عليه أفوان الاستغلال الرأسمالى .

ولم يكد هذا التمثال العظيم يتم ويوضع على قاعدته ويلهم كل الناظرين
الحزن والأسى قدر ما يضرم فيهم الحماسة والثورة، حتى كانت العوامل الأخرى
قد مضت بعيدا بحيث غيرت الصورة تماما . فالطبقة العاملة البريطانية
استطاعت أن تتعلم ، وتكتسب من العلم قوة ، واستطاعت أن تتحد وتكون
التقليات ، وتمسكنت من أن تتسلل إلى « أفخم نادى فى أوربا » أى البرلمان
البريطانى فدخلته بعد عناء قليل وشاهد ماركس نفسه فى سنواته الأخيرة

دخول الدفع الأولى من النواب العمال ، ونجحت النقابات في أن تبذل أسلوبيته
تحتكر به عرض العمل وتخل بكل قوانين الاقتصاد الحر ، وتشل أو على
الأقل توهن ، الاستغلال الرأسمالى .

وأنتاب التغيير الرأسمالية البريطانية أيضا فقد فتح لها الاستعمار أفاقاً
جديدة ووجدت في استعباد عمال المستعمرات مندوحة عن استعباد عمال
بريطانيا ، ولم تضن بفتات المائدة على العمال ، كما تغيرت ذهنية الرأسمالى
فلا رأسمالى السكلامىكى أيام ماركس : الأب اللفظ الخشن الذى لاقى المشاق
في صباه حتى حقق التراكم الرأسمالى ولم يكن يتحرك قلبه للويلات التى يقاسمها
العمال قدمات في الأيام الأخيرة لماركس وخالفه الرأسمالى الابن الرقيق الحاشية
المهذب ، الذى تعلم في الجامعة ويأنف من إذلال عماله أو معاملتهم بوحشية
أو فظاظة ويأخذ الاستغلال على يديه صورة مقنعة ومحدودة .

ونتيجة لهذا التغيير المزدوج استطاع المجتمع البريطانى أن يكيف نفسه
بحيث لا ينساق إلى الطريق المسدود ويصبح لا مناص من الثورة . فكفلت
النقابات أجوراً عالية ، وعلاوات متوالية ، وأكملت الدولة عن طريق
الضرائب ما تعجز عنه النقابات بحيث تحققت صورة ما من صور العدالة ولم
تعد اليد العليا للإستغلال الرأسمالى وأحكامه ، وإنما للضمير الإجماعى للأمة
والقوى العديدة فيها ، كما أن المجتمع الرأسمالى استطاع أيضاً أن يجلى ميزته
الأساسية : الحرية وما تسمح به من مبادئه وصراخه وطمعته .

وهكذا فتدت النظرية الماركسية عن الصراع الطبقي العنيف مضمونها
العملى بالنسبة لبريطانيا بالذات ، ولم يكن مصادفة أن لم ترزق الماركسية فيها
حزباً وكان أقرب الأحزاب إليها وأكثرها حماسة لها هو حزب العمال المستقل ،
ولم يكن يؤمن بالاقتصاديات الماركسية قدر ما كان يؤمن بالعدالة الإجماعية .

وصيحة الانقاذ والتحرير التي أطلقها ماركس .

وعندما آمن مؤسسوا الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني ولهم ليكنشت وأوجست بيبل بالماركسيه وتاملنا على ماركس في لندن ، كان واقع الحال في بريطانيا وألمانيا يتلاءم إلى حد كبير مع النظرية الماركسية ، فلم تكن ألمانيا قد اجتازت بعد الثورة الصناعية وحرم بسمارك الحزب الناشئ فأضرم الروح الكفاحية ، وأوجد ما يتطلبه العمل السري من تدقيق في الاختيار ، ومقدرة على التنفيذ ، كما كان هذا التحريم نفسه دليلا لا يدحض على صحة تحليل ماركس للصراع بين الطبقات .

ولكن ألمانيا إستطاعت أن تجتاز الثورة الصناعية دون أن تتعرض طبقتها العاملة لما تعرضت له الطبقة العاملة في بريطانيا وكان بسمارك في الوقت الذي حرّم الحزب الاشتراكي هو نفسه أول سياسي أوروبي أدخل التأمينات الإجتماعية في التشريع .

وكانت ظروف ألمانيا بعد أن حتمت وحدتها أفضل من ظروف بريطانيا ، إذ بدأت هذه حيث انتهت تلك ، واستعانت بالعلم والمعرفة في الوقت الذي كانت بريطانيا تختال بأقدميتها وتمسك بعراقتها .

والنتيجة أن ظروف الطبقة العاملة الألمانية في الثمانينيات تحسنت سواء كان ذلك بفضل الحركة النقابية الألمانية التي كانت تعد أكبر حركة نقابية في أوروبا ، أو بفضل تدخل الدولة التي كانت رائدة في هذا المجال أو بفضل استفادة الصناعة الألمانية من التقدم التكنولوجي .. وبقدر ما كانت ظروف الطبقة العاملة تحسن ، بقدر ما كانت تبعد عن المضمون النظري للماركسية - ولم تكن المباحة ما بين ماركس وإنجلز في إنجلترا من ناحية ورجال الحزب في ألمانيا من ناحية أخرى حول برنامج الحزب إلا إنكاسا لبعض الاختلافات

ما بين الواقع العملي لألمانيا والمبادئ النظرية للماركسية .

وبدأت هذه الحقيقة تضغط على كيان الحزب وكل أعضائه، واختلفت آثار هذا الضغط فالطبقة العاملة وجدت في العمل النقابي ملاذاً كافياً يمكنهم بالفعل من تحسين ظروف العمل وهو الهدف الأساسي للطبقة العاملة بحيث أصبح المضمون الثورى للصراع الطبقي بالنسبة لها حماسة عاطفية وذكري من الكفاح القديم دون أن يكون هناك تفكير عملي في استخدامه مادام من الممكن تسوية المنازعات المهنية على مائدة المفاوضات وبطريقة الإتفاقيات الجماعية . وكان وجود الحزب كأداة ، والشعارات الخفيفة كشعارات تكفى جداً ، أما السياسيون فقد وجدوا أن العمل البرلماني يكفى وأن من الممكن بالنشرية تحقيق مالا يمكن للعمل النقابي تحقيقه — أعنى التعليم والضحة والتأمين إلخ... فضلاً عن كبح جماح السلطة العسكرية وتوجيه السياسة العامة وهذه كلها يستطيعها الحزب الاشتراكي الديمقراطي بنوابه الذين زاد عددهم قبيل الحرب العالمية الأولى على مائة نائب والأصوات التي اكتسبها وزاحت على أربعة ملايين ..

وبلورت هذا الاتجاه وعبرت عنه تعبيراً دقيقاً « التنقيحية » التي دعا إليها برنشتين وصحبه ولكن هذا لم يكن شأن جماعات عديدة من الاتباع منهم الذين أخذوا بسحر العمل الابداعي والفنى بصرف النظر عن المطابقة العملية وهم مجموعة كبيرة تحب للحب ، وتنظر إلى الفن للفن والجمال للجمال ولا تنس في العوائد الزاوية النفعية أو العملية أو حتى العملية (فما أقل الذين قرعوا رأس المال بمعادلاته الجبرية وهوامشه العديدة) ومنهم الذين يتأثرون بدعوات التحرير ونداءات العدالة ويشورون للقيم ويتصدون للاستغلال دون أن يعنوا بتحديد المسؤولية أو تعيين المسئولين أو التثبت من وقوع الاستغلال بالفعل.

وجسامته . ومنهم الذين بدأوا من البداية وأصبح من العسير عليهم أن يتراجعوا حتى لو أرادوا لأن كل شبابهم الكفاحي وذكرياتهم العزيزة هي هناك ومنهم . . كمثل المتنبي . .

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
ولو زلتم ثم لم أبكم بكيث على حي الزائل
فضلا عن أن كل تركيهم الذهني قد كيف طبقا للنظرية فلا يستطيعون
عنا حولاً أو فكاً كما ، ومنهم الذين نظروا نظرة دولية عامة ، ومنهم الذين
يفضلون بحكم أمزجتهم الصراع على الوفاق والثورة على الإصلاح والحسم
على التدرج ، بالإضافة إلى الكهنة الذين يوجدون في كل معبد والسنة الذين
يحرصون كل هيكل وجباة العشور الذين يفيدون من النظرية التي أصبحت
مذهباً ومن الإيمان عندما أصبح كديسة .

كانت المفارقة أساساً جناية الفكر على الواقع ، النظرية على الحقيقة التجريد
المطلق على الواقع العملي ، رؤيا البصيرة على رؤيا البصر . إن سطورا ملتبهة
كتبها مفكر عميق مؤمن ، وأقامها على أساس نظرية محبوكة ، وصب فيها -
كالرصاص المصهور - ثقته على الرأسمالية ، أفقدت المجموعة التي آمنت بها أي
رغبة في ، أو أي قدرة على التمييز بين الرأسمالية في دولة معينة وظرف معين ،
والرأسمالية في دولة أخرى وظرف آخر لأن هذه السطور وصمت الرأسمالية
إلى الأبد . وأضفت عليها نوعاً من الوثنية جعلها لا تتجزأ ولا تختلف بحيث
لا يمكن أن يقبل منها صرف أو عدل أو توبة أو إصلاح ، فلا شيء أقل من
القضاء الكال والاستئصال التام .

ويدلنا استقراء التاريخ على أن الحقيقة المادية قد لا تكون القوة الدافعة
أو السبب المباشر للعمل الثوري ، وكما لاحظ الفقيه البريطاني « ديسى » إن

المواطنين الاستراليين في أفضل حال — ومع هذا فقد انتشرت بينهم القوانين الاشتراكية كما أن ثورة « غوغاه » باريس الذين لم يعانون من سوءات الامتيازات الطبقية كانت أشد من ثورة فلاحي القرى الذين تعرضوا لها .

فالقوة الدافعة قد تأتي من الاستثمارات الفكرية والمعنوية ، قد ما تأتي من الوقائع المادية ، وتتفاوت هذه الاستثمارات طبقا لدرجة سموها وإحكامها . فقد تصل إلى المستوى الذي لا يدرك ، ولا يسامى عندما تكون « قرآنا » معجزا يجمع — إلى الأبد — الناس من كل دولة ، ومن كل مستوى ، ويجعل الأكتيرية الأعجمية تلوى ألسنتها به ، وقد تكون « تورا » تحمى الشعب المضطهد المفرق من الشتات والذوبان والنحلل وتوجد له كيانا . وقد تكون « البيان الشيوعي » الذي بدأ لأنصاره حكما بالإعدام على عهد وشهادة ميلاد لهد آخر . وقد تكون مجرد خطبة تدفع الناس وقتها إلى حالة أشبه بالجنون ، وتسكفل الانتصار في معركة انتخابية . فعند ما ألقى بريان خطبته المشهورة عن « صلب البشرية على صليب الذهب » أصبحت القاعة — على حد تصوير هوارد فاست — « بيتا للمجانين فقد نهض الناس من مقاعدهم وأخذوا يصرخون ويصفقون ويقذفون بالقبعات . . الخ وكانت النتيجة العملية انتصار بريان على منافسة التجلد » .

ذلك أن للبيان — بتصوير البي العظيم — سحرا على نفسية الجماهير لا تستطيع له صدا . وهو يسحرها ويكون لها نوعا من الواقع النفسى الذى يغنيها تماما عن الواقع العملى ، ويغير مقاييسه العادية . أو أنه يحدث — بلغة علم النفس — عملية إحلال ، وهذا هو ما حدث لتلك المجموعة التى آمنت بالماركسية فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، ورفضت التنقيحية ، وأصرت على الماركسية بعجزها وبجورها .

وكان لم يكن هذا التيار كافياً إذ انشق تيار آخر يدعى بظهوره إلى الأحداث الروسية التي بدأت بثورة ١٩٠٥ وتكملت بثورتى ١٩١٧ (مارس - وأكتوبر) وخضع هذا التيار في النهاية لتأثير لينين وتكتيكاته الظاهرة. وكان أصحابه أقل عدداً ولكن أكثر حماسة وتهورا. فلم يكن الأمر أمر نظرية محكمة، ولكن أيضاً تجربة ناجحة. فنجاح ثورة أكتوبر جعل كل وسائلها نوعاً من الطقوس والشعائر التي لها قدامه النظرية نفسها ويجب أن تؤدي بعينها، ومن هنا أراد أصحاب هذا التيار - الشيوعيون - تطبيق التكتيكات اللينينية وتحقيق دولة تكون نسخة طبق الأصل من الاتحاد السوفيتي وبهذه الطريقة شاولو عمل الحزب الاشتراكي الديمقراطي: أغلبيته التي كانت تنهج نهجاً اشتراكياً وليس ماركسياً، وأقليته التي آمنت بالماركسية. ولكن دون اللينينية.

والخطأ في تطبيق اللينينية على المجتمع الألماني هو بالضبط كالخطأ في تطبيق الماركسية عليه. فكما أن ماركس وضع نظريته على أساس وضع الطبقة العاملة البريطانية في الأربعينات، وهو وضع لم يكن ينطبق على ألمانيا - كما لم يكن ينطبق على بريطانيا نفسها في الثمانينات، فإن لينين وضع نظريته على أساس روسيا القيصرية الجاهلة المتخلفة التي يستبد بها حكم أوتوقراطي لا يعترف بمجلس نيابي أو أحزاب أو صحافة. ولم تقم بها رأسمالية أو صناعة متقدمة، ومن هنا كان لابد من ثورة تستحث السياق الطبيعي وتستأصل الأخطاء المتركمة والأوضاع السيئة والاتواقراطية المستحكمة، فلينين كان عملياً وواقعياً، ولم يسمح للماركسية بالتأثير عليه إلا بالقدر الذي يتفق مع إرادته. والحقيقة أن الماركسية بالنسبة له لم تكن أكثر من لواء، أو نقطة بداية. وليس من المستحيل أن نجد في كتابات ماركس وأنجلز ما يعارض كل أجزاء قلم به لينين.

وهذا لا يعنى أن الثورة اللينينية بالذات هى ما كان يتطلبه الوضع الروسى بالذات. لقد كان الوضع الروسى يتطلب الثورة فعلا، ولكنها لم تكن بالضرورة الثورة اللينينية بالذات. فالصورة التى أخذتها اللينينية هى نتاج المزاج اللينينى والوضع الروسى.

ولو كان للشيوخيين الألمان شىء من استقلال الفكر لرأوا أن ما كانت روسيا تحتاجه يختلف عما كانت ألمانيا تحتاجه. وأن أسلوبا ينبجج بحكم زعامة لينين يمكن أن يفشل بدون هذه الزعامة. ولكن الشيوخيين لم يكونوا ليروا شيئاً كهذا. لأن وهج الثورة الشيوعية أعمى أعينهم وأغشاها.

* * *

فى مواجهة هذه التيارات الفكرية اليسارية بدرجات كشافها المتفاوتة من الاشتراكية الوردية إلى اللينينية الدوية التى تملك أذهان بعض المثقفين والجمهير من العمال فى ألمانيا، كانت هناك تيارات يمينية مضادة تتفاوت أيضاً فى درجة كشافها من الولاء القومى إلى الهوس الاستعمارى الذى مكن من ظهور هتلر والنازية فيما بعد وكانت تتفق مع التيارات اليسارية فى أنها لم تكن تستلهم الاحتياجات والوقائع. ولكن النظريات والمذاهب.

ولعلنا لاحظنا أن أكبر ما أسهمت به ألمانيا فى الفكر الإنسانى هو الفلسفة. فإذا كانت دول الشرق قد قدمت الأديان، وإذا كانت إنجلترا قد قدمت الثورة الصناعية، فإن ألمانيا قد قدمت إلى العالم أكبر فلاسفته، كانت هيجل وشوبنهاور، والفلسفة فى ألمانيا نوع من الديانة، ولما كانت تدور بالدرجة الأولى حول فلسفة التاريخ، فقد أصبحت نوعاً من الديانة القومية.

وكما لاحظ إيبتمان « فما من دولة بائنت فيها فنون الميتافيزيقيا، وأصبحت فيها الفلسفة كنيسة أو مؤسسة قومية، كما بائنته فى ألمانيا » وقد هيمنت.

شخصية هيجيل العملاقة على المفكرين الألمان — بما فيهم ماركس الذي لم يتخلص أبداً من الهيجيلية . وأظهرت فلسفته أكثر الصور الفلسفية بلورة للتاريخ والضمير والله والدولة . وسبق هذا كله في مضمون ينتهي الحسب الشعب الألماني وتمجيده ، ويتلاقى مع كتابات المفكرين الذين أكتشفوا سحر اللغة الألمانية وغاصوا وراء أساطيرها واستشفوا فيها روح البطولة والكفاح ، وجعلوا من التاريخ مزيجاً من الفن والشعر والرومانتيكية . .

وفي السنوات التي سبقت وعاصرت الحرب العالمية الأولى أضيفت قسماً جديدة مؤكدة ومكثفة لبعض هذه التيارات كدعوى امتياز الجنس الآري الذي يمثله أصدق تمثيل الشعب الألماني . وكان بعض المفكرين الألمان مثل فاجنر وجان « فردريك مودينج جان ١٧٧٨ - ١٨٥٢ » قد نادى بها ولكن عملية تأصيلها وإذاعتها جاءت على يدي هوستون تشمبرلن والسكونت جوبينو . ولعل ذلك — أى صدورهما من انجليزى وفرنسى — مما ضاعف من قيمتها لدى الألمان .

وظهر أيضاً دعاة الجغرافية السياسية « الجيوبولتيكا » Geopolitick وكان أبرزهم الجغرافى الألماني فردريك راتزل (١٨٤٤ - ١٩٠٥) الذى شغل كرسى الجغرافية بجامعة ليبزج وأجمل محصلة دراساته فى قوانين سبعة تنبثق بدورها من فكرة أساسية هى أن الدولة كائن حى ، وأنها لا بد أن تنمو وتوسع وهذا النمو والتوسع يأخذ شكل الامتداد الجغرافى وضم الأراضى المتاخمة ، وإذا لم تفعل هذا فإنها كئى كائن عضوى تنكش وتتقلص . ومن هنا فإن عملية الامتداد تأخذ طبيعة حيوية : ومن ثم جاء التعبير الألمانى المشهور المجال الحيوى « Lebensraum » الذى نادى به الجنرال هاوسهوفر ، وكان راتزل صديقاً حميماً لوالد هاوسهوفر .

ثم جاء رودلف كيلين (١٨٦٤ - ١٩٢٢) وأخذ يدل على صحة آراء راتزل بالأوضاع الدولية السائدة ، وكان رودلف هذا رجلا سويديا ذا نزعة المانية قوية عاصر الحرب العالمية الأولى ، وكان استاذاً للعلوم السياسية بجامعة جوتبرج ، وألف كتابين كان لهما أثرهما الواضح في نمو وتطورا الجيوبولتيكا ظهر أولهما في سنة ١٩١٦ وهنواه « الدولة كمظهر من مظاهر الحياة » وثانيهما في سنة ١٩٢٠ واسمه « الأسس اللازمة لتقيام نظام سياسي » وفي رأيه أنه لما كانت الدولة كائناً حياً فالأرض التي تشغلها هي جسمها والعاصمة والمركز الإداري هما قلبها ورئتها ، أما الأنهر والطرق والسكك الحديدية فهي لها بمثابة الاوردة والشرايين والمناطق التي تحوى المعادن وتوجد عليها بالمواد الأولية والغذاء اللازم لنموها هي أطراف لهذا الجسم . وقد امتد الخيال بكيلين إلى إمكان قيام دولة كبرى تسيطر على أوروبا كلها وتكون خاضعة للسيادة الألمانية . وهو أول جغرافي استخدم لفظه جيوبولتيك ، وفي رأيه أن أهم ما يجب أن تعنى به الدولة هي القوة وأن حياة أية دولة من الدول إنما تعتمد على التربة والحكومة والسلطة والاقتصاد والثقافة^(١) .

وتبنى هذه الأفكار الميجور جنرال كارل هو سهوفر الذي ولد سنة ١٨٦٩ والتحق خلال المدة من ١٩٠٨ - ١٩٠٩ بالجيش الياباني مدربا لمدفيعته ثم عاد إلى المانيا واشترك في الحرب العالمية الأولى ، وكان ياوره هو « رودلف هس » ولما انتهت الحرب صرف هم إلى دراسة أسباب الهزيمة . وفي سنة ١٩١٨ عين مدرسا للجغرافية والتاريخ الحربى بجامعة ميونيخ ووصل فيها إلى مرتبة الاستاذية ثم أسس بعد ذلك بقليل « معهد ميونيخ للجيوبولتيكا » وأصدر مجلة

(١) الجيوبولتيكا تأليف رسل . ه . فيغيلد . وج . انزل يرسى ترجمة يوسف مجلى ولويس اسكندر . ج ١ ص ٢٧ - ٢٨

لنشر آرائه ، وفي سنة ١٩٢٣ التقى هتلر إثر قومه الفاشله بعد أن قدمه إليه باوره القديم « هس » وتأثر هتلر تأثراً عميقاً باراه هامسوف وأصبحت فيما بعد أحد أركان الدعوة النازية .

والحقيقة أن هوسهوفر لم يقنع براءه راينزل وكيلين . ولكنه أضاف إليها أيضاً نظرية الجغرافى الانجليزى هالفورد ماكيندر عن البؤرة الجغرافيه للتاريخ واضفت تلك الفكرة عنصر السيادة العالمية بالإضافة إلى فكرة المجال الحيوى ، فكانه وضع النقط على الحروف ، كما يقولون .

وعززت هذه التيارات الفكرية وضع الجناح البروسى ، وجعلت الجماعات بطلبتها وأساتنتها يتجهون الاتجاه القومى ويرون فى العسكرية بما تستهدفه من فتح وتوسع وما تقوم عليه من طاعة من ناحية ومسئولية من ناحية أخرى ، وما تنسم به من تنظيم صارم وما تتطلبه من تضحية هى المثل الألمانى الأعلى الذى يتجاوب مع مشاعر الشباب ومثالياته ، فأخذت تظهر جماعات عديدة تنتظم الطلبة ، والضباط والمهنيين ويغذيها رجال الصناعة . . والنبلاء والملاك بالمال والنفوذ . .

وثمة عامل سلبى عزز هذه الاتجاهات . ذلك هو أن التيارات المعارضة الأخرى ، وبالذات التيارات الاشتراكية ، كانت ذات طابع غريب على البيئة الألمانية ، وكان الكثير من زعمائها من اليهود بالذات ، وكانت تؤيد الاتجاه الدولى والعالمى قدر ما تنقد الاتجاه القومى والوطنى ، ولا ترى فى الوطنية سوى « شوفونية » وفى القومية إلا « الأنانية بالجملة » وكانت تدعو إلى تمزيق المجتمع وهدم المؤسسات العريقة فيه ، بما فيها النظام البرلمانى نفسه ، وكان هذا العامل وحده يدعو لقيام هيئات مضادة تحول دون تفول هذه التيارات الاشتراكية واحتوائها العمال وابتلاعها المجتمع الألمانى حتى لو لم تكن مثل

هذه الهيئات موجودة بالفعل . وأعطى هذا العائل برهانه ودليله عندما انتصر
البولشفيك في روسيا . إذ قدم مثالا للوحشية والتدمير والظلم الذي يطالب
به الشيوعيون الألمان . .

* * *

بهذه الصورة من النقطة دخلت ألمانيا القرن العشرين .
لم يكن هناك داع لثورة ، أو حتى انقلاب ، وكان يمكن بأجراءات
جنديرية وسليمة اصلاح معظم وجوه النقص . .

لم يكن هناك داع لدعوات ماركسية . . .

ولم يكن هناك داع أيضا لدعوات استعمارية وتوسعية عسكرية، ليس فحسب
خذرا من عواقب الصراع واحتمال الهزيمة ، ولكن لأن ألمانيا كان يمكن أن
تشبع سكانها بفضل ما أوتى هؤلاء السكان من علم ودأب وحنق ومهارة
أو بدعوات سلمية تستهدف ضم النمسا وتحقيق « الانشولوس » ...

لم يكن هناك داع لكل هذه الدعوات . . أو لمعظمها . . .

ولكنها وجدت بالفعل . .

وكان لا بد أن توجد ما دام الفكر ارث للجميع . . وما دامت الشعوب
تضم الصالحين والظالمين . . .

والمأساة ليست هي أن توجد . . ولكن المأساه أن لا توجد القيادات القوية
التي تقاوم السرف والشطط وتكفل غلبه الحق على الباطل وتحول دون
التخبط في اتخاذ المواقف .

ولم يقدر لألمانيا هذه القيادات ...

ومن ثم أخذت المفارقة طابعها المأساوى . .

الباب الثاني

تحديد المسار

- | | |
|--|----------------------|
| و دارت رحى الحرب . | : الفصل الخامس : |
| الثورة وإعلان الجمهورية . | : الفصل السادس : |
| المعسكرات تتقطب . | : الفصل السابع : |
| الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ظلل الغمام . | : الفصل الثامن : |
| سبارتا كوس يصلب من جديد . | : الفصل التاسع : |
| أحداث بافاريا العجيبة . | : الفصل العاشر : |
| نهاية البداية . | : الفصل الحادي عشر : |

الفصل الخامس

ودارت رحي الحرب

لقد قيل إن أحدا لم يكن يصدق قيام الحرب العالمية الأولى عندما قامت بالفعل . فإذا كان هذا الكلام حقا ، فمن الحق أيضا أن السنوات التي سبقت الحرب كانت أبعد شيء عن السلام . وكان كل شيء فيها يندب بالحرب ، ويوقف العالم على شفير الهاوية ، أفلم يكن طبيعيا أن يؤدي الوقوف على الحافة إلى الوقوع في الهاوية واللعب بالنار إلى الحريق في النهاية . .

بلى ، ولكن البشرية لم تكن لتستطيع أن تتصور الموقف تماما ببصيرتها ، كان لا بد لكي تصدق أن تراه بعينها . كانت البشرية كالنبي الذي سأل الله أن يريه كيف يحيي الموتى . .

وفي حالتنا هذه ، لم تتصور البشرية كيف يموت الأحياء حتى قامت الحرب . وأشهدتها على أفضع مجزرة قامت حتى ذلك الوقت . .

ويصدق وعددها . . والصدق شر إذا التاك في الكرب العظام . .

* * *

قد يكون مما يخرج عن نطاق هذا الكتاب أن نبحت عن مسئولية الحرب العالمية الأولى ، لأن هذا يتطلب تمحيصا في مجلدات ، ونحن لا نتعرض للحرب العالمية إلا بفرد ضرورة موضوعنا ، ومن زاوية آثارها على ألمانيا . .

والمهم أن حكومات الدول كانت ، وراء ظهر شعوبها ، ودون إشعارها تملكها الأطماع . . كانت روسيا تريد من تركيا البوسفور والقسطنطينية ،

وكانت فرنسا تريد من ألمانيا الازانس والورين ، وكانت ألمانيا تريد مجالا حيويا من روسيا ومستعمرات في آسيا وأفريقيا ، وكانت النمسا تريد الصرب والهيمنة على البلقان ، وكانت بريطانيا تريد أن تحافظ على غنائمها السابقة . وكانت نمة سلسلة من المعاهدات العننية والسرية تورطت فيها هذه الدول تباعا وتلزم فريقا بالوقوف في صف فريق ضد الفريق الآخر . ومن هنا نفهم كيف أن حادثة فردية كاغتتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند في سراجيفو أدت إلى الحرب . فقد رفضت الصرب الانذار المهين الذي قدمته النمسا . فداهمت الجيوش النمساوية أرضها ، فأعلن قيصر روسيا - الذي كان يعتبر نفسه حاميا للصرب التبعيثة العامة (٣٠ يوليو) وطلب إمبراطور ألمانيا إيقاف ذلك وأصدر هو نفسه أمر التبعيثة (أول أغسطس) . وعندما رفضت روسيا الإستجابة لطلبه ، ورفضت فرنسا وبلجيكا التمسك بالبقاء على الحياد أعلن عليهما الحرب (٣ أغسطس) فاضطرت بريطانيا لإعلانها أيضاً في (٤ أغسطس) — وبدأت حرب الشعوب .

وأى واحد يتابع هذه التحركات والقرارات التي أودت بزهرة شباب أوروبا وأغرقت العالم في بحر من الدماء وجلبت من التعاسة الشقاء والدمار ما لم تجلبه حرب أخرى على البشرية وأقامت أوضاعا سقيمة كانت السبب في نشوب حرب أخرى أفظع وأشنع منها . لا بد وأن يتملكه العجب والأسى من أن هذه الاحداث الجسام المهولة كانت تتخذ ببساطة وبيت فيها خلال جلسة أو جلسات وينفرد بتقريرها حفنة من السياسيين وتكون النتيجة أن يساق الملايين إلى المنبحة سوق الانعام وأن تغطأ الحوافر والديابات الزرع والضرع وأن تهدم القنابل البيوت الآمنة والمصانع المشيدة . .

كانت الهيئات الوحيدة التي تستطيع شيئا أمام هذا الجنون الذي أطبق

على الملوك والقادة والديبلوماسيين وأعدى الجماهيرى الاحزاب الاشتراكية، والنقابات، والدولية. وقد كانت الدولية - قبل الحرب العالمية بوقت طويل - قد ناقشت في مؤتمر ١٨٦٨ القيام باضراب عام يشل الحروب. وأوجب مؤتمر زيورخ (١٨٩٣) على كل الاشتراكيين مكافحة «شوفونية» الطبقات الحاكمة والعمل بكل قوة لتوثيق أو اصر التضامن بين عمال العالم. وفي مؤتمر ستوجارت (١٩٠٧) وكوبنهاجن (١٩١٠) وبازل (١٩١٢) نوقش موقف الاحزاب الاشتراكية والنقابات وعرض موضوع الاضراب العام وكان القرار الذى اتخذته الدولية في مؤتمر بازل هو :

« في مواجهة خطر نشوب حرب ، تلتزم الطبقات العاملة وممثلوها في برلمانات الدول المتنازعة أن يفعلوا كل ما بوسعهم وأن يستخدموا كل الوسائل التى يرونها مناسبة للحيلولة دون نشوب الحرب ، فإذا أعلنت الحرب رغم ذلك فيجب الكفاح لانهاؤها بسرعة ، واستخدام الازمات الاقتصادية لاستمارة الشعب للاسراع بانهاه حكم الطبقة الرأسمالية . »

وفي مؤتمرات الحزب الاشتراكي الديمقراطى الألماني من مؤتمر درسدن سنة ١٩٠٣ حتى مؤتمر ماجدبرج سنة ١٩١٢ كان الموضوع الهام الذى يستأثر بالنقاش هو موضوع الاضراب العام لشل الحرب. وتحدث في هذه المؤتمرات ممثلو كل التيارات الاشتراكية على اختلافها : روزا لوكسمبرج ، وبارفوس ، ولييكينشت ، وبيبل وكاوتسكى فضلا من النقابيين. وكان القرار الذى اتخذته الحزب في مؤتمر مانهيم (١٩٠٦) ينص على أنه :

« إذا رأت اللجنة التنفيذية أن الحالة تتطلب الاضراب العام الثورى فستقوم بالاتصال باللجنة العامة للنقابات لاتخاذ الاجراءات اللازمة لتحقيق الانتصار المنشود »

ولكن كان وراء هذا القرار العلني الذي يوحى الموافقة على المبدأ اتفاقاً سرى، مع النقابات يقضى بأن لا يورط الحزب النقابات في إضراب عام، وأن لا يشجع القيام بالاضراب ولكن لو حدث، فعلى الحزب أن يخطر النقابات قبله بوقت كاف وأن يتبنى القرار ويموله .

وبقدر ما كانت نذر الحرب تتكشف، بقدر ما كان الحزب الاشتراكي يشعر بالخناق يضيق عليه، وأنه يوضع في مأزق لا يكون أمامه إلا الانتحار العقيم أو التسليم المهين. ففي سنة ١٨٧٠ عندما جوبه بالحرب مع فرنسا، كان الموقف يختلف اختلافاً كبيراً. كان الحزب كفاخياً، ولم يكن وراءه ما يجعله يتردد أو يشغل خطوه من مبان ومنشآت وجهاز وظيفي ضخمة وكانت الحرب بعد بفضل سياسة بسمارك الحاذقة تبدو للحزب دفاعية وحصل على ما يمكن أن يعد تصديقا على ذلك من الدولية - ومع هذا كله فقد أشعجها وجعل تأييده لها رهنا بالصفة الدفاعية لها .

ولكن في سنة ١٩١٤ كان الحزب جهازاً ضخماً يصل رأسماله إلى ٢١٤٠٥١٤٢١٤ مارك . وكان يتبعه تسعون صحيفة يومية يصل تعداد توزيعها إلى ١٣٥٣٢١٢ ويعمل بها ٢٦٧ محرراً . وكان عدد العاملين في صحف وأجهزة الحزب الأخرى ٧٥٨٩ موظفاً عادياً و ٧٦٥ إدارياً و ٢٦٤٠ فنياً . وكانت مقاومة الحرب تعنى المناصرة بكل هذا إزاء ما ستقوم به الحكومة هداة المقاومة من مصادرة لكل هذه الأموال والمنشآت وتعطيل للصحف، واعتقال وسجن وتشريد لهؤلاء الموظفين جميعاً .

ولا يقل عن هذا أهمية غموض الموقف الحزبي، وتوالي الأحداث فقد كانت الخطوة الحاسمة في الحرب هي إعلان روسيا التعبئة العامة في منتصف ليلة ٣٠ يوليو التي تبعتها إعلان النمسا التعبئة العامة بعد ذلك بساعة، وفي ٣١

يوليو أعلنت فرنسا التعبئة العامة ، وعندما رفضت روسيا إنذار ألمانيا لها
بفرض إجراءات التعبئة أعلنت ألمانيا عليها الحرب في أول أغسطس .

إن العالم الرئيسية في الأسباب المباشرة هي (أ) نية النمسا المبيتة على
توهين الصرب - الأمر الذي كشفه وزير داخلية النمسا الاشتراكي في
أعقاب الحرب فيكتور أدلر عندما نشر نصوص إجتماع مجلس البلاط
النمساوي في ٧ يوليو سنة ١٩١٤ (ب) التعبئة العامة لروسيا :

وقد ضخم دور ألمانيا . ، ولا ريب أن المستشار بنان هو يفتج قدم تأكيدات
بمساعدة ألمانيا للنمسا ، ولكن القيصر حاول أن يتراجع عندما تأزمت
الأمر ، بيد أن السياق لم يسمح بذلك ، ووقع هو نفسه في أحبولة أقواله
ودعاياته . .

النقطة الهامة التي تجعل موقف الاشتراكيين الألمان سنة ١٩١٤ يختلف
أيدولوجيا ، عن موقفهم سنة ١٨٧٠ - هي التعبئة الروسية التي كانت السبب
المباشر في دخول ألمانيا الحرب . فروسيا كانت رمز الرجعية والاتوقراطية
والعدورقم « ١ » الككل الأفكار الشعبية والاشتراكية وقد أيد ماركس وإنجلز ،
في مناسبات معينة الحرب ضد روسيا . وكانت المناسبة المباشرة لتكوين
الدولية الأولى هي الاجتماعات التي نظمت تأييدا لبولندا ضد الطفيان الروسي ،
وفي مؤتمر أيرفورت قال بييل « إذا هاجمت روسيا - عدوة الحضارة
الإنسانية ، وحامية الوحشية والبربرية ، فإننا سنقاوم هذا العدوان بفاعلية
أكثر من زعماء البلاد » .

فلو أن هذا العامل لم يكن موجودا ، لأمكن للحزب الاشتراكي
الديمقراطي - ولو من ناحية المبدأ - أن يقاوم . . ولكن ماذا يفعل والمتمش
الألماني نفسه يذكروهم بأن ماركس وبييل أيدا الحرب على روسيا . . .

مع هذا . . فلا ريب أن الحرب هي الحرب ، وأن الحزب الاشتراكي الديمقراطي لم يكن يرغب أبداً الدخول في هذه التجربة ، وكان يريد مخلصاً مقاومتها بكل الطرق باستثناء الحرب نفسها ، وكان يعلم أنه إذا قاوم الحرب الخارجية إلى النهاية فسيؤدي هذا إلى حرب أهلية قد تكون عواقبها والحرب الخارجية معلنة ، أسوأ من الحرب الخارجية - فيكون والأمر كذلك كمن استخدم دواء هو أسوأ من الداء نفسه ، وقد نظم عدداً من المظاهرات ضد الحرب في الشوارع حتى حرمتها الحكومة فعمد الاجتماعات داخل المباني والمقار الحزبية .

وكانت الأيام تضي سراعاً ، والأحداث تتلاحق والحزب لا يستطيع أن يحسم ، وفي الساعات الأخيرة أوفد الحزب هرمان مولر إلى باريس للتباحث مع الاشتراكيين الفرنسيين فوجد أن يد الاغتيال قد امتدت إلى «جوريس» وتوالت الأحداث فأعلنت المانيا الحرب على روسيا وهو هناك ، وانقطعت الاتصالات . فلم يستطع أن يفعل شيئاً ، وعاد في اللحظة الأخيرة قبيل أن تعلن المانيا الحرب على فرنسا وتغلق الحدود .

وقبل أن توقف الحكومة الحزب الاشتراكي الديمقراطي في المأزق الذي سيحدد مصيره ، ويكون عليه أن يقول لا أو نعم ، اجتمعت الهيئة البرلمانية للحزب ، وكانت قد فقدت زعيمها التليدين ليبككنشت وبيل وحل في رأسه الهيئة هو جوهاسه . وأيدت الأغلبية الساحقة سياسة الحكومة - وامتدعت فكرة الإضراب لأنه قد يؤدي إلى حرب أهلية . واقترح كلوتسكي الامتناع عن التصويت ولكنه لم يجد تأييداً ، وأعلن أربعة عشر نائباً منهم هاسي ، ولدبور ولبيككنشت « الابن » معارضتهم الأمر الذي يوضح أن الحزب لم يفقد المعارضين الشجعان . ولكنهم كانوا أقلية . أما الأكثرية فقد جرفها التيار .

« وطبقاً لمبادئ الالتزام الحزبي ، فقد كان على الأقلية أن تخضع للأكثرية ووقع على « هاسه » بالذات ، تطبيق هذا المبدأ .

وهكذا فعندما تقدم المستشار بمان هولفيج إلى الرشستاج يوم ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ طالباً اعتماد خمسة ملايين مارك للحرب قام هوجوهاسه وقرأ البيان التالي :

« إننا نجابه بالحقيقة الصلبة للحرب ، ونهدد بأهوال الغزو العدواني ونحن لا نتخذ اليوم قراراً يناصر أو يعارض الحرب . إن علينا فحسب أن نقرر الوسائل الضرورية للدفاع عن البلاد . إن الكثير ، إن لم يكن كل شيء ، بالنسبة لشعبنا ولحرياته هو الآن في مهب الريح لاحتمال غزو الاستبداد الروسي الذي لوث نفسه بدماء النخبة من شعبه .

وإنه لعلينا أن ندرأ هذا الخطر ، وأن تؤمن الحضارة والاستقلال لدولتنا وبهذا نفي بما التزمنا به دائماً . إننا في ساعة الخطر لن نتخلى عن بلاد آياتنا ونحن نرى أننا على وفاق مع « الدولية » التي اعترفت دائماً بحق كل شعب في الاستقلال القومي والدفاع عن نفسه ، ونحن كذلك ندين — وفاقاً مع الدولية أيضاً — أي حرب للغزو ، ونطلب أنه حالما يتحقق هدف الأمن ، وأن يكون خصومنا على استعداد للسلام فيجب لإنهاء هذه الحرب بسلم يجعل من الممكن أن نعيش في صداقة مع الدول المجاورة .

وفي ضوء هذه المبادئ ، فإننا نصوت تأييداً للاعتادات .»

ولم يكن هناك صوت واحد معارض . صحيح أن ليبيكنشت أراد أن يعارض ولكن طلب أن يتكلم أولاً . الأمر الذي لم يسمح له به ..

ونزلت هذه الموافقة كالصاعقة على كل الاشتراكيين في كل البلاد .

ذلك أنه لم يساور هؤلاء الاشتراكيين شك في أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي العظيم ، حامى حتى الاشتراكية ، وحافظ تراث ماركس وإنجلز بنوابه الـ ١١٠ ميقف موقف المعارضة ، وأن هذه المعارضة هي التي ستفجر الثورة العالمية . كانت الأحزاب الاشتراكية تسمع الشعارات الثورية للحزب دون أن ترى التحول الإصلاحي البطيء الذي زحف عليه .. وعندما تكشف لها موقف الحزب الحقيقي كانت الصدمة التي أصابتها تشبه الصدمة التي يصاب بها المشاهدون لرجل الفوارؤية باستمرار في ملابس « التشريفة » والنياشين والسيف .. وقد خلج كل هذه .. وبدا عاريا ، كما ولدته أمه .. ، وقد يصور هذه الصدمة أنه عندما أخطر لينين بهذا النبأ رفض أن يصدقه وعندما عرض عليه منشورا في صحيفة « فوروارد » التي تنطق باسم الحزب ظن أنها مزورة ، وأن روزا لوكسمبرج فقدت الوعي وكتبت بعد ذلك إن هذا العمل هدم أربعين سنة من العمل الاشتراكي ، بل لعل الكثير من الأعضاء العاديين صدموا ، كما عبر عن ذلك « جوليوس برونثال » عندما قرأ النبأ في جريدة « أربيتز زيوتنج » .

ولكن إلى جانب هؤلاء الذين استغرقهم الاشتراكية أو النزعة العالمية فلا ريب أن أغلبية الأعضاء كانوا يؤثرون المضي مع حكوماتهم إلى قدرها . وأن التعقيد والسرعة والخوف من الهزيمة أمام الروس وتيقظ المشاعر الوطنية بتأثير هذه الأحداث .. كل هذا لم يدع لقادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي خيارا إلا تأييد حكوماتهم ..

وقد يلقي ضوءا على موقف الحزب الاشتراكي الخطاب الذي ألقاه الزعيم الاشتراكي الديمقراطي النمساوي فيكتورادلر في بداية الحرب ، وكما هو معروف ، فإذا كان هناك حزب اشتراكي يفترض أن يقاوم حكومته ، فهذا

الحزب هو الحزب الاشتراكي الديمقراطي النمساوي لأن الحرب كانت - من الناحية المباشرة - جريمة النساء أولاً وقبل كل شيء - ومع ذلك فعندما تحدث عن تصويت الألمان تأييداً لاعتمادات الحرب قال « إن رأيي هو أن يصوت المروء للاعتمادات ولكني لا أعلم كيف أضع هذه الكلمات على شفطي . إنه لقرار مريع ، وإنه لصراع مريع ، لأن عمال الدول الأخرى يتعرضون للتجربة نفسها . إن هناك شيئاً واحداً أسوأ من الحرب . ذلك هو الهزيمة . »

واعترف صراحة بأنه لا يعني كثيراً بالنساء كدولة ، ولكنه يشعر بالمسئولية تجاه الناس الذين يعيشون في هذه الدولة ومضى فقال « إن مصالح عمال النساء وعمال ألمانيا واحدة ، ونحن ندين الحرب ونلعن الذين بدأوها ، ولكن ما دامت الحرب قد أصبحت حقيقة واحدة فسنخوضها مع شعبنا . »

ورفض إدلو أن يناقش آثار الحرب على الحركة الاشتراكية الثورية العالمية « إننا اليوم لا نجابه بموضوع الثورة الروسية ولكن بموضوع ما إذا كانت الجيوش الروسية ستطأ برن Brunn وبودابست وفيينا . وفي مثل هذه الحالة فإني لا أستطيع أن أستقضي ما إذا كان الانتصار الروسي سيكون مواتياً لحزب تحرير العمال الروسي . إنني إذا أحسست بالسكين فوق عنقي ، فعلى أولاً وقبل كل شيء أن أزيحها بعيداً . »

وبمثل هذه العبارات والتشبيهات نفسها ، بررجول جيسيد - أكثر الاشتراكيين ماركسية - انضواء العمال الفرنسيين تحت لواء « الوحدة المقدسة » عندما تشتعل النار في البيت فليس هناك وقت للمجادلة ، والشئ الموحيد هو مد الأيدي إلى الدلاء . وأعلن نقابي فرنسي أنه لو أن الاشتراكيين الفرنسيين قاوموا التعبئة لأطلق عمال باريس عليهم النار فوراً ودون انتظار للبوليس . وقال فردريتش ستامفر Stampfer محرر جريدة

« فوروارت » « لو أن قادة الحزب قاوموا الحرب لا كتسحتهم الجماهير ، ولما فهم أو ساءح مئات الألوف من الاشتراكيين الديمقراطيين نواب الرش تاج لو صوتوا ضد اعتمادات الحرب » .

ولاريب أن هذه الأصوات كلها مما لا يمكن أن يطعن في سلامتها ، ولا يجوز أن يرى أصحابها بالخيانة أو الجبن ، وهي أولى بالاستماع من صيحات لينين الطريد أو روزا لو كسمبرج ، المفكرة الدولية .. ، كما أن علينا أن لا ننسى أن كارل ليجين زعيم الحركة النقابية الألمانية العتيد كان قد أعلن في أول أغسطس تأييده للجهة الوطنية التي طالب بها القيصر ، ولا تقتصر دلالة هذه الواقعة على أنها تمثل وجهة نظر القيادة النقابية وجمهورها الضخم المنظم ، وإنما هي تمثل أيضا ضغطا كبيرا على الحزب للوقوف موقف التأييد ، لأن الحزب كان يستمد جزءا كبيرا من عضويته من النقابات ويعتمد عليها في العمل العمالي المنظم .

إزاء هذا كله لا يمكن للمؤرخ المنصف أن يدين قرار الحزب في ٤ أغسطس حتى لو كان من الناحية الموضوعية والمجردة خاطئا ، لأنه لا يمكن الحكم على مثل هذا القرار عن كذب ، أو من الناحية المجردة . وعلى من يحكم عليه أن يضع نفسه في وقت ومكان الذين اتخذوه . والحق أنه للموقف الذي يجيد القادة أمامه ، وإزاء ضغط الملابسات أن ليس لهم إلا النزول على رأى الجماعة ، والذي عبر عنه الحكيم العربي :

فلما عصونى كنت منهم وقد أرى غوايتهم أو أنى غير مرشدى
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وأن ترشد غزیه أرشد

وقد يقال إن مهمة القيادة هي توجيه الجموع وليس إتباعها والانسحاق وراءها وهذا حق ، ولكن يحدث أن تأتى لحظات لا يمكن فيها مقاومة اندفاع

الجمهير ، ويكون من الضروري انتظار مناسبة يفتر فيها المد الكاسح . ويفقد قوته الدافعه .

هو إذن قرار تطلبتة الضرورة حسناً أو سيئاً ، خطأ أو صواباً . وليس مصادفة أن يكون أكبر من نددوا به «لينين» فلم يكن لينين ألمانيا أو فرنسياً . ولم يكن في وطنه . ولم يكن لديه شيء يخسره أو يجعله مستولاً ، وكان يستطيع في منفاه القصى أن يصدر من الأحكام ما يمليه عليه المنطق المجرد ، أو العقيدة المصنعة . أو المزاج الشخصى قدر ما كان وضعه — كطريد سياسى — يجعله يندد بالحرب . . . ويشور . . .

وهناك أيضاً روزا لوكسمبرج . ولكن روزا مفكرة دولية موضوعية وعندما تستخدم المشاعر الوطنية أو تستعر الممارك ، فلا يكون لها مكان . . .

وأخيراً فهناك كارل ليبكنشت . النائب الوحيد الذى كاد أن يعلن المعارضة . ولكن كارل ليبكنشت لم يكن يمثل رأياً قدر ما كان يمثل حالة عاطفية قد تصيب ، وقد تخطأ . . . وسنرى جريرة هذه الحالة على مصير «سبارتا كوس» .

ولو افترضنا ، جدلاً ، أن رفض النواب الاشتراكيين اعتمادات الحرب . . . فماذا كان يحدث ؟

كانت الاعتمادات ستظفر بتأييد الأغلبية ، وفى الوقت نفسه فسيصوم الحزب بالخيانة والعمالة . . . وستبطلش به الحكومة . فإذا كان لديه قوة للدخول مع الحكومة فى معركة فستكون الحرب الأهلية التى سيهزم فيها ، فضلاً عن أنه ليس من المنطقى فى شيء أن يحارب الإنسان الحرب بالحرب نفسها — وبالذات بحرب أهليه . وحتى لو سارت المعركة فى مصلحة الحزب فلن يكون ذلك أفضل كثيراً للحزب . أو للحكومة . لأن الأعداء لن يعترفوا بالحزب ،

أو يغيروا خططهم تقديرا له .. وفي مقابل هذا، فإن وجودهم في المجال السياسي كان يضمن خيرا للحزب ، أو على الأقل — يعد أخف الضررين فلو انتصرت ألمانيا فديوصل البقاء ، ولن تستطيع الحكومة البطش به أو تلويث صفحته . ولو انهزمت فسيتقدم ليمسك بزمام الأمور ، وهو ما حدث بالفعل .

وقد كان بوسع لينين ، لو لم يندفع وراء الفكرة التقليدية للاشتراكية عن الحروب وشعار « وحدة الطبقة العاملة الدولية » أن يتبين أن حربا من هذا النوع ، وبالذات ما بين ألمانيا وروسيا كانت ضرورية لتوهين ، بل لتحطيم ، أكبر قوتين تمثلان الرجعية والعسكرية والاتوقراطية في أوروبا ، وأن هذا التحطيم وحده هو الذى سيفسح الطريق إن لم يكن للاشتراكية ، فعلى الأقل لتنظم أكثر ديمقراطية . وهذا ما تنبه إليه بعد مدة عندما دعا إلى جعل الحرب ضد الملوك والأباطرة والرأسمالية ، وهو ما كان سينتهى إليه المآل فى جميع الظروف، وبالنسبة للمهزوم والمنتصر ، فالحرب ليست تمثيلية . إنها دوامة تذهب بالنظم وتقتلها من الجذور .

* * *

ودارت رحى الحرب ...

وكانت الخطة التى وضعها الجنرال فون شليغن رئيس الأركان الألمانية سنة ١٩٠٥ تقضى باكتساح الالزاس واللورين واقتحام ميتر ومنها إلى باريس ونجح « مولتسكه » رئيس أركان ألمانيا وقتئذ (وهو ابن أخ فون مولتسكه قائد الحرب السبعينية) فى تطبيق هذه الخطة إلى حد كبير ، فقد هاجم الجيش الألمانى بلجيكا واستولى على بروكسل ثم سار إلى شمال فرنسا عابرا نهر المارن ودافعا أمامه القوات الفرنسية والانجليزية ، وفى ٢ سبتمبر كانت الجيوش الألمانية تقترب من باريس نفسها وكانت الحكومة تتركها وتنتقل إلى بوردو .

ولسكن حدث وقتئذ أن استطاع القائد الفرنسي « جوفر » أن يعوق مضي الجيوش الألمانية بمناورة بارعه. وأن يتمكن من إحداث ثغره في الجبهة الألمانية بطول خمسين كيلو ، فاضطر الألمان إلى التراجع حتى نهر الرين . وكانت تلك هي « معجزة المارن » التي غيرت مسار الحرب ، وواقفت مضيها ، وأطالتها لأكثر من سنتين تاليتين بدلا من القضاء على فرنسا في ستة أسابيع ، كما قدرت القيادة الألمانية ، وحلت حرب الخنادق محل المعارك .

وفي الداخل ، كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي يفوق من أثر الصدمة الأولى ، وكانت الجماهير تعود إلى صوابها الذي فقدته في بهرة الحماسة ، وتبدأ تبيين المعنى الحقيقي والواقعي للحرب ، وعندما تقدمت الحكومة للرشتاج في ديسمبر سنة ١٩١٤ طالبة اعتمادات أعطى ليبككنشت صوتته معارضا ومخالفا بذلك سياسة حزبه ومن هذه اللحظة حتى اعتقاله بسبب قيادته المظاهرات أول مايو سنة ١٩١٦ وقد كان صوت المعارضة في الرشتاج . ولم يدع وسيلة ليعبر بها عن رأيه إلا اتخذها وتعرض في هذا السبيل لمختلف صور المضايقات التي وصلت إلى حد الضرب أو الخيلولة المادية دون أن يتحرك من مقعده وإن لم يعلم العالم الخارجى بشيء من ذلك وقتئذ لأن الرقابة كانت تحول دون نشر شيء عنه .

والحقيقة أن ليبككنشت لم يقنع بالعمل البرلماني . لقد بدأ من سبتمبر ١٩١٤ ينظم حركة احتجاج في ستوجارت ، كما كانت روزا لوكسمبرج وجوليان كارسكي وكلازا زسكين وفرانز ميهرنج الذي كان في السبعين من عمره ينظمون الدعاية ضد الحرب. وفي إبريل سنة ١٩١٥ نشروا العدد الأول من الاثرناسيونال . وكان هو العدد الأخير فقد حوكم الطابعون والناشرون والكتابون بتهمة الخيانة.

وفي مايو ١٩١٥ حازت النشرة التي أصدرها ليبككنشت عن الحرب بعنوان

« العدو في البيت » ذبوعا كبيرا ، وبعد ذلك بشهر نشر « نداء الألف » وهو نداء وقع عليه ألف عضو من أعضاء الحزب بعضهم من الشخصيات البارزة ووجه إلى قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي وجاء فيه أن الحرب قد كشفت عن طبيعتها الامبريالية وأن على الحزب أن يسعى للسلام .

وأهم من « نداء الألف » ما نشرته جريدة الحزب في لينبرج تحت عنوان « الحاجة الملحة هذه الساعة » ودارت حول فكره نداء الألف ووقع عليه ثلاثة من أبرز قيادات الحزب هم كارل كاوتسكي وادوار برنشتين وهوجو هاسه . والأول كما هو معروف منظر الحزب ، والأخير رئيس الهيئة البرلمانية للحزب .

وعندما أعلنت الحكومة أنها ستتقدم في ديسمبر سنة ١٥ إلى الرشيستاج لطلب اعتمادات جديدة اجتمعت الهيئة البرلمانية للحزب . وأظهر التصويت أن ٦٦٪ من الأعضاء يؤيدون الحكومة وأن ٣٤٪ يعارضونها وكانت النواة الصلبة للمعارضة في الحزب — باستثناء ليبيكنشيب وروزا — هي المجموعة التي تزعمها هاس وحملت أولا أسم التجمع العمالي الاشتراكي *Sozialistische Arbeitagem . einschaft* ولما قدمت الحكومة بالفعل طلبها عارضه عشرون نائبا اشتراكيا وامتنع اثنان وعشرون رغم أن قرار الحزب كان هو الالتزام برأى الأغلبية . وطالب كارل ليجين رئيس النقابات بفصل الأعضاء الذين انتهكوا نظام الحزب ، ولم يتخذ وقتئذ شيء ، ولكن الحزب فصل بعد ذلك ليبيكنشيت وأصدر قرارات يقضى بأن معارضة رأى الحزب تفقد المعارض عضويته في الهيئة البرلمانية . وكان هذا القرار هو الذي أدى إلى تصدع وحدة الحزب . في ربيع عام ١٧ — عندما عقدت مجموعة هاسه وكاوتسكي مؤتمرا في جوتا وأعلنت استقلالها عن الحزب الاشتراكي

الديمقراطي وحملت اسم « الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل » وطالبت هذه المجموعة الحكومة بأن تعلن فوراً أهدافها الحقيقية من الحرب وأن تدخل في مفاوضات لسلام لا يكون فيه غالب أو مغلوب ولا مطالبة بتعويضات أو الحاق لأراضٍ وأن ترفع الأحكام العرفية والرقابة على الصحف التي فرضت مع إعلان الحرب .

وبقدر ما كانت هذه الآراء تقدمية بالنسبة للحزب الإشتراكي الديمقراطي الذي أصبح يوصف بكلمة « الأغلبية » بقدر ما كانت تمد محافظة بالنسبة لمجموعة الدولية التي أخذت تتشكل شيئاً فشيئاً ويقودها عملياً ليبسكنشت ، ومذهبياً روزا لوكسمبرج .

وبدأ ليبسكنشت وروزا يجمعان الإلتباع ، وكان الأول قد تحرر من عضوية الحزب عندما فصل في ١٦ يناير سنة ١٩١٦ ، كما كانت الثانية قد تحررت من سجنها في ٢٢ يناير ١٦ الذي أودعت فيه منذ قيام الحرب وفي ٢٧ يناير سنة ١٩١٦ بينما كانت ألمانيا تحتفل بعيد ميلاد القيصر ظهرت في الأسواق رسالة في صورة خطاب مفتوح يندد بالمناسبة ويحمل توقيع « سبارتا كوس » .

وشيئاً فشيئاً توالى رسائل سبارتا كوس وكلها تحض على الثورة وتدعو الجنود لأن يولوا حراهم نحو الطبقة المستغلة ، وفي إبريل سنة ١٩١٦ ظهرت رسالة « أزمة الإشتراكية الديمقراطية أو رسالة جانوس » وهو الاسم الذي إنتملته روزا وكانت قد كتبت قبل عام من نشرها واعتبرت للتو ، وعلى إيجازها ، إحدى الكتابات الإشتراكية الكلاسيكية .

وكانت هذه الكتيبات محدودة العدد ، فحتى سبتمبر إلتصرت توزيعها على خمسمائة نسخة ، ولكن ليبسكنشت إمتطاع أن يجد أنصاراً يطبعونها بالمطبعة من خمسة آلاف نسخة .

وقبل أول مايو سنة ١٩١٦ أعلن ليبكنشت عن إجتماع عام يعقد مساء هذا اليوم ، وشهد الإجتماع قرابة عشرة آلاف وعندما بدأ ليبكنشت يهتف بسقوط الحرب والحكومة ،هاجم البوليس الإجتماع واقتلعه من مكانه واقتاده إلى السجن حيث حوكم وحكم عليه بالسجن عامين (رغم حصانته البرلمانية) وفقد مقعده في الرشتاج - وعندما نظرت الفضية أمام محاكم الاستئناف ألقى خطابا عنيفا رفع العقوبة إلى أربع سنوات ، وأدت المظاهرات التي قامت إلى سجن كثير من أنصاره ، كما قبض على روزا لوكسمبرج وأعيدت إلى السجن .

الفصل السادس

الثورة وإعلان الجمهورية

في صيف ١٩١٦ أخذت موجة الانتصارات التي بدأت بها ألمانيا الحرب تنحسر وتجمد، فحطمت الجيوش الروسية الجبهة المساوية في جاليسيا، ودخلت رومانيا الحرب ضد ألمانيا، وتجمد الهجوم في الجبهة الغربية، وأحست الدوائر العسكرية أن من الضروري إجراء تجديد يخلص الجيش من هذا الوضع ويعطيه دفعة إلى الامام، وكان المارشال هندنبرج ومساعدته الجنرال لودندورف قد اكتسبا شهرة أسطورية منذ أن هزما الجيوش الروسية في معركة « تانتنبرج » والبحيرات المازوريه « وأصبحا رمزاً للعسكرية الألمانية المنتصرة. وفي ٢٩ أغسطس إمتدعاهما القيصر وعين الأول قائداً عاماً والثاني رئيساً للأركان .

وكان هندنبرج بخلقه وخلقته الرمز الذي يمثل العسكرية البروسية بينما كان لودندورف هو القائد الفعلي، وواضع الإستراتيجيات . بل والحاكم بأمره في ألمانيا بأسرها . وقد إستطاع عن طريق الضرورات العسكرية أن يفرض نفسه على الشؤون الداخليه والسياسية للبلاد، وكل كبيرة وصغيرة فيها .

وكان لودندورف مزيجاً من العبقرية والشذوذ، الفن العسكري والفكر السياسي وقد كان هو الذي قذف بلينين إلى روسيا في القطار المغلق المشهور «

كما كان هو الذي ساند هتلر في قومه الجبهة في بافاريا سنة ١٩٢٣ . وقد إعتقد أن القدر قد إختاره لينقذ ألمانيا في هذه المرحلة الحرجة وليعيد تنظيم كل شيء فيها ولينفث فيها روحاً جديدة من الدقة والطاعة والإخلاص وجعله ذلك يتدخل في الشؤون السياسية إلى درجة جعلت من القيصر ويلهلم نفسه « صفراً متوجاً » على حد قول البعض .

على أن المهمة المعينة التي جاء من أجلها والتي تفوق أي مهمة كانت بالطبع المهمة العسكرية ، وفي البداية حققت سياسة لودندورف بعض الانتصارات فدخول لينين روسيا أدى إلى تسليمها وتوقيعها معاهدة برست ليتوفسك التي كانت انتصاراً لألمانيا خالصاً ، وفي الجبهة الغربية حافظت الجيوش الألمانية على خطوطها واستنزفت قوى الفرنسيين والبريطانيين ، بينما كانت الغواصات الألمانية تفرق السفن والقوافل البريطانية ، ولكن هذه كلها لم تكن إلا فصولاً من القصة القديمة : مطاولة القدر ، والقدر غالب ، ومكابرة الوقائع ، والوقائع فارضة نفسها ، والاستدانة على حساب المستقبل والمستقبل آت لا ريب فيه . فإدخال لينين إلى روسيا حقق المطلوب منه : تسليم روسيا . ولكنه كذلك أوجد شيئاً غير مطلوب بالمرّة : تغلغل الدعاية الشيوعية في عقر العسكرية الألمانية . وحرب الغواصات أدت إلى دخول أمريكا الحرب ضد الألمان دون أن تدفع بريطانيا للتسليم ، واستراتيجية الدفاع في الجبهة الغربية استنزفت قوى الجيوش البريطانية والفرنسية ، ولكن هذه الجيوش عوضت خسائرها بالإمدادات الأمريكية في حين لم تستطع الخطوط الألمانية تعويض خسائرها حتى وإن كانت أقل بكثير من خسائر الفرنسيين والبريطانيين .

وفي الداخل كانت البأساء تشتد ، وكان المدنيون يدفعون الثمن مع الجنود . وأمضى الشعب شتاء ١٧/١٦ على البنجر الذي كان يخصص للحيوانات ولكنه ظهر وسمرط

في الشتاء الثاني لم يجد حتى هذا البنجر وزادت وفيات الأطفال ، واندلعت مع
بديية عام ١٩١٨ اضرابات عمال الذخائر التي اشترك فيها ربعمائة ألف من عمال
برلين وطلبوا بالإضافة إلى الطعام تحقيق « سلم عاجل دون تعويضات
أو إلحاقات طبقا للمبادئ التي وضعها قوميسيرو الشعب الروسى في برست
ليتوفسك » وكان هذا الإضراب مفاجأة للجميع ، حتى للحزب الاشتراكي
الديمقراطى «الأغلبية» واعتبره البعض احتجاجا على معاهدة برست ليتوفسك
بينما اعتبره البعض الآخر « بروفة الثورة » .

وحقيقة الحال أن النقابات لم تكن حتى هذه الفترة قد اشتركت في معارضة
الحرب بل لعل زعماءها أيدها عندما أعلنت ، ولكن تطورات الحرب
أذابت جمودها وأظهرت فيها نواة معارضة حملت اسم المندوبين الثوريين
Revolutionäre obiente وتركزت أولا في وسط عمال معادن برلين .
ومثلوا أبرز العمال المهرة وأنشط النقابيين وقد انضموا فيما بعد إلى الحزب
الاشتراكي الديمقراطي المستقل وإن احتفظوا فيه بنوع من الاستقلال وكان
مجال عملهم في المصانع والنقابات التي كانت حتى ذلك الوقت تتقبل الحرب
وتقاوم الإضرابات ، واستهدف المندوبون الثوريون تحويل النقابات من هيئات
اقتصادية إلى قواعد للعمل السياسى الثورى .

واعتبر قيام المندوبين الثوريين ونجاحهم في تنظيم إضراب عمال الذخائر
دليلا على خطأ النظرية الماركسية التي كانت ترمى العمال المهرة — ارمستقراطية
العمال — بالمعالة للرأسمالية وخيانة قضية الطبقة العاملة ..

وحاولت الحكومة إبعاد زعماء هذه الحركة .. ولكن الكثير منهم
كان من أمهر العمال .. ولم يكن من السهل الاستغناء عنهم . وكانت مهارتهم
تكسبهم نوعا من الحصانة لم يتمتع بها غيرهم من المعارضين الثوريين

كلا سبرتا كونسيتين .. ولكن كان هناك نقصان رئيسيان في المندوبين الثوريين الأول أن نفوذهم كان يتركز في العاصمة ولم يمتد كثيراً إلى الأقاليم والثاني أنه لم يكن لهم نظرية سياسية أو برنامج عمل للثورة التي كان الجوع يتلبدها وينذر بالانفجار .

ولم يكن أمام لودندورف إلا أن يمضى في الشوط الذي بدأه إلى النهاية، فقرر الهجوم قبل وصول مزيد من الجنود الأمريكيين . وفي مارس ١٩١٨ تحركت فيالق الجبهة الغربية بعد أن زودت بمئات الألوف من الجنود الذين نقلوا من الشرق بفضل معاهدة برست ليتوفسك^(١) وسار الهجوم حتى وصل إلى نقطة من نهر المارن لا تبعد سوى ٥٦ ميلاً عن باريس وبدأت عملية شطر قوات الحلفاء، ولكن في يوليو بدأ « قوش » قائد الحلفاء هجومه المضاد، وأخذ الحلفاء يدفعون الألمان في بظاً ولكن في استماته . وفي ٨ أغسطس نجحت الفرق الاسترالية في إحداث فجوة واسعة في الخطوط الألمانية بينما كانت القوات الأمريكية تندفق . ففي مارس كان هناك ٣٠٠.٠٠٠ وفي يوليو وصل العدد إلى ١.٢٠٠.٠٠٠ وكان من المحتمل أن يزيد إلى مليونين في نوفمبر .

وبدأت نذر الانهيار، ولكن لودندورف كان يكابر وعندما سأله وزير الخارجية في يوليو - أي بعد فشل هجوم مارس المأول - عما إذا كان متأكداً من دحر الأعداء . رد بإيجاب . مؤكداً .

وفي ٢٦ سبتمبر شن الفرنسيون هجوماً واسعاً غرب أرجون بينما كان

(١) وقد لاحظ بعض المؤرخين أن استحوار ألمانيا على مساحات واسعة (حوالي ثلث روسيا) بتمتضي هذه المعاهدة تطلب إبقاء قوات ألمانية كبيرة للاحتفاظ بها . . . لو أن هذه القوات توفرت لهم هجوم لسكان من المحتمل أن لا يقف حيث وقف . فكان ألمانيا قد قد عوتبت على شراستها شر عقاب .

الأمريكيون يتقدمون ما بين أرجون والموز وتحرك البريطانيين والبلجيكويين
وفي ٢٩ سبتمبر طلبت بلغاريا - حليفة ألمانيا - الصلح كاشفة الجناح الجنوبي
الألماني . وكانت هذه الهجمات المتلاحقة أقوى، مما يستطيع لودندورف احتمالها .
فاعترف بالحقيقة المرة وصارح القيصر بأنه فقد كل أمل في الانتصار وأن من
الضروري بدأ المفاوضات قريباً .

وقبل أن تؤدي الهزيمة العسكرية إلى الاندحار كانت التطورات السياسية
- داخل ألمانيا وخارجها - تجبر القيصر على أن يعدل في الأوضاع السياسية
الداخلية تعديلاً جذرياً .

في ١٧ مارس سنة ١٧ وصلت الأنباء الأولى عن ثورة مارس في روسيا،
فدفعت إلى السطح بالخوف التي كانت كامنة في الأعماق ، وتبينت السلطات
الحاكمة لأول مرة أن من الممكن أن تقوم ثورة ، والحرب دائرة .. خاصة
إذا بدت بوادر الهزيمة .

وشجعت ثورة مارس في روسيا بعض أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي
لأن يتقدموا مطالبين بإصلاح النظم الانتخابية وأيديتهم في ذلك الأحزاب
جميعها باستثناء المحافظين .

والواقع أن الأمبراطور أعلن في أبريل ومايو عن عدد من الإصلاحات
في النظام الانتخابي ودخل - للمرة الأولى - في اتصالات مع الرشتناج قبل
أن يعين المستشار هرتلنج . وفي سبتمبر ١٩١٨ وجه خطاباً إلى المستشار كان
في حقيقته رسالة إلى الشعب والرشتناج جاء معها « .. أريد أن يتم التعاون
بين الشعب والحكومة بطريقة أكثر فعالية لتحقيق خير الوطن وتقرير
مصيره ، وتقضى إرادتي أن يشترك الرجال الذين يتمتعون بثقة الشعب مع
الحكومة في كل ما لها من الحقوق والواجبات » ولم تسكن هذه في حقيقة
الحال ارادة الإمبراطور .. ولكنها كانت ضرورة التطورات الحربية التي

كانت تتطلب تغييرا جذريا . واستقال هرتلنج و عهد الإمبراطور إلى إختيار مستشار لم يكن من النكرات السياسة أو الحاشية التي يصدر إليها الأوامر هو البرنس ماكس أوف بادن الذي كان صهر الدوق مكبر لاند الانجلىزى وعرف بميله الديمقراطية .

وفي ٥ أكتوبر سنة ١٩١٨ أعلن المستشار الجديد أمام الريشتاج « إن كنتى رجل واحد لاتقويان على حمل العبء الذى تنوء بحمله الحكومة الآن . واعتقد أن الطريقة التى تدار بها شئون الإمبراطورية اليوم يجب أن تتغير . ولن أستطيع أية حكومة أن تتكون فى المستقبل ما لم تحوز ثقة الرشتاج ويكون جل أعضائها منه » وعقب ذلك صدر قانونان يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٨ حققا المطالب الآتية :

(أ) النص على ضرورة أن يحوز المستشار ثقة الريشتاج وأنه المسئول عن كل الأعمال التى يأتيا الإمبراطور ، وأن المستشار والوزراء مسئولون أمام الريشتاج والبند سترات .

(ب) أضيف إلى اختصاصات المجلسين التشريعيين اختصاصات كان ينفرد بها القيصر مثل إعلان الحرب ، وعقد الصلح ، وتوقيع المعاهدات ، وأصبح قيام القيصر بذلك رهنا بموافقة الرشتاج والبند سترات .

(ج) أصبحت الإدارة الحربية المطلقة التى كان يتمتع بها الإمبراطور خاضعة للرقابة المالية .

وأعلن المستشار « إن نظاما جديدا يبدأ اليوم تنتقل بوساطته الحقوق الاساسية التى كانت لشخص الإمبراطور إلى الشعب الألماني » وسمى علماء القانون فى ألمانيا هذا الخطاب وثيقة النزول السياسى^(١) .

(١) نظرات تاريخيه دستورية للاستاذ حسن صادق ص ١٧ — ٢١

وكانت مهمة البرانس ما كس صعبة . فقد كانت القيادة العسكرية تباح بعد أن برح الخفاء - الحاحا مستمرا في التفاوض فورا ، وتأمل في صلح تقليدى . يتيح لها فرصة لالتقاط الانفاس ، ويحتفظ لها ببعض المكاسب ، بينما لم يكن الحلفاء - بما فيهم الرئيس ولسن - على استعداد لشيء من هذا القبيل ، كما لم يكن لديهم ما يحملهم على العجلة ، والواقع أن المفاوضات استمرت أسابيع طويلة مؤلمة .

وكانت الخطوة الأولى للبرانس ما كس هي تشكيل وزارة تمثل الأحزاب الكبرى في الرشتاج . وكان هذا في حد ذاته يعد تغييرا كبيرا في النظام الدستورى وخطوة نحو تعديله وجعله أكثر ديمقراطية . ولما كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى أحد الأحزاب الكبرى في الرشتاج، فضلا عن أهميته الخاصة فقد عرض عليه البرانس ما كس الاشتراك في الوزارة .

ونوقش هذا العرض في اللجنة القومية للحزب والهيئة البرلمانية ، وفي اجتماع مشترك ضم الهيئتين اتفق على الاشتراك في الوزارة بشروط كان أهمها السلام العاجل والإعلان الصريح بأن ألمانيا ستكون على استعداد للانضمام إلى أى مجتمع دولى يؤسس لحل منازعات السلام على أساس نزع السلاح والتعهد بإعادة بناء بلجيكا والصرب والجبل الأسود والوصول إلى حل حول تعويضات الحرب ووضع إدارات مدنيه في المواقع المحتلة واعطاء الازاس واللورين الحكم الذاتى وأن يكون حق الانتخاب سريا ومباشرا لجميع الألمان الخ . . . وهي مبادئ قلل من أهميتها أنها وضعت وألمانيا على شفا الهزيمة وعندما كان المنتصر يستطيع أن يجبرها على هذا كله ، وما هو أكبر . .

وأوضح أخذ الأصوات أن هناك أقلية تناصر الدخول دون قيد أو شرط وذكرايبرت المجتمعين « إذا لم يتدخل الاشتراكيون الديمقراطيون فلن

يكون هناك سلام سريع - ولا دمقرة للدولة ولتحقيق هذين المطلبين للشعب الألماني فإن علينا أن نشترك في الحكومة « وعبر اوتو فيلز عن مخاوفه من أنه عندما استنهاوى الامبراطورية ، فإنها ستأخذ الاشتراكيين الديمقراطيين معها ، ورفض شيدمان أى تعاون وزارى ، ولكن ابهرت أقنعتهم بأنه « إذا كنا نريد جعل جذور الحكومة فى البرلمان فكيف يسعنا أن نقف بعيدا ، وهل يكون هناك أى فرصة لحكومة برلمانية دون الاشتراكية الديمقراطية » وانتهى الأمر بقبول العرض ودخول اثنين من الأعضاء البارزين هى باور وشيدمان الوزارة .

وكان هذا القرار حدثا يمثل فى دقته وخطورته قرار ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ - فدخول الاشتراكيين الديمقراطيين الوزارة كان يشركهم فى مسئولية الهزيمة ويلطخهم بها ويعرضهم لتنديدات العسكريين واليساريين وهى إعتبرات كانت كفيلا بأن تصرفهم عنها - لولا ما تصوره من أن الوجب الوطنى يملى عليهم فى هذه الظروف الحرجة - كما أملى عليهم فى ٤ أغسطس - الموافقة . .

ويتفق الجميع على أن دخول الاشتراكيين كان من باب التضحية وبدافع من الوطنية وليس من باب الطمع أو العطوح ولكن الخلاف يدور حول صواب أو خطأ القرار ، والمعيار الذى يفصل فى ذلك هو هل الحزب الاشتراكي الديمقراطى يستهدف تحقيق غاياته عن طريق التشريع البرلمانى أو أنه حزب ماركسى ثورى يرتبط بنظرية معينة وأسلوب معين . فإذا كان الحزب الاشتراكي هو الحزب الماركسى فلاخلاف فى أن القرار من ناحية المبدأ خاطئ فكل دعاوى البرلمانية لا محل لها ولا تساوى قلامه ظفر فى الماركسية . ولكن إذا كان الحزب الاشتراكي الديمقراطى هو فى حقيقة الحال ومنذ نشأته ، ومهما حمل من شعارات حزب ديمقراطى برلمانى ساحة معاركة هى الانتخابات

والأصوات فلم يكن هناك مناص من الاشتراك في الحكم لانه تحقيق الديمقراطية والإصلاح البرلماني فحسب .. ولكن أيضاً لدرأ عواقب عدم الاشتراك، وهذه العواقب هي إما هيمنة عسكريين ورجعيين وإما فوضى تنتهي بسيطرة دكتاتورية أو بلسفيه . . وهي كلها إختيارات بغضه إلى الاشتراكيين الديمقراطيين . . وعندما تنبأت روزا لوكسمبرج « إن الشيدمانيين والباورين الذين بدأوا بتقبيل يد الملك الألماني سينتمون بأن يطلقوا النار على العمال الألمان عندما يضربون ويتظاهرون ، إن هذه الاشتراكية العجيبة قد سدت . . باشتراكها في الوزارة كمنصيرة للرأسمالية - الطريق أمام ثورة العمال الماثلة » فإنها في حقيقة الحال كانت تقول بلغتها الحادة إن اشتراك الحزب الاشتراكي الديمقراطي حال دون نشوب الثورة الماركسية . وهذا هو ما حدث بالفعل وما كان يريد به بالفعل الحزب الاشتراكي الديمقراطي وما كان ينقمه عليه الماركسيون . .

إذن لم يكن هناك مبرر موضوعي لتجريح القرار ما لم يكن المروء باركسيا . وقد اثبتت الأحداث التي جاءت سلامته ، إذ يمكن الحزب من السيطرة على الحكومة بسهولة .

وبدأ البرانس ما كس اتصالاته بالرئيس ولسن الذي أختاره من بين الخلفاء لأسباب لا تخفى في الأيام الأولى لشهر أكتوبر ، وفي منتصف الشهر وجه الرئيس ولسن نظر ما كس إلى ما أرتبطت به الحكومة الأمريكية من تحطيم كل القوى المطلقة وأن القوى التي حكمت ألمانياهي الآن من هذا النوع ، فسار خطوة أخرى وأعلن في الأسبوع الأخير من أكتوبر عن الإصلاحات الدستورية التي أشرنا إليها والتي حققت جوهر الديمقراطية البرلمانية . ولكن لم يكن لهذه الإصلاحات الصدى المطلوب لدى الرئيس ولسن إذ رد بأنه يرفض

مناقشة الهدنة إذا كان على الحلفاء أن يتعاملوا مع القادة العسكريين والأتوقراطيين الملكيين، وساور ما كس الشك أن ويلسن يريد خلع القيصر أو حتى القضاء على الملكية .

وأثار هذا الموقف ثائرة العسكريين وطالبوا بمواصلة الحرب واصدر لودندورف بيانا إلى الجيش حذر فيه من أن الحلفاء يطلبون تسليما غير مشروط « وهو أمر لا يمكن - نحن العسكريين - أن نفعله » وتجاهل لودندورف المستشار وذهب لمقابلة القيصر وثار البرنس ما كس وأصر على إقالة لودندورف . وادعى لودندورف أمام القيصر أن طلباته السابقة لبدء المفاوضات إنما كانت وسيلة لكي يعرف الشعب الألماني موقف الحلفاء وتصلبهم ، وأنه الآن وقد عرف ذلك على استعداد للحرب بروح جديدة . ولكن دولة العسكريين كانت قد دالت وأرسل المستشار نائبه فون باير ليحاسب لودندورف . وعندما هاجم لودندورف المستشار وحله مسئولية الصلح المشين - وأنه لو ترك الأمور تسير هكذا « فستجد البلشفية خلال بضعة أسابيع هنا » رد نائب المستشار في برود « لست أخشى هذا ، وبالإضافة فعليك أن تدع هذه الأمور لي . فأنا أفضل أفضل منك » .

وانتهت المقابلة باستقالة لودندورف وانتهاء دكتاتوريته العسكرية التي بدأت من صيف ١٩١٦ وكانت - رغم كل ما حاوله - عقيمة كأي دكتاتورية عسكرية وكان عليه خلال أسابيع معدودة أن يفر إلى السويد متخفيا، وإن احتفظ بالقيادة العليا لهند نبرج ، لأن هند نبرج كان - كما ذكرنا - رمز العسكرية أكثر مما كان اداتها المنفذه .

ومن المهم هنا أن نوضح أن المستشار ما كس لم يكن ليمضي في مفاوضاته لو لم يتأكد تماما من عجز الجيش عن المقاومة . ولكنه لم يكن يستطيع

أن يعلن ذلك حرصا على البقية الباقية من القوى المعنوية وللاحتفاظ بمركز تساوي قوى مع الحلفاء . وقد زاد اقتناعا ببعجز الجيش عن المقاومة بعد لقاءاته مع الجنرال جرونر الذي عين محل لودندورف وكان ضابطا حصيفا وعلى علاقات حسنة بزعماء الحزب الاشتراكي الديمقراطي « الأغلبية » وتصور جرونر أولا أن من الممكن مواصلة المعارك ولكنّه لم يلبث بعد دراسة الموقف بدقة أن اقتنع بضرورة الدخول في مفاوضات بأسرع ما يمكن .

وأول عدم وصول رد من الرئيس ولسن على آخر رسالة من رسائل المستشار ما كس إليه ، وكانت بتاريخ ٢٦ أكتوبر ، بأن الرئيس يطلب تنازل القيصر ونوقشت الفكرة وكان الجميع يقبلونها كخرج من المأزق وضرورة ، مهما كانت قسوتها ، فإن نهاية رهيبه خبر من رهيبه بلا نهاية ، على حد تصوير شيدمان . ووافق جرونر نفسه بشرط أن لا يجبر القيصر على ذلك .

وكانت هناك قوى أخرى تعمل في الميدان وتسرع بسير الأحداث . ففي ٢٣ أكتوبر أفرج عن ليبكنشت بناء على اقتراح شيدمان الذي تصور أن وجوده خارج السجن أقل خطرا من بقاءه داخله ، ولكن ليبكنشت استقبل استقبال الأبطال وسط احتفالات شعبية لم تخطر ببال الاشتراكيين الديمقراطيين ، وأجلس في عربة مليئة بالورود وجرها عمال برلين واخترقوا بها الشوارع ، وفي روسيا توقفت المواصلات وأغلقت المصانع عندما وصلها النباء وأرسلت الحكومة برقية تهنئة بتوقيع لينين وميخود لوف وستالين .

ومن ناحية أخرى ، فإن اذعان الاتحاد السوفيتي للشروط التي أمثلتها المانيا عليه بمقتضى معاهدة برست ليتوفسك أسفر آليا عن اعتراف المانيا بالاتحاد السوفيتي وبأن يكون له سفارة في برلين ، واختار لينين ادولف جوف - الذي كان أحد أعضاء الوفد الروسي في مفاوضات برست ليتوفسك - سفيرا للاتحاد

السوفيتي في ألمانيا . وأحضر هذا علما أحمر كبيرا نقش عليه « يا عمال العالم اتحدوا » ونصبه فوق السفارة الروسية في أكبر ميادين برلين « انترد نلندن » كما اصطحب وفدا من ثلثمائة فرد بعضهم من أقدر المنظمين والمهيجين . وكانت شحنات المطبوعات الثورية تصل بانتظام إلى السفارة متمعة بالحصانة الديبلوماسية ، وأصبحت السفارة هي مقر القيادة الشيوعية . وكان جوف يجتمع كل مساء تقريبا باتباع لبيكنشت وغيرهم من اليساريين ، ولم يقتصر الأمر على المطبوعات ، فقد وزعت النقود والأموال ووضعت الخطط ، ومضى هذا قدما ولفترة طويلة . وكانت له آثاره الخطيرة في إضرام الاتجاهات الشيوعية والثورية .

ووصل المدى الثورى إلى ما يقارب الذروة عندما ثار البحارة في كيل . . ولم تكن تمردات البحارة بالشىء المجهول من قبل . ولكنها كانت نادرة وفردية وتقع فوراً وبشدة . ولكن اضطراب الأحداث والعوامل الخاصة التى سيرد عنها الحديث أعطت هذه التمردات طابعا آخر .

وخلال يوليو سنة ١٩١٧ تمرد بعض بحارة البارجة برنرجنجت لتبولد Prinzregent Luitpold لسوء الجراية ، ونظموا مسيرة احتجاج في ميناء ويلهمشافن . وعندما عادوا إلى السفينة قبض على زعمائهم وحكم على بعضهم بالسجن ، كما رحل اثنان إلى « كولون » حيث نفذ فيهما حكم الاعدام . وفى الوقت نفسه فقد أمرت الاميرالية بتكوين « لجان طعام » ينتخبها البحارة أنفسهم وتتولى الاشراف على توزيع الجراية . وهذه اللجان التى أريد بها القضاء على الشكوى أصبحت نواة للخلايا الاثتراكية ومجالس البحارة فيما بعد .

ولكن لم يكن لمثل هذه الاضطرابات أن تصل إلى شىء كبير لو لم تتردد تلك القصة التى أثارَت البحارة ، فقد قيل إن الاميرالية قررت القيام بمغامرة

التجارية يتصدى فيها الأسطول الألماني للأسطول البريطاني ، فإذا استطاع أن يهزمه فسيؤدى ذلك إلى تعزيز موقف المانيا في مفاوضات الصلح ، وإذا انهزم فلن يخسر شيئا لأنه كان فى حكم المقرر أن يضع الحلفاء أيديهم على الأسطول ، وفضلا عن ذلك فسيكسب الشرف وحرمان الحلفاء من الأسطول .

وعززت هذه الشائعات أن أصدرت الاميرالية فى الأيام الأخيرة من أكتوبر الأوامر بأن تقلم البوارج إلى عرض البحر بعد أن ظلت فى مرابضها قرابة سنتين .

وتعددت الشائعات فقبل إن الأسطول البريطانى قد تحدى الأسطول الألمانى فى مبارزة حتى النهاية . . وأن الاميرالى المعجوز . . فون تريبتز سيخرج من معتكفه ليشهد المعركة . . وأن القيصر نفسه سيقود الأسطول على ظهر البارجة « بادن » .

وفى مساء ٢٩ أكتوبر عندما أمرت القوة الرئيسية من الأسطول بالاقلاع تمرد بحارة الأسطول الأول، وأبرق القباطنة المندعورون إلى الاميرال فون هيبير، فأمر بتأجيل الاقلاع يوما حتى يتحكم الضباط فى الموقف ، ولكن التمرد استمر فى اليوم التالى فألقى الاميرال إقلاع السفن .

وكان ذلك انتصارا للبحارة . ولكن الاميرالية لم تكن لتسمح بأن يمضى هذا دون عقاب . وفى اليوم التالى-٣١ أكتوبر . أرسلت احدى الغواصات فتصدت للبارجة ثورجن ووجهت نحوها أنابيب توربيدها ، كما أحاطت ثلاث مدبرات بالبارجة وبهذه الطريقة حوصر البحارة ، وعندما أرادت البارجة هوليجلاند أن تحول دون ذلك ، وقعت هى نفسها فى مأزق ، وأنزل بحارتها وبحارة البارجة ثورجن وهم قرابة ثلثمائة وخمسين بحارا .

ولكن الأمر لم يمض بمثل هذه السهولة فى بقية السفن ، وعندما أقتيد ١٨٠

بجاء من بحارة البارجة ما زكجراف إلى السجن للبحرى فى قاعة ككيل ثار بحارة الأسطول الثالث واعتزموا تحرير زملائهم واجتمعوا بتوجيه من بعض البحارة الاشتراكيين ، فاستمعوا إلى خطابات من بعض زعمائهم ، ومن «أرتروب» رئيس الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين ، وتكرر هذا الاجتماع فى المساء الثانى - والثالث من نوفمبر - ولكنه لم يمر بسلام . فقد أطلقت إحدى دوريات البوليس النار على البحارة . فانتسح البحارة فى الصباح التالى مدينة ككيل وهاجموا مخازن السلاح وكون الوقاد ألتلت Aiteit سوفيت بحارة ككيل - السوفيت الأول فى المانيا واتخذ من مدرسة التوربيدو مقرا .

ورأى قائد القاعدة الاميرال سوشون Souchon أنه لا يستطيع مقابلة البحارة بالقوة - فدعا زعيمهم ألتلت لمقابلته وعرض مطالبه - وتضمنت هذه المطالب إطلاق سراح المسجونين ، وتحسين الطعام والشرب وأن يعنى البحارة من تحية الضباط المتقاعدين كما تضمنت ضرورة موافقة البحارة على خطط الأسطول للخروج إلى عرض البحر . .

وتلقى سوشون هذه المطالب بهدوء ، وأبدى استعدادة لتنفيذ ما يستطيعه منها وإرسال ما لا يستطيعه إلى برلين الموافقة عليه . وفى الوقت نفسه ابرق إلى الحكومة فى برلين طالبا إرسال مندوب عنها ليؤكد للبحارة أن ليس هناك إتجاه لإقلاع السفن ، وذكر أن من الخبير أن يكون هذا المندوب من من الحزب الاشتراكى الديمقراطى . .

وخلال هذه المدة سيطر البحارة على مدينة ككيل تماما وقبضوا على كل الضباط وجردوهم من سيوفهم ونياشينهم وزجواهم إلى السجن ، ورفعت كل للسفن الرايات الحمراء ، وفى أكبر ميادين المدينة ، كان بحار سمين يدير حركة المرور ويضع فى حزامه ثمانية مسدسات ، وحول عنقه - نيشان الجدارة - أعلا

اليناشين البحرية - انزعه من عنق أحد قادة الفواصات ، بينما كان رسل البحارة يذهبون إلى بقية الموانئ لحث بحارتها على المشاركة في الثورة . وأعلنت جريدة « فولكس زيتونج » التي تصدر في شلسونج هولشتين إن الثورة تسير . . وأن ما حدث في كيل سيحدث في الأماكن الأخرى خلال الأيام القليلة القادمة . . . وستؤدي إلى حركة تطوق كل ألمانيا .

* * *

كانت كل هذه العوامل تضيف ثقيلًا وحثيثًا على البرنس ماكس في برلين . بالإضافة إلى التهاوى السريع في الجبهة الذي كان يجعل لكل يوم ، بل لكل ساعة ، أهميتها وخطورتها ، وتخلي حلفاء ألمانيا عنها ، ففي ٣١ أكتوبر وقعت تركيا على اتفاقية هدنة . بينما كان رسول نيساوى يسلك طريقه عبر الخطوط الإيطالية للتفاوض في الهدنة . وكان البرنس ماكس يتمثل في انتظار رد مذكرته إلى ويلسن بينما كان اختلاف وجهات نظر الحلفاء يحول دون وصول الرد السريع ، ففي الولايات المتحدة كان هناك من يرى أن ليس في ألمانيا حكومة يمكن التفاوض معها ، وكان من رأى الجنرال « برشنج » مواصلة الهجوم حتى التسليم دون قيد أو شرط . ولكن فوش إعتقد أنه قد يخسر مائة ألف جندي قبل الوصول إلى شروط أفضل . وأنه ما دامت الشروط التي ستلى تماثل التسليم فليس من حق أى واحد أن يسفك نقطة دم أخرى .

وفي ألمانيا فهم تأخير الرد أنه إصرار من الحلفاء على خلع القيصر ، وتمسك شيديمان بضرورة اتخاذ إجراء ما لحل القيصر على اتخاذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه ، ولكن القيصر الذى لم يكن ليعتزم ذلك فاجأ مستشاره بالسفر في مساء ٢٩ أكتوبر إلى مقر القيادة العليا في « سبا » بلجيكا « وعبثا حاول ماكس أن يقنعه في الدقائق الأخيرة وبالتليفون قبل مغره بالأفلاج عن هذه الفكرة محذرا « إنه فرار آخر إلى فارن » وهو تحذير كان جديرا بأن ينفذ إلى أعماق

القيصر . . . ولكن عبثاً . . . فقد كان القيصر يسير إلى قدره .

وخلال هذه الفترة كانت أحداث كييل تمتد لتشمل كل الموانئ وتنتقل من الموانئ إلى المدن . . . وإلى جبهات القتال . وكانت آثار ذلك تضغط على الاشتراكيين الديمقراطيين « الأغلبية » وتشعرهم بأنهم قد تأخروا طويلاً وأن الزمام يفلت من أيديهم بسرعة وأنهم ما لم يتخذوا خطوة حاسمة فلن يستعيدوا منزلتهم أبداً . وبدأ لهم أن الشيء الوحيد الذي يجعلهم يستدركون تخلفهم ويستعيدون المبادأة هو خلع القيصر فتمسكوا بذلك ، حتى « ايبيرت » الذي كان أكثرهم تحملاً للاوضاع . وسأل المستشار ايبيرت بصراحة « هل إذا توصلت إلى إقناع القيصر بالتنازل فهل ستقف بجانبني في الصراع حول الثورة الاشتراكية Social revolution » فأجاب ايبيرت بلا تردد « إذا لم يتنازل القيصر فليس هناك مفر من الثورة الاشتراكية ولست أريدها . وفي الواقع فإنني أكرهها كاتلطيئة » .

أمام هذا التأكيد عين المستشار لجنة للتفاوض مع الحلفاء على شروط الهدنة ، ولم تكن اللجنة من العسكريين ولكنها كانت من المدنيين ولم يكن الضابط الوحيد فيها من أركان الحرب ، واعد قطار خاص بعد ظهر يوم ٦ نوفمبر ، وبعد سفره بدقائق وصل رد الحلفاء الذي طال انتظاره وهو يعرب عن استعداد الحلفاء لتلقي وفد المفاوضات .

وكان على المستشار أن يصفى حسابه مع « جوف » سفير الاتحاد السوفيتي الذي جعل من السفارة مقراً للاعداد للثورة ، وكان شيدمان قد اقترح أن يوعز لأحد الحمالين بامتقاط أحد الصناديق المرسلة للسفارة والمتمتعه بالحصانه الديبلوماسيه حتى ينكشف ما تحتويه من ملبوعات تحض الألمان على الثورة ، وحدث هذا وطرده جوف .

معظم المدن . فكل المواقي خضعت بدرجات متفاوتة لسيطرة « سوفيات البحرية » وتهاوى الضبط والربط بين الجنود ، سواء منهم جنود الجبهة أو جنود المؤخرة ، وكانت كل فرقة تستقدم لحفظ النظام تصيها المدوى فيرفض جنودها اطلاق النار على العمال والمتظاهرين وينضون إليهم ، وظهرت الصحف المعارضة من كل نوع دون أن تأبه للرقابة وكانت كلها تطالب بعزل القيصر وإقامة جمهورية سوفيتية . وظهر التعارض والتخبط ما بين أوامر وزير الحربية وأوامر الحاكم العسكري لبرلين في حالات عديدة ، وتعطلت المواصلات بل إن الحكومة نفسها أمرت بانزع قضبان السكك الحديدية التي تصل بعض المناطق النائية ببرلين حتى لا ترسل هذه المناطق ثوارها وظهر أن المجموعات الثورية على اختلافها قد أعدت العدة بفضل الأموال والخطط التي دبرها «جوف» للقيام بالثورة يوم ٤ نوفمبر ولكنها أجلت لبضعة أيام واقترح ليكنشت للقيام بها يوم ٨ أو ٩ نوفمبر ، ولكن المندوبين الثوريين أوضحوا أن هذه الأيام أيام صرف مرتبات ، ومن العسير إبعاد العمال عن المصانع ، وعندما ألقى البوليس القبض على أرست دميغ Ernest Daumig زعيم المندوبين الثوريين وجد معه خطة مفصلة للثورة يوم ١١ نوفمبر . .

ولم تكن هذه مجرد شائعات . إذ أن الاشتراكيين المستقلين واتحاد سبرتاكوس دعوا إلى الاضراب العام من الساعة التاسعة من صباح يوم ٩ نوفمبر للمطالبة بخلع القيصر والقضاء على الملكية وفي الصباح الباكر ليوم ٩ نوفمبر اتصل شيدمان تليفونيا بالمستشار سائلا « هل تنازل القيصر » وعندما قيل له « ليس بعد » قال « لم يذهب هو وإذن فسأذهب أنا » وفي الساعة التاسعة كرر سؤاله وعندما علم أن القيصر لم يتنازل بعد أعلن استقالة الاشتراكيين « الأغلبية » من الوزارة .

وبدأ الأضراب . . وتجمعت مئات الألوف من العمال وظهرت لافتات ضخمة تحمل بخط كبير عبارة « أيها الأخوة لا تطلقوا النار » ليواجه بها العمال الجنود . ولكن لم تكن إليها حاجة . فقد ذاب الجنود وسط الجموع ، أو تفرقوا . . ولما لم يجدهم ضباطهم تفرقوا هم أيضاً . وفي هانوفر عندما حاولت السلطات دفع الجنود لضرب العمال . . انضم الجنود إلى العمال . وفي كولون زرع الجنود علماً أحمر على ثكنتهم وتسكروا هذا في كاسل وفرانكفورت وغيرها . .

وفي دار المستشارية - المكان الأخير للوزارة - كان الاضطراب سائدا . والمستشار يحاول الاتصال بالقيصر دون جدوى . . وكل دقيقة تمر تدفع بمزيد من المتظاهرين إلى الميدان الفسيح المحيط بدار المستشارية . وفي منتصف الثانية عشر ، ودون تشاور مع أحد كتبه البرنس ما كس إعلان تنازل القيصر عن العرش ، وأعطاه لأحد معاونيه ليرسله إلى وكالة « ولف » للأبناء . وخلال دقائق علمت الجماهير بنص الوثيقة التي كان فحواها .

« قرر الامبراطور والملك أن يتنازل عن العرش ، وسيظل المستشار الامبراطوري في منصبه حتى يمكن تسوية موضوع الوراثة » .

ولم يكن هذا الإعلان مبنيًا على حقيقة . فحتى هذه اللحظة كان القيصر في مقر القيادة يتصور أن حضوره سيؤثر عليها ويتشبث ببقايا ضئيلة من الأمل . ولكن كان من الضروري إذاعة هذا البيان لكي يصبح الأضراب نهاية لمرحلة من الفوضى والقلق ، وليس بداية لمرحلة من الثورة والحرب الأهلية .

وعند الظهر اخترق خمسة من زعماء الاشتراكيين الديمقراطيين يتقدمهم فردريك ايبرت طريقهم نحو دار المستشارية . واستقبلهم المستشار وقادم نحو حجرة المكتبة وظل الجمع وقوفاً ، فلم يكن المجال يسمح بتريث أو مجاملة . .

وطلب ايبرت « حرصاً على السلام والنظام » تسليم السلطة للحزب مضيقاً
لأنه قد يدعو بعض أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي (المستقل) وإن
لم يكن هنا مؤكداً . وسأل المستشار هل يضمن الحزب حفظ النظام فرد ايبرت
بالإيجاب ومرة أخرى سأل « هل سيعتمد جمعية تأسيسية لتحديد مستقبل ألمانيا »
فرد بالإيجاب أيضاً . وبعد سوآل أو سوآلين انسحب المستشار ومعاونيه
لهذه ، ولكنهم عادوا بسرعة ، وسأل المستشار ايبرت هل سيتولى المنصب
في إطار Within الدستور الملكي فقال .

— أمس كنت أرد بالإيجاب . أما اليوم فعلى أن اتشاور مع زملائي .

— وماذا عن الوصاية .

— لقد فات الوقت . .

وبدون رسميات أو تعهدات سلم المستشار المنصب إلى ايبرت . . وهرع
شيدمان إلى الرشتاج لينقل النبأ . . ودخل إلى مطعم الرشتاج ليتناول طبقاً
من حساء البطاطس ولكنه لم يكده يتذوقها حتى قيل له إن جموعاً كثيفة تحيط
بالرشتاج ، فوضع شيدمان ملعقة وجري صاعداً إلى أعلا . . وفتح شباكاً
يطل على الجموع — وأعلن أن ايبرت قد تقلد المستشارية ثم صرخ « فلنحى
الجمهورية الألمانية الكبيرة » وعاد إلى حسائه . .

وهكذا ولدت جمهورية فايمار بين مملعتين من الحساء .

وعندما قُدم ايبرت إلى الرشتاج . وعلم بإعلان شيدمان الجمهورية عنده
« نكالا » ليس من حقه أن تعلن الجمهورية . إن هذا متروك للجمعية الدستورية »
وهي لفئة توضح خلق ايبرت وحرصه — حتى في مثل هذا المأزق الدقيق —
بجلى الشرعية، وحقبة الحال أن شيدمان إنما أعلن الجمهورية بنفسه لكي يفوت

على ليبكنشت هذا الإعلان ويجوز للحزب كل ما يمتيه هذا الإعلان . فهو
من هذه الناحية « ضربة معلم » .

وألقى ايبرت خطابا جاء فيه :

« أيها المواطنون : لقد سلم إلى البرنس ما كس فون بادن الذي ظل حتى
الآن مستشار الإمبراطورية ، بموافقة زملائه ، المستشاريه .. وأعتزم أن
أكون وزارة بالاتفاق مع الأحزاب . وستكون حكومة الشعب ، ويكون
برنامجها تحقيق السلام للشعب الألماني بأسرع ما يمكن . ومنحهم الحرية التي
اكتسبوها .

أيها المواطنون ..

إني أدعوكم لمساعدتنا في مهمتنا الصعبة فأنتم جميعا تعلمون إلى أي مدى
تعرض للخطر موارد أقوات الشعب . وأنه لولواجب الأول على كل مواطن
أن يظل في الحقل وأن لا يضع العوائق في طريق إنتاج الطعام ونقله . إن
نقص الطعام يعني الشقاء للجميع فالفقراء سيعانون منه بقسوه ، كما سيعرض
العمال الصناعيون لشاق لاحد لها .

أيها المواطنون ..

أرجوكم أن تخلو الشوارع لتكون المدينة مدينة القانون والنظام .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر اقتحم ليبكنشت السراى الملكية ، وكان
معظم الحرس قد هجروها بينما بقي عدد ينظر في سأم إلى الجموع . ودخل
ليبكنشت دون أن يمنعه أحد ووقف في الشرفه التي ألف القيصير أن يلقى
خطاباته منها وقال « لقد أشرق فجر الحرية ، ولن يدخل أحد من الهوهنزرن
مرة أخرى هذا المكان وأنا أعلن الجمهورية الاشتراكية الألمانية التي ستبضع

كلى الألمان :. إننا نمد أيدينا إليهم وندعوهم لكي يتموا الثورة العالمية .
والذين يريدون منكم هذا فليرفعوا أيديهم وليقسموا » .. فارتفع الحناق
إلى عنان السماء ..

وبينما كان ذلك يمضى أحتل مجلس الجنود الشكنات العسكرية بيننا أوى
أميل ايشورن - وهو أحد الاشتراكيين المستقلين المنظرين وكان من قبل
من الموظفين بسفارة الاتحاد السوفيتي - إلى رأسه البوليس في ميدان
الكساندر وأعلن نفسه رئيسا للبوليس وأطلق سراح ٦٥٠ من المسجونين
ووضع يده على كل الأسلحة الموجودة، كما احتل أنصار ليبكفشت مقر أحد
الصحف المحافظة . وبدأ اتحاد سبرتا كوس يصدر منها صحيفة « العلم الأحمر »
وجاءت روزا لوكسمبرج التي أفرج عنها للتو من سجن برسلو لتشرف
على تحريرها .

وفي المساء شهدت دار المستشارية الاقاء الأخير .. ما بين آخر مستشار
امبراطورى .. وأول رئيس جمهورى ، وفي هذا الوداع قال « البرنس »
الذى ينتسب إلى أعرق العائلات المالكة .. للنقابي الذى بدأ حياته صبي
مروجى .

— هر ايبرت .. إننى أعهد بالإمبراطورية الألمانية إلى حفظك ليرد هذا
« لقد فنتت اثنين من ابنائى فى سييلها » .

وأخذ ايبرت يذرع مكتبه الفسيح الخالى بالدور الثانى من المستشارية عندما
دق جرس أحد التليفونات - وكان يحمل رقم ٩٨٨ وهو الخط المباشر ما بين
القيادة العليا والمستشار .. ورفع ايبرت السماعه ليسمع صوت « جرونز »
رئيس أركان حرب المارشال هند نبرج .. وعلم ايبرت أن القيصر فى قطاره
الخاص وأنه يعزم الانجاء إلى هولندا بعد أن يترك المارشال مسئولية قيادة

الجيش وأن المارشال يعزم إعادة الجيش إلى قواعده بمجرد اتمام الهدنة ..
وفهم ايبرت أن الجيش لا يعارض حكومته . وبعد فترة من الصمت سأل
ايبرت «وماذا تنتظرون منا» فرد جرونر بان الفيلاذ مارشال ينتظر من الحكومة
أن تؤيده في تعزيز الضبط والربط في الجيش وأن تصان الامدادات.
والاتصالات .

— وماذا أيضاً ..

— إن الضباط ينتظرون أن تقاوم الحكومة الإمبراطورية البلشفيه . وهم
يضعون أنفسهم تحت تصرفها لهذا الغرض .

واطمأن ايبرت .. وطلب من جرونر أن يبلغ شكره للمارشال ..
وهكذا عقدت الصفقة ..

الفصل السابع

المعسكرات تتقطب

كانت الفوضى والعماية التي سادت الأيام الأولى من نوفمبر تنفث شيئا فشيئا لتفسح المجال لنوع من التقطب تتلاقى فيه الأشباه بالأشباه والنظائر بالنظائر وتتنظم أشتات القوى المفتتة لتكون معسكرات يتميز كل منها بمنهج معين حتى وإن اقتصر على الخطوط الأساسية العريضة دون التفاصيل الدقيقة .

١ - الجيش « الضباط ومجالس الجنود »

كان هناك الجيش الذي كان رغم الهزيمة والتحلل يمثل قوة كبيرة ليس فحسب لثقله المادى ولكن أيضا لأن الجيش كان يمثل القيم العريقة لالمانيا . وكان هو الذى حقق الوحدة الالمانية بجد السلاح ورأى فيه الشعب حامى الامبراطورية الأمين كما آمن هو بأن هذه الحماية هى رسالته المقدسة .

ولم تلوث الهزيمة الجيش . إذ لم تلتصق به شائبة جبن أو فرار أو تفريط ، وكان حتى الهدنة منتصرا يقف فى الأرض التي غزاها واحتلها ، كانت هزيمته فى حقيقتها نوعا من التوقف اضطر إليه نتيجة لتكالب الأعداء ، ولأن الكثرة تغلب الشجاعة .

وكان ضباط الجيش منذ أن بدأ التنظيم الحديث للجيش الالمانى يخشرون اختيارا خاصا من طبقة النبلاء والملوك . وعندهما أريد زيادة الجيش سنة ١٩١٣

وظهر أن هذه الطبقة تعجز عن أن تزود الجيش بالعدد المطلوب من الضباط
رفض وزير الحربية أن يفتح الباب أمام عامة الشعب . وكان هناك تقليد يرفض
أى فرد له ميول اشتراكية من الانتظام فى سلك الضباط ، فقد قيل إن
الاشتراكيين تنقصهم المؤهلات اللازمة للضباط .

وكان هذا صحيحا من وجهة نظر القيادة البروسية التى كانت تستلهم تقاليد
البيئة الاقطاعية وتجعل أولى واجبات الضباط الولاء والتفانى فى خدمة الدولة .
وأولى واجبات الجنود الطاعة العمياء التى توجدنا نظم صارمة من الضبط
والربط ، وكانت هذه التقاليد تحقق النكامل المطلوب للجيش : الولاء من الضباط
والطاعة من الجنود ، هذا النكامل الذى وصفه تاسيتوس من أيام الامبراطورية
الرومانية وصفا دقيقا وموجزا عندما قال « يقاتل الزعيم فى سبيل النصر
ويقاتل الأتباع فى سبيل الزعيم » وبهذا النكامل استطاع الجيش الألمانى أن
يتحمل ضغط الحرب وتضحياتها طوال أربع سنوات .

وحق النهاية استطاع الضباط أن يحتفظوا بالضبط والربط فى الجيوش الميدانية
رغم الهزيمة . بحيث تم الانسحاب بطريقة أثارت الاعجاب . فكانت الفرق
تسير بنظام تحت إمرة قوادها فى الجانب الأيسر من طريق الانسحاب الطويل
بينما خصص الجانب الأيمن للمدنيين . ولم تقف مسيرة الانسحاب حتى بالليل .
وحددت الأوقات والأماكن ومواعيد الراحة ... الخ بكل دقة . وكانت طلائع
الحلفاء لا تكاد تلتحق بهم لتأخذ الأسلحة التى اتفق على تسليمها وكان الألمان
يتحركونها فى أكوام على جانب الطريق .

وعندما يقارن هذا بما حدث فى روسيا يتضح الفرق الكبير فى الوضع بين
الدولتين ، فقد كان الجنود الروس يفرون من الميدان والحرب قائمة فى حلة من
الفوضى والذعر والتمزق والتدهور نتيجة للهزيمة ولشبه الإدارة ورداءة الأسلحة
والأطعمة وما أن اندلعت شرارة الثورة حتى فتكوا بضباطهم . . . بينما كان

الالمان يسرون بعد الهدنة كأنهم في استعراض بخطوات الاوزة . وتحت
الاعلام وعلى دقات الطبول يتقدمهم ضباطهم .

إن مثل هذا الانسحاب الذي تم عن قيادة خالديه^(١) جعل الالمان يستقبلون
الجنود ككرايين وليسوا كفراريين ورفعوا لهم أقواس النصر التي كتبت
عليها عبارات « التي قواتنا التي لا تقهر » « إلى الجنود المظفرين » .

وكانت صفوة الضباط الالمان . هم الضباط البروسيون الذين كانوا يمتون
إلى أعرق العائلات الارستقراطية ، ويتوارث أبنائها الخدمة العسكرية جيلا
بعد جيل ، وهناك أسر عديدة كان أبنائها يحملون السيف لأربعة أو خمسة
أجيال متوالية ودون انقطاع . وقد تحدث ، مؤلف « قطار برلين الأخير » عن
آخر جيل من أجيال « الجنونكر » ووصف بعض خلافتهم فقال .

« إن الجزالات البروسيين رجال يروق النظر إليهم ، فهم من الناحية
الجسدية يبلغون الغاية من الوسامة . إن فون بوك وفون ليب إلهما اليوم القوام
الذي كان لهما عندما كانا في السادسة عشر رغم أنهما قاربا نهاية السن المادى
لحياة الفرد ، وهما يتمتعان بحيوية الشباب ، إنهما لا يشيخان لأن هذا يجعل الحياة
غير نظامية ، وهو أمر لا يتمشى مع الشرعة البروسية . إنهم يبدأون الحياة
بالميلاد ، ويواصلون ذلك ببساطة دون أى تغيير حتى يفجأهم الموت ، وقبل أن
يفجأ الموت البارشال فون ريشنو بعامين كان يسبح عاريا في الفستولا « وتذكر
الاشاعة أنه كان يحمل مسدسه بين أسنانه » في مقدمة فرقته . وقبل أن يموت
بعام كان يمارس في الصباح تمريناته بجانب ما كس شيملنج في التير جاردن
وفي الأمسيات كان يشترك في سباق ضد فريق أولمبي في العشرين من عمره .
وبما من شيء يمكن أن يثير إعجابهم ، فوجههم جامدة ، وهذا الجنود لا يتغير

(١) نسبة إلى خالد بن الوليد والحاياه بالمسلمين في مؤتمرو تلقيب النبي لهم الكرايين .

إلا في حالتين : حالة الإصرار المستميت ، وحالة البسمة العابرة . الأولى عند أداء الواجبات والثانية في الحياة الاجتماعية عند تناول الشاي أو المآذب . وقد يصور ذلك « لودندورف » الذي كان يسير بالملابس العسكرية الكاملة لجنرال عبر المانيا النازية ، عندما كانت الجموع الهائجة تمزق شارات الملازمين ، ساكناً هادئاً ، كما لو كان ذاهباً إلى حفلة شاي . وفي إحدى المرات عندما كانت معركة فرنسا في أيامها الأخيرة ، اجتزت ميدان المعركة رفقة ضابط روسي شاب ، فعلا الوحل حذائي ، وضرت الأسلاك الشائكة سروالي ، وفقدت قبعتي . وعندما وصلنا إلى ستراسبورج في المساء لم تكن شائبة واحدة لو عشاء الرحلة تعلق بدليلي ، فحذاءؤه يلعب ، وكل شعسرة في مفرقه في مكانها المحدد بالضبط !

وهن شرابهم حدث ولا حرج ! إنهم يعبون الخمر عباً . وخلال رحلة سبعة أيام عبر خط ماجينو مع الكابتن سومرفيلد الملحق العسكري بوزاره الدعاية وأحد الضباط البروسيين - كان يشرب بلا إقطاع ليلا ونهاراً . وكان يشرب كل شيء ، وفي كل وقت . وقد حاولت أن أسايره ونجحت خلال الثلاث عشرة ساعة الأولى . ولكنني بعدها لم أستطع ، وقنعت بأن آخذ مكاني على المائدة واشاهده وهو يجرع عدداً من زجاجات الخمر المتنوعة . وفيما بعد أخبرني أن الضباط البروسيين يرنون على الشراب كجزء من تدريبهم العسكري ، وأنه عندما كان في السابعة عشر كان يطلب منه أن يجلس منتصباً إلى جانب رؤسائه ويشرب معهم كوباً بعد آخر . وفي النهاية كان يؤمر بالوقوف في وضع « الانتباه » وأن يجيب على أسئلة ، فلذا أخطأ أو تلمع هوقب . ويعد هذا التدريب شيئاً هاماً ، لأن رؤية ضابط يترنح سكرأ يسوء إلى الضبط والربط وكرامة الضباط . والاحتفاظ بالكرامة تحت كل الظروف ، وفي كل الأوقات . جزء لا يتجزء من الشرع البروسية .

وإنه يبدو أنهم ليسوا كائنات إنسانية ، وأن المشاعر والتوازع الإنسانية محرمة عليهم بحكم مهنتهم البروسية . إنهم آلات تتحرك بالانمكسات ، ولا تدرى ما التفكير باستثناء ما يتعلق بالمبارك وكميات العناد والأسلحة والذخائر ، وهذا ما يؤدونه بكفاية ، أما التفكير فيما وراء ذلك فهو محرم عليهم ، والتاريخ بالنسبة لهم ثابت ومضمونه محدد ، وهو يعنى الوطن والحكومة التى تختارها وتعينها طبقتهم ، فإذا أنتخبت الجماهير الحكومة ، فإنها لا تصبح حكومة الوطن والحسن لديهم هو ما يتفق مع الجرمانى ، والسيء هو الغريب والشعبى . وهم يتساحون فى الخطيئات « الرجالية . » كالنسق ، والاحتفاظ بعشيقته ، والشراب ، والقمار ولكنهم يعتمدون عن أى اتصال بمن هم دونهم ، وهناك فكرتان يؤمنان بهما إيمان العقيدة المنزلة هما الشجاعة والواجب . فهم لا يتساءلون أبداً عن السبب ولكنهم ينفذون الأوامر ، أو يموتون دونها فى شجاعة . وهم فى وقت واحد رومانىكيون كفرسان القرون الوسطى ، ومقتوتون كقطعان الطرق ، وهم بحكم مهنتهم مدبرون ، يضيعون بالسلام واعداء مطبوعون لكل ما أحرزه العصر من بناء للديمقراطية .

وتنبأ ، وُلف « قطار برلين الأخير » بأنهم فصيلة مقضى حاجياتهم فى الحقيقة « حقيرية » اجتماعية لا مستقبل لها ، سواء انهزم هنار أو انتصر فلو انهزم فسيمزومون معه ، ولو انتصر فسيظلون لفترة . ولكن النصر الأخير سيكون لرجال (الجمتايو) وهو حكم صائب . ولكن كان لابد من هزيمة الحرب العالمية الثانية ، ومبارك الجبهة الشرقية الضروس لى يمكن طى صفحة العسكرية البروسية ، أما فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، فلم يكن الوهن قد تطرق إليها بعد .

وكان الضباط يكتنون بغض والكراهة لكل الإنجازات الاشتراكية وقد

تجملوا ابيرت وزملاءه على مضض ، وباعتبارهم أهون الشرين وأنهم الحاجز دون الطوفان . ولم تكن أسباب هذه المداوة مقصورة على الاختلاف - أو قل التضاد - في فهم الحياة والأسس التي يقوم عليها المجتمع ، إذ أضيف إلى هذا العامل الموضوعي عامل ذاتي هو التهديد بالقضاء على المنزلة المميزة لهم كضباط ، وملاك ، أو حتى حرمانهم من لقمة العيش وإزالتهم إلى درك الاستجداء المهين . ولم يكن في هذا التصور مبالغة . فإن أحداث الثورة البلشفية وما أوقعت من التنبلاء والضباط القيصرين من قتل أو تشريد جعل الناجين منهم يصبحون خدما أو سقاة في فنادق ومقاهي باريس وغيرها . كانت حية ومائلة في الأذهان وتمثل نوعا من الكابوس المزعج يجعل الضباط الألمان يبدؤون الاشتراكية بالمداوة تطبيقا لأول درس يتعلمه المسكريون في كل العالم : أن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع .

* * *

وأظهرت الثورة قوة جديدة في الجيش هي (مجالس الجنود) التي أخذت تنظم الجنود وتبعدم عن سيطرة الضباط . وكان الاتحاد السوفيتي قد استطاع أن يوصل دعايته إلى الخطوط الألمانية والثكنات بطرق عديدة كانت أبرزها (المؤاخاة) التي أضرت عليها لينين قبيل (برست ليتوفيسك) وسلم الألمان بها في حدود تصوروا أنها لن توهن الضبط والربط ولكنها تجاوزت ما تصوروه بكثير . وقد تأثر جنود معظم الفرق التي سحبت من الجبهة الشرقية عند شن هجوم المارن بالدعايات البلشفية بدرجات متفاوتة ، فضلا عن الدعاة المحترقين والمنظمين الذين دربهم «جوف» بمساعدة المجموعات اليسارية والمعونات المالية التي مكنتهم من العمل . ونتيجة لهذه العوامل كلها تكونت في معظم المدن (مجالس جنود) مارست قدرا من السلطة والهيمنة على الشؤون العامة . وفي لحظات الخلل والمد الشوري كان الجنود يهاجمون الضباط ويجردونهم من

علاماتهم وأوسمتهم ، ولكن قلما جاوز الأمر ذلك .
ولكن مجالس الجنود على أهميتها وخطورتها الكبرى خضعت لسدد كبير
من وجوه النقص قلت من فعاليتها واودت بها بعد مضي أقل من عامين . وكان
من أبرز وجوه النقص عدم توفر الوعي السياسي الثوري لدى أعضائها ، كانت
الثورة بالنسبة لهم العودة إلى الحياة المدنية واستئنافها بأسرع ما يمكن من
الوقت وبأقل ما يمكن من التضحيات ، ومن هنا فقد تجاوزوا مع فكرة الدولة
في عقد الجمعية الوطنية - ولم تؤكد تعقد حتى ساءوا لها المسؤولية الثقيلة التي
لم يكونوا لها أ كفاء ولم يقدروها قدرها : مسؤولية السلطة .

وكان يمكن أن يعوض هذا النقص لو رزقت المجالس قيادة ثورية قادرة
ونابغة ، ففي الفترات التليمة التي خضعت فيها مجالس الجنود لقيادات عمالية
أو اشتراكية واعية ، تخلوا عن سلباتهم ، ولكن هذا لم يحدث إلا لماماً .
ولو رزقت مجالس الجنود زعيماً قديراً مثل تروتسكي لاختلف الأمر حتى وإن
كانت النتيجة الأخيرة بالنسبة للمجالس نفسها واحدة . ففي ألمانيا سادت المجالس
السلطة مخنارة ومتطوعة إلى الحزب . وفي روسيا سلب الحزب السلطة من
المجالس نتيجة لأن رجالها القدير تروتسكي كان في الوقت نفسه هو رجل الحزب .
وقد يصور موقف مجالس الجنود من قيادتها العسكرية ما حدث عندما
تكون بالقيادة العليا في إسبانيا بمجالس جنود ، ففي ١٠ نوفمبر سنة ١٨ تقدم إلى
القيادة سبعة جنود باعتبارهم اللجنة التنفيذية لقيادة مجالس الجنود طالبين
الاشتراك في إدارة عملية الانسحاب والتثبيت من أن القيادة لاتوجه الجيش
ضد الثورة . واستقبل هذا الوفد ضابط أعاد لذلك فتحدث عن روح الزمالة
التي تجمع ما بين الجنود والضباط وذكّر اسم هندنبرج وأنه وضع نفسه في خدمة
الحكومة . ثم اقتادهم إلى حجرة الخرائط حيث كانت توجد خريطة بطول
الحائط موضح عليها الطرق والكبارى ، وخطوط السكك الحديدية ومحطاتها .

وتقابل فيها الخطوط الزرقاء والحمراء والخضراء في اختناقات ضيقة . وتحدث الضباط عن هذه كلها بيسر ومهولة أدهشت الجنود . وسأل الوفد عما إذا كان على استعداد لإدارة عملية الانسحاب؟ إن الأوامر يجب أن تصدر وأن يصدق عليها بسرعة لأن أى تأخير يعد انتهاكا للاتفاق ويضعهم تحت رحمة الحلفاء ، ورد الجنود مبهورين بأن هذا يمكن أن يترك للضباط وأن المجلس يؤيد الضباط . واستطاع الضباط أن يحمل الوفد على إصدار بيان يدعو إلى تأييد قيادة الجيش .

وأغرى هذا النجاح وما التسمت به عملية الانسحاب من كفاية ودقة القيادة العليا بأن تعالج قضية « مجالس الجنود » معالجة جذرية . فقرر جرور عقد مؤتمر مجالس الجنود فى الجيش الميدانى فى أول ديسمبر فى ام Ems بنية اتخاذ قرار كان قد أعدده لكتب سلطات هذه المجالس وحل كل التشكيلات العسكرية وتدعيم سلطة الضباط معتمدا على اسم هند نبرج وتأثيره على الجنود . ومعقدا أن الثورة نزوة طارضة .

وعندما انعقد المجلس مضى كل شىء فيه طبقا للخطة التى رسمها جرور ، فألقيت خطب تندد بتهور مجالس العمال والجنود فى برلين وقدم القرار الذى وضعته القيادة العامة وكاد أن يجاز عندما قدم اميل بارت رئيس المندوبين الثوريين وألقى خطابا ملتها ندد فيه بسداجة الجنود التى مكنت الضباط من تخديرهم .

وانكشفت مناورة القيادة وأفلت الزمام من يدها وقرر المجلس حق الجنود فى رفع العلم الأحمر ، وأن مجالس الجنود هى الممثلة القائمة دون منازع لإرادة الشعب ، وأنها أداة السلطة السياسية .

ولكن هذا الفشل لم يثن القيادة العليا ، فوضعت خطة أخرى ، للقضاء على العناصر الثورية بأسرها فى برلين ، سواء منها الجنود أو العمال ، فعندما سرحت

الفرق ، وجهت القيادة العليا تسع فرق من فرق المشاة الموثوق بهم ليمسكوا في أرباض برلين ، جنوبا وشرقا وغربا . كما دربت وحدات خاصة على قتال الشوارع . ووضعت القيادة العليا خطتها على أساس أن يلي دخول القوات مباشرة عمل حاسم لتجريد السكان من الأسلحة والقبض على العناصر المشاغبة والثورية وإعادة السلطة والنظام في الجيش .

بيد أن المستشار ايبرت رفض هذه الخطة رفضا باتا . وكان قد حذر جرونر قبل أن يعقد مؤتمر مجالس الجنود ، وأوضح له مخاطر ذلك وكان يستطيع أن يتسامح في عقد المؤتمر ولكنه لم يكن ليقبل أن تطلق تسع فرق من المشاة على سكان برلين فضلا عن أنه كان يعرف مدى تعقد الموقف فسلطانه محدودة .. وزملاؤه لا يثقون في القيادة العليا . ومجالس العمال والجنود لن تستسلم بسهولة . ولهذا طلب ايبرت للمرة الأولى أن يذعن الجيش لأوامر الحكومة . فلا يعود إلى برلين إلا الجنود الذين جندوا منها .. ولهم أن يحملوا الأسلحة ولكن دون ذخائر .. وحاولت القيادة العليا التلمص ودفعت بهندنبرج لأن يرسل لايبرت خطابا يناشده الموافقة على الغاء مجالس الجنود للضباط حتى يستقر الضبط والربط .

ولكن ايبرت لم يكن يستطيع الموافقة على هذا حتى لو أراد، وأخيرا أمكن الوصول إلى تسوية بحيث تنولى السلطات المدنية الاشراف على تجريد المدنيين من الأسلحة ويسمح للفرق التسعة بالدخول إلى برلين محتفظة بالذخائر على أن لا تحضر معها دبابات أو مدافع رشاشة، وانهجت القيادة العليا بذلك وأوكلت قيادة الفرق إلى جنرال صارم هو فون ليكيس Von Lequis وزودته بتعليمات سرية للعمل بما يراه لازما - حتى لو تعارض ذلك مع أوامر الحكومة أو وزارة الحربية .

ودخلت القوات بنظام تام وفي مقدمتها الجنرال ليكيس وأركان حربه على

ظهور الجياد واضعين كل نياشينهم ومنبتين في خوذاتهم طاقات من أوراق السنديان ترمز للاخلاص والشجاعة ، ولكن الاستقبال كان فاترا ووقفت مجموعات من فرقة « بحارة الشعب » التي تمثل أكثر العناصر ثورية تحدى في شك وامتناء . خاصة وقد لاحظت المدافع الرشاشة مخبأة في العربات تحت أكداس من أوراق السنديان .

ولم تكدمضى ثلاثة أيام حتى « تبخر » الجيش على حد تعبير أحد المؤرخين^(١) فكل الجنود عادوا إلى أهلهم دون إذن ، وظلوا هناك . وهجرت الشكنات ونبتت كل القواعد العسكرية . وبدلا من أن يجرد الجيش المدنيين من السلاح فقد جرد المدنيون الجيش من السلاح .

وهكذا فشلت فشلا ذريعا هذه المحاولة أيضا ودل ذلك - بما لا يدع شكاً - على أن موجة الثورة يمكن أن تتلمع الجيش وتذيب كل نظم الضبط والربط بحيث يسر استخدامه كقوة منظمة في ضرب الثورة وأنه إذا أريد هذا فلا بد من قوات محدودة العدد تعزل عن البيئة العامة للثورة وتغذى بفلسفة ودعاية مضادة تصل من القوة والموضوعية إلى مثل دعابة الثورة .

فإذا كانت نظم الضبط والربط قد تهاوت بين الجنود فإن النواة القوية الصلبة للضباط لم تتأثر .. على العكس لقد زادت الأحداث الأخيرة قوة وأشعرت الخطر الذي يهددها في الصميم ودفعا ذلك لأن تعمل بوسائل جديدة .

وتمثل لنا هيئة الضباط ومجالس الجنود قادة دون جيش وجيشاً دون قادة . وقد استطاع القادة أن يكونوا جيشاً ولم يستطع الجيش أن يبرز قادة .. وانتصر القادة في النهاية .

(١) The Kings Depart p. 235.

٢ - البرجوازية

عندما قامت الحرب كانت البرجوازية من رجال صناعة ومهن وأساندة جامعات ٠٠ الخ هي نواة مجتمع الامبراطورية وقاعدة تقدمه ٠٠ فكان رجال الصناعة الصاعدة يمثلون القوة الاقتصادية للبلاد والأمل في أن تجاوز المانيا مابلغته عدوتها اللدود بريطانيا ٠٠ وكانت صناعة الحديد والآلات والأصباغ والكيمويات تفوق بالفعل مثيلاتها في بريطانيا . وعندما قامت الحرب عززت الصناعة . فلما حدثت الهزيمة توقفت وفقدت بعض كيائها الرسمي .

وكان المأزق الذي وقع فيه الاشتراكيون الديمقراطيون (الأغلبية) أنهم لم يكونوا متحمسين لفكرة تأميم الصناعة التي اقترنت بالبلشفيين والفوضي أكثر مما اقترنت بتلك الصورة السمحة للاشتراكية التي تعمل فيها النقابات معززة بالحزب والتشريع لتحقيق مكاسب للعمال شيئاً فشيئاً ، وكانت هذه الصورة الأخيرة هي ما يتفق مع الطابع السلمي والتدريجي والنظامي للاشتراكية الالمانية . كما أن جزءاً كبيراً من هذا الفهم يعود إلى ماتصوره الاشتراكيون الديمقراطيون من أن بلوغ الصناعة والإنتاج درجة عالية من التنظيم والتركيز إنما يمثل بتعبير رودلف هلفردج في مؤتمر الحزب سنة ١٩٢٧ «احلال المبدأ الاجتماعي للإنتاج المخطط محل المنافسة الحرة وأن مهمة هذا الجيل هي أن ترجم هذا الاقتصاد الذي نظمه وأداره الرأسماليون إلى اقتصاد تديره الدولة الديمقراطية» ولم تكن صورة هذه «الترجمة» واضحة حتى ١٩٢٧ ومن هنا فقد وقعت جمهورية فايمار موقفاً «ديمقراطياً» من الرأسمالية عندما كانت السلطة في يدها ، وتستطيع القضاء عليها وتصورت أن دورها ليس القضاء عليها ولكن تحويلها من إدارة رأسمالية إلى إدارة ديمقراطية ٠٠ وكان هذا الوهم يشبه وهم الشيوعيين عن أنه لا بد من وصول هتلر إلى السلطة حتى يأتي الدور التاريخي للشيوعية .

١٠ - ظهور وسقوط

وبهذه الطريقة أعطيت الرأسمالية «فترة السباح» التي مكنتها من أن تستعيد
مراكزها وأصبح كل حديث عن التأميم مستعدا، وشيئا فشيئا أصبح الحديث
عن العدالة ثقيلًا، ومع مضي الوقت استعادت الرأسمالية قوتها وتسكرت
للجمهورية ونسكت بالنقابات.

وكان للقضاة أهمية كبيرة في المجتمع الألماني وقاموا بدور بارز في مقاومة
الجمهورية واستغلوا صفاتهم وسلطاتهم والثغرات التي لا يخلو منها قانون في ذلك
وآداب قضاة المحاكم الجنائية على تبرئة المسكرين والرجعيين وإدانة الشيوعيين
والاشتراكيين.

وكان مما يفاقم من أثر ذلك الطبيعة التعاقدية للجمهورية التي تطلبت الالتجاء
إلى القضاء عند الاختلاف وفكرة زعماء الجمهورية عن القانون والنظام التي
جعلتهم يحكمون القضاء في عدد كبير من المناسبات كإهانة علم الجمهورية
أو إهانة رئيس الجمهورية «ايرت» وفي معظم هذه الحالات خذلهم القضاء،
وجعل من المحاكم منابر لدعاية خصومهم.

وروى و. س. ويتنسكي W. S. Woytinsky أن بعض الفلاحين وصف ألوان
علم الجمهورى بأنها روث أسود وأحمر وأصفر ورفعت الحكومة قضايا على من
كانوا يستخدمون هذه الألفاظ في الخطب العامة وعرض محامو الدفاع علم الجمهورية
في قاعة المحكمة وأوضحوا أن الشريط الذي يدعى رسمياً «ذهبياً» لم يكن من
لون ذهبي ولكنه بدلا من ذلك كان أصفر مثل روث البهائم، وفي بعض
الحالات انحازت المحكمة إلى جانب الدفاع مستغلة القضية لاذلال الجمهورية
وحدث هذا بالنسبة لايرت نفسه . . وهو رئيس الجمهورية ورمزها.

ولم يتعاطف المثقفون سواء كانوا أساتذة جامعات أو طلبة مع الجمهوريه
الناشئة أو الفكر الاشتراكي، فالنشأة التاريخية لألمانيا جعلت - كما أشرنا -

الفكر الألماني يتجه اتجاها وطنياً وليس اشتراكياً ولم يظهر في ألمانيا مفكرون شعبيون كالكتاب الروس العظيم بلنسكى وشيرنفسكى وتولستوى وتورجنيف وديستوفسكى وجوجول وجوركى الخ .. من الذين أبرزوا قضية الشعب المستعبد المحروم وعرضوا صورة لمشاعر العمال والفلاحين والجالوا قضية العدالة الاجتماعية بحيث مهدوا الجول للدعوات الاشتراكية والشعبية وألهبوا نخيلة شباب الجامعات وأبناء النبلاء .. على العكس لقد كان عمالقة الفكر الألماني هم كانت ونيته و فيشته وهيجيل وتلك السلسلة من المؤرخين الذين مجدوا الجنس الألماني وحضارته وخصائصه . وقد كان من جوته عملاقاً من عمالقة الفكر الإنساني وكان جديراً بين الكتاب الألمان بمنصب الصدارة والراية ولكنه لم يثر نخيلة المثقفين ، وفي سنة ١٩٣٣ عندما احتفل بذكرى مرور مائة عام على وفاته لم يكن الاحتفال بالدرجة الأولى باعتباره شاعراً أو نبياً ولكن باعتباره أفيونا ولم تجد الدعوة لإقامة تمثال له ريش هينه وهو الذي يلي جوته كشاعر إنساني . من يستجيب لها على امتداد ٧٥ عاماً .

وقد يقال إن ماركس كان ألمانيا أيضاً . وأنه الابن البكر لهيجل ولكن ماركس كان يهودياً بالأصل . وكان ابناً عاقاً لهيجل لأنه استخدم أسلوبه ليقلب فكرته ، وقد نبذ جنسيته البروسية وعاش في بريطانيا .. ومن هنا فن العسير أن نعتبره «ألمانيا» وقد اعتبره المفكر الألماني «أوزفلد شينجلر» «اشتراكياً إنجليزياً» ودعا إلى انقاذ الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني من نفوذه لأن «حزب بيبيل يتضمن قيماً بروسية أصيلة مضادة للماركسية كالضبط والالتزام والاستعداد للتضحية حتى الموت في سبيل فكرة سامية» ورأى شينجلر أن الاشتراكية والبروسية معا يجب أن يقف ضد الماركسية التي تمثل بريطانيا بترعتها المادية^(١) .

(1) Weimer Culture by Peter Gay p. 90.

ولم تحدث الجمهورية تغييرا كبيرا في نفسية أو ذهنية المفكرين أو نظم الجامعات وظل المؤرخون الألمان القدامى هم الذين يلمون جيل فايمار وقد تحدث الكاتب فرانز نيومان Franz Neumann عن بيئة بعض الجامعات الألمانية فترة الحرب .

« عندما جئت في ربيع ١٩١٨ إلى جامعة برسلو ، نبذ أبرز اقتصادي فيها في محاضراته الأولى قرار الصلح لسنة ١٧ (الصلح دون ضم أو تعويض) وطالب بضم لونيبي وبري Longwy and Brie وتحويل بلجيكا إلى محمية ألمانية وأن تستعمر ألمانيا مناطق واسعة من أوروبا الشرقية وما وراء البحار ، وتنبأ أستاذ الآداب بالانتصار الألماني من واقع تصوره لفلسفة كانت ومثله . وعندما ذهبت إلى ليبزج في أواخر عام ١٩١٨ . رأى أستاذ الاقتصاد أن من الضروري تأييد شروط اتحاد الجامعة الألمانية Pan German Union وأركان الحرب ، بينما استخلص أستاذ التاريخ أن الديمقراطية في جوهرها صورة غير ألمانية للتنظيم وأنها إنما تناسب الأنجلو ساكسون الماديين ولكنها تضاد قيم الجنس الألماني ، وعندما انتقلت إلى روستوك في صيف ١٩١٩ كان على أن أنظم الطلبة لمقاومة الدعوة ضد السامية التي كان يقوم بها علانية الأساتذة ، وأخيرا عندما حلت في فرانكفورت كانت المهمة الأولى التي جابهتني هي المساعدة في حماية أستاذ جامعي اشتراكي - عين حديثاً - من الهجوم السياسي والبدني الذي كان يقوم به طلبة يؤيدهم سرا عدد كبير من الأساتذة » (١) .

وفي ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٢ حضر الكونت كسلر احتفالا بالذكري الستين لميلاد جرهارت هوبمان في جامعة برلين فوصف في مذكراته كيف أن أستاذاً للآداب يدعى بترمن حاول أن يشي المسؤولين في الجامعة عن دعوة ايبرت

(1) Ibid p. 46

«حيث أنه من غير المستساغ للجامعة أن يقف أمامها الرئيس الجمهورى للدولة»
وعندما رفض المسؤولون طلب بترسن أن لا يدعى «لوب» على الأقل حيث أنه
« من الكثير جدا أن يدعى اثنان من الاشتراكيين الديمقراطيين»^(١).

٣ — اليسار

كانت التطورات التي سبقت الحرب وعاصرتها تنعكس على معسكر اليسار
وتجرى تغييرات جسيمة في مواقع مجموعاته ، فالحزب الاشتراكي الديمقراطى
الذى تعرض لمحنة التنقيحية أولا ، ثم تأييد الحرب بعد ذلك أصبح يمثل يمين
اليسار ، وفي الوقت الذى لم تكن البرجوازية والعسكريه لنبرئة من «وصمة»
الاشتراكية فقد كانت بعض المجموعات الاشتراكية تلمصق به وصمة العمالة
للعسكريين والبورجوازية .

والحقيقة أن تأييد الحزب الاشتراكي الديمقراطى للحرب صدم بعض
الاشتراكيين الماركسيين صدمة لم يفوقوا منها ، ووضعهم على طريق الالعودة
بالنسبة للحزب بينما كان أثره أخف بالنسبة لآخرين . ولكن حتى بالنسبة لهذا
الفريق ، فقد كان من القوة بحيث يجعلها تنشق عن الحزب .. وإن قدر لها أن
تعود ، ومثلت الفريق الأول روزا لوكسمبرج وكارل ليبكانشت واتباعهما ،
ومثله كذلك المندوبون الثوريون « بينما مثل الفريق الثانى تلك المجموعة التي
عارضت التأييد ولكنها خضعت لإرادة الأغلبية تمسكا منها بقواعد الالتزام
الحزبى .. وكان على رأسها رئيس الهيئة البرلمانية للحزب « جو هازه » الذى
كان عليه بحكم صفته أن يقرأ البيان المشهور يوم ٤ أغسطس . حتى وإن لم يكن
مؤمنا به .

(1) Ibia p. 46

وعندما انضحت الطبيعة المدوانية للحرب، وتكرر طلب الحكومة لاعتمادات مالية دون أن يستطيع الحزب الاشتراكي الديمقراطي الرجوع عن موقفه لم يعد مناص من أن تنشق هذه الجماعة في الفترة ما بين مارس ويونيو ١٩١٧ وأن تكون الحزب الاشتراكي الديمقراطي USPD بزعامه كاوتسكي وهازه وبيرنشتين وعدد آخر من أبرز أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي. وكانت الميزة التي اتسم بها الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل هي أنه في الوقت الذي لم يتجهم لألمانيته ولم يتجاهل الضرورات التي كانت تفرض نفسها، فقد كان لديه من الشجاعة ما يجعله يحاول الملائمة ما بين التطبيق والتنظير. دون أن يسلم قياده لواحد منها على حساب الآخر. . وكان هذا دوراً شاقاً ولدرجة جعلت مدة قيام الحزب به محدوده وتمزق بعدها أشلاء.

وعندما تكون الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل جنب الأنظار وأسرعت المجموعات التي عارضت الحرب بالإضمام إليه حتى وإن كانت موافقها أكثر يسارية وتشدداً من موقف الحزب وكانت أبرز هذه المجموعات مجموعة المندوبين الثوريين ومجموعة سبارتا كوس.

وكانت مجموعة « المندوبين الثوريين » تتكون من نواة صلبة من مهرة عمال المعادن ببرلين. وقد قاوموا الحرب. وكانوا هم الذين نظموا الإضراب السياسي المدوي في يناير سنة ١٨ وثاروا على القيادات النقابية العليا واستهدفوا تحويل النقابات من هيئات مهنية خاصة إلى تشكيلات سياسية وثورية وقد تحدث عنهم رئيسهم « ريتشارد مولر » فقال: « خلال الحرب لم تأت القوة الدافعة لحركة الجماهير من المستويات الدنيا للطبقة العاملة، التي كانت تعاني أكثر من غيرها آثار الحرب، ولكنها جاءت من المستويات العليا والعمال الغنيين. وذلك القسم الذي يطلق عليه إرستقراطية الطبقة العاملة، والذي

إتهم ظلماً بأنه شل الثورة الألمانية^(١) .

وكان من الممكن لهؤلاء المندوبين الثوريين أن يكونوا هم السوفيت الألماني الذي يصبح العمود الفقري للثورة، والواقع أنهم وضعوا الخطط للثورة فعلاً وناقشوا في عدد من الاجتماعات النقاط التفصيلية وحددوا بعد مناقشات حامية يوم ١٢ نوفمبر للقيام بالثورة . ولكن تمرد بحاره كيل يوم ٣ نوفمبر غير الخطط ، وبدلاً من أن تبدأ الثورة في برلين وتنتقل منها إلى بقية المدن ، والموانئ الألمانية . فقد قامت في كيل وامتدت منها إلى بقية المدن والموانئ وقامت في برلين يوم ٩ نوفمبر متأخرة أسبوعاً عن كيل ، وسابته بيومين للميعاد والذي حدده المندوبون الثوريون .

وكان النقص الأساسي في المندوبين الثوريين هو - كما ذكرنا - إقنصارهم على برلين وعدم إمتدادهم إلى غيرها ، وأنهم كانوا يفتقدون النظرية التي يقيمون عليها حركتهم أو يقبسون منها برنامجهم . كانوا جمهورياً دون نظرية بينما كانت مجموعة سبرتا كوس نظرية دون جمهور ، وكان يجب أن يتلاحم هذان ليستكمل هذا النقص وبذات بالفعل المحاولات لتحقيق ذلك وكان يجب لنجاح مثل هذا المسعى وصهر المجموعتين أن يوجد الزعيم القوي الذي يضع الخطط ويتواءم مع الأحداث ، وكانت المجموعتان تفتقد إن هذا الزعيم . حقيقة أن روزا لوكسمبرج كانت عبقرية في التنظير ووضع البرامج والخطط ولسكتها لم تكن لتستطيع دائماً دفع الجماهير لتحقيقها وتلك قيادها وكبح جماحها . . وكانت الإضافة التي قدمتها للثورة وللفكر الإشتراكي هي وضع برنامج تلك المجموعة التي اختارت لها اسم سبرتا كوس . .

ولم تكن روزا هي الأولى التي بعثت اسم سبارتا كوس من ذكرى الصراع الروماني القديم فقد سبقها إلى ذلك الكاتب الألماني « لسنج »

(1) Hammar or Anvil p, 38

ولكن لسنج جعل من سبارتا كوس بطلا لرواية أما روزا فقد بعثته من جديد كما كان : علما على هيئة قائدة بالفعل قد تكون أقل عدداً من جيش سبارتا كوس ولكنها تزيد عنه علما وثقافة وتقوم بدور درامي وديناميكي تسيل فيه الدماء .

وقد أشرنا في فصل سابق إلى إصدار روزا لوكسمبرج للرسائل التي حملت اسم سبارتا كوس « ومجلة الأنترناسيونال » الأمر الذي أدى إلى مصادرتها واعتقال روزا لوكسمبرج . . وقد آن الأوان للحديث عن هذه المفكرة النابغة بما يسمح به المجال .

ولدت روزا سنة ١٨٧٠ في ولندا الروسية من عائلة يهودية مثقفة واعتنقت الأفكار الثورية عندما كانت تلميذة في المدرسة العالية في وارسو حيث كونت مجموعة صغيرة لمقاومة الطغيان الروسي . ولكي تتفادى السجن هاجرت وهي في الثامنة عشر إلى سويسرا . . وأتمت هناك دراستها بتفوق جذب الانتباه ، وعندما نالت درجة الدكتوراد في الفلسفة في الثالثة والعشرين نذرت نفسها للعمل في سبيل الطبقة العاملة وبرزت لأول مرة في مؤتمر زيورخ ١٨٩٣ للدولية الثانية ، ثم ذهبت إلى ألمانيا كداعية ومدرسة ومؤلفة . وأضنى عليها زواج شكلي الجنسية الألمانية بحيث أمنت إخراجها من ألمانيا ، وعملت مدة كرئيسة تحرير إحدى الصحف الألمانية . .

وعند إعلان الحرب سجنتم لمدة ثلاث سنوات وأربعة شهور في مختلف السجون الألمانية ، ولكنها كانت دائماً السكتابة من سجنها ، سواء كانت هذه السكتابات سياسية أو خاصة كخطاباتها إلى صديقتها لويز زوجة كلوتسكي وسونجا زوجة ليبيكنشت التي لم تلبث أن أصبحت زميلتها في السجن ، ونشرت بعض هذه الرسائل بعد نهايتها المفجعة فأثارت بأسلوبها الطلي

وعواطفها الرقيقة إعجاب الجميع . وقال أحد المؤرخين « لقد كانت دائماً أقرب إلى غاندى منها إلى لينين » وهذا المزيج من الثقافة العلمية والنظرية والنزعة الإنسانية والأدبية أعطاهما مسحة من سعة الأفق والأمانة ، وعصمها من هوس الاستحواز على السلطة أو لغة الارهاب والوحشية وكان الخطأ فيها هو الخطأ في الماركسية نفسها التي لم تستطع على مارزقته من ذكاء التحرر من إسارها .

وقد خاضت روزا معركتين مريرتين كانت فيهما هي الفارس المجلى الأولى هي التنقيحية وقد أشرنا إليها والثانية هي جمهورية فايمار التي بدأت بمقارمة الاستسلام للحرب . .

وعندما بدأت المجموعات الماركسية المعارضة للحرب، تتجمع في زيروالد أولا وكينتال ثانياً « سنتى ١٥ و ١٦ » قدمت مجموعة الايترناسيو قال مذكورة تضمنت عددا من المقدمات والنتائج أو الواجبات التي يفترض القيام بها لكي يمكن للدولة أداء دورها التاريخي .

واستهلت مقدمات المذكرة بأن الحرب العالمية قد قضت على عمل أربعين عاما من الاشتراكية الأوربية ودمرت ثورية الطبقة العاملة وتضامنها الدولى وربطت ما بين آمال الجماهير وانتصار حكوماتهم الرأسمالية وأن زعماء الحركة الاشتراكية في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا (باستثناء حزب العمال المستقل) بتأييدهم لحكوماتهم دعوا الإمبريالية ومنحوها مهلة وأطالوا في أمد الجزرة وجعلوا محاولة الأحزاب الاشتراكية في روسيا والصرب وإيطاليا لأداء واجبها أمراً عقيماً . وأن الحرب العالمية لن تنفيذ الجماهير والشعوب شيئاً وأنها ليست إلا منافسة وحشية للاحتكارات . إذ لم تعد الحروب القومية ممكنة في عهد الاحتكارات الطليقة ولا تستخدم المصالح القومية إلا كوسيلة للخداع

وإخضاع الطبقات العاملة لعدوتها اللدود الإمبريالية وقد أصبحت الشعوب الصغيرة التي ناصر حكامها الامبرياليه دعى أو رهائن في المعركة الامبرياليه للدول العظمى . وفي ظل هذه الظروف فإن الحرب تعنى كائنه ما كانت نتيجهها هزيمة الديمقراطيه الاشتراكيه ما لم تتدخل البروليتاريا الدوليه تدخلًا ثوريًا ، لأنها ستؤدى إلى تقوية العسكريه والاستغلال وجعل البرلمان أداة في يدها وبذلك ستمهد الحرب القائمه لحروب جديده وأن التوصل إلى السلام لا يمكن أن يكون بوسائل يوتوبيه أو رجعيه مثل المحاكم الدوليه أو الديبلوماسية الرأسماليه أو المعاهدات على اختلافها — كمعاهدات نزع السلاح أو حرية البحار أو التحالف الأوربي أو الدول العازلة . الخ واوسيله الحاسمة الوحيدة هي قدرة البروليتاريا الدوليه على النشاط السياسى وعزيمتها الثورية كما أن الامبرياليه باعتبارها المرحله الأخيرة للحكم السياسى للرأسماليه هي أسوأ عدو للبروليتاريا في كل الدول وإن كانت تتفق مع الصور السابقه عليها في أنها تقوى أعدى أعدائها للدرجه التي تكشف فيها عن نفسها ، فالامبرياليه تستحث تركيز رأس المال وتحمل الطبقات الوسطى وزيادة البروليتاريا وتستثير المعارضه المتزايدة من الجماهير . ومن هنا فإن كفاح البروليتاريا يجب أن يتغلب حول مقاومه الامبرياليه لأنه سيكون في الوقت نفسه كفاحا في سبيل السلطه السياسيه للدولة والمجاهه الحاسمه ما بين الاشتراكيه والرأسماليه . ولا يمكن إدراك الهدف الاشتراكي إلا عندما تتوحد البروليتاريا الدوليه في جبهه واحد ضد الامبرياليه وتجعل شعارها « الحرب على الحرب » وبذل أقصى الجهود والتضحيات ومن هنا فإن مشكله البروليتاريا اليوم هي جمع البروليتاريا من كل الدول في قوة ثورية فعالة لتسكون عاملا حاسما في الحياة السياسيه عبر تنظيم دولى قوى وفهم متفق عليه لأهدافها ووسائلها ، وتكتيك ثورى للعمل السياسى في الحرب والسلام . وقد حطمت الدوليه الثانيه ذلك وثبت فشلها بجزءها خلال

الحرب عن أن تقيم سدا ضد التحلل القومي وخصيانه الممثلين الرسميين للأحزاب الاشتراكية في الدول الكبرى وانحرافها فيجب إقامه دوليه عماليه جديده تنحمل مسئوليه قيادة وتوحيد الكفاح الثوري للطبقة العامله ضد الامبرياليه .

ولكى تقوم الدوليه الجديده بهذا الدور التاريخي — فعليها أن تضع لنفسها المبادئ الآتيه :

١ — إن الكفاح الطبقي داخل الدول البورجوازيه ضد الطبقات الحاكمه والتضامن البلوريتارى الدولى فى كل الدول أمران لا يتجزئان وقاعدتان حيويتان للطبقات العامله فى كفاحها العالمى للتحرر ، والاشتراكي البلوريتارى لا يستطيع أن يطرح الصراع الطبقي أو التضامن الطبقي خلال الحرب أو السلم دون أن يقع فى الانتحار .

٢ — إن العمل الطبقي للبلوريتاريا فى كل الدول يجب أن يجعل هدفه الرئيسى فى السلم كما هو فى الحرب الانتصار على الامبرياليه ومنع كل الحروب ويجب أن يكون العمل النقابى والبرلمانى تابعا لهدف هو وضع بلوريتاريا كل دولة فى معارضة حادة للبورجوازيه القومية^(١) وإبراز كل مناسبة للاختلاف ما بين الاثنين وتقديم التضامن الطبقي الدولى على كل شىء آخر والدفع به إلى الصدارة .

٣ — أن تكون الدوليه هى بؤرة التنظيم للطبقة العامله العالميه وتتولى الدوليه فى السلام وضع التكتيكات للأقسام القومية لها عن موضوعات السياسه الاستعماريه والتجاريه والعسكريه واحتمالات مايو وما إلى ذلك كما تحددها خطوط العامه للتكتيك الذى يتبع وقت الحرب .

(١) إن كلمة قومية هنا ، وفى بقية لفصل ترجمه لكلمة national التى تترجمها بعض الكتابات العربيه « قومية » .

٤ — يعطى تطبيق قرارات الدولية الأولية على تطبيق أى قرارات أخرى
وبقدر ما تخالف الأقسام القومية ذلك بقدر ما تنأى بنفسها عن الدولية .

٥ — فى الكفاح ضد الامبريالية والحرب ، لا يمكن قيام سلطة محددة
إلا بتضامن جماهير البلوريتاريا فى كل الدول . ويجب أن تضع الأقسام القومية
نصب عينها أهمية تعليم الجماهير العريضة النشاط السياسى والقيام بالمبادرة
وبناء النقابات والتنظيمات السياسية ليكن فى أى وقت بفضل اكتساب تعاونها
النشط والسريع فى كل الأقسام القومية تحقيق إرادة الدولية وتحويلها إلى أعمال

٦ — إن المهمة التالية للاشتراكية هى التحرير الروحى للبلوريتاريا من
وصاية البورجوازية التى ينم عنها نفوذ الايديولوجية القومية . ويجب أن تنفذ
الأقسام القومية فى اثارها فى البرلمانات وفى الصحافة الأسلوب التقليدى للقومية
باعتباره أداة البورجوازية للسلطة . إن الصراع الطبقي الثورى ضد الامبريالية
هو اليوم الحماية الوحيدة للحرية القومية الحقة . والدولية الاشتراكية وطن
كل البلوريتاريا ، ويجب أن يؤخر كل شىء فى سبيل الدفاع عنها .

وتوضح هذه الوثيقة رأى روزا لوكسبرج فى التضامن الدولى وأنه يجب
أن يمنح الأولوية والصدارة على كل صور العمل القومية ويقدم لنا تصورهما
للدولية كهيئة تهيمن على كل قسم من الأقسام القومية التى تكونها ولكنها
تستمد قوتها من كل هذه الأقسام وإيمان هذه الأقسام بها .

وقدمت هذه الوثيقة إلى مجموعة الاثترناميونال فى أول يناير ١٩١٦
واعتمدها ونشرت للمرة الأولى فى إحدى مطبوعاتها .

وعندما تحولت مجموعة الاثترناميونال إلى هيئة باسم اتحاد سبارتاكوس
Spartacus Bund وضعت روزا وثيقة هامة باسم « الاسبرتاكيون الالمان »
وضحت فيها أهدافهم وأغراضهم ونشرت فى مجلة « دى رووث فاهن » فى

ديسمبر سنة ١٨ واعتمدت أيضا في المؤتمر التأسيسي الذي حول اتحاد سبارتا كوس إلى « الحزب الشيوعي الألماني (K. P. D.) في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨ والوثيقة بمثابة برنامج لجمهورية سوفيتية تقوم على مجالس ، وقد افتتحتها بالإشارة إلى أن ثورة ٩ نوفمبر وضعت حدا لمنذجة الحرب وأعوامها الأربعة بفضل قومة العمال ، ولكن الحكم السياسي ليس إلا انعكاسا للإمبرالية الرأسمالية التي كانت السبب الحقيقي للحرب وأن الحرب قد وضعت المجتمع أمام الخيار ما بين استمرار الرأسمالية أو استبعادها ، وقد فقدت الرأسمالية مع نهاية الحرب حقها في البقاء ولم تعد قادرة على إنقاذ المجتمع مما أوقعته حربها من بظالة أو تدمير لوسائل الإنتاج أو مجاعة أو أوبئة أو إفلاس . والاشتراكية وحدها هي القادرة على الانتقاذ ، وليس هناك طريق آخر .

ومهمة تحقيق الاشتراكية هي أعظم مهمة قدر للطبقة العاملة أن تقوم بها في التاريخ الإنساني. وهذه المهمة تتضمن إعادة بناء الدولة والأساس الاقتصادي لها إعادة تامة وكاملة. الأمر الذي لا يمكن أن يتم بمرسوم يصدره برلمان أو لجنة أو بعض الموظفين ، وإنما يتم عن طريق الجماهير . ففي كل الثورات السابقة كانت الأقلية هي التي تقود الكفاح الثوري وتستغل الجماهير . والثورة الاشتراكية هي الأولى التي حققت الجماهير نفسها النصر ، ولا تقتصر مهمة الجماهير على أن تحدد عن وعي وبوضوح هدف ووجهة الثورة ، ولكن أيضا أن تبنى الاشتراكية خطوة بخطوة بنشاطها الخاص . ولما كانت الميزة الرئيسية للمجتمع الاشتراكي هي أن تكون الجماهير حاكمه وليست محكومة ، فيجب أن يُحَلَّ العمال أجهزتهم الخاصة - مجالس العمال والجنود - محل الأجهزة الموروثة للحكم الرأسمالي . وأن يتم ذلك من أعلى مستوى في الدولة حتى أقل مستوى. ويجب أن تملأ الجماهير البروليتارية كل المناصب الحكومية وتراقب كل المهام وتختبر كل مقتضيات الدولة على محك الأهداف الاشتراكية ومصالح

الطبقة العاملة وبالمثل فإن إعادة البناء الاقتصادي لا يمكن أن يمضى إلا عن طريق العمل الجماهيرى للطبقة العاملة . فراسم « التشريك » التى تصدرها السلطات الثوريه العليا لن تكون سوى كلمات فارغة والطبقة العاملة وحدها ، بجهداتها الخاصه تستطيع أن تحول هذه الكلمات إلى وقائع ولن تستطيع الطبقة العاملة أن تكفل الرقابة والإدارة الفعلية للإنتاج إلا عن طريق الكفاح الصامد ضد رأس المال ، وجها لوجه فى كل مشروع وضمنها المباشر وبوسائل الاضراب وإيجاد الأجهزة التمثيلية الدائم لها .

وعلى العمال أن يتعلموا أن يحولوا أنفسهم من مجرد آلات يستخدمها الرأسمالى فى عملية الإنتاج إلى قادة قادرين و« مفكرين » فى هذه العملية ويجب أن يوفروا لأنفسهم حاسة المسئولية تجاه المجتمع الذى يملك وحده الثروة الاجتماعيه . وأن ينموا فى أنفسهم الحماسة للعمل دون سوط الرأسمالى . والانضباط دون النير والالتزام دون السيطرة . إن الإحساس المعنوى للمجتمع الاشتراكى إنما هو التصور الأعظم لمصلحة الشعب والانضباط الدائى الصارم والروح المدنيه الصادقه لدى الجماهير كما أن الأماس المعنوى للمجتمع الرأسمالى هو الاثرة والأنايه والغباء والفساد .

ويمكن للعمال اكتساب هذه الفضائل المدنيه الاشتراكيه وكذلك المعرفه والمقدرة على إدارة صناعه الاشتراكيه بالنشاط الخاص والتجربه الشخصية . إن « تشريك » المجتمع إنما يمكن أن يتم إلى الدرجة التصوى بالكفاح بلا هواده وبصورة متصله للعمال فى كل المواقع التى يتلاقى فيها وجها لوجه العمل ورأس المال ، الجمهور والبورجوازيه الحاكمه .

أن تحرير الطبقات للعامله يجب أن يكون عمل الطبقات العامله نفسها .
وفى الثورات البورجوازيه كان سفك الدماء ، والارهاب والاختيال

السياسى أمله لا مناص عنها للطبقات الصاعدة ، ولكن الثورة البلوريتاريه لا تتطلب الارهاب لتحقيق أهدافها وهي تنظر إليها في كره ومقت ، وليس لديها حاجة لمثل هذه الوسائل لأن كفاحها لا يوجه ضد أفراد ، وإنما ضد نظم . إن الثورة البلوريتاريه ليست محاولة أقليمية يائسة للتغيير الجبرى للعالم طبقاً لرأيها الخاص . على العكس إنما عمل الجماهير العريضة وملايين الناس الذين يدعون لحمل رسالتهم التاريخية ولأن يعملوا حقيقة ما أصبح ضرورة تاريخية .

ولكن الثورة البلوريتاريه تعنى في الوقت نفسه النهايه لكل صور الاستعباد والتحكم وهذا هو السبب في أن الرأسماليين وأيولونسكر والبورجوازيه الصغيره والطبقة الحاكمة ستقوم قومه رجل واحد حتى الموت - ضد الثورة البلوريتاريه .

ومن الجنون أن نتصور أن الرأسماليين سيسامون طواعيه لقرار اشتراكي يصدره برلمان أو جمعيه وطنيه وأنهم سيتنازلون مختارين عن أملاكهم وأرباحهم وامتيازاتهم ، إن كل الطبقات الحاكمة قد جارت بتصميم إلى النهايه في سبيل امتيازاتهم . إن الأعيان الرومان وبارونان القرون الوسطى وملاك العبيد في أمريكا والملاك في ولاشيا Wallachia وأصحاب مصانع الحرير في ليون جميعاً قد سفكوا أنهاراً من الدماء وساروا على الجثث وارتكبوا القتل والاعتقال والحرق واضرموا الحرب الأهليه للدفاع عن امتيازاتهم وسلطاتهم .

وقد فاقت الطبقة الامبرياليه والرأسماليه ، وهي السلالة الأخيرة لطبقة المستغلين ، كل أسلافها في الوحشية والذمالة وستدافع عن قدس أقداسها - أرباحها من الاستغلال - بقضها وقضيضها وبذلك الدم البارد الوحشى الذى أظهرته خلال سياستها الاستعمارية والحرب العالميه الأخيرة ، وستقيم الأرض وتقعدها وستعبأ الفلاحين ضد العمال الصناعيين وتضع أكثر العناصر تخلفاً من العمال في مواجهة الطليعه المتقدمه وسترسل ضباطها لارتكاب المذابح وستحاول

بمائة طريقة وطريقه من المقاومة السلبية أن تلغى عمل الثورة .
وهذه المقاومة يجب أن تضرب بيد من حديد ، وبأقصى فعاله إن الثورة
البورجوازية المضادة يجب أن تقابل بقوة ثورة الطبقة العاملة . ويجب أن تجابه
مؤامرات وخطط ومشروعات الطبقة الرأسمالية باليقظه الدائم ووضوح الرؤيه
واستعداد الطبقة العاملة للعمل فى أى وقت .

ولتكن البروليتاريا من ذلك فإن اتحاد سبرتا كوس يطلب :

أولا : كوماتل عاجلة لتأمين الثورة :

١ — تجريد كل قوة البوليس والضباط — وكذلك الجنود غير البروليتاريين
من السلاح .

٢ — استيلاء مجالس العمال والجنود على كل مصادر الأسلحة والذخائر
والصناعات الحربية .

٣ — تسليم كل العمال البالغين باعتبارهم الشعب العامل . وتكوين
حرس أحمر للعمال من العناصر النشطة فى الميليشيا لحماية الثورة ضد
المؤامرات على الثورة .

٤ — القضاء على سلطة الأمر للضباط وإحلال الالتزام الإرادى للجنود .
محل النظام المسكرى الوحشى وانتخاب العمال لكل الرؤساء مع حق سحب
الثقة فى أى وقت وإلغاء المحاكم العسكرية .

٥ — ابعاد كل الضباط من مجالس الجنود .

٦ — إحلال الممثلين المفوضين لمجالس العمال والجنود محل كل الأجهزة
والسلطات السياسيه للعهد القديم .

٧ — تكوين محكمة ثوريه لحاكمة المسئولين عن الحرب وإطالتها أى

آل الهوهنززن - ولودندرف - وهندنبرج وتربتيز وشركاؤهم وكذلك المتأخرين لإقامة الثورة المضادة .

٨ — الاستيلاء العاجل على كل مصادر الطعام لتأمين غذاء الشعب .

ثانيا : في المجال السياسي والاجتماعي :

١ — إلغاء كل الدويلات ذات الاستقلال الذاتي وإيجاد جمهورية المانيا اشتراكية موحدة .

٢ — إلغاء كل البرلمانات والمجالس المحلية وإحلال مجالس العمال والجنود ولجانها وأجهزتها محلها .

٣ — انتخاب مجالس العمال في المانيا بأسرها عن طريق السكان البالغين من الشعب العامل رجالا ونساء - تبعاً للصناعات وانتخاب مجالس جنود عن طريق الجنود باستثناء الضباط والضباط السابقين - ويكون للعمال والجنود حق سحب الثقة من ممثليهم في أى وقت .

٤ — انتخاب مندوبين عن كل مجالس العمال ومجالس الجنود للمجلس المركزي للعمال والجنود وينتخب المجلس المركزي اللجنة التنفيذية باختيارها السلطة العليا تشريعياً وتنفيذياً وبالنسبة للمحاضر - يجتمع المجلس المركزي مرة كل ثلاثة شهور على الأقل ويعاد انتخاب المندوبين كل مرة ويكون للمجالس المحلية حق استدعاء مندوبيها في المجلس المركزي إذا خالف إرادة ناخبيه .

٥ — إلغاء كل العلامات المميزة للطبقات كالألقاب والنياشين والمساواة التامة قانونية واجتماعية بين الجنسين .

٦ — إصدار تشريعات اشتراكية جذرية لتخفيض ساعات العمل والهبوط بالبطالة وتحديد ساعات العمل بست ساعات .

١١ — ظهور وسقوط

٧ - كفالة الإسكان والصحة والتعليم للطبقات العاملة عن طريق اجراء تغييرات جذرية في سياسة هذه المجالات .

ثالثاً : مطالب اقتصادية أخرى :

- ١ - مصادرة كل أملاك الناج لمصلحة الشعب .
 - ٢ - إلغاء دين الدولة وكل الديون العامة الأخرى وكذلك قروض الحرب باستثناء ما اشترك فيها بمبالغ محدودة يعينها المجلس المركزي للعمال والجنود .
 - ٣ - مصادرة كل الأراضي الزراعية الكبيرة والمتوسطة وتكوين تعاونيات زراعية لها نظامها تحت إدارة مركزية موحدة وتظل الممتلكات الصغيرة في أيدي ملاكها من الفلاحين حتى يقرروا طواعية الالتحاق بالتعاونيات الزراعية .
 - ٤ - تأميم البنوك والمناجم والصناعات الكبرى والمنشآت التجارية .
 - ٥ - مصادرة كل الممتلكات التي تجاوز حداً معيناً يقرره المجلس المركزي للعمال والجنود .
 - ٦ - الاستيلاء على كل وسائل النقل العامة والاتصالات .
 - ٧ - انتخاب كل المجالس الإدارية في المنشآت لتنظيم الشؤون الداخلية بالاتفاق مع مجالس العمال والجنود .
 - ٨ - تكوين لجنة اضراب مركزية تعمل بالتعاون الوثيق مع المجالس الصناعية وتكفل لحركة الاضراب في البلاد بأمرها الإدارة الموحدة والتوجيه الاشتراكي وتكتسب له التأييد السياسي من مجالس العمال والجنود .
- وابتداءً : مشاكل دولية :
- تنشأ علاقات عاجلة مع الأحزاب الشقيقة في الدول الأخرى لوضع الثورة

الاشتراكية على أساس دولى لكفالة السلام والأخوة الدولية والابحاث
الثورى للطبقة العاملة الدولية .

* * *

هذا هو مايعمل له اتحاد سبارتاكوس . .

ولأن هذا هو مايريده . . فإن صيحات الرأسماليين تنعالى « اصلبوه »
وهذا الاجماع على مكافحة اتحاد سبرتا كوس من كل معسكرات الثورة
المضادة هو مايدل على أن قلب الثورة إنما يدق فى هذا الاتحاد وأن المستقبل
سيكون له .

إن اتحاد سبرتا كوس ليس حزبا يريد أن يتسلق السلطة على أكتاف
جماهير العمال ، إنه ليس إلا الفريق الواعى من البلوريتاريا وفى كل منعطف
فإنه يوجه جمهرة العمال إلى واجباتها التاريخية . .

إن اتحاد سبرتا كوس يرفض المشاركة فى الحكومة مع خدم الطبقة الرأسمالية
من جماعة شيدمان وايرت لأنه يرى فى مثل هذا التعاون عملا من أعمال الخيانة
المبادة ، الأساسية للاشترائية .

وسيرفض اتحاد سبرتا كوس أيضا أن يأخذ السلطة لمجرد أن جماعة شيدمان
وايرت قد كشفت عن نفسها وأن الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين قد
وصلوا بحكم تعاونهم معهم إلى طريق مسدود .

إن اتحاد سبرتا كوس لن يتقلد السلطة أبداً إلا عندما يتضح تماما أن
« ذلك هو الإرادة الحرة للأغلبية الساحقة من جماهير البلوريتاريا فى المانيا ،
ولن يتقلد أزمة السلطة إلا بالموافقة الواعية من العمال على أهداف ومبادئ
وغياب سبرتا كوس .

ان الثورة البلوريتارية لن تبلغ الوضوح والنضج الكامل إلا عبر الكفاح

التدريجي خطوة بخطوة على طريق جولوتوا^(١) - وعبر التجارب المرة للمعال من هزائم وانتصارات .

إن انتصار اتحاد سبرتاكوس ليس بداية الثورة ولكنه النهاية وليس هو شيئاً آخر غير انتصار الجماهير العريضة للطبقة الكادحة .

تيقظ أيها البلوريتاريا . . وانفضي إلى المعركة . . إن علينا أن نكافح طلما . . وأن نكسب عالماً .

ويمثل هذا البرنامج أفضل ما يمكن أن يوجد به فكر اشتراكي ، وكان وجود روزا على رأس التنظيم الجديد يعد ضماناً له من الانزلاق والانحراف ولكن هذا الضمان لم يكن فعالاً لدخول عناصر أقل عمقاً وإنسانية وأكثر سطحية وانسياقاً مع استنزازات العاطفية أو اغراءات السلطة وقد كانت لحظة الميلاد لاتحاد سبرتاكوس هي إلى حد ما لحظة الوفاة . إذ ارتوى اعتبار التنظيم الجديد هو الحزب الشيوعي ولم يكن هذا إحلالاً للفظ محل لفظ ، إذ استتبع تغييرات عميقة خاصة عندما أنهت يد الاغتيال الأثيمة حياة روزا بعد أسبوعين تقريباً من تأسيس الحزب .

* * *

وهكذا يتضح أن معسكرات اليمين بدأت في وقت مبكر للغاية تتكامل وتستعيد مواقعها بعد الأيام الأولى للثورة في حين انقسم اليسار إلى فريقين معتدل يمثل الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل وماركسي يمثل الحزب الشيوعي . . . وإذا كان هناك ما يجمع بين هذه المعسكرات المتضادة . . فهو أنها جميعاً باستثناء الحزب الاشتراكي الديمقراطي كانت تضيق بالجمهورية الناشئة وتمنى لها الزوال السريع .

(١) الطريق الذي يزعمون أن السيد المسيح قطعه إلى مكان الصلب .

الفصل الثامن

الحزب الاشتراكي الديمقراطي

في ظلل الغمام

لم نتعرض - عندما تحدثنا في الفصل السابق عن تقطب المعسكرات للحديث عن الحزب، الاشتراكي الديمقراطي (الأغلبية) الذي كان يتوسط هذه المعسكرات ويتقلد السلطة . . .

وقد أوضحنا في الفصل الأول كيف أن التطور الاقتصادي والسياسي جعل من هذا الحزب حزبا ايمانيا ديمقراطيا أكثر منه ماركسيا وثوريا ، وكانت الأحداث التي وقعت في ٤ أغسطس ١٩١٤ ، وبعده ، تكشف عن هذه الحقيقة ، وتدفع به أكثر فأكثر نحو اليمين . فقيام ثورة أكتوبر في الاتحاد السوفيتي أكدت له الطابع الدموي والعنيف بل والوحشي الذي تصطبغ به الثورة الشيوعية ، وانفصال المستقلين عن الحزب أفسح المجال للعناصر المحافظة لتكون أكثر حفاظا ، كما جعلتهم ديماجوجية ليبكمنشت يعزفون عن النظريات ، والشخصية الوحيدة الجديرة بالاحترام ، وهي روزا لوكسمبرج . كانت تهيم في آفاق العالمية . . .

ويجب أن لا ننسى أن الحزب ، مع العقد الأول للقرن فقد قادته المؤسسين . فقد مات ليبكمنشت سنة ١٩٠٠ ومات بيل سنة ١٩١٣ ومات سينجر سنة ١٩١١ ، وكان هؤلاء ، على أسنانهم المتقدمة يصفون على الحزب اذكري

الكفاح القديم ، ويربطونه بالصحبة المباشرة لماركس وأنجز ويصعب عليهم أن يتزحزحوا عن اليمين الذي اضطرتهم إليه الملابس والأحداث الخاصة بالمانيا إلا بمدى محدود لا يسمح بأكثر منه ماضيهم الكفاحي الطويل ، ففي لعبة التقدمية دفعتهم الأحداث من اليسار حتى الوسط ، ومن الوسط حتى اليمين ، ولكن يمينهم كان يمكن أن يمد يسارا بالنسبة لمن جاء بعدهم مثل إيبرت وشيدمان اللذين تخرسا في المدرسة النقابية أو برنشتين رائد حركة التنقيح أو لودفيج فرانك أو ادغار دافيد اللذين كانا يناصران التحالف مع المعسكرات الأخرى وعندما أعلنت الحرب أصر أولهما على التطوع وقتل قبل نهاية العام .

وعند موت بييل اختير فردريك إيبرت رئيسا للحزب وقد نشأ إيبرت من أسرة عاملة ، وعمل وهو صبي كسروجي لفترة حتى اجتذبه العمل النقابي . ثم العمل السياسي . وكانت النقابية هي المدرسة التي تدرس فيها . شأن كثير من القادة الاشتراكيين - بالعمل العام والاداري . وفي سنة ١٩٠٦ ، أختير سكرتيرا تنفيذيا لمركز الحزب في برلين فأسس - من العدم تقريبا - النظام المكتبي والإداري للحزب بحيث أصبح العمل فيه يدور بمثل دقة الساعة - ونقل النظام الذي وضعه لمركز الحزب الرئيسي في برلين إلى بقية المراكز والفروع فلاعجب إذا اشتهر إيبرت بالمقدرة الإدارية والأمانة والتفاني ، وكان يحكم هذه المحطات عزوفا عن عالم النظريات والجماهير والاجتماعات . كان إداريا وليس قياديا تتجلى فيه الصفات العملية من دربه وحرارة وصبر ودأب وفهم لطباع الأشياء ، ولكنه لم يكن بالمزاج أو النشأة أو العمل ثوريا أو نظريا ولم يرزق سعة الخيال ، أو ديناميكية رجل الجماهير أو جاذبية رجل الدعوات .

وكان الرجل الثاني بعد إيبرت ، ويقترن به كما يقترن تروتسكي بلينين هو فيليب شيدمان ، الذي قدر له أن يكون أول رئيس وزارة في جمهورية فايمار ، وقد مال إلى اليسار حينما ، خاصة عندما فقد منصبه كنائب رئيس الرشتناج لرفضه

القيام بزيارة ولاء للإمبراطور وإستقال من رئاسة الوزارة إحتجاجاً على معاهدة فرساي قائلاً قولته المشهورة « أى يد لا تجف يمكن أن تقيد نفسها وتقيدنا بهذه الشروط » وإعتزل السياسة بعد ذلك وقدر له أن يعيش طويلاً ، بعد هذه الأحداث العاصفة . ومات سنة ١٩٣٩ .

ومن الواضح بالطبع أنه لا يمكن أن يقارن ايرت بلينين أو شيدمان بتروتسكى . فقد كانا رجلين يحكمهما الواقع ، ولم يرزقا الخيال والإرادة والنبوغ والملكات التى رزقها لينين وتروتسكى وجعلتهما يعاملان لتغيير الواقع المائل وتحقيق عهد جديد .

وإلى جانب هذا النقص فى القيادة فإن التبع فى المواقف الذى جاء بدوره نتيجة لعجز الحزب عن التوصل إلى الصيغة النظرية التى تحكم هذه المواقف وتخلصه من التخبط فيها ، وتبرؤه من طابع الإتهامية الذى يمكن أن يلصق به - كان من أكبر أسباب فشل الحزب الإشتراكى الديمقراطى فى السيطرة على الأمور ، ذلك أنه إذا كان الإغراق فى التنظير والإستعباد له مما يسىء إلى التنظيم ، فإن فقد التنظير بالسكينة - أو سطحيته . يفقد الحزب المعيار الموضوعى الذى يقيس به الأمور ، والبوصلة التى ترشده إلى الإتجاه السليم . . وتدور عليه العلاقة بين الجماهير والقيادات ..

وهذا لا يعنى أبداً أن الحزب الإشتراكى الديمقراطى أخطأ عندما لم يصطنع النظرية الماركسية ، أو يحدو حدو لينين ، فقد أظهرنا تخلف التصور الماركسى عما وصل إليه المجتمع الألمانى قبيل فايمار . كما لم يكن هناك مبرر لسكى يسلك كما سلك لينين ، فضلاً عن أن مسلك لينين لم يكن المسلك الأمثل أو المعيارى . إن الخطأ الرئيسى فى الحزب الإشتراكى الديمقراطى أنه عالج حالة ثورية بأسلوب سلمى كأضعف ما تكون الأساليب ومن هنا ضاق به الجميع ، وحلوه الأوزار ..

وفي الأيام الأولى التي أعقبت إعلان جمهورية ، كانت برلين أشبه بدار للمجانين على حد تشبيه أحد الكتاب، كانت كل المعسكرات التي أشرنا إليها تنحفز وتسمى لكي تضم صفوفها وتثبت وجودها في اللحظة الحاسمة التي سقط فيها النظام القديم ولما يقيم بعد النظام الجديد ، وأخذ كل معسكر من هذه المعسكرات يحاول السيطرة على برلين ، فجالس الجنود تدعى الحكم ، وأنها هي السلطة العليا ، ولكنها لم تكن منظمة ، ولم يكن الجنود يظهرون إلا أوقات الشغب والوجبات وصرف المرتبات ، والوجود العسكري الوحيد الذي رزق شيئاً من الدوام كان هو « فرقة بحارة الشعب » التي كانت تضم فلولا من بحارة الموانئ النائية واصلت سيرها حتى برلين فاعتصمت بالقصر الملبسكي والاسطبلات الملحقة بها وفعلت بهم الفوضى والفراغ وإفتراد لزامة فعلها بحيث أشبهوا « التراصنة » و « العتوات » الذين يعيشون على ما يفرضون من إنازات .

وكانت القيادة العسكرية العليا تستقر في « كاسل » وتتابع الموقف بعد أن تهاوى الجيش وتحطم الضبط والربط ، وأصبحت لا تقود إلا نفسها ؛ ولكنها كانت تتماك وتتجلد وتتحصن وراء المارشال السمين الصامت كتمثال أبي الهول بينما يدير مساعده اللبق الذكي « جرونر » الأمور .

وفي الأيام الأولى التي أعقبت الثورة مباشرة وشاهدت قومات البحارة وإضرابات المال وإنبعاثات « مبرتا كوس » إنتاب الطبقات المميزة ذعر ، وآوت إلى جحورها ، وأصبح أقصى ما تطمع فيه هو أن تنسى ، وينسى وجودها حتى تمر العاصمة وهي على ظهر الأرض وليست في بطنها . . وانفسح مجال الشوارع والميادين للمظاهرات .

ولعل ليبيكنشت كان أمعد الناس بهذه الحالة الأور ، وأكثهم إنغماسا فيها

فقد وجد الجماهير التي يتطلبها، ووجدت الجماهير فيه الزعيم الذي يلهمها ويشجعها على الانطلاق من عقابها والتحرر من روابط المجتمع القديم، ولكن هذا النشاط الثوري المحموم كان إهداراً للجهود وتبذيراً للطاقات أكثر مما كان استثماراً لها أو توجيهها التوجيه المنظم الذي يحقق الهدف المرسوم، ثم كان هناك احتمال أن يجرفه هو نفسه تيار الحماسة التي كان يثير بها الجماهير بحيث تسوقه معاهدون أن يستطيع التحكم فيها، وهو الاحتمال الذي كان يوافق روزا ويجعلها تضيق بهذه الاستنارات وتخشى عواقبها.

وكان المستشار ايبرت هو الذي تقلد الحكم من يد المستشار الامبراطوري يوم ٩ فبراير أكثر الجميع شعوراً بعدم شرعية هذا الوضع واستقراره. لقد كان رجلاً أميناً جريصاً على الشرعية والدستورية، وكان رجلاً نظامياً يعمل وينتج في الجو النظامي الثابت المستقر. أما هذا المناخ العاصف، المتقلب، الذي لا يثمر عملاً. ولكن مظاهرات وهتافات.. فكان يضيق به. ويريد من قرارة نفسه أن يضع نهاية له وكانت الوسيلة المفضلة في نظره هي عقد جمعية دستورية وطنية تتولى مسؤولية وضع النظام الجديد طبقاً لإرادة الشعب الألماني. ولكن التطور السريع للأحداث. ووجود جبهة معارضة قوية. ومجالس للعمال والجنود تهيمن على الموقف.. لم يكن ليسمح بذلك. ورأى أن خير ما يؤدي في اللحظة الراهنة أن يشرك معه في مسؤولية الحكم الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين، الذين كانوا على انشقاقهم من الحزب وتأثرهم بملد الثوري آونة والتنظيم الفكري آونة أخرى يخضعون لقيادات ناضجة نشأت وعاشت في كنف الحزب، بل ورأسه، وتتسم بقدر كبير من الاتزان وتقدير المسؤولية. وعرض ايبرت تصوره لما يكون عليه الحكم واضعاً في ترتيبه التيارات التي كانت تؤثر على

الحزب الاشتراكي الديمقراطي والقضايا التي أثبتت في ست نقاط كالتالي :

— جمهورية اشتراكية ؟ نعم هذا هو هدف سياستنا وهو هدف سيصوت عليه الشعب الألماني في الجمعية الدستورية .

— السلطة الكاملة لمجلس العمال والجنود ؟ لا . . . إننا نرفض فكرة ديكتاتورية طبقة واحدة ما لم تكن وراءها أغلبية الشعب . إن مثل هذه الديكتاتورية تناقض المبادئ الديمقراطية .

— فصل الأعضاء البورجوازيين من الحكومة ؟ لا . . . إن مثل هذا العمل سيضع عقبات يصعب التغلب عليها في طريق إمدادات الطعام . ويعرض للخطر مصالح المواطنين .

— مشاركة المستقلين لمدة ثلاثة أيام فحسب لكي يمكن لوزارة مختصة توقيع الهدنة . ؟ إننا نرى أن مشاركة كل الزعماء الاشتراكيين ضرورية ، على الأقل حين انعقاد الجمعية الدستورية .

— أن يكون وكلاء الوزارة البورجوازيون والمديرون مجرد خبراء استشاريون ؟ حسنا جدا .

— الحقوق المتساوية لزعيمى الحزبين بالوزارة ؟ أجل ، ولكل أعضاء الوزارة . وسبقت الجمعية الدستورية في هذه النقطة في الوقت المناسب .

ويوضح هذا التصور أن ائبرت جامل المستقلين في بعض النقاط ولكنه تمسك بمبادئه ورفض نقضاً أخرى كأن تكون السلطة كاملة في يد مجالس العمال والجنود ، وفصل العناصر البورجوازية من الحكومة كما يبدو جلياً بروز فكرة « الجمعية الدستورية » في ذهن وترتيب ائبرت

وأرسل ائبرت « شيدمان » إلى الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين.

للدخول معهم في مفاوضات للاشتراك في الوزارة وأمضى هذا سهرة طويلة قبل أن يتوصل إلى تسوية تقضى بأن يحل محل الوزارة مجلس يدعى « مجلس قوميسرى الشعب Volks Beauftragten » يضم ستة من القوميسرين ثلاثة من الحزب الاشتراكي الديمقراطي (الأغلبية) هم ايبرت ولانديسبرج وشيدمان وثلاثة من الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل هم هازه وديتان وبارت. وأن يشرف المجلس على عمل الوزراء الذين يجب أن يكونوا اشتراكيين باستثناء بعض الوزارات التي تتطلب مواصفات معينة كوزارة الحربية والبحرية على أن تخضع أوامرهم لتصديق قوميسرين اثنين أحدهما من الأغلبية والثاني من المستقلين. وتكون سلطة القوميسرين متعادلة. ويستمد المجلس سلطته من مجالس العمال والجنود، أما نقطة الجمعية الدستورية فقد ارتوى تأجيلها على أساس « إن فكرة الجمعية الدستورية لن تكون موضوعا للبت إلا عندما تستقر الظروف التي أوجدتها الثورة ».

ومع أن هذه التسوية كانت تمثل تنازلا من الأغلبية عن خطها السياسي وصفقتها العدديه، فإنها لم تتم إلا بعد عناء كبير، ومن وراء ظهر ليبكنشت الذي كان في حكم المنضم إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل، والمهيمن عليه بحكم الجموع والجاهير التي كان هو زعيمها، ووصفت بعض المراجع الموقف بالآتي:

«... وبينما كان المجتمعون يناقشون هذه الشروط (أى شروط انضمام الحزب المستقل للوزارة) دخل عليهم فجأة ليبكنشت ومعه مجموعة من مؤيديه ووقف خلف سكرتير الجلسة وطلب منه (على) صيغة أمر تدوين مايلي « الشروط هي تسليم كافة السلطات التشريعية والتنفيذية والقانونية إلى العمال والجنود » وساد الاجتماع سكون مطبق ولم يناقشه أحد على هذا القول

ولا على تدخله في الاجتماع تماشيا لاحتمال حدوث صدام مباشر مع مجموعته .
وفي هذه الأثناء كان إيبرت ومجموعته بانتظار شروط الحزب المستقل ، وحينما
طال الانتظار أرسل إيبرت النائب شيديمان لمعرفة الأسباب ، وعندما دخل
شيديمان قاعة الاجتماع سلمه ليبككنشت الورقة المكتوب عليها شروطه السالفة
الذكر . وبعد قراءتها قال شيديمان « يارفاق كيف تتصورون تنفيذ ذلك » .

وبعد مناقشة قصيرة عاد شيديمان إلى جماعته ومعه الورقة المذكورة التي
رفض إيبرت قبولها على الفور ، وناشد المستقلين إعادة النظر في الموضوع
بسبب (حرجة) الموقف وضيق الوقت . وبعد خروج ليبككنشت من مقر
البرلمان باتجاه المتظاهرين أمن جماعته في إحدى ساحات برلين عقد نواب
الحزب المستقل اجتماعا ثانياً لمناقشة الأمر . وفي هذا الاجتماع اتفق الرأي على
التخلي عن الشرط الذي أملاه عليهم ليبككنشت ولقاء ذلك تقوم الحكومة
بعد تأليفها بطرح الثقة بنفسها على المجلس الشعبي المؤلف من العمال والجنود
وذلك ترضية للمتطرفين الذين يتمتعون بأغلبية لا بأس بها في هذا المجلس^(١) .

وتوضح هذه الفقرات أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي رفض مبدأ
استمداد السلطة من مجالس العمال والجنود بصورة دقيقة وأن الحزب
الاشتراكي الديمقراطي المستقل لم يصراً تماماً على ذلك . وكان الذي يتمسك
بذلك هو ليبككنشت . ولم يكن لتسكك قيمة عملية حاسمة لأنه - في كل شيء -
لم يكن يسير إلى النهاية المنطقية ، وإنما كان يسير دائماً إلى منتصف الطريق
ثم تتوزعه وتنتاشه اهتمامات أخرى . كان ليبككنشت « كالميار » الذي

(١) الحزب الاشتراكي الديمقراطي تأليف عبد الرحمن مشهداني ص ٧٤
نشر مؤسسة فروريتس إيبرت . ألمانيا - والألفاظ التي بين القوسين نقلت حرفياً
على ركاكتها .

لا يصيب ولكنه « يدوش » على حد المثل ، وقد أحدث ضجيجاً مزعجاً للحكومة وأخرجها في كثير من المناسبات دون أن يصيبها في مقتل .

وأخيراً شكلت الوزارة كآلاتي : ايرت الداخلية والجيش ، شيدمان المالية . لاندسبرج الصحافة والإعلام ، هاس الخارجية والمستعمرات . ديتان التسريح والصحة . بارت السياسة الاجتماعية .

وفي الوقت نفسه كان قرابة ثلاثة آلاف من مندوبي العمال والجنود في برلين يجتمعون في دار السيرك Circus Busch للنظر في الوضع ، وأيدت الأغلبية فكرة تحالف الحزب الديمقراطي وانتخبوا لجنة تنفيذية مكونة من ٢٤ عضواً ستة منهم من الاشتراكيين الديمقراطيين وستة من الاشتراكيين المستقلين والباقي من الجنود .

وبهذه الطريقة أصبح هناك هيئتان تمارسان السيادة والحكم مجلس قومي سرى الشعب . واللجنة التنفيذية لمجالس العمال والجنود في برلين : واعتبر كل البلاغات والقرارات حتى اضطرب الأمر وتطلب تحديد السلطات . وفي ٢٢ نوفمبر اتفقا على أن تكون السيادة للجنة التنفيذية ويقوم مجلس القوميسيرين بالسلطة التنفيذية تحت رقابتها . كما أصبح لها حق تعيين أعضاء مجلس القوميسيرين ولكن هذا الاتفاق الذي كان يرجح كفة اللجنة التنفيذية ، أثار استياء الدوائر الحكومية التي تدمرت من رقابة مجالس العمال والجنود ، كما نفرت مجالس العمال والجنود في بقية الولايات الألمانية من استئثار اللجنة التنفيذية التي كانت تمثل برلين وحدها . فقررت اللجنة التنفيذية أن تضم أعضاء من مجالس العمال والجنود في مختلف الولايات الألمانية على أن لا يكون لهم الحق في مناقشة الموضوعات التي تتعلق ببروسيا .

ولم يحسم هذا الحل النزاع . ولكن الظرف لم يكن يسمح بتحدى مجالس

العمال والفلاحين ، وبدلاً من ذلك استطاع إيبرت أن يعقد في ٢٥ نوفمبر اجتماعاً باسم « مؤتمر الولايات الألمانية المتعاهدة » ضم ممثلي حكومات الولايات الألمانية وفي هذا الاجتماع قال إيبرت « إن الطريقة التي يجب أن تتبع في تنظيم العلاقات ما بين حكومة الريخ وحكومة الولايات الألمانية أن يوكل أمرها إلى جمعية وطنية ، وقد عازمت الحكومة عزمها كيبدأ على عقد هذه الجمعية في أقرب وقت مستطاع » وأصدر المؤتمر قرارين ينص أولهما على أنه يجب أن يوكل إلى جمعية وطنية وضع دستور جديد للريخ والثاني أن يجلس العمال والجنود هي التي تمثل إرادة الأمة إلى حين اجتماع الجمعية الوطنية .

وكان هذا - رغم تضمنه لطعم مجالس العمال والجنود في حقيقة الحال انتصاراً لا إيبرت ، الذي استغله بسرعة فأذاع منشوراً خاصاً باجتماع الجمعية العمومية .

إزاء ذلك ارتأت اللجنة التنفيذية لمجالس العمال والجنود أن تعقد مؤتمرًا قومياً من ممثلي مجالس العمال والجنود في ألمانيا بأسرها للنظر في الوضع السياسي لألمانيا ، وما يكون عليه شكل حكوماتها . . أو بعبارة أخرى . . هل تكون جمهورية سوفيتية تقوم على مجالس العمال والجنود . كما كان يريد الشيوعيون واتحاد مبارتا كوس والمندوبون الثوريون . . الذي أعلن زعيمهم رشارد مولر - وهو في الوقت نفسه رئيس مجلس عمال وجنود برلين « إن الطريق إلى الجمعية الوطنية سيكون فوق جنتي » . . أو أن تكون جمهورية ديمقراطية برلمانية ، كما كان يؤثر الاشتراكيون الديمقراطيون .

كان لكل طرف مبررات وجيهة يدعم بها رأيه . فالبرلمانية كانت قد وصلت في ذلك الوقت إلى أعلا ذروة بلغتها . وكانت الدول المنتصرة كلها إنجلترا - فرنسا - الولايات المتحدة - برلمانية ، صحيح إن قيام الثورة البلشفية وأخذ الاتحاد السوفيتي بنظام غير النظام البرلماني كان يمكن أن يعد بدأ نزول

البرلمانية من القمة التي بلغت ، ولكن هذا النزول اصطحب بتلاقل وتطلب تضحيات زهدت فيه ، وأثارت الشك حوله ، بل لعله أبرز جدوى النظام البرلماني وأفضليته . وكانت التقاليد البرلمانية لدى الحزب الاشتراكي الديمقراطي عريقة ، وعن طريق العمل البرلماني اكتسب الحزب منزلته الكبيرة . وكان برنامجهم يقر البرلمانية ، وكانت الديمقراطية البرلمانية هي المطلب الأول في برنامج إيرفورت للحزب سنة ١٨٩١ . ولم يقل أنجز في نقده لبرنامج الحزب إن هذا خطأ ولكنه قال إنه لم يمض إلى الدرجة الكافية .

وكان يمكن لأنصار البرلمانية أن يقولوا إن البرلمان لا يعجز عن إصدار القرارات الثورية - لو أراد - كالتأميم أو المصادرة أو غير ذلك . وأن نظم الانتخاب لا تحول دون انتخاب نواب عمال بدليل نواب الحزب . وأن اصلاح نظم الانتخاب ممكنة ، ومطلوبة داخل الاطار البرلماني .

وفي مقابل هذه المزايا ، فإن أنصار البرلمانية كانوا يربطون دائماً ما بين مجالس العمال والجنود . . والسوفيتات الروسيه ويرون أنها ليست فحسب غريبة على البيئة الألمانية ، بل إنها ستؤدي إلى الديكتاتورية والأرهاب .

ومن الناحية الأخرى ، فمن الواضح أن العمال والجنود هم الذين قاموا بالثورة ، وليست الأحزاب ، أو حتى النقابات ، فعمال الذخائر الذين بدأوا الاضراب بتأثير قادتهم المباشرين ومندوبو العنابر ثم الجنود والبحارة هم الذين بدأوا الانتفاضة والتظاهر والتمرد . . فهؤلاء وأولئك هم أصحاب الثورة . وهم لا يفقهون شيئاً في « البرلمانية » التي أصطحبت دائماً بالأحزاب والتنظيمات الرأسية والمركزية . وهم لا يرون من المنطق في شيء أن تترك التشكيلات القائمة بالفعل ، والتي تكتسب تسكتلها بحكم طبيعتها أي المصانع والشكنات وأن تجري الانتخابات على أساس دوائر سكنية لا يربطها رباط أو تنظيم . . أو أن

يسمح « لصناعة الانتخابات » أن تتدخل وتضلل وتخدع وتزيف . وتجمل اليد العليا لأصحاب المال والنقود .

وهم يضيفون أنه وإن كان البرلمان يستطيع - نظريا - أن يصدر ما يشاء من القرارات الجذرية عن مصادر أو تأميمات . الخ . فإنه عمليا لا يفعل هذا ، ولا يحفظ التاريخ سوابق لهذا على كثرة البرلمانات . ذلك لأن طريقة إنتخابات الدوائر تبعد العناصر الصالحة أو الفقيرة . بينما تظهر وتعلو العناصر الغنية أو المناقفة التي تستطيع أن تحكم صناعة الانتخابات . وهذه المحاذير كلها لا توجد عندما تجرى الانتخابات على مستوى المنشآت .

أما الربط ما بين المجالس والديكتاتورية فهو أمر غير صحيح من الناحية الموضوعية ، بمعنى أن المجالس لا تقتضى - ضرورة - نوعا من الديكتاتورية . وواقعياء ، فإن هذا الربط كان نوعا من تداعى المعانى جاءت به التجربة الروسية . وحتى فى التجربة الروسية فلم تكن السوفيتات هى السبب فى الديكتاتورية . على العكس . لقد كانت السوفيتات هى أول ضحية الديكتاتورية التي جاء بها الحزب الذى أبدعه لينين وكان يضم كل السلطات فى يديه ويخضع لتوجيه أقلية مصممة . وكان من حق السوفيتات الألمانية أن تتبرأ من مثل هذا الحزب ، لأن إحدى إضافات روزا لوكسمبرج البارزة فى الفكر الاشتراكي أنها نددت بديكتاتورية الحزب البلشفيكي ولم يكن تصديها له بأقل من تصديها للتفقيحية ، وكتبت فى رسالتها عن الثورة الروسية

« إن الحرية عندما تكون لانصار الحكومة فحسب ، لأعضاء الحزب فحسب ، مهما كان عددهم كبيرا ، فإنها لا تكون حرية ، إن الحرية هى دائما حرية الذين يفكرون تفكيرا مختلفا .

ومع كبت الحياه السيامية للدولة ككل ، فإن السوفيتات أيضا ستخنق ،

فبدون الانتخابات العامة ، وبدون الحرية غير المقيدة للصحافة والهيئات والنقابات ودون الصراع الحر للاراء والمعتقدات لاتلبث الحياة في كل الهيئات العامة أن تذبل ، وتصبح الحياة جوفاء تكون فيها البيروقراطية هي المنصر الفعال ، وما من أحد يستطيع أن يتحرر من هذا القانون ، وشيئا فشيئا تركز الحياة إلى سمبات ثقيل على حين يدير ويحكم بضمة من زعماء الحزب بهمة لا تكل ومثالية لاحد لها . إنها ليست ديكتاتورية البلوريتاريا ، ولكنها ديكتاتورية حفنة من السياسيين .

والحقيقة أن نظام المجالس أكثر ديمقراطية من البرلمانية ، لأنه يعطي الناخبين سلطة سحب الثقة من المندوب ، وبذلك يقضى على كل إحتمال للخروج عن إرادة القاعدة .

وهذه البراهين قوية ، وصائبة دون ريب ، ولكن أنصار البرلمانية كانوا يعلمون أن روزا لو كسمبرج في نقدها للبلاشفية نسيج وحدها . وأنها بين العمال صوت في البرية . . وأن هوى العمال الحقيقي في تلك المرحلة قبل أن تثبت التجربة صدق نبوءات روزا وتظهره للعيان هو مع التجربة البلاشفية وانهم ما أن يجدوا أنفسهم في مقاعد الساطة والحكم حتى يحذو حذوها . .

وكان يمكن لأنصار المجالس أن يقولوا إن تسكوين هذه المجالس لم يكن تماما مجرد تقليد أو اقتداء بالتجربة الروسية . ولكنه كان اجراء تلقائيا ، وطبيعيا للغاية ، ظهر في الأيام الأولى لثورة الألمانية لأنه كان الأسلوب العملي الوحيد والترجمة النيابية للمسكنة لثورة يقوم بها العمال والجنود ، ولم يكن هناك بديل لها من وحى الساعة، فحينما تتجمع الجماهير في مصانع أو ثكنات .. فإن الانتخابات التي تجرى لابد وأن تأخذ شكل المجالس .

* * *

وفي الأيام الأولى للثورة أكتسب العمال بفضل التحلل والهزيمة من ناحية والمد الثورى والمباداه من ناحية أخرى اليد العليا وناصرهم في ذلك المستقلون وأصبحت مجالس العمال إلى حد ما ، مصدر السلطة ، وقبل ايرت هذا الوضع على مضض ، وبأمل أن الأيام المقبلة ستؤدى إلى إنحسار المد وتقلص المجالس خاصة وقد إتضح أن مجالس العمال والجنود في بقية الولايات الألمانية أقل تعصبا وحماسة من مجلس برلين ، وأن الكثير منها - خاصة بالنسبة للجنود - يتفق مع ما يذهب إليه الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، من تسليم السلطة إلى الجمعية الوطنية وليس التمسك بها . .

ولم يكن هذا الأمر يرضى لبيككنشت وجماعته الذين استحوزت عليهم الثورة البلشفية . وكان تأييد لينين لهم يشد في أزرهم ويمدحهم في غيرهم ، ومن المحتمل أنه هو نفسه [لينين] كان مخدوطا في حقيقة الوضع فباستثناء مجموعة لبيككنشت وبعض المتعاطفين معها ، فلم يكن هناك تقارب بين المجموعات الأخرى والاتحاد السوفيتى ، بما فى ذلك مجالس العمال والجنود نفسها ، وعندما تقرر عقد المؤتمر القومى لهذه المجالس ، أرسل الاتحاد السوفيتى - دون أن يدعى - وفدا يضم اساطينه : بخارين ورا كوفسكى واجناتوف Ignatov وراذك . فأرسل مجلس عمال وجنود برلين إلى الاتحاد السوفيتى يطلب إرجاء إرسال الوفد بالنسبة للحالة الحاضرة ، ولم يأبه الاتحاد السوفيتى بهذا الطلب ، وسار الوفد حتى أوقفه الجنود على الحدود ووجهوا نحوه مدفعا رشاشا واجبروه على العودة . ولم يقبل رادك هذه الهزيمة فتخفى فى زى جندى ألمانى جريح ودخل الحدود ، وأصبح أداة للاستشارة والتحريض وتنفيذ مخططات الاتحاد السوفيتى . .

واستهدف لبيككنشت وطاقمته الحيلولة دون إجراء انتخابات يكتسب

فيها ايرت الأغلبية ، فأخذ يفري الجنود الساخطين والعمال العاطلين ، كما أخذت فرقة بحارة الشعب تخرج من مكنها بين آونة وأخرى وتغتصب إغتصابا أقواتها وتغوينها وفي يوم ٢١ نوفمبر حدث احتكاك بين عدد من البحارة وعدد من رجال البوليس قتل فيه بعضهم ، ويمكن ذلك لبيككشت من إقامة جناز سياسي أتهم فيه الحكومة بخيانة الثورة .

وفي مناسبة أخرى أقتاد لبيككشت بضعة مئات من الأطفال والتلاميذ إلى مجلس عمال وجنود برلين وهم يحملون الرايات الحمراء وتقدم قى في الساعة عشرة من عمره وقدم مطالب التلاميذ التي كانت تتضمن ابعاد ايرت وشيدمان ومنح حق التصويت لكل من يبلغ الثامنة عشرة من العمر .

واستغل لبيككشت حركة قامت بها بعض العناصر البورجوازية في مساء ٦ ديسمبر بدعوى تأييد ايرت وهاجمت فيها مجالس العمال والجنود ودار صحيفة السبارتا كوميين فأعلن عن مظاهرة كبرى اليوم التالي (٧ ديسمبر) ضمت مئات الألوف . وأشرف لبيككشت على المسيرة تحيط به العربات التي كانت كل منها ترفع مدفعا رشاشا حتى أحاطت بدار المستشارية وحاصرتها . وأطفالا القوميسيرون النور ، وأخذوا يتابعون في الصمت والظلام تطور الأحداث . وشاهدوا لبيككشت وهو يندد بهم ويقول بأعلى صوته « لقد ارينام أن لدينا القوة على أقتلاعهم ، ولكنى لن أطلب الليلة سوى أن تهتفوا «لتحيا الثورة الاشتراكية . لتحيا الثورة العالمية» وأرسل القوميسيرون أميل بارت الذي كان يعد أشدهم يسارية وقربا إلى لبيككشت، ولكن الجماهير أستقبلته بالصفيير ولم تستمع إليه . .

على أن هذه الاستنارات والمضايقات كلها لم تحل دون أن يعقد المؤتمر القومى لمجالس العمال والجنود خلال الفترة من ١٦ ديسمبر إلى ٢٠ ديسمبر

سنة ١٩١٨ ، وكانت النقابات وإدارة الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد استطاعت أن تقنع معظم المددوبين بسلامة وأمن الاتجاه البرلماني ، وهوس وخطر الاتجاه الشيوعي ولذلك فعندما قدم « دومييج » الشيوعي يوم ١٩ ديسمبر اقتراحه بجعل مجالس العمال والجنود أساسا للنظام السياسي وأن توضع في يدها كافة السلطات رفض هذا الاقتراح بأغلبية ٣٣٤ صوتا مقابل ٩٨ ، وأيدت قرابة ثلثمائة اجراء « انتخابات الجمعية الوطنية يوم ١٩ يناير سنة ١٩١٩ ، وانتداب مجلس القوميسيرين للقيام بهام السلطة التنفيذية والتشريعية حين انعقاد الجمعية الوطنية » وانتخب المؤتمر لجنة مركزية من Sentralrat من سبعة وعشرين عضوا لها حق الرقابة البرلمانية .. وبذلك فقدت اللجنة التنفيذية لمجلس العمال والجنود في براين ، التي كانت قوام الثورة ، شأنها ..

وبالطبع ، فإن هذه القرارات كلها أثارت ثائرة لبيكانشت والجناح الشيوعي بأسره ، ورفض الاشتراك في اللجنة المركزية ، التي أصبحت بذلك تتكون من الأغلبية وأعلنت مجلة العلم الأحمر .

« أننا لانترف باتفاقات الحكومة . إن رجال المؤتمر قد خانوا الذين أتخبوهم وجاوزوا سلطاتهم . إن مجالس العمال والجنود لا يمكن أن تحل . لأن الذي أوجدها يوم ٩ نوفمبر كان العمل الثوري للجماهير . إن السلطة الكاملة الآن هي في أيدي أنصار شيدمان ، وليس هذا هو كل شيء . إن هازه لم يعد في مجلس القوميسيرين . أجل هازه ، وكذلك ديتمان وبارت ، إن الجناح اليساري من المستقلين يرفض الدخول في المجلس التنفيذي ليستعيد شرفه .. بينما يظل البين لسكي يحمي البغاء السياسي » .

وليس معنى هذا أن الجناح الشيوعي خرج صفر اليدين من المؤتمر ، فقد استطاع أن يثير حماسة المؤتمر إلى حد كبير . وعندما اكتشفوا أن بين

المنسوبيين ثمانية عشر ضابطا أخذوا يهتفون « لیسقط الضباط » بينما أقتحم بعض أفراد فرقة بحارة الشعب القاعة مطالبين بتكوين حرس أحمر . وفي النهاية أستطاع الشيوعيون أن يحملوا المؤتمر على ان يؤيد ما سمي بنقط همبرج . لأن الذى تقدم بها كان « لامبل » مندوب همبرج . وكان يتضمن سبع نقط أبرزها . .

- ١ - رفع كل علامات الرتب العسكرية كرمز لتعطيم العسكرية والقضاء على مبدأ الطاعة العمياء وعدم حمل الجنود لأسلحة عندما لا يكونون فى الخدمة .
- ٢ - تكون مجالس الجنود هى المسئولة عن الفرق وصيانة الضبط والربط .
- ٣ - ينتخب الجنود رؤساءهم ، ويمكن انتخاب الضباط السابقين الذين حازوا ثقة الجنود .
- ٤ - اتخاذ الاجراءات السريعة للقضاء على الجيش الدائم وتكوين الميليشيا الشعبية .

ووضع هذا القرار ايرت فى مأزق - وبين خيارين حاسمين ، كان يمكن أن يرى فى هذا القرار تفويضا من الشعب لضرب العسكرية الألمانية التى طالما ندد بها الحزب الاشتراكي أيام القيصرية ، ورأى فيها حامية لكل الأوضاع الرجعية والطبقية ولم يكن ليجد فى هذا صعوبة كبرى لأن العمال والجنود فى صفه - ولأنه هو رئيس الحكومة الشرعية .

ولكن هذا الاختيار ، وان كان ينجيه من العسكرية - إلا أنه فيما تصوره كان يوقه فى يد الشيوعية الألمانية ، وكانت كراهته لها ، ومآمله من وحشية وديكتاتورية وفوضى تفوق كراهيته للجيش والعسكرية خاصة وأنه تصور أن ولاء الجيش سيكون له باعتبارهُ رئيس الدولة فى حين أن مجالس الجنود لاتدين

بالولاء لغير نفسها ، وماتتصوره من مبادئ . وكان هناك عوامل أخرى خارجية لا تقل وزنا عن العوامل الداخلية ، فهناك الخلفاء الذين كانوا يقفون لألمانيا بالمرصاد ، وكانوا يرفضون أن يقوم في ألمانيا نظام شيوعي يستلمهم ثورة أكتوبر السوفيتية ويرتبط بها بوشائج الولاء .

ولم يكن هناك شك في موقف القيادة العليا ، وأنها متعارض هذا القرار بشدة والواقع أن جرونر ذهب إلى ايبرت يوم ٢٠ ديسمبر مصطحباً الخبير السياسي للقيادة العليا الميجور كورت فون شلسر في ملبسهما العسكري ونياشينهما وأعلنا بصراحة وبطريقة باتة أن القيادة لا تقبل هذا المراء .

وخرج ايبرت من هذا المأزق بأن استثنى من تطبيق هذا القرار الجيوش الميدانية وأرضى هذا القيادة ، ولكنه أغضب زملاءه في الوزارة من الحزب للمستقل الذين رأوا في هذا قضاء على القرار ، لأن القيادة تستطيع أن تدعى أن كل وحدة إمامهى جزء من جيش ميدانى .

وفي هذا الوقت حدث تطور في موقف فرقة بحارة الشعب فقد حاولت الحكومة أن تجلبى الفرقة عن التصر وأن تهبط بمددها من ٣٠٠٠ إلى ٦٠٠ . وفي ١٣ ديسمبر قدمت الحكومة ١٢٥ ألف مارك ووعد قادة الفرقة بتنفيذ المطلبين ولكنهم عادوا يوم ٢٠ ديسمبر فطلبوا من الحكومة ٨٠ ألف مارك كمنحة عيد الميلاد ورضخت الحكومة بشرط عدم دفع المبالغ إلا بعد إخلاء القصر وتسليم مفاتيحه إلى أوتوفيلز حاكم برلين . وفي صباح ٢٣ ديسمبر ذهب وفد من البحارة حاملا مفاتيح القصر في حقيبة جلدية إلى دار المستشارية وقابل هوجو هازه القومي سير المستقل قائلا إنه لا يريد التعامل مع فيلز - ولما كان هازه على وشك الخروج من دار المستشارية . فقد أشار عليهم بمقابلة برت . وكان برت في اجتماع فأشار باقتياد الوفد إلى ايبرت . ولكن ايبرت لم يكن موجودا

وفي هذه اللحظة نفسها كان بعض البحارة يطالب فيلز بدفع المبلغ على أساس أن زملاءهم قدموا المفاتيح ولما اتصل فيلز ببرت قال هذا إنه لم ير المفاتيح، ولكنه متأكد أنها موجودة بدار المستشارية ولم يقتنع فيلز بهذا الإيضاح فثار البحارة وحطموا المكتب واختطفوا فيلز واثنين من مساعديه . وغادوا بهم إلى القصر الذي لم يكن قد أخلوه كما زعموا بينما حاصرت فصيلة من البحارة دار المستشارية وأغلقت أبوابها وقطعت الأسلاك التليفونية .

وعندما عاد ابرت إلى مكتبه اتصل بالبحارة وطلب اخلاء سيدل فيلز . ولكن هؤلاء طلبوا دفع المبلغ وإلا فيضرب فيلز بالرصاص فاستمهلهم ابرت . واتصل عن طريق الخط التليفوني السرى الذي يربط ماينيه وبين القيادة وأخبر شليس الذي رد على التليفون أن الحكومة سحينة دار المستشارية وطلب بحجة الجيش ورد هذا بأنه سيصدر الأمر فوراً بإرسال قوات الجنرال فون ليسكس - وهي إحدى القوات القليلة الباقية تحت تصرف القيادة وكانت تعسكر في ثكنات بوتسدام .

وفي منتصف الليل لان البحارة فكوا الحصار حول دار المستشارية وغادوا إلى القصر، بينما كانت فرقة الفرسان العسكرية في بوتسدام على بعد خمسة عشر ميلاً من برلين تزحف على المدينة .

وعندما أحس البحارة بقدوم الجنود ثاروا وطلبوا من ابرت سحبتهم . واتصل ابرت في محاولة أخيرة لحقن الدماء بالقيادة العليا طالباً سحب القوات لأن الأزمة انتهت ولكن القيادة لم نشأ أن تفلت من يدها فرصة القضاء على الفرقة الكرية فرفضت وتقدمت فرقة الفرسان حتى أصبحت على مرى المدافع من الاسطبلات وشاهد البحارة مبهوتين الجنود وهم ينصبون المدافع كما يشاهد المحكوم عاينه بالاعدام جلاديه وهم ينصبون المشنقة فلم يكن لديهم مدافع .

وفي الساعة السادسة والنصف من صباح ٢٤ ديسمبر طالب أحد الضباط البحارة بالتسليم خلال عشر دقائق ولم يرد البحارة . فقد استنجدوا تليفونيا بموانئ البلطيق ووعدوا بالنجدة العاجلة . . وفي الساعة السابعة بدأ الجنود يقصفون مبنى القصر ثم هاجموا فلم يجدوا فيه أحدا . فقد أخلاه البحارة وهربوا إلى الاسطبلات عن طريق ممر خفي فصوبت المدافع نحو الاسطبلات .

وفي منتصف التاسعة ارتفع علم أبيض على الاسطبلات وظهر وفد من البحارة يطلبون إيقاف النار لمدة عشرين دقيقة لوضع ترتيبات التسليم ولكن هذه العشرين دقيقة أنتقدت البحارة فما أن توقف إطلاق النار حتى تدفقت الجماهير التي كانت تراقب المعركة عاجزة عن الحركة ماظل إطلاق النار مستمرا . وتخللت الجماهير صفوف الجنود وأخذت تناشدهم الرحمة وكان بينهم نساء وأطفال وبهذه الطريقة تحمل الجنود وسط الجماهير وهرب الضباط وفشلت « معركة عيد الميلاد » وكتب للبحارة عمر جديد من حيث لم يحسبوا .

وأدت هذه الأحداث إلى سلسلة من المظاهرات هاجمت فيها الجماهير الحاققة مبنى جريدة « فوروارتس » لسان حال الحزب الاشتراكي الديمقراطي (الأغلبية) واحتلوه وفي ٢٩ ديسمبر انسحب القوميسيون المستقلون من الوزارة فعين محلم ثلاثة من الاشتراكيين الديمقراطيين (الأغلبية) هم نوسكه، وفيسيل ، ولوب - ولكن هذا الأخير لم يقبل المنصب وعقد اتحاد سبارتكوس مؤتمرا حضره كارل رادك وانتهى هذا المؤتمر بتأثيره إلى تكوين « الحزب الشيوعي الألماني » وأعلن عن تكوين الحزب في اليوم الأول من عام ١٩١٩ ووضعت روزا لوكسمبرج خطط سياسة الحزب وهي خطط اعتمدها الحزب وأخذ بها وإن كان قد خالفها في بعض النقاط مثل الاشتراك في الانتخابات البرلمانية التي حدد لها ١٩١٩/١/١٩ فقد كان من رأي روزا الاشتراك ولكن معظم الأعضاء رأوا غير ذلك .

كان الحزب الاشتراكي يتخبط وسط المتناقضات التي تحيط به وتلك اليأس ايبيرت وذكر لجرونز عبر التليفون أن الوسيلة الوحيدة أمامه لدرأ صدام دموى مع الشيوعيين هو أن يهجر دار المستشاريه ويخفى فإذا حضر ليبيكنشت لم يجد بها أحدا بينما يشكل هو الوزارة في مكان بعيد . ولكن جرونز أشار عليه برأى آخر . ذلك أن يستدعى نوسكه من كييل ويعهد إليه بمعالجة الموقف .

وكان نوسكه قد أوفد في الأيام الأولى في نوفمبر إلى كييل لمعالجة ثورة البحارة واستطاع أن يحتوى هذا التمرد ويحصره في أضيق نطاق . ونجح في هذا نجاحا لفت نظر ضباط القيادة العليا ، واستجاب ايبيرت لفكرة جرونز واستدعى نوسكه .

ودخل نوسكه غرفة ايبيرت في لحظة تاريخية حاسمة كان النقاش فيها يخدم حول اختيار وزير الدفاع وكانوا قد انتهوا إلى تعيين ضابط هو الكولونيل والتردينهارد، ولكن رينهارد طلب أولا موافقة القيادة العليا . وغضب نوسكه وطلب البت في الأمر . وعندئذ سأله أحدهم هل يقبل هو فأجاب « بالطبع إن أحدا يجب أن يكون كلب الصيد . . ولن ألتخلى عن المسؤولية » فأمسك رينهارد بخطاب التعيين وشطب بيده على اسمه وكتب فوقه «جوستاف نوسكه» . وكان تعيين نوسكه في هذا المنصب إيداناً بتقلص الفرصة أمام الشيوعيين . وأن الصراع دخل مرحلة جديدة هي نهاية البداية الثورية وفترة القلق إزاء تحديد المسار .

الفصل التاسع

سبارتا كوس يصلب من جديد

لم تكن روزا لوكسمبرج ترجم بالغيب عندما قالت إنه ما أن يظهر اتحاد سبارتا كوس حتى تتعالى صيحات العسكرين والبورجوازيين « اصلبوه » .
إنها بنت النتائج على المقدمات ، وقاست التاريخ الحديث على التاريخ القديم وتمثلت طبائع النفوس ونوايس المجتمعات . ولم تسمح للأوهام أن تخدعها عن طبيعة الاستقبال الذي ينتظر سبارتا كوس الجديد .

ولكنها مع هذا تصورت أن سبارتا كوس الجerman سيكون أصلب عودا من سبارتا كوس الرومان . . وفي هذه النقطة فحسب أخطأها للتقدير . . لأن الذى تصدر المسيره لم يكن القائد ولكن الديماجوج .

* * *

في ٤ يناير والجموع التى ألها لبككشت تكتسح برلين ، دما جنرال اسمه فون ميركر Von M ercker ايبرت ونوسكه اللذهاب إلى ضاحية زوسن Zosson التى تبعد ٣٥ ميلا من برلين ليطلعهما على سره الرهيب . . فى الوقت الذى تحلل الجيش وتهاوى الضبط والربط فى كل وحدة استطاع ميركر بالعمل فى هدؤ وصمت أن يجتذب أربعة آلاف متطوع وأن يدرهم تدريبا مستمرا بحيث يصبحون مقاتلين أشداء ويكونون الفرقة الأولى من تلك الفرق التى سيصبح ظهورها وتأخذ شكلا وبائيا وتحمل إسم « الفرق الحرة » .

وليس من العجيب أن يستطيع جنرال تجنيد وتدريب مثل هذا العدد مع حالة الفوضى التي سادت البلاد إذا وضعنا في حسابنا التقاليد العسكرية الألمانية ومدى عراقتها وأنها هبأت مائوفين من الجنود ، وكذلك حرص الضباط على الاحتفاظ ببعض الفرق التي تكون نواة الجيش عندما تتحسن الأحوال ، كما أن تحلل الجيش الرسمي دفع بعض المدنيين المتحمسين لدخول الميدان ومحاولة سد النقص ، ففي يوم عيد الميلاد عام ١٩١٨ كون فرانز سيلدت Franz Seidte وهو تاجر خمر في ماجدبورج فرقة الخوذة الفولاذية وامتهدت القضاء على الثورة واستعادة القوة العسكرية الألمانية واعتبر المارشال هند نبرج رئيساً فخرياً لها ، كما عمل في خدمتها بعد تقاعده الجنرال المشهور « فون سيكيت » رئيس الأركان والذي سيؤدي دوراً بارزاً في سير الأحداث فترة الجمهورية .

ومن ناحية أخرى ، فإن نوسكه . ان ولى وزارة الدفاع حتى دعم مناصبها الرسمية بنخبة من أذكي الضباط الذين اختارتهم بعناية القيادة العليا . وكان أركان حربه الميجور ايريش فون جيباسا سليل أسرة من النبلاء شغل أفرادها المناصب العسكرية لأجيال متتالية ، كما عين فون لوتفيتز Von Lutwitz حاكماً عسكرياً لمدينة برلين ، واختار للقيادة في مناطق معينة من برلين ضباطاً أكتفاء وطموحين مثل فون ستينمانى وفون بستوكهوزن وفون هامرشين .

وكأما كانت هذه الترتيبات على ميعاد . فبعد يومين من استعراض ايبيرت ونوسكه للفرقة الحرة في زوسن - أى يوم ٦ يناير اندلعت الشرارة التي انضمت الثورة الشيوعية التي طال انتظارها .

وكان السبب المباشر هو اقالة اميل ايشورن الذى كان من غلاة الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل ، وكان منذ قيام الثورة قد احتل مقر البوليس .

وأعلن نفسه رئيسه ومارس هذه السلطة بطريقة اعتبرت تستر على المتطرفين على الحكومة أكثر مما هي حفاظا على الأمن ، وعندما وقع صدام « عيد الميلاد الدامي » ودار القتال أمام الاسطبلات أعلن أن البوليس « محايد » ولم يحاول نصرة الحكومة كما لم يكن يخفى معارضته لانتخابات الجمعية الوطنية ، وهي سياسة يمكن تفهمها عندما نعلم أن ايشورن عمل حينما من الدهر في خدمة سفارة الاتحاد السوفيتي تحت إمرة جوف ، وكان ايبيرت يتحمل صفاقة ايشورن لأنه كان جزءا من صفقة مع المستقلين ، فلما انسحبوا في ٤ يناير أمر باقالته .

ولكن ايشورن رفض تنفيذ القرار ، وهرع إلى مقر الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل واجتمع قاداته بالهندوبين الثوريين والحزب الشيوعي وأصدروا بياناً مشتركاً طالبوا فيه ببقاء ايشورن وناشدوا الجماهير القيام بالمظاهرات لتأييد ذلك . ولبت الجماهير هذا النداء وامتلأت الميادين والشوارع المحيطة بمقر البوليس بميدان « الكساندر بلاس » والمتفرعة منه ، وكانت الجماهير من الكثرة والكثافة بحيث أدهشت المنظمين للمظاهرة أنفسهم ومن شرفة مقر البوليس ألقى زعماء المظاهرة الخطابات الحماسية .

وداخل المبنى عقد اجتماع موسع لقيادات هذه المجموعات الثلاث حضره ٧١ فردا مثل الشيوعيين منهم اثنان فحسب هما ليبكنشت وويلهم بيك . أما الباقيون فكانوا من المستقلين أو المندوبين الثوريين واتخذوا بأغلبية ٦٥ إلى ٦ قرارا خطيرا هو الدعوة للاضراب العام ، وتأييد هجوم مسلح على الحكومة . . ووضع ألمانيا في طليعة الثورة البلوريتارية العمالية . .

ولم تكن هذه القيادات قد اجتمعت لاتخاذ هذا القرار بالذات وكان يجب على أعضائها - وهم جميعا من القيادات المسئولة - أن يعلموا خطورة قرارهم

عسكرياً بمجرد إعلانه الثورة ، على حد ما روى مليوكوف Milukov ؛ أو حتى اتصالات مكشوفة بهذا المعنى وان لم تصل إلى مستوى « المعاهدة » ؟

وعندما استقر الرأي على هذا القرار بدأت كتابة المنشورات لبدأ الأضراب في اليوم التالي واختار المجتمعون لجنة ثورية من ٥٣ عضواً ووضعت هذه منشورات لتوزيع عقب قيام الأضراب العام تعلن سقوط حكومة ايبيرت — شيدهان وإن اللجنة الثورية قد قبضت على زمام الأمور . كما بدأت عملية توزيع الأسلحة .

وبدأ الأضراب العام في موعده المحدد — ٦ يناير — وسارت مظاهره ضمت قرابة ٢٠٠.٠٠٠ عامل بينما احتملت مجموعات من العمال وكالة انباء ولف ومعظم دور الصحف ، وفي صباح اليوم التالي (٧ يناير) استولى العمال على بوابة براند بورج وألقوا عليها المدافع — وأصبح باستطاعتهم إطلاق النار من هذا المكان المرتفع على الجهات الأربع — كما استولوا على دار طباعة الحكومة ومحطات السكك الحديدية وحفرت الخنادق ووضعت المتاريس .

وفي ٧ يناير كانت الحكومة قد بلغت أقصى درجة من الضعف وأعلن أحد الوزراء في اجتماع الوزارة بدار المستشارية « ان الاسبرتا كوسيين قد استولوا على مبنى إدارة السكة الحديد، ووزارة الحربية هي الثانية في الترتيب ، وبعدها سيأتي الدور علينا » واقترح برنشتين وبعض المعتدلين من المستقلين مثل كوتسكي وهيلفردنج فتح باب المفاوضات مع الثأرين ، ولكن كل محاولات التفاوض ذهبت هدراً ، ذلك أن ليبككنشت كان في حكم الواثق من النجاح وقد امرت اللجنة الثورية بطبع بيان في ثمان صفحات بمجرد تقلد اللجنة السلطة .

ولكن موقف الحكومة لم يكن ميثوبداً منه ، كما تصور ليبككنشت ، فقد

ذهب نوسكه إلى ضاحيه داهلم Dahlem ليعبأ الجنود ، واستطاعت الوزارة عندما استنجدت بالمواطنين أن تسليح خمسة الاف من الموظفين المدنيين وعهدت إليهم بحراسة المباني واستطاع هؤلاء المتطوعون أن يستولوا على بوابة براندبورج وينحوا الثوار عنها وأرسل ايبرت أحد كبار معاونيه إلى فرقة بحارة الشعب ليكسبها إلى صف الحكومة . وحاول زعيم الفرقة الذي وعد الثوار بالمعونة أن يلقي القبض عليه ، ولكن البحارة الذين أعادوا التفكير في الأمر وخافوا مغبة مقاومة الحكومة حرروا مندوب ايبرت واعتقلوا قائدهم نفسه وأعلنوا حيدهم . وغنى عن القول أن كل القوى العسكرية قد رحبت بهذه الفرصة التي تمكنها من الخلاص مرة وإلى الأبد من الشيوعيين المقيتين . وظهرت عشرات الفرق الحرة يقودها ضباط ممرسون . وعزفت الطبقة الوسطى الصغيرة عن تأييد الثأرين ، ولوثة القسوة والوحشية التي مورست بها الثورة البلشفية حركة الثورة الألمانية ، والصقت بها . واعتقد إن حقاً أو باطلاً أن كل ما طبقه البولشفيك في روسيا سيطبقه الشيوعيون في ألمانيا . وكانت للملصقات الكبيرة تملن أن الوطن في خطر وتضم الحركة بالعمالة لروسيا وتحذر المواطنين من الأعدام والمصادرة « وتأميم النساء » واصدرت الحكومة نفسها بيانا حذرت فيه الشعب من أنه إذا انتصر السبرتا كوسيون فسيكون في ذلك القضاء على الأمن والحرية وردت مجلة العلم الأحمر على ذلك « اليوم لن تكون هناك رحمة لاشتراكيي ايبرت وليس إلا الضربات » .

وكائناً ما كانت للمبالغة في هذه الادعاءات ، فإنها لم تخل من حقيقة . فمن الوقائع الثابتة أن السفير السوفيتي جوف كان يصرف بسخاء ، ويضع الخطط ويقدم المنظمين والمبهيجين ، وعندما طرد جاء رادك الذي لم يقلع عن تشبيه الوضع في ألمانيا بالوضع في الاتحاد السوفيتي قبيل ثورة أكتوبر ، بل إن

دعوى تأميم النساء — على ما فيها من سخف وإثارة — لم تخل من أصل
فقد ظلت دعوة « الحب الحر » تسير الدعوة الاشتراكية وتصطبب بها ،
ولم يبذل الاشتراكيون جهدا في إبعادها ، أو يستطيعون لها تفنيدا على
أسس مبدئية ، وعندما انتشر الحب الحر في الأتحاد السوفيتي غداة الثورة ،
وذاع أن الممارسة الجنسية ليست إلا كشرية من كوب ماء ، لم يبذل لينين
إلا جهدا ضئيلا ولستر بعض المظاهر في مقاومة هذه الفكرة ، وإن ظل هو
نفسه بعيداً عن التحلل الجنسي .

* * *

وهكذا استطاعت الحكومة أن توجه قوة كبيرة تحت قيادة الميجور
فون ستيفاني لتحتل الميدان المواجه لدار جريدة فوروارد التي اعتبرت قيادة
الثورة ولتسد كل المنافذ إليه حتى لا يتكرر فيه ما حدث عند قصف بحارة
الشعب . وكان ستيفاني نفسه قد تخفى في زى عامل ودخل مبنى الجريدة ، وألم
بتحصينها ، فوجه إليها مدافعه وعندما أحدثت فجوة كبيرة في المبنى تقدمت
دبابه وحطمت الأبواب وتبعتها العربات المدرعة التي كانت تحمل الجنود
وكان عدد المدافعين عن الجريدة ضئيلا بالنسبة لعدد الجنود ودافعوا بشراصة
ولكن أسلحتهم الصغيرة لم تجد أمام مدافع الهارن . . ولم يرحم الجنود أحدا
فأعدم فوراً كل أو معظم من أسرهم .

وكان نومسكه ينظم حشد وسير القوات التي أخذت تزحف على برلين
يوم ١١ يناير بمد أن وضعت خطة دقيقة لنظويةها وتشيطها بحيث تصفى كل
العناصر الثورية ووزعت هذه القوات نفسها على أحياء المدينة وحدودها .
وخلال الأيام الثلاثة ١٣ و ١٤ و ١٥ سقطت المدينة في يد الجيش و صغيت
الجيوب الثورية جيبا جيبا وقبض على زعماء المستقلين والشيوعيين بينما عرضت

جمعية مقاومة البلشفية عشرة آلاف مارك ثمن الرادك . ولكن رادك استطاع الفرار هو وايشورن — سبب هذه المصائب كلها .

أما الطليعتان المينتان : روزا لوكسمبرج وكارل ليبكنشت فقد وشى بهما فيما يبدو ، فقبض عليهما في مساء ١٥ يناير وأخذنا إلى قيادة قوة الفرسان التي كان مقرها فندق ايدن حيث ضربا . وفي الليل عند إخراجهما كل على حدة من باب الفندق رفع جندي عتل يدعى رنج Range بندقيته وهوى بها على رأس ليبكنشت الذي سقط لتوه ، وأصبح إلى الموت أقرب منه إلى الحياة ، فقفذ به إلى عربة تقل ستة من الضباط ، سارت في اتجاه سجن موابيت Moapit ، وبعد لحظات أخرجت روزا لوكسمبرج من باب الفندق حيث كان الجندي الشرير نفسه — رنج — يترصدها — فضربها ببندقيته وقذف بها إلى عربة كانت تقل الملازم فوجل .

وأوقعت عربة ليبكنشت في الطريق حيث أطلق عليه النار بدعوى أنه حاول الهرب وسامت جثته إلى المشرحة على أساس أنها « جثة لرجل مجهول وجد في التير جاردن » ، أما روزا فما من أحد يعلم أكانت حية أم ميتة عندما أُلهب فوجل رأسها بطلقة مباشرة وألقيت جثتها في إحدى القنوات ، ولم تستخرج إلا في ٣١ مايو .

إن نسل أين قبور العظما

فعلى الأفواه . . أو في الأنفس . .

* * *

بموت روزا لوكسمبرج فقدت ألمانيا زمامة الفكر الاشتراكي الدولي ، تلك الزمامة التي انتزعها ماركس من الاشتراكيين الفرنسيين والإنجليز ودعما انجليز ، وكانت روزا هي « الأمازونة » التي تأتي مباشرة بعد ماركس ١٣ — ستوط وظهر

أو أنجز والشخصية النسائية الوحيدة في الفكر الاشتراكي التي وصلت إلى هذه المنزلة، وانتقلت زعامة الفكر الاشتراكي إلى روسيا بفضل فكر بليخانوف . . . وعمل لينين وكتابة ترونسكي .

وقد الحزب الشيوعي الألماني منزلته الرفيعة بعد فقد المفكرة الوحيدة التي كان يمكن أن تتصدى للينين تصدى الند للند بل وتغلبه في حلبة الجدل المنهبي . . .

وفقدت ألمانيا أيضا أملها الأخير في الثورة الشيوعية، ولم تقم لها قائمة رغم ماسيلي من محاولات كان الألمان يقومون بها عندما تصدر إليهم الأوامر من موسكو . . .

واستطاع العسكريون الألمان بهذا العمل الأثيم أن يحققوا هدفاً مزدوجاً: أن يتخلصوا من أعدائهم وأن يلوثوا حكومة ايرت، وقد نجحوا في الهدف الثاني كما نجحوا في الهدف الأول لأن الحكومة رغم استيلاء ايرت عجزت عن الاقتصاد من قلة روزا وليكنشت . فقد حكم على أربعة من الضباط بالموت ولكن المحكمة أقتنتهم وحكم على رنج بالسجن عامين والملازم فوجل عامين وأربعة أشهر ولكنه عبر الحدود إلى هولندا بجواز سفر مزور . وفي النهاية تمخضت العملية كلها عن سجن عسكري واحد .

ومن العسير التنبؤ بما كان يمكن أن يحدث لو قدر لروزا لو كسمبرج أن تعيش وتواصل كفاحها، فترى هل كانت الأحداث والضرورات تقهرها وتغلبها على رأيها وتجميلها تلوذ رغم أنفها بصور من السكبت والديكتاتورية . . . أو هل كانت تنجح فتقدم إضافة جديده مبدعة . . . ؟ إن النقد الأكبر الذي يمكن أن يوجه إلى روزا هو أشبهها الشديد وإلى النهاية بفكرة الطبيعة العالمية للثورة الاشتراكية، وكانت هذه الفكرة شائعة بين كل الاشتراكيين

تقبل الحرب العالمية الأولى .. وكان لينين أحد كبار المؤمنين بها ، وكان يرى أن قيامها - وفي ألمانيا بالذات - هو الذي يؤمن الثورة السوفيتية بل إنه في بعض الأوقات كان يعلمها على الثورة السوفيتية نفسها ، وقد ظل يترقبها يوماً بعد يوم قبل أن يوقع معاهدة بريست ليتوفسك المهينة .

وفي المؤتمر السابع للحزب الشيوعي أعلن لينين يوم ٧ مارس سنة ١٩١٨ « أن الثورة الروسية ستسكون عملية ميثوس منها إذا بقيت وحيدة ، وإذا لم تقم ثورات في الدول الأخرى . وأن الذي سوف ينقذنا - وأكرر ذلك مرة أخرى - هو الثورة الأوروبية » واستطرد « إنها حقيقة مطلقة أننا دون الثورة الألمانية سنهلك ، وقد لا يدركنا الهلاك في بتروجراد - أو موسكو أو حتى في فيلاديفستوك أو غيرها من المناطق النائية التي يكون علينا الانسحاب إليها . ولكننا سنهلك في مطلق الأحوال وبالرغم من جميع التحولات الممكنة إذا لم تشمل الثورة الألمانية » ومع هذا فإنه أدرك أن الثورة الألمانية المنشودة لن تأت بالسرعة المطلوبة ، ووضع حساباته وقراراته على هذا الأساس الواقعي بالفعل .. ومن الناحية النظرية فإن فكرة الاشتراكية في دولة واحدة لا يمكن أن تكون خطأ تماماً . وقد لاحظ تروتسكي - وهو نفسه من دعاة الثورة العالمية - أن احتمالات نجاح الثورة في ألمانيا الصناعية المتقدمة كانت أكثر من احتمالات نجاحها في روسيا المتخلفة ، وقد دعا إلى مثل هذا الرأي الاشتراكي الديمقراطي « فوار » الذي كان يعد من أعمدة التنقيحية - دع هناك أن المناخ الذي كان يحيط بروزا كان مناخاً وطنياً متعصباً وأن الظرف كان ساخناً بل ملتها ولم يكن يسمح بحديث عن العالمية ، بل كان يرى في مثل هذا الحديث خيانة ..

وفي وزننا الشخصية ومكانة روزا يجب أن لا ننسى أبداً أنها أولاً وأخيراً

ماركسية وقد رُجّح بها إيمانها بالماركسية في بعض الحالات إلى صور من الغلظة والحدة غريبة عن طبيعتها التي كانت تنبسط وتترقرق بمثل تفرق النسيم أمام الفنون والآداب والإنسانيات، ويمكن القول أن سوءاتها المحدودة تعود إلى عناصر ماركسية، بينما أُنبتت حسناتها العديدة عن طبيعتها الكريمة الذكية، الشجاعة . .

بالإضافة إلى هذا كله فقد كان هناك عامل خاص تنبه إليه إبيرت ورجال الحزب الاشتراكي الديمقراطي للمستوليين، بل كانوا يضعونه في صدارة الاعتبارات، ولم يظفر مع ذلك بأى اهتمام من الشيوعيين على اختلافهم، هذا العامل هو موقف الحلفاء واحتمال تدخلهم أو على الأقل استمرار فرضهم للاقتصادى الذى كان يهدد ألمانيا بالحجاعة .

ولم تكن هذه المخاوف خيالية أو وهمية وقد يوضح فكرة رجال هذا العهد وقتئذ ذلك الحديث الذى دار ما بين جوليموس برونثال ورودلف هيلفردنج الذى كان من أبرز شخصيات الحزب الاشتراكي المستقل ورئيس تحرير صحيفة « فرينهيت Freiheit » سنة ١٩١٩ . ففي هذا الحديث سأل برونثال .

— ولكن لنفترض أن اليسار الاشتراكي في ألمانيا حصل أخيراً على السلطة — ولا يزال احتمال هذا قائماً — أفلا تسنح من ذلك فرصة لتتحول ألمانيا إلى سوفياتية وتلتحق بروسيا . إن هنغاريا قد أصبحت جمهورية بلشفية . والنساء على أبواب ذلك فإذا أصبحت ألمانيا بلشفية ، فيمكن أن تحذو حذوها بولندا وتشيكوسلوفاكيا أفلا ترى هذا .

— هذه هي اليوتوبيا الكلاسيكية التي لا يزال يتشبث بها اليسار ، ولكن بصرف النظر عما إذا كان النظام السوفييتي مغلوباً فإن تحقيق ذلك مستحيل تماماً من وجهة النظر الداخلية والخارجية على سواء . ففيها يتفلق بالاتجاه .

الداخل للبلاد فقد قامت محاولة لذلك في نوفمبر عند البارقه الأولى للثورة ، ومع أننا لم ننجح ، فقد كان هناك على الأقل فرصة شريطة أن لا يتدخل الحلفاء وهو ما كانوا سيفعلونه وستؤدي مثل هذه المحاولة الآن إلى أعنف صور الحرب الأهلية ، وما تجره من عواقب وخيمة . وفيما يتعلق بالنتيجة فليس هناك أي شك . . فسيزحف الحلفاء على برلين وسيحتلون البلاد ، وسيقيمون حكومة معارضة للثورة وسيكون ذلك نهاية الأمل في التقدم للجيل المقبل .

ولاتسى أن المنتصرين في هذه الحرب ليسوا هم الشعب الفرنسى والإنجليزى وإنما هم الامبريالون الفرنسيون والإنجليز . إن ثورتنا كان محكوما عليها بالفشل من البداية . . لقد جاهنا الامبريالون القساة المنعون بقناع ديمقراطى . ولما كانوا يخشون البلشفية فإنهم كانوا سيرفضون مفاوضه أى حكومة لاتنتخبها الجمعية الوطنية . وهذا هو السبب فى أنهم لم يرفعوا الحصار عن ألمانيا الثورية . . إنهم يجمعونها .

— وماذا تظن سيحدث لألمانيا .

— إنها ستصبح ديمقراطية رأسمالية ، ومن بعض النواحي فإنها قد تصبح أكثر الدول الرأسمالية تقدما . ولكن ستظل ألمانيا هيكليا رأسمالية — حتى تأتى^(١) الفرصة التالية التى يمكن أن يقدمها لنا التاريخ .

وكل من يتذكر المحاولات العميقة التى بذلها الحلفاء لوأد الثورة الروسية والمساعدات التى قدموها لجنرالات الجيش القيصرى والحصار الذى طوق روسيا وأن هذا كله كاد أن يقضى على الثورة الناشئة لولا العوامل الاستثنائية التى أحاطت بهالة كتمفرقه كلمة الجنرالات البيض أو العوامل الخاصة

(1) In Search The of Millenium hsy Julius Braunthal p. 244

بروسيا بالذات مثل المناخ الذي كان مجهول في خدمتها قائدا لا يقهر هو « الجنرال شتاء » ومثل سعة الرقعة التي كانت تستغرق وتبتلع أى جيش مهما كبر ومثل الموقع الجغرافي الذي كان يجعلها بعيدة عن يد الحلفاء . ولم يكن لألمانيا هذه المزايا . فقد كان مناخها عاديا بالمقاييس الأوروبية ورقعتها محدودة . وهي مطوقة بالحلفاء . . وكانت فرنسا لها بالمرصاد واحتلت السار بالفعل عند أول خلاف . من يقدر هذا لا بد وأن يسلم أن كلام هيلفردنج لم يكن خيالا أو وها وإنما كان حقيقة ، وأنه كان حقيقة بالنسبة لذلك الوقت كما كان حقيقة بالنسبة لتصور المستقبل عندما جاءت الفرصة التالية وتحولت أوروبا الشرقية إلى معسكر اشتراكي . والتحفظ الوحيد هو أن العالم الغربي والرأسمالي تعلم من خطئه السابق « عندما جاءت الفرصة التالية » فلم يسمح تشرشل وروزفلت للحقد الأعوى والسخيمه السوداء أن يصاد بها إلى ما وصل إلى بلويد جورج وكايمينسو . إنها غداة الانتصار أخذا بينيان بالأول . وال ما هدمه بالقنابل . واستطاعا بذلك أن يستنقذا الجزء الأعظم من ألمانيا من قبضة البلشفيه بعد أن كادت تذهب بها .

وبصرف النظر عن هذه الاعتبارات كلها ، فإن ثورة يناير لم يتوفر لها أقل استعداد يفترض أن يتوفر لاقول ثورة . كانت نوطا من اللعب بالنار ، والمغامرة الحماسية وقد اتخذ قرارها فجأة ودون سابق اعداد في اجتماع اكتسحته العاطفه . فلم تدرس عمليات الثورة . أو توضع الحلول البديله لمختلف الاحتمالات ولم توجد اللجنة التنفيذية المحدودة والمترابطة والحازمة . وكان لدى ألمانيا من الجماهير التي لبت نداء الثورة بالفعل أضعاف الجماهير التي أبدت البولشفيك . ولكن لم يكن لدى الألمان أركان حرب الثورة وقد وصفت مجلة العلم الأحمر اضراب ٦ يناير .

« ومن المحتمل أن ما حدث يوم الاثنين في برلين كان أعظم عرضة

برولينارى فى التاريخ . فمن تمثال رولاند فى مواجهة قاعة المدينة إلى تمثال النصر فى كونيجزبلاتز كان العمال يقفون كنفاء إلى كنف وقد أحضروا معهم أسلحتهم وأعلامهم الحمراء .. وكانوا على استعداد لعمل كل شىء .. ولتقديم كل شىء .. حتى حياتهم . كان هناك جيش من ٢٠٠,٠٠٠ لم يشهد أى « لودندورف » من قبل .

وعندئذ حدث آخر شىء كان يخطر بالبال . لقد كانت الجماهير مجتمعة من التاسعة صباحا فى البرد والضباب بينما كان زعمائهم فى مكان ما يأترون وانقشع الضباب وهم لا يزالون واقفين وزعمائهم لا يزالون يأترون .. وجاء الظهر وجاء معه بالإضافة إلى البرد الجوع .. ولكن الزعماء كانوا يأترون .. كانت الجماهير تنقد حماسه .. تريد أى شىء .. ولو كلمة واحدة .. ولكن ما من أحد قال لهم شيئا لأن الزعماء كانوا يأترون وعاد الضباب مرة أخرى وجاء معه الغسق والظلام فعادوا إلى بيوتهم أسفين ، لقد أرادوا أشياء عظيمة ولكنهم لم يفعلوا شيئا لأن زعمائهم كانوا يأترون .. لقد اجتمعوا فى « مارستال » ثم عادوا إلى مركز البوليس وهناك جلسوا الليل بطوله .. وعندما أشرق الفجر كانوا لا يزالون يأترون ..

ونتيجة لعدم الاستعداد وعدم وجود الكوادر الموثوق بها والتي يوكل إليها تحريك الجماهير وتوجيه الثورة فى مختلف المواقع . فقد أندس عدد من « العملاء المهيجين » بين الجماهير المستناره ، واستغلوا حماسها فى غيبة القيادات المسؤولة . وقد أظهرت التحقيقات التى أجراها — فيما بعد — الديت البروسى أن معظم النداءات التى وجهت للجماهير لاحتلال دور الصحف إنما جاءت من العملاء المهيجين ، أو على الأقل من عناصر لا علاقة لها بالثائرين وقد قاد المجموعة التى احتلت « فوروارد » الفرد رولاند الذى اكتشف فيما بعد أنه عميل مهيج .

وكانت السلطات التي جابهت الثورة الألمانية أقوى من السلطات التي جابهت الثورة البلشفية .. ومن المحتمل أن كراسكى كان أكثر تألقاً من ايبرت، ولكنه لم يكن له حزب منظم مثل الحزب الاشتراكي الديمقراطي (الأغلبية) وكانت الأغلبية ضد الثورة في ألمانيا على عكس ما كان في روسيا. وكانت الطبقة الوسطى الألمانية مضادة للثورة، بينما لم يكن في روسيا طبقة وسطى تقاوم الثورة وكان نوسكه والعسكرية البروسية في ألمانيا أقدر من الجنرالات القيصريه في روسيا وأخيراً جداً فلم تتوفر لقومة يناير الشخصيات القديرة التي تدير الثورة على هدى وبصيره .

ولو أردنا تحديد مسؤوليات فشل قومه يناير لوجدنا أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل الذي كان يفترض أنه المسئول الأول عنها لم يكن موجوداً فيها .. لا بجمهوره .. ولا بقياداته ..

لوجدنا أن المندوبين الثوريين الذين يلون الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل في الوزن، والذين أيدوا الثورة، نجحوا في دائرة تخصصهم - تعبئة العمال والقيام بالأضراب - ولكنهم خارج هذه الدائرة لم يفعلوا شيئاً .. ولعل أكثر الزعماء مسئولية عن قيام الثورة، وفشلها هو ليبكنشت .. والخطأ في ليبكنشت أنه لم يفهم الثورة إلا أنها استعراض جماهيري واستنارة عاطفيه ولم يذهب أبداً إلى ما هو أبعد عن ذلك .. حتى عندما تكون الثمرة في متناول يده ..

وقد أوردنا شواهد عديدة .. تنبئ بأنه أنه لو سار خطوة بعد الخطوة التي وقف عندها .. لتغيرت الأحوال ..

أما روزا لو كسمبرج فقد برأت ساحتها كتاباتها العديدة المعارضة للثورة .. وعندما عاد إليها ليبكنشت بقرار اللجنة قرعته وذكرته بالسياسة المقرره

للحزب التي كانت ضد احتمال الثورة . وحاول رادك أن يحمل روزا على أن تتنكر للقرار « فلاخطاء يجب أن تصفي فوراً مهما كانت النتيجة » وكان في هذا مصيباً ولكن روزا آثرت أن تقف مع الجماهير في محنتها . . . وإلى الانهايه وفضلت الخطأ اللئيل على الصواب الرذيل . . . ودفعت حياتها ثمنا له وأغلب الظن أنها كانت تعلم ذلك أو تحسه لأنها اعترفت أن الثورة فشلت . . . ولكنها لم تفقد ابدأ إيمانها في عودتها وانتصارها . وقبل مصرعها بيوم واحد كتبت في مجله العلم الأحمر تحاطب المنتصرين .

« أيها الحقى . . . إن نظامكم يقوم على الرمال وفي الغد سترفع الثورة رأسها من جديد وستصبح بمثل دوى الرعد . . .

لقد كنت . . .

وها اندا . . .

وسأ كون . . . »

فهل كان نوسكة يعلم أن هذه ليست نبؤه طائشه أو بلاغه فارغه . . . وهل كان يخظر بباله أن الثورة الشيوعية المقيته ستعود بعد عشرين عاما . . . وبعد كل هرة الهتارية ، وسيكون على رأسها تلميذ روزا وزميل لبيكنشت في ذلك الاجتماع المشؤوم الذى قرر الثورة « وللم بيك . وأنه سيكون قاب قوسين من الوقوع في يدها ولن يستطيع الفرار إلا في آخر لحظة . . . وبصعوبة . . .

وكثيرا ما يخظر للانسان أن جزءا من قمع الحركة بهذه الوحشية إنما يعود إلى الانتصار الوحشى لثورة اكتوبر السوفيتية والسياسة التي اتهمها لينين . فقد كانت العسكرية الألمانية تتأر للعسكرية الروسية وتحمى نفسها وتؤمن مستقبلها من تشريد يماثل ماتعرض له ضباط الجيش القيصرى الروسى وثمة تشابه

عجيب بين الغل والحقد وفكرة الاستئصال التي سميت تصرف الضباط
الألمان ازاء روزا وليبكنشت وتصرف السوفيت ازاء الأسرة القيصرية
في سجنها . فكان نجاح الشيوعيه في روسيا استتبع بطريقة ما ٠٠ أو بنسبة
ما هزيمة الشيوعيه في ألمانيا وكان روزا وليبكنشت وزملاءهما كانوا شهداء
التعصب اللينيني قدر ما كانوا شهداء التعصب العسكري الألماني ، كما أن هذا
التعصب العسكري الألماني نفسه انقذ لينين من مصير كمصير روزا ، عندما طلب
إليه تسليم نفسه لحكومة كرايسكي ووافق الحزب على ذلك ، ورفض هو وكان
الشيوعيين الألمان دفعوا ثمن انتصار الشيوعيين الروس وسددوا عنهم خطاياهم ،
كما دفع الرأسماليون الروس ثمن استغلال الرأسماليين البريطانيين الذي سجله
ماركس وولد النقمة على الرأسمالية حينما كانت . فكان التاريخ يجري
مقاصه علمية لا تقف دونها اسوار الدول ولا تميز بين جيل وجيل ولا يدفع
ثمنها الذين ظلموا فيها خاصة .

الفصل العاشر

أحداث بافاريا العجيبة

في الوقت الذي كانت برلين تضطرم بالأحداث التي عرضنا لها كانت مونيخ — عاصمة مملكة بافاريا — مسرحاً لأحداث مماثلة في كل شيء تقريباً، وإن فاقتها غرابه وشططاً . .

وكانت بافاريا إحدى الولايات الألمانية البارزة التي احتفظت على مر العصور بشخصيتها وإستقلالها الذاتي، وحكمتها — على إمتداد ٧٥٠ عاماً تقريباً — أسرة تكاد تفوق في عراقتها الهوهنزرن هي أسرة ويتاباش وعندما أراد بيسارك تسكون الإمبراطورية الألمانية بذل جهداً خارقاً ليتمكن حمل بافاريا على الإنضمام، وعندما وافقت في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٠ قال بيسارك «لقد صنعنا وحدة ألمانيا وقيصرها أيضاً» وكان الملك لودفيج الثاني ملك بافاريا هو الذي تقدم إلى ملك بروسيا طالباً قبول تاج القيصرية . . وعندما تحققت الوحدة احتفظت بافاريا بملكها وجيشها، وإدارة شئونها الداخلية ولم يكن مسموحاً للجيش البروسي بالدخول إلى الأرض البافارية .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى أسهمت بافاريا فيها، وقاد ولي العهد البافاري البرنس روبرخت فرقتين، وأثبتنا شجاعة . .

ومن ناحية الميول والاتجاهات كانت بافاريا تقيضاً لبروسيا، كان شعبها

زراعيًا وادعًا ، يدين بالمذهب الكاثوليكي ، ويؤثر الحفاظ وكانت إشترا كينه معتدله ، وكان زعيم الإشترا كيين الديمقراطيين فيها — فولمار — يمثل اليمين الإشتراكي الذي يؤمن بالإصلاح ، ويؤيد التحالف والتعاون مع بقية الأحزاب ، وقد كان هو الذي توصل قبل غيره إلى إمكان إقامة نظام إشتراكي في دولة واحدة . .

في هذه الظروف يكون مما يشير الدهشة أن يحدث في مونيخ ما حدث في برلين ، وأغرب من ذلك أن تسبق بفاريا برلين ، وأن يتم الانقلاب كما لو كان مجرد تغيير نوبه الحرس . ، والحقيقة هي أنه عندما طالت الحرب واشتدت بأساؤها . . ثم حدثت الهزيمة . . تملك الإسمتياء والضيق البافاريين الذين لم يكونوا كالبروسيين يؤيدون الحرب ، وإنما سيقوا إليها بحكم الولاء .

كما يجب أن نضع في حسابنا دائما ما أشرنا إليه أكثر من مرة من أن الفكر الإنساني يتأثر بعوامل خارجية ، كما يتأثر بعوامل محلية ، معنوية كما هي مادية ، مستقبلية كما هي واقعية . . ونتيجة لهذا تكرر في الإشترا كيين الديمقراطيين البافاريين ما حدث في الإشترا كيين الديمقراطيين الألمان من وجود أغلبية محافظة وأقلية ثائرة ووقوع الأغلبية في التسويات التي لا تنهى وما تتطلبه من تنازلات وما تؤدي إليه من ضعف ، الأمر الذي انتهى بالانشقاق جناح « الإشترا كيين المستقلين » عن الأغلبية التقليدية .

وفي يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ دعا زعيم أغلبية الإشترا كيين الديمقراطيين أرهاارت إير Erhard Auer الجماهير للإجتماع للمطالبة بالسلام في السهل الشعبي الذي كانت تعقد فيه الإحتفالات السنوية ويقع على مقربة من ميدان بافاريا ووقف زعيم الإشترا كيين تحت تمثال بافاريا الضخم واقترح — بعد عدة خطابات — أن تنير الجماهير في مظاهرة تأييدا للسلام ، وليكن صوتا

آخر ، هو صوت كورت إيزنر الإشتراكي الديمقراطي المستقل أرتفع وظالم الجماهير أن تحمل الشككات وتأخذ الأسلحة وتضع يدها على السلطة ، الأمر الذي كان يتفق مع حالة الجماهير التي لم تلبث أن سارت قدما وحققت بسهولة غير متصورة ، بأمرها كورت به . وخلال بضع ساعات سيطر كورت إيزنر على بفاريا وشكل وزارة من الأغلبية ومن المستقلين . أما الملك لودفيج الثالث ملك بفاريا الذي كان يتنزه وقتئذ في حدائقه ، فما أن سمع أن إشتراكيًا يهوديًا أعلن الجمهورية ، وأن الوزارة لا تضمن سلامه حتى عبأ حقايبه وفر بأسرته من المدينة .

هذه التلقائية إنبثقت الثورة ، وبهذه الدرجة من السهولة تمت . ولم يكن هذا وذاك طبيعيا .

ولم يكن كورت إيزنر — الذي قاد هذه المسيرة — مواطنا بفاريا فلقد ولد في برلين من أسرة يهودية غنية واشتغل بالصحافة . وفي سنة ١٨٩٧ كتب مقالا إنتقد فيه القيصر فقبض عليه بتهمة العيب في الذات الملكية وحكم عليه بالسجن تسعة شهور ، وجذب هذا إنتباه ليبكنشت (الأب) الذي أدخله الحزب وعينه محررا في جريدة « فوروارد » ولما إنحار إيزنر للمستقلين عقب ظهور حركة التنفيح خسر وظيفته . وفي سنة ١٩٠٧ هاجر بأسرته إلى بفاريا حيث أشتغل كعناقد درايمى وفرغ شيئا ما هواياته البوهيمية ولكن الحرب انتشلت من النكر والفاقة فبرز في مظاهرات السلام في يناير ١٩١٨ وسجن^(١)

(١) لاحظ أحد المؤرخين أن إيزنر أهدى مدة عقوبته في الزنزانة ٧٦ في سجن ستادلهيم وفي هذه الزنزانة نفسها سجن النكوت أركو الذي اغتال إيزنر ، كما شغلها هتلر سنة ١٩٣٣ بعد فشل تومة « قاعة البيرة » وقتل أرنست روم — رئيس هتلر للمسكري وزميله في الحزب ورئيس فرق العاصفة الهلرية في الزنزانة نفسها .

ولم يفرج عنه إلا بفضل العفو الذي أصدره المستشار البرنس ما كس في أكتوبر سنة ١٩١٨ .

وكان إيزنر قصيراً نحيفاً يضع نظارة ذات إطار معدني وتغطي لحيته الكشيفة معظم وجهه ويلبس قبعة سوداء .

وأدار إيزنر حكومته ببساطة بوهيمية ، فكادت مكاتبه مفتوحة الأبواب . وأوراق الدولة على المكاتب يطلع عليها من يشاء ، وكانت بساطته وثقافته يكسبانه شعبية كبرى وظهر أثر الميول الفنية في حكم إيزنر — فأهم المسرح وأوجد إلى جانب مجلس العمال والجنود (الذي تكون تلقائياً غداة الثورة) مجلساً للمثقفين والفنانين ، ولكن باستثناء هذا فإن الوضع في ميونيخ مشابه الوضع في برلين ووجد إيزنر نفسه (وهو من المستقلين) في مثل وضع إمبرت — دون أن توجد هذه التفرقة أثراً — فتقرر إجراء إنتخابات في يناير . وثارت العناصر الماركسية كما ثارت العناصر الرجعية ، وكان هناك عامل أساء إلى إيزنر بوجه خاص هو أنه كان يهودياً ولم يكن بفاريا وأشاع أعداؤه أن اسمه الحقيقي هو سلمون كشنسكي وأنه ليس لإعمال روسيا للينين .

وعندما أجريت الإنتخابات في ١٢ يناير فشل المستقلون ، وحازت الأغلبية نصراً مدوياً ، ومع هذا فقد أبقى على كورت إيزنر كرئيس يكاد يكون فخرياً للدولة للإفادة من شعبيته . ولم يطل به الأمر ففي ٢١ فبراير ترصد له شاب من إحدى أسر النبلاء هو الكونت أنتون أركو فالي وأطلق على رأسه رصاصتين فمات فوراً .

وكما هو الدأب في المهزلة البشرية ، فإن الجماهير التي عزفت عن تأييده حيا جنت به ميتاً ، وتذكرت خدماته وعقدت العزم على الثأر له فأطلق صبي جزار يدعى ليندندر Lindiner النار على أرهارد أيروسط قاعة اللاندتاج على سماع

وبصر النواب . وكون العمال فرقا قبضت على كثير من النبلاء . ووضعت صور كبيرة لا يزنر على مفارق الطرق ، وكان الجنود يرغمون المارة على خلع قبعاتهم . ونظمت مسيرة كبيرة يوم ٢٦ فبراير يوم جنازة ايزير وأعلن قبل هذا الميعاد بثلاثة أيام الإضراب العام كما أعلن اليوم — يوم حداد قومي .

وسقطت الوزارة وقامت على أنقاضها وزارة إئتلافية أخرى يرأسه جوهان هوفمان ولكن بعض المجموعات الثورية من مندوبى العنابر والإشتراكيين والسينديكاليين ثارت عليها ففرت الوزارة إلى يامبرج فى الشمال — وكونت مجموعة من الاشتراكيين المستقلين برأسة الشاعر والكتاب المسرحى أرنست تولر ووزارة ضمت عدداً من المسرحيين والفوضويين .

ودفع إعلان الجمهورية السوفيتية فى المجر المجاورة لبافاريا وإستيلاء الشيوعى اليهودى بيلا كون على الحكم الجناح اليسارى فى الوزارة دفعة إلى الإمام ، فى ٦ إبريل سنة ١٩١٩ إجتمع أرنست تولر وأصدقائه فى حجرة نوم الملكة وأعلنوا بفااريا جمهورية سوفييتية تقوم على مجالس العمال والجنود .

وأظهر تولر وأصدقائه من الشنوذ ما صعبت أمامه بوهيمية إيزنر وما إستحق أن يطلق عليه وزملائه « فوضوى المقاهى أو المغارون الرومانتيكيون » فدعا تولر إلى صور جديدة من النحت والدرابا والرسم والعمارة ، وأعلنت جامعة مونيخ حرة وبجانية ويمكن للجميع دخولها بعد إستبعاد دراسة التاريخ على أساس أنه « عدو للمدينة » وقرر وزير الإسكان أن لا يسكون لأى بيت أكثر من ثلاث حجرات وأن تسكون حجرة المعيشة دائماً فوق المطبخ وحجرة النوم ومضت عدة أيام قبل أن يتضح أن وزير الخارجية — دكتور فرانزنزليب — رجل معتوه يشتكى لروسيا تلغرافيا من أن سلفه قد أخذ معه مفاتيح دورة المياه بالوزارة وأنه سيعلمن الحرب على ورتمبرج وسويسرا .. الخ .

وأفسح هذا الجون المجال للشيوعيين ليحربوا حظهم ، فنزل الحلبة اثنان من الشيوعيين كانا قد ولدا في روسيا وسكننا برلين وحللا على التعاقب اسمي ليفين Levin وليفيينه Leviné إلى جانب روسي ألماني ثالث يدعى تويبا كسلرود ليختموا المهزلة بمأساة من أشد المآسي تقاماً .

ولم يكن هؤلاء الروس مندوبين رسميين عن الحزب الشيوعي الروسي ، أو الاتحاد السوفيتي أو لينين ، وإن كان أحدهم - تويبا كسلرود - قد أمضى فترة في بتروجراد مع لينين ويمكن أن يعد مندوباً للدولية وأرسل إلى برلين مع السفير الروسي جوف ، فلما أبعد جوف انتقل إلى مونيخ .

أما الروسيان الآخرا ففقد كان أحدهما ما كس ليفين ، أشقر طويل من أسرة يهودية غنية ، وكان يمكن أن يعد للمانيا كما هو روسيا ، فقد هاجر إلى ألمانيا للدراسة ، ثم عاد إلى روسيا حيث قبض عليه وأبعد إلى سيبيريا ، ولكنه فر منها واستطاع أن يهرب إلى زيورخ حيث لاقى لينين عندما كان هناك وانتقل منها إلى ألمانيا وعندما شبت الحرب جند في الجيش ولكنه أخذ يبيت الدعايات ضد الحرب ، وضد ألمانيا « إن من الضروري إذلال ألمانيا » وأن تدخل جيوش المستعمرات بوابة براندنبورج وأن تصبح هلمبيغولاند ملكاً لبريطانيا وأن يؤخذ الأسطول الألماني . الخ . إلى آخر هذا الموس الذي لا يمكن أن يفهم إلا في ضوء التعصب للدولية وأنه كان رجل عمل لا يثنى عن استخدام الإرهاب أو إعدام الرهائن . وكان قد درس أسلوب لينين ويريد تطبيقه .

أما الثاني - يوجين ليفييه ، فقد كان أكثرهم مثالية . وقد ذهب إلى ألمانيا للدراسة وأصبح من أتباع روزا لوكسمبرج المتعصبين . وقبل وقتها بفترة وجيزة انتدبته لتمثيل الحزب الشيوعي الألماني في الاجتماع الأول للدولية لينضم

تحفظاتها على تكوين الدولية الثالثة ولكنه لم يستطع اختراق الحدود فعاد إلى برلين حيث أوفده بول ليفي ليرأس الحزب الشيوعي في بناريا . ومع أنه لم يكن يقل تعصبا عن زميليه - فإنه كان أقلهما ميلا للارهاب .

وأضيف إلى هؤلاء الروس الثلاثة الذين كانوا أشبه برسل الثورة السوفيتية الظاهرة - بحار ألماني من بحارة كيل يدعى رودلف اجلهوفر Rudolf Egelhofer لم يكن بالطبع مفكرا أو منظرا ولكن رجل عمل ونجح في إيجاد جيش بافارى أحمر كان كما ذكر أحد الكتاب « أعلى الجيوش أجرا للضباط والجنود على سواء . كما كان يقدم بالمجان الطعام والشراب والنساء » ولم يكن ينقص هذا الجيش سوى السلاح الذى بذلت لتوفيره محاولات ووسائل جديدة من نوعها بما فيها منح الجندى الذى يستطيع الحصول على بندقية مكافأة عشرة أيام وقيل إن عدد هذا الجيش وصل إلى ثلاثين ألفا وأحيط بدعايات مفعملة للابقاء على روحه المعنوية كالزعم أن جيشا روسيا جرارا يتحرك نحوهم وأن جيش المجر يعبر الدانوب من بودا يست .

وأعلن الشيوعيون حكم الارهاب وملثوا السجون بالرهائن من الأسر البورجوازية وأغرقوا الأسواق بأوراق العملات التى كانت المطابع تصدرها ليل نهار وأرسلوا اكسلرود إلى روسيا لطلب المساعدة ، ولكن الطائرة التى استقلها ، وكان يقودها طالب طيار اضطرت للهبوط داخل بناريا .

ولم تسكن الحكومة المركزية فى برلين لتقف مكتوفة الأيدى أمام هذه التطورات خاصة بعد أن طلبت منها وزارة هوفمان الاشتراكية الديمقراطية المبعدة التدخل . وكانت الفرق الحرة قد نمت وتضخمت من مجرد وحدات صغيرة تلقائية لا يصل أ كبرها إلى أربعة آلاف إلى ما يبلغ فى مجموعة ربعمائة ألف . فجردت حكومة برلين حملة من ثلاثين ألفا ضمت عددا من أشرس

١٤ - ظهور واستهوط

الفرق وطعمت بعدد من الجنود الباطريين أنفسهم ووضعت على رأسها قائد بافارى الأصل هو الجنرال فون إب ، وفي الأسبوع الأخير من أبريل كانت هذه الفرق تطوق ميونيخ بينما كان الذعر يملك الشيوعيين واخلاف بين الروس والباطريين يمزق البقية الباقية من المقاومة بحيث تحلل الجيش الأحمر ولم يبق منه إلا عصابات متفرقة وهرب ليفين إلى النمسا بينما اختبأ ليفنيه واكسلرود، وعندما بدأت النهاية أخذوا يقتلون الرهائن ويمتلون بهم وترامت أنباء ذلك إلى الفرق الحرة التي كانت تتقدم بحيث أطبقت على المدينة مع أول مايو . . في الوقت الذي كان لينين يخطب في الميدان الأحمر في موسكو « إن الطبقة العاملة المحررة لا تحتفل بذكرها في روسيا السوفيتية وحدها، ولكن في المجر السوفيتية ، وفي بافاريا السوفيتية » ولم تجد الجيوش الزاحفة مقاومة ، تذكر واكتشفت رودلف أجهلهورف - تروتسكى بفاريا - وهو يحاول الفرار في سيارة قبض عليه وأعدم فوراً .

وتلا الارهاب الشيوعي الأحمر . ارهاب أبيض مارسه الفرق الحرة ، وقد يصوره الأمر الذي أصدره الميجور شولتز Schulz الضابط في فرقة لترز Lutzu في ٤ مايو « أى واحد لا يعلم ، أولاً يفهم ، أن أماننا عملاً كبيراً يجب أن يؤدي ، أو يحس بوخز ضمير ، فإن من الخير له أن يتركنا . فمن الأفضل قتل بضعة أبرياء عن ترك مذنب واحد ، وأتم تعلمون كيف تنصرفون أطلقوا عليهم النار وقولوا إنهم هاجمكم أو حاولوا الفرار » وطبق الجنود هذا الأمر حتى دون أن يحاولوا تبرير التقتيل بحجة الهجوم أو الفرار ، كما حدث في مساء يوم ٦ مايو عندما داهمت إحدى الفرق قرابة ثلاثين عاملاً من أعضاء جمعية دينية واقتادتهم وأمرتهم بالانبطاح أرضاً وأطلقت النار على ٢١ منهم .

وقبضت الفرق الحرة على ليفنيه ، وأمام المحكمة العسكرية التي مرافعة طويلة ختمها بقولة :

« لقد كنت أعلم من وقت أننا نحن الشيوعيين لسنا إلا موتى في أجازة .
والأمر مفوض إليكم أيها السادة لتقررروا ما إذا كانت هذه الأجازة تطول
أو أن على أن ألق بكارل ليبكنشت وروزا لوكسبرج إنكم تستطيعون
قتل ، أما أفكارى فستواصل الحياة . . » .

والحق أن الإنسان لا يستطيع إلا أن يعجب ببعض هؤلاء الشيوعيين قدر
ما يحقر البعض الآخر . . والجميع أدلة حية على المدى الذى تصل إليه العقيدة
فى إصعاد أو إسفال النفس البشرية .

ولما تجاوزت الحرب كل توقع ، وناهز عدد القتلى ألفا خلال الأسبوع
الأول ، انقلب الترحيب بالفرق الحرة إلى ضيق واستياء وظهرت الملتصقات
التي تندد بالبروسيين ، كما ظهرت من قبل منددة بالروسيين . ورأت هذه الفرق
أن عليها أن تكتفى بذلك . وفى ١٣ مايو سلمت الحكم للسلطات المدنية
وارتفعت من بافاريا ، ولكن بعد أن أصابها بجرح لم يندمل .

والحقيقة أن بافاريا قدمت بشاشتها ووداعتها ودمايتها وتساخها بعد التجارب
المديدة الماضية التي تعرضت لها ، والتي لم تنصف بالقسوة والشده فحسب ،
ولكن التعارض الصارخ والاختلاف المبين بحيث مست كل واحد ، مهما
كان وضعه ، بطريقة أو أخرى ، وجعلته يصبح طرفا فى نزاع حاد لا يقبل تسوية
أو ينتهى إلى عدالة أو تسامح ، وأصبحت ميونيخ بلد الباربات المرحه هشا
للمؤامرات الخفية والدسائس من كل نوع وهرع إليها الضباط الطامعون وعلى
رأسهم لودندورف ، وتكونت فيها الجمعيات السرية من كل نوع .

* * *

ولم تكن بافاريا هى الولاية الوحيدة التي ثارت ، فالحقيقة أن الثورة امتدت
إلى معظم الولايات الألمانية بدرجات متفاوتة . فقادت بريمن ثورة موأنى الشمال
ووجهت إليها الحكومة إحدى الفرق الحرة فى ٢ فبراير . وكان عدد أفراد

هذه الفيرقة يقل عن عدد الثوار . ولكن سلاحهم كان أفضل وكان لديهم عربات مدرعة ومدفعية - فاستطاعت أن تشق طريقها وتدمر مراكز المقاومة وتفرق مجلس العمال والفلاحين الذي كان يدير الأمور وخلال بضعة أيام عاد العمل مرة أخرى إلى الموانئ .

ولم تنكد الفرق الحرة تكبت ثورة بريمن حتى أعلن عمال مناجم الفحم والسلطاني منطقة الرين اضرابهم معلنين أنهم لن يعودوا إلى العمل قبل أن تأمم الحكومة المناجم فقطعت الحكومة عنهم امدادات الطعام ووجهت أشتاتا من الفرق الحرة نحو منطقة الرين وفطن قائدها إلى ضمف موقفه فبدأ المفاوضات وتهدد بعدم القيام بأى اجراء من اجراءات التمشي أو الانتقام إذا سلم العمال أسلحتهم وعادوا إلى العمل . وقبل العمال مرغمين هذا العرض بعد أن أحسوا ببداية المجاعة .

وكانت هل Hale - الميناء النهري الهام الذى يتوسط مقاطعة سكسونيا - أصيب الجميع . ففي الأيام الأخيرة من فبراير أعلن العمال الاضراب وأوقفوا القطارات التى كانت تربط ما بين برلين وفايمار وكونوا مجلسا للعمال والجنود جرد البوايس من سلاحه وسمح به العمال فأرسلت الحكومة الجنرال مركز رائد ومؤسس الفرق الحرة على رأس مجموعة من أقوى الفرق الحرة ، وبعد قتال عنيف كاد ميركر نفسه أن يفقد فيه حياته استسلمت هل . .

* * *

وتوضح هذه القومات المتكررة والانبعاثات المتوالية وجود حاجة إلى تغيير اجتماعى وسياسى واقتصادى ، لم تستطع أن تعبر عن نفسها فى صورة متليمة أو مناسبة ، كما لم ترزق القيادات القديرة والتنظيم الدقيق . ومن ثم باءت بالفشل .

الفصل الحادي عشر

نهاية البداية

أخيرا استراحت الحكومة — ولو مؤقتا — من الجناح الشيوعي للزعج ومطالبته الملاحية بالحكومة السوفيتية . واستخلصت القرار بعقد جمعية وطنية لتتضمن الشرعية على الحكم الذي مارسه ايبيرت — على مضض — طوال الشهرين العاصفين للماضيين .

فهل لم يخطر في ذهن ايبيرت أن قوى الحفاظ القديمة من أركان الحرب في القيادة العليا والضباط البروسيين والنبلاء والملاك وبقايا المجتمع الرأسمالي كلها يمكن أن تسكده وتطيح به بمثل ما كان اليسار والشيوعيون يفعلون ..

الحق أن هذه النقطة دقت على ايبيرت ، وتصور أن كل هذه القوى لا يمكن أن تفكر في أن تعيد الساعة إلى الوراء بعدما شاهدته من الأحوال . وبعد أن كادت الثورة تذهب بها . وتصور أنها ستقف بجانبه وستؤيده وتدين له بالطاعة والولاء .

كان ايبيرت في هذا ساذجا ، وأساء تقدير تعقيد المجتمع وأغوار النفس البشرية . . ولم يلبث أن شاهد تلك القوى التي حماها من الأخطار وهي تتحكم فيه وتملي شروطها عليه .

فما أن أعلن عن الانتخابات حتى ظهرت هذه القوى وأعدت أحزابها

القديمة بأسماء جديدة . ودخلت بها الانتخابات ونالت عدداً كبيراً من الأصوات . واستطاعت خلال أسبوعين أن تعيد الساعه إلى الوراء . . وأن تنال الاعتراف الرسمي والعملى بوجودها وكيانها . . ذلك أنه وإن كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى اكتسب ٣٩٪ من مجموع الأصوات ، وأصبح له بذلك ١٦٣ نائباً ، وأن الحزب الاشتراكى المستقل حاز على ٧٪ من الأصوات وأصبح له ٢٢ نائباً ، فإن حزب الوسط الكاثولىكى حصل على ٨٩ مقعداً ، وحصل الحزب الديمقراطى الذى يمثل الأحرار والتقدميين على ٧٥ مقعداً وحصل الحزب الوطنى الذى يمثل المحافظين وأنصار الامبراطوريه على ٤٢ مقعداً . وحصل حزب الشعب وهو حزب كبار الصناعيين برأسة سترسمان على ٢١ مقعداً . وهذه الأصوات فى مجموعها تفوق أصواته الاشتراكيين ، كما أن مما يشير الانتباه عجز الحزب الاشتراكى المستقل . الذى كان يمكن أن يكون أمل الاشتراكيين الراشدين عن أن ينال أكثر من النسبة الهزيلة التى حصل عليها ، وأغلب الظن أن هذا السقوط يعود إلى ما حلق به من تمزق وما ألصقه به الشيوعيون والمندوبون الثوريون من دعاية . . واضطر الحزب الاشتراكى الديمقراطى لأن يدخل فى تحالف مع الديمقراطيين والوسط عندما رفض الحزب الاشتراكى المستقل أن يدخل الوزارة واتفق معهما على تشكيل الوزارة على الأسس الآتية :

(١) التأييد المطلق للجمهورية .

(ب) التعاون فى سياسة الاصلاح الاقتصادى والضرربى .

(ج) وضع برنامج للاصلاح الاشتراكى يقوم على « تشريك »

Socialisation الصناعات المهيأه ripe للتشريك .

وهكذا بدأ الاشتراكيون الديمقراطيون يحصدون الثمار المرة لسياساتهم .

العقيمة . وعجزوا عن تكوين وزارة تسكتسب الأغلبية واضطروا للتحالف
وبعد فترة سيفقدون أغليبتهم . ويصبحون رهينة في أيدي حلفائهم الألداء ..

* * *

ووضعت هذه التطورات نهاية البداية ، بداية الثورة ، وغيرت جذرياً
خط السير الذي شقه المال بدوئهم .. وعلتوا عليه الآمال العريضة في
مستقبل جديد ، ومهد الجولان يعود كل شيء كما كان .. وكأن لم تكن
هناك ثورة أو شبه ثورة ..

حقيقة ان اليسار تعجل الأمور ، ولم يرزق الخيطة والرشد وسمح لنفسه بأن
يتأثر بالتجربة السوفيتية .. وكان هذا خطأ ، ولكن كان من الخطأ أيضاً أن
تعود الأمور إلى ما كانت عليه .. وأن لا يظفر الشعب من هذه التجربة
المريرة بغير صفة المغبون . إن واجب السياسي الحكيم أن يستفيد من التطور
ومن التغيير . وليس أن يعود بالأمور إلى ما كانت عليه ..

لقد أصبح من البدائه الآن أن الخطأ الفاحش الذي وقع فيه ايبيرت هو
أنه — إيجابياً — لم يحاول أن يحقق الدرجة المطلوبة والسليمة من التغيير
— وسلبياً — لم يقض على العناصر التي كانت بحكم وجودها وأصولها ،
وأوضاعها لا بد وأن تقاوم هذا التغيير .

وقد وقع ايبيرت في هذا الخطأ لأنه لم يكن بحكم المزاج ثورياً أو حتى مناصراً
للتغيير كأننا ما كان . ولكن بصرف النظر عن هذا العامل الذاتي والنفسى
الذي نفترض أنه كان يمكن أن يخضع لدوامه الأحداث فإن السبب الموضوعى
لوقوعه في هذا الخطأ هو أنه لم يفرق بين قضيتين مختلفتين بالمرّة : القضية
الأولى : التغيير ، والقضية الثانية : الأسلوب البلشفي / الليفيشي . وقد التبس
التغيير الثوري الذي كان يحتاجه المجتمع الألماني في ذهنه بالأسلوب البلشفي

الليينى ، فحتى لو أنه سلم بالحاجة إلى التغيير الثورى ، أو حتى الحاسم ، فإن كراهيته للأسلوب الليينى ، الذى ربط ما بينه وبين التغيير دون داع موضوعى جعله يرفض التغيير ككلية . .

وقد أظهرت الأحداث التى حفلت بها جمهورية فايمار منذ أن قامت حتى سقطت واستمرار الثورات اليسارية . . أن المجتمع الألمانى كان بحاجة إلى تغيير ولو لم توجد هذه الحاجة لما استطاعت هذه العناصر أن تجذب جماهيرها المتطوعين الذين قدسوا العديد من التضحيات ، حتى عندما نضع فى اعتبارنا « المفارقة » التى يفرضها الفكر على الواقع . والتى أشرنا إليها أكثر من مرة . . كما أظهر فشل هذه الانبعاثات أن التغيير السليم لم يكن التغيير الذى تصوره . . . ولكن يبقى بعد هذا كله أن هناك تغييرا مطلوباً .

وكان التصرف السليم يقضى على إيبرت بأن يتخذ اجراءات قوية وحاسمة لكي يحقق هذا التغيير المنشود ، وأن لا يتردد فى توجيه ضربات قوية أو يستخدم عمليات بر بالندر المطلوب ، لأن هذا هو منطق الضرورة والواجب . وأى نكوص عن ذلك هو استخذاء وجبن . . وأى سرف فيه فهو إفراط وتجاوز وقد تصور إيبرت أنه لكي يحقق التغيير ، فلا بد أن يسلك كما سلك لينين فأثر الضعف على الفجور . ولواردنا مثالين للضعف والفجور لما وجدنا خيراً من إيبرت ولينين . . فقد أغرى لينين الجنود بقتل الضباط ، والفلاحين بقتل الملاك والعمال بقتل الرأسمالين ومن لم يقتل هؤلاء فرناجياً بجلده ، وأغرق العملة القديمة بحيث أصبحت لا قيمة لها . . ودعا العمال والفلاحين للتجمع والتظاهر وترك المصانع وصفي الجهاز الادارى للدولة وأوجد محاكم الشعب للحكم بالاعدام على كل مخالف راستصفي كل الأموال وجحد كل الديون وبهذه الطريقة تهاوى النظام القديم حجراً حجراً ولم يعد هناك أى احتمال ليظهر من جديد . وقد تصورت أوروبا كلها غداً تملد الشيوعيين الحكم انهم لن يلبثوا طويلاً ، ولكن

الشيوعيين كانوا قد حطموا من أول لحظة ، وبلا رحمة ، النظام القديم ولم يقتنعوا
بهدم البيت ، ولكنهم أيضا تعقبوا أحجاره فسحقوها حتى لا يمكن أن
أن تستخدم في بناء بيت جديد ، وبنيت كتبوا لأنفسهم البقاء وأقاموا بيوتهم
المخلص بمرق ودم واستمت وحديد جديد . . وكانت الوحشية التي طبق بها
هذا كله من العوامل التي وصمت الشيوعية وجعلت الاشتراكيين في بقية دول
العالم تزحف عن الأخذ بالنظام اللينيني . ولكن كان يجب على ايبيرت أن يفهم
أنه لم يكن مطلوبا منه أن يفعل كما فعل لينين ، فأن هذا لم يكن ضروريا ، أو حتى
مطلوبا ، إن مشنقة واحدة تنصب في ميدان عام في وقت مناسب والحالة مستحقة
وتحاط بدعاية قوية يمكن أن تقضى عن مجزرة ، وتحدث الأثر المطلوب .
أما أن يتصور ايبيرت أنه ليس في حاجة للمساس بالنظام الإمبراطوري القديم ،
فهذه هي الغفلة بعينها إن الولاء - ونعني به الولاء المخلص - لا يتداول كما يتداول
العملة وإنه لمن المسير على نبلاء بروسيا الفخوريين بتقاليدهم العسكرية وقبائخة
الصناعة واساطين التشريع وبيروقراطى الخدمة المدنية أن يستشعروا السروجى
نقائى ، ولجمهورية فرضها البهارة الغلاظ والجنود البهلة ولاء - بائيل ولإهم
لسليل الموهنزلن أو لامبراطورية تعود إلى « بارباروسا » فى القديم وببمارك
فى الحديث . .

ومما يضاعف من مسئولية ايبيرت أن دعائم المجتمع الإمبراطورى ، أى
الجيش والجهاز الإدارى ، والتحالف ما بين الاقطاع والرأسمالية كانت فى
المسانيا حتى آخر لحظة فى الحرب قوية ومتامكة تتسم بدقة وضبط وإحكام
قلما تتوفر لمشيئاتها فى أى دولة ، وكان يجب أن يعرف أن الوقت الوحيد المناسب
لضرب هذا الحديد القاسى وتطويعه إنما كان فترة تعالى المذثورى عندما
أرتفعت الحرارة إلى الدرجة التي كان يمكن أن تذيب هذا الحديد ، أو
تطوعه كما يريد ايبيرت .

ولو أن ايرت اهتبل الفرصة، وسارع في الأيام الأولى للثورة فأصلح القضاء بما يحقق شعبيته ، ووضع أسس جيش شعبي من أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وحاكم عددا من الضباط الذين عرفوا بمداوتهم للجمهورية، وأعدم بعضهم - ولن يكون ظالما لهم - فما أكثر ماظلموا ، بل وأعدوا - ودعم الحركة النقابية تجاه الرأسماليين ، وأمم عددا من الصناعات، كما أمم الاقطاعات البروسية الفسيحة محضن النبالة البروسية لخضد شوكة المجتمع القديم وقلم أظافره . ولم يكن في هذا ظالما . ولا كتسب تأييد الطبقة الوسطى الصغيرة ، وجرده الشيوعيين من دعاوهم الفارغة ، بل ولجمل موقفه أقوى أمام الحلفاء .

ولكن ايرت لم يفعل هذا . ونسى أن الثورة البيضاء قد تكون أطول الثورات وأكثرها دسوية . وأن الحكم ليس عملا بيروقراطيا . ولكنه حسم وعزم .. وأنه ما أن يرفض أن يكون المطرقة التي تضرب حتى يصبح السندان الذي يتلقى الضربات وأصبح على جمهورية فايمار أن تسير في الطريق الذي اختارته لنفسها ، طريق الضياع .. وأن تلتحق بثورة مارس الروسية .

ومن يراجع الثورتين - ثورة مارس الروسية وثورة نوفمبر الألمانية .. يجد وجوها عديدة للتشابه بينهما .

فقد كان للجنود والبحارة والعمال فضل المبادأة في القيام بهما .

وأدت كل واحدة منهما إلى فرار الحاكم المطلق الذي كان في الحالين يحمل لقب « قيصر » إلى مقر قيادته حيث اضطر إلى التنازل عن العرش

وسلمت مقاليد الأمور في كل منهما إلى رئيس يحمل لقب برنس يرأس الحكومة الانتقالية كان هو البرنس ليفوف في روسيا والبرنس ماكس أوف بادن في ألمانيا .

وسلم هذا « البرانس » الأمور إلى رئيس ديمقراطي النزعة على الطريقة

الكلاسيكية هو كبير نسكى الروسى وايرت الألمانى .

وأظهر هذا النظام الديمقراطى الليبرالى البرلمانى عجزه ودخل فى صراع مع القوى الثورية .

ولسكن كان هناك نقط للخلاف أيضاً :

فثورة مارس عجزت عن أن تحقق للشعب الروسى مطالبه الرئيسيين :
توزيع الأرض وإحلال السلام . فحافظت السوفيتيات على سلطاتها ، ولم تتخل
عنها حتى أعلنت ثورة أكتوبر .

ولسكن ثورة نوفمبر أدت للشعب الألمانى مطالبه العاجلين السلام والحريه .
ومن هنا سلمت سوفيتات العمال والجنود سلطاتها للجمعية الوطنية . ولم يكن
هناك مبرر لثورة مثل ثورة أكتوبر اللينينية .

ولسكن المفارقة التى أشرنا إليها فى الفصل الأول تحسنت فيها ولم تدع لها
راحة أو تسمح لها بأن تحتل الموقع السليم ، ولم يكن رئيسها بالسياسى الحازم
الذى يضرب عندما يجب الضرب . ويحدد الموقف السليم ما بين اليمين واليسار . . .
فكان لابد من ثورة ثانية تنفق مع الوضع الألمانى قدر ما تبعد عن الوضع الروسى .
وجاءت هذه الثورة مع النازية . . .

وكان وجود الزعيم القوى فى الحالين (فى روسيا وألمانيا) إيذاناً بالثورة
الثانية .

وكل مافى الأمر أن عجز ثورة مارس عن أن تحقق المطالبين الأساسيين .
للشعب الروسى مكن هذا الزعيم من العمل ومن هزيمة الثورة الأولى بعد ستة
شهور من قيامها . وأن تحقيق ثورة نوفمبر للمطالبين الرئيسيين للشعب الألمانى
مد فى حياة فايمار لمدة أربعة عشر عاماً - قبل أن يظهر الزعيم الذى يهزمها
وقبل أن يعين تحللها وعجزها هذا الزعيم على النجاح .

ولعله قد يمكن القول أن عجز ثورة مارس أوجد لينين وأفسح له المجال ولو لم يظهر لظهور من يقوم بدوره . وإن كانت الثورة وقتئذ متخلفة كثيرا عما أصبحت عليه عندما قام بها هو . وأن تحقيق ثورة نوفمبر لمطليبي الشعب حال دون أن يظهر الزعيم القوى . ولو أنه ظهر لمزم - كما حدث بالفعل لكاب سنة ١٩٢٠ ، وهتلر سنة ١٩٢٣ .

وأن تأتي نهاية البداية بهذه السرعة . أى بعد أقل من عامين من البداية هو ما يعطى الطبقات العاملة درسا لا ينسى .

فقد كانت ثورة نوفمبر ثورة قام بها العمال والجنود ، ولكنهم لم يحسنوا القيام عليها . فاستحوذت عليها الطبقة الوسطى واحتوتها .

ولكن الطبقة الوسطى بدورها لم تنهأ بها ، وكان عليها أن تدفع الثمن ، فالدين لا يبلى . . ولا يمكن لأحد أن يفلت - في المدى الطويل - من دفع الثمن ، وإن ظن ذلك .

وجاء القسطنطين الأول من الثمن في معاهدة « فرساي » .

الباب الثالث

المسيرة المتعمشة

الفصل الثاني عشر : معاهدة فرساي المشؤومة .

الفصل الثالث عشر : مؤامرة كاب .

الفصل الرابع عشر : ثورة بالمراسلة .

الفصل الثاني عشر

معاهدة فرساي المشؤومة

كانت الجمعية التي جاءت بها انتخابات ١٩ يناير — تلك الانتخابات التي وضعت السطر الأخير في ثورة العمال ، تجتمع في الأسبوع الأول من فبراير في المدينة الصغيرة المأدبة « فايمار » لتضع السطر الأول في جمهورية الطبقة الوسطى .

وكانت « فايمار » التي يحتضنها نهر « ألم » وتبعد مائة وخمسين ميلا جنوب غرب برلين ، ترتبط في الأذهان بذكريات جوتة وشيلر وهردر وفاجنر والتراث الإنساني الليبرالي الذي كان يمثل أمن ماقدسه الفكر الأوروبي وقتئذ ، وقيل إن هذه المدينة قد أختيرت بالذات لتضفي على الجمهورية الوليدة قبسا من مثلها الإنسانية ، ولتضع في ظلال هذه المثل الدستور الجديد .

ولكن كان هناك سبب آخر أقل رومانتيكية ، فقد أريد ابعاد الجمعية الوطنية عن برلين ومناخها الثوري الوبيل وذكريات الصدام الدامي واغتيال روزا ولييكنشت وما قد يحتمل أن تتعرض له من هجوم ومضايقات فأرتوى عقد الجمعية في مكان آخر . ووقع الاختيار على فايمار خاصة وقد أتضح أن فيها مسرحا فسيحا يصلح لعقد الجمعية . ومع هذا كله وبعد أن وقع الاختيار

عليها أتضح أن بها عناصر ثورية هزمت طلائع الفرق الحرة التي أرسلت في ٣٠ يناير لاهداد الترتيبات وتطلب الأمر إرسال فرقة من سبعة آلاف مقاتل هسكت في قلب المدينة ، بينما وزعت فصائلها على كل الأماكن والمراكز الهامة .

وكان أمام الجمعية الوطنية ثلاث مهام رئيسية : الأولى وضع دستور للجمهورية الجديدة والثاني تشكيل حكومة طبقا لهذا الدستور والثالث توقيع معاهدة السلام مع الحلفاء .

بالنسبة للمهمة الأولى كان أمام الجمعية مشروع دستور وضعه هوجو بروس وزير الداخلية واحد الثقات في القانون وناقشت الجمعية المشروع وأحالته إلى لجنة من ثمانية وعشرين عضوا .

وكان مشروع بروس محاولة للجمع بين أفضل العناصر في دساتير أوروبا والولايات المتحدة ، وطبقا له فإن رئيس الجمهورية ينتخب بطريق الاقتراع العام المباشر . ويمنح سلطات تفوق السلطات التقليدية لرئيس الدولة الديمقراطية ولعل أبرزها ما نصت عليه المادة ٤٨ المشهورة التي كانت تعطي الرئيس الحق في التدخل « إذا هدد أو تعرض للخطر إلا من المصالح والنظام في الريح المائي » . وهذا قد يستطيع أن يصدر مرسوما يوقف به حريات الإجماع والخطابة الخ . . . ويستخدم القوات المسلحة إذا رأى ذلك . والقيود الوحيد على هذه السلطة هو أن يوقع أحد أعضاء الوزارة على المرسوم ، وأن الحريات المدنية يجب أن تعاد عند طلب الرشتاج ذلك . وقد تصور وقتئذ أن استخدام المادة ٤٨ إنما يكون وقت حرب أو ثورة شيوعية ولكن الأيام أثبتت أنه يمكن أن تستخدم لتأرب سياسية وحزبية . . كما كان المشروع يقضى بتشكيل مجلسين يكونان في مجموعهما « البرلمان » أحدهما الرشتاج وهو المجلس الرئيسي ويتكون من ثواب بواقع نائب واحد عن كل ستين ألفا من السكان والثاني الربشرات

Reichsrat ويضم نوابا معينين عن مختلف الولايات وتقل سلطته عن سلطة الرئاستاج . ويرشح الرئيس مستشارا يتمتع بثقة الريشتاج ويشكل هـذا المشتشار الوزارة ويكون هو والوزارة مسئولين أمام الريشتاج . كما كان المشروع ينص على تكوين محكمة دستورية عليا على غرار المحكمة الدستورية في الولايات المتحدة .

وكانت هناك مسائل ذات صعوبة أو حساسية خاصة ، وقد استطاعت الجمعية الوطنية أن تتغلب على معظمها ، وكان من هذه اسم الدولة وهل تكون الجمهورية الألمانية وانتهت الجمعية إلى كلمة « الريخ » ، وهو تعبير اصطلاحى يوحى بما يمكن للدولة الجديدة أن تصل إليه ، بما فى ذلك انضمام النمسا الذى كان أملا قديما ومتجددا . ومن هذه المسائل أيضا العلم فقد أراد المستقلون والإشتراكيون العلم الأحمر . بينما أراد المحافظون العلم القديم الذى حارب تحته الجنود وانتهت الجمعية إلى علم يضم الأسود والأحمر والذهبي .

ولم يخل المشروع من لسات اشتراكية تأت من أن صياغته بدأت من نوفمبر ، عندما كان المد الاشتراكي طالبا ، ومن أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي - كائنا ما كان حفاظه - فإنه كان يحرص على طابع اشتراكي ، فنص المشروع على أن الملكية الخاصة محمية ، ولكن على أساس أن يعمل أصحابها طبقا للمصلحة العامة ويجوز للحكومة أن تأمر بتأميم المشروعات الصناعية التى يناسبها هذا الاجراء . كما احتفظت الحكومة بحق اجبار بعض المنشآت على أن تندمج فى منشآت أخرى مثيلة .

وكان موضوع الجيش من النقط الشائكة . وقد أرادت الجمعية السليمة أن ترجىء هذا الموضوع إذ كان من المعروف ان سيكون للحلفاء شروط وتحفظات عديدة على وضع الجيش . ولكن القيادة العامة أوضحت للجمعية

أنه من غير المرغوب فيه تأجيل هذه النقطة الهامة . وكانت القيادة العامة تريد إجراءً يدمج الفرق الحرة في الجيش النظامى حتى تتخلى هذه الفرق عن صفاتها التى لا تتلاءم مع الإلتزام العسكرى ، وبقدر ما كان هذا الدمج يتأخر بقدر ما كان يصعب تأصيل عادات الإلتزام فيها وبقدر ما يزداد خطر هذه الفرق . ولهذا وضعت الجمعية « قانون الجيش المؤقت » الذى بنى على التطوع وليس التجنيد وأن يكون نظامه ديمقراطياً . ولكنه ألقى « مجالس الجنود » وأحل محلها نظاماً فضفاضاً ومبهماً يدور حول « رجال الثقة » الذين ينتخبهم رفاقهم بواقع ثلاثة لكل فرقة ، وتكون لهم سلطات إستشارية ولكن دون أن يكون لهم أى سلطة فى الأمر أو إختيار الضباط . وكانت هذه الصيغة فى مجموعها ترضى القيادة العليا .

وكان من الأعمال الأولى للجمعية الوطنية تشكيل حكومة وقد إختارت بأغلبية ٢٧٧ من ٣٧٩ صوتاً إيبرت رئيساً للجمهورية . وإختار هذا شيدهمان مستشاراً وكون شيدهمان وزارة إئتلافية تضم أربعة من الحزب الديمقراطى وثلاثة من حزب الشعب المسيحى وخمسة من الحزب الإشتراكى الديمقراطى (الأغلبية) وكان منهم نوميك — وزير الدفاع .

وكان وزير الخارجية نبيلا بروسيا هو الكونت بروكدورف رانتزو . وقد رأى إيبرت ضرورة الإستعانة به فى المهمة الخطرة المقبلة — تسوية السلام — لما أعتقده من عدم وجود الألفاء من الديبلوماسيين بين الإشتراكيين . وكان بروكدورف رانتزو — كسكل النبلاء ملكى الميول — ولكنه أيضاً — كالكثير منهم — كان يرى أن من الواجب عليه أن يخدم الدولة . حتى لو كان على رأسها الإشتراكيون ولم يدع هذه المشاعر سرا — فضلاً عن أنه إحتفظ بحقه فى الإستقالة إذا لم تكفل مفاوضات السلام تسوية مشرفه .

وكائنا ما كانت المقدرة الفنية المظنونة للكونت ، فإن الإختيار — كقرار سياسى — لم يكن موقفا . فلم يكن مما يسهل مهمة الوفد أن يكون على رأسه نبيل من زمره النبلاء الذين أشعلوا الحرب ، وإستهدف الحلفاء إستئصالهم تماما . والحزب الإشتراكى بعد هو الحزب الذى قاوم منذ نشأته العسكرية والتوسع الحربى . وعارض الحرب السبعينية وأحتج على ضم الالزاس واللورين وطالب بصلح مشرف مع فرنسا وتعرض فى هذا السبيل لنقمة بيسارك . ثم هو الذى قاوم — إلى حد ما — الحرب وتظاهر ضدها وأحتج خلالها بلسان هوجو هاسه على معاهدة برست ليتوفسك .

كان يجب على ايبرت أن يقدر هذه المعانى . وإن يذكّر فرنسا بها ، بإيفاد شخصية إشتراكية ، فإن لم يفلح فى إعادة هذه الذكريات وما تؤدى إليه من تخفيف للمرارة . فعلى الأقل يبعد شبح العسكرية البروسيه المخوفة . لا أن يجابه الحلفاء بها فى شخص الكونت .

* * *

وفى باريس كان مجلس العشرة ، الذى تقلص إلى مجلس الخمسة . ثم الأربعة ثم فى حقيقة الحال الثلاثة^(١) (ويلسون ولويد جورج وكليمنصو) يجتمع ويمسك بيده مصير العالم . وكان إثنان على الأقل من الثلاثة يكتمان كراهية عميقة لألمانيا ويعتزمان الإنتقام بلا رحمة وكان . كليمنصو — النمر الفرنسى — الذى لم ينس هزيمة ١٨٧٠ فى الماضى ولا قسوة المعركة فى الحاضر — يريد أن لا تكرر المأساة فى المستقبل ويعتزم أن يقلم أظافر ألمانيا ويقطع أوصالها حتى لا تصبح العدو الرهيب الخوف الذى لا قبل لفرنسا به ، كما كان لويد جورج قد تورط فى دعاياته الإنتخابية . فوعده بشنق القيصر وإعتصار ألمانيا — كاليهونه — لآخر قطره . ولم تكن ألمانيا بعد ، وبصرف النظر عن هذه المشاعر ، بالنسبة لهما سوى دولة مهزومة مغلوبة ، وقد أعطت ألمانيا نفسها المثل

لما يجب على المغلوب أن يدفعه ، ولما يمكن للغالب أن يذهب إليه .
عندما فرضت معاهدة بريست ليتوفسك الجائرة على الاتحاد السوفيتي المهزوم .

وكانت وزارة الخارجية الألمانية قد كونت فريقاً من الخبراء والمختصين أطلق عليه مكتب مفاوضة السلام Paxkonferenz عكف لمدة طويلة على جمع الإحصائيات وتحضير الوثائق التي يجب أن تكون معدة عندما تنتهي الحرب ، سواء انتهت بالهزيمة أو بالانتصار ، وقد دعم بركدورف وانترو هذا الفريق بحيث أصبح يتكون من أربعين من موظفي الخارجية رمائة من الخبراء الخارجيين في مختلف المجالات كالصناعة والزراعة والاقتصاد . الخ .

وتوقع هؤلاء الخبراء أن يطلب الحلفاء إلى ألمانيا تسليم الآزاس والورين وتجريد منطقة الراين من السلاح ، وتحديد الجيش والأسطول وأن يكون هناك صراع حول منطقة حوض السار وسيليزيا العليا ودانزج ، كما تصوروا أن ستفرض على ألمانيا تعويضات قد تصل إلى خمسين ألف مليون مارك تدفع على مدة طويلة . وأنه سيسمح لألمانيا بمجرد توقيع المعاهدة بعضوية «عصبة الأمم» . بالاختصار ، كانت توقعات هؤلاء الخبراء أنه وإن كان على ألمانيا أن تدفع ثمن الهزيمة ، فإن هذا الثمن لن يكون باهظاً للدرجة تعجزها عن الأداء أو يكون مهيناً لشرفها أو كرامتها . وكان في ذهن هؤلاء بالطبع ، أن ألمانيا وإن طالبت بالمهدنة فعلى أساس النقطة التي وضعها الرئيس ولسن لسلام عادل ودائم .

وفي ١٨ أبريل سلم مندوب قيادة الحلفاء ألمانيا مذكرة يدعو فيها ألمانيا لإرسال مندوبها مساء ٢٥ أبريل لاستلام النص الأولي للمعاهدة .

وردت ألمانيا في اليوم التالي . بأنها سترسل مندوباً ومساعدين وأربعة من الكتبة لاستلام النص ، ولكن الحلفاء ردوا بأنهم يصرون على

أن ترسل ألمانيا مفوضين لهم كافة السلطات لمعالجة موضوع السلام بأسره .
وقبلت ألمانيا ، وفي ٢٨ أبريل غادر برلين قطاران خاصان يحملان
١٨٠ شخصاً هم الوفد الألماني إلى مؤتمر السلام بباريس ، وكان يضم بالإضافة
إلى وزير الخارجية عدداً من كبار الشخصيات السياسية والخبراء وقد قسم
نفسه إلى لجان تختص كل بناحية معينة .

ولم يكد القطار المقل للوفد يغادر الحدود الألمانية ويصبح تحت رحمة
الفرنسيين حتى بدأت أولى تصرفات الحلفاء ، فقد هبطت سرعته إلى
١٥ كيلو ، وكان يقف لحظات طويلة عند كل موقع من مواقع المعارك
الحربية ليرى الوفد الألماني الآثار المدمرة التي تركتها جيوشه ، والقرى
المهدمة المهجورة . . وعندما أصبح القطار على مقربة من فرساي أنزل الوفد
وأركب العربات حتى لا يتعرض لهجوم الشعب في محطة فرساي حتى أوصلوا
إلى فندق دي رسر فوار Hotel des Reservoirs .

واكتشف الألمان أن هذا الفندق كان هو الذي استقر به الوفد الفرنسي
الذي كان يفاوض بسمارك في شروط الصلح سنة ١٨٧١ ، كما اكتشفوا أن
السلطات الفرنسية أحاطته بسور من الأسلاك الشائكة بدعوى الحرص على
سلامتهم وحمايتهم وإن كان الغرض الحقيقي هو منعهم من الاتصال بالخارج .

وما لم يكتشفه الوفد الألماني وقتئذ هو أن الحلفاء لم يكونوا قد أمروا
امتداداتهم ، وأن استدعاه في هذا الوقت إنما يعود إلى أسباب دوائية تتعلق
بمركز لويد جورج وكليمنصو ، ولتهديئة نائبة الجماهير في فرنسا وبريطانيا ،
ولكن نصوص المعاهدة كانت مشتتة ما بين الحلفاء بعضهم بعضاً ، وفي عدد
كبير من المكاتب والإدارات ، وكان هناك اختلاف جسيم في وجهات نظر
الحلفاء الثلاث حول عدد من المسائل .

وفي انتظار نسوية هذه المسائل كان أفراد الوفد الألماني يقضون نهارهم وليلهم في فندق دى « رسر فوار » يقرأون الجرائد ، ويتبادلون الأحاديث ويتناولون العشاء ثم يأوون إلى الفراش . ومع أن الكونت كان يستمتع بالكوتياك الفرنسى إلا أنه ضاق الفراغ ، واعتقد أن هذا الإجراء إهمال مقصود ، فأرسل فى ٤ مايو مذكرة بأن الشخصيات المسئولة فى الوفد ستضطر للعودة إلى ألمانيا ما لم يكن الحلفاء على استعداد لاستقبالهم ، ووضع ذلك الحلفاء فى مأزق . فلم يكن بإمكانهم استبقاء وزير الخارجية دون عمل لمدة غير محدودة ، ولم يكونوا على استعداد للسماح له بالسفر وهم كل ما بنوه من دعاية عن قرب التسوية ، لهذا قرر المجلس أن تسلم المعاهدة يوم ٧ مايو فى قصر التريانون بفرساي ، وشمرت لجنة الصياغة فجمعت ما أعدته اللجان ، وبعضها كان فى صورة توصيات ، أو مناقشات أولية ، أو نصوصا تمثل الحد الأعلى الذى يمكن النزول عنه عند المفاوضة أو يمكن تسويتها عن طريق عصابة الأمم . وكانت هذه الفوضى من العوامل التى أسهمت فى جعل معاهدة فرساي وثيقة اتهام أكثر مما كانت تسوية سلام ..

وطبعت هذه المعاهدة فى سرية تامة وسرعة بالغة بحيث سلمت قبيل فجر يوم ٧ مايو ، وأسرع بها الساعة إلى كبار المسئولين من الحلفاء الذين نزلت عليهم كالصاعقة . فعندما أيقظ هربرت هو فر فى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل ليتسلم نسخته عكف على قراءتها ، ولم يكسد يمضى فيها حتى استحال عليه النوم ، وعند أول ضوء للفجر وضع ملابسه وخرج ليلتقى بالاقتصادى البريطانى كينز ، ورئيس اتحاد جنوب أفريقيا سمنس اللذين لم يستطيعا مثله النوم ولا البقاء بعد قراءة المعاهدة ، بل حتى وزير الخارجية الأمريكى لانسيج كتب مذكرة يستنكر فيها قسوة وفضاظة المعاهدة وأن الكثير من نصوصها غير قابل للتحقيق .

وخلال ذلك كانت الترتيبات تسير على قدم وساق في قصر التريانون . فأعدت في القاعة الرئيسية أربع منصات كبيرة تكون في مجموعها مربعا شغل ممثلو الحلفاء ثلاثاً منها ، وترك الرابع للوفد الألماني ، وأشارت إحدى الصحف الفرنسية إلى منصة الوفد الألماني بأنها « قفص الاتهام » .

وفي ٦ مايو سلم الوفد الألماني مذكرة بمجدول الأعمال . اتضح منها أن الاجتماع سيبدأ الثالثة بعد الظهر ، وأنه لن يستمر إلا بضعة دقائق يسلم بعدها الوفد الألماني المعاهدة وينصرف ، وتأكد الوفد أن هذا الاجتماع لن يكون مؤتمراً للسلام بالمعنى التقليدي ، وأنهم سيقتادون ليقفوا أمام المنتصرين في قفص الاتهام ليسمعوا « إملاء » الاتفاقية عليهم وأن كل خطوة اتخذها الحلفاء من إبطاء القطار ، وحبسهم داخل الفندق وإهمالهم فيه لمدة طويلة ، وجعل مكان تسليم المعاهدة هو المكان الذي توج فيه الامبراطور ولهم الأول . وأن مياعداها يوافق الذكرى الرابعة لإغراق « لوزيانا » كلها . . إنما أريد بها إذلالهم . .

وأعد الوفد الألماني ثلاث صيغ مختلفة للخطاب الذي سيلقيه الكونت بروكدورف رانتزو وترك له اختيار الصيغة التي تتناسب مع الموقف .

وسيق الوفد الألماني إلى قصر التريانون في عدد من العربات ، وكانت وفود الحلفاء قد سبقت وأخذت أما كتبها عندما نزل الكونت بروكدورف رانتزو من عربته ، وتوقف ليتجمع بقية الوفد ورائه ، ودخل الكونت وصيحة الحاجب تدوى « السادة أعضاء الوفد الألماني » فوق كل الحاضرين على أقدامهم . وانحنى الكونت وردت بقية الوفود بالإنحاء ثم أخذ مجلسه في مواجهه كليمنصو . .

وقف كليمنصو — الذي كان من حقه بصفته رئيساً لمؤتمر السلام —

أن يبدأ الحديث فخطب الوفد الألماني قائلاً « . . لا الوقت ، ولا المكان يسمحان بعبارة جوفاء ، إن ساعة التسوية الثقيلة لحساباتنا قد دقت . فقد طلبتم السلام ، وقد قررنا أن نمنحه لكم . وسيوضح لكم المجلد الذي سيسلمه مكركير المجلس الشروط التي وضعت . وأنا مجبر أن أضيف ، إن هذا المؤتمر الثاني للسلام في فرساي قد اشترته الشعوب الممثلة هنا بثمن باهظ لدرجة تجعلنا نقرر بالاجماع وبكل الوسائل التي في وسعنا - ضمان الترضيات المشروعة التي هي من حقنا . . . » .

وختم كليمنصو كلمته القصيرة بأن أمام الوفد الألماني خمسة عشر يوماً لإرسال ملاحظات مكتوبة وسيعقب عليها الحلفاء بالصيغة النهائية وميعاد التوقيع . وعندما انتهى من كلمته ، رفع الكونت يده ، وانتقى إحدى الأوراق أمامه وشرع يقرأ - دون أن يقف - كما فعل كليمنصو .

« نحن لا نتخجلنا أية شكوك في مدى هزيمتنا ، أو درجة عجزنا . ونحن نعلم عمق الكراهية التي تحيط بنا هنا . وقد سمعنا الطلب الملح أن يجعلنا المنتصرون ندفع كمهزومين ونعاقب كمدنبيين ، وقد أريد منا أن نعترف أننا وحدنا المذنبون ، ومثل هذا الاعتراف سيكون كذبه على طرف اللسان . ونحن أبعد ما نكون عن أن نبرى ألمانيا من كل مسئوليتها . ولكننا نعارض فكرة أن ألمانيا ، التي آمن شعبها أنه يخوض حرباً دفاعية - تنقل وحدها بكل عبء الادانة . قد لا تكون الجرائم في الحرب معفاة أو مبررة . ولكنها تقترف خلال الكفاح في سبيل النصر ، وفي غمرة العاطفة التي تخرس ضمير الشعوب ، إن مئات الألوف من غير المحاربين الذين هلكوا منذ ١١ نوفمبر بسبب الحصار إنما قتلوا صبراً وعمداً بعد أن اكتسب أعداؤنا النصر ، وتشبتوا منه . . فكروا في هذا عندما تتحدثون عن الادانة .

ومع أننا قد نكون وحدنا في هذا المؤتمر ، إلا أننا لسنا دون دفاع ، فأنتم أنفسكم قد اكتسبتمونا حليفنا هو - العدل .

وكان لهذا الخطاب أسوأ الأثر . وأوّلَ كل شيء فيه تأويلا معينا . فعدم قيام بروكدورف - رانتزو اعتبر تحديا ، وأولت الألفاظ والمعاني وطريقة الالتقاء بأنه إصرار ، وأن ألمانيا لم تتغير ، وهاهى ذى ترسل كوننا من المدرسة القديمة . وكانت هذه الظنون غير حقيقية . فالسكونت رغم ماضيه الديبلوماسى وأصله الارستقراطى لم يكن يجيد الخطابة فى المحافل العامة . وكان المشهد يضاعف من حرجه وضيقه ويكفى أنه كان يضطر عند كل جملة للتوقف وتسليم الورقة الوحيدة التى يقرأ منها المترجم لى يترجم الفقرة .

ومن ناحية أخرى فقد روع الألمان بجهد المؤتمر ورغبة الانتقام وأن العملية ليست عملية تفاوض ولكنها إملاء .

كان المشهد بأسره صورة عكسية لجملة كلاوزفيتز المشهورة عن أن « الحرب هى مواصلة السياسة بطرق أخرى » . فهنا كانت السياسة مواصلة للحرب بطرق أخرى .

وما أن خرج الوفد ومعهم نسخة المعاهدة المشثومة التى سلمت لهم ، ووصلوا إلى الفندق حتى قسموها إلى عشرين جزء وسلم كل جزء إلى أحد خبراء الوفد لترجمتها وما أن انتصف الليل حتى فرغت ترجمتها وأرسلت إلى برلين . وهناك سلمت لمطابع الاميراليه التى آمنت طبع بضعة آلاف منها خلال يومين ، وبعد بضعة أيام كان نص المعاهدة المطبوع يباع فى شوارع برلين بما يعادل خمسين سنتا .

وفى المناقشة العامة الأولى للمعاهدة التى عقدت فى جامعة برلين فى ١٢ مايو - أعلن المستشار شيدمان رفضه البات للمعاهدة صائحا « أى يد لا تجف يمكن أن تقيد نفسها وتقيدها بهذه الشروط » وأكّد أن ألمانيا لن توقع على هذه

المعاهدة مالم تعدل جنديا ، وأعقب شيدمان متحدثون من كل الأحزاب أجمدوا بأسرهم ، وعلى اختلاف مذاهبهم على رفض المعاهدة . وكان الاستثناء الوحيد من هذا الاجماع هو هوجو هاسه رئيس الاشتراكيين المستقلين الذى وإن انتقد المعاهدة فإنه قال إن الاشتراكيين المستقلين هم وحدهم الذين يستطيعون انتقاد المعاهدة دون تثريب ، فهى ليست أسوأ من معاهدة بريست ليتوفسك والمستقلون وحدهم هم الذين انتقدوها ، أما الاشتراكيون الديمقراطيون (الأغلبية) فقد اكتبوا بالامتناع . ولاحظ هاسه أنه من غير الطبيعى من الذين فرضوا بريست ليتوفسك أن يسألوا الرحمة .

على أن هذه الملاحظة كائنة ما كانت وجاهتها ، لم تلبث أن أغرقت في حمام العواطف المتأججة ضد المعاهدة .

وفي فندق الرمسوفوار كان المندوبون الألمان يعكفون على المواد مادة مادة ينتحون كل واحدة بما يتفق مع النقط الأربعة عشر ، ووضع ألمانيا كدولة جاءت إلى فرساي لا كدولة مقهورة ولكن كأحد الأطراف السامية المتعاقدة . وكانت الردود تأتي رافضة للملاحظات مذكرة ألمانيا بما سبق أن اتخذته مع فرنسا أيام الحرب السبعينية أو غيرها .

وأخيرا وبعد أن اكتسب الألمان مهلة أسبوع من الحلفاء أرسل الألمان ردهم عن المعاهدة بأسرها يوم ٢٩ مايو ، وكان هذا الرد ينقض أو يعدل كل مادة في نص الحلفاء تقريبا . ولكن ثلاث نقاط أساسية استأثرت باهتمام ومدافعة الألمان . تلك هى (أ) الحدود (ب) التعويضات (ج) اثم الحرب .

بالنسبة للنقطة الأولى كانت المعاهدة تقضى بتنازل ألمانيا عن شمال شلزيك للدنمارك والازاس واللورين لفرنسا وبوزن وغرب بروسيا الشرقية لبولندا ووضع منطقة السار لمدة خمسة عشر عاما تحت إشراف عصبة الأمم ، على أن

تفيد فرنسا من مناجم الفحم بها. وكان على ألمانيا أن تتنازل عن جميع مستعمراتها وراء البحار، وأن تبقى الضفة اليسرى لنهر الراين وجسوره محتلة، وأن تخلى المنطقة المحاذية لها على امتداد النهر بعرض ٥٠ كيلو مترا.

وكذلك تضمنت المعاهدة مصادرة المعدات الحربية والأسطول وجميع السفن التجارية التي تزيد حمولتها على ١٦٠٠ طناً وعدداً من القطارات وأن يكون عدد أفراد الجيش النظامي مائة ألف على أن لا يسلمح بأسلحة ثقيلة أو دبابات أو طائرات أو بوارج حربية.

وكانت الدولة المستفيدة بالدرجة الأولى من هذه النصوص هي فرنسا، وقد كافح كليمنصو حليفه كفاحاً مريراً ليحصل على كل ماأراده، وكان وراءه - على عداوته لألمانيا - سياسى معارض له أكثر عداوة لألمانيا هو بوانكاريه الذى كان يندد بتهاون كليمنصو واستسلامه لحليفه وضعفه أمامهما.

ولم يكن موضوع التعويضات أقل أهمية من موضوع الأراضي. فقد أراد لويد جورج وكليمنصو أن تدفع ألمانيا تعويضات عن كل ما يتصور من أضرار تسببت فيها الحرب، بما فى ذلك معاشات القتلى وتعويضات الجرحى وكان وراء كل منهما جمهور مسعور ومجلس نيابي حانق تتربص فيه المعارضة بالحزب الحاكم وتنتهز الفرصة لإقناعه، وكان الطرف الوحيد الذى لم يكن له مصلحة فى التعويضات هو الولايات المتحدة التى كان يضم وفدها الإقتصادى عمالقه مثل برنارد باروخ وفيس ما كورميك ونورمان ديفيس وتوماس لامونت وجون فوستر دالاس وحاول هؤلاء أن يوضحوا أن ألمانيا ستعجز قطعاً عن دفع ما قدرته فرنسا وبريطانيا - شيئاً يقرب من ١٢٠ ألف مليون دولار لأنه يفوق كل الثروة الألمانية القومية التى قدرت وقتئذ بـ ٧٥ ألف مليون دولار، ولكن عبثاً، فقد قيل لهم إن ذلك ليس ذنب فرنسا أو إنجلترا،

وأن على ألمانيا أن تدفع بالتقسيط ما تعجز عن دفعه نقداً مع إحساب الفوائد التي تجعل المبلغ يتضاعف ، وأورد العضو البارز في الوفد البريطاني — المستر كينز — طريقتين ممكنتين للدفع، الأولى أن يقوم العمال الألمان بتعمير ما خربته الحرب . والثانية مساعدة ألمانيا بحيث تكون دولة صناعية قوية تفيض مواردها وتؤخذ الديون من هذه الفوائض . وبالطبع رفض الحلان . فقد كان لدى فرنسا من عملها ما يفيض عن الحاجة ، كما لم تكن مستعدة لمساعدة ألمانيا لكن تأخذ منها بعد ذلك . وإستقال كينز وكتب كتابه المشهور « النتائج الاقتصادية لمعاهدة السلام » الذي إنتقد فيه التعويضات نقداً مرة .

وعندما إستشعر لويد جورج شيئاً من الحقيقة ، لم يكن مستعداً لأن يصارح مجلس العموم بذلك — وإعترزم أن يقول إن موضوع التعويضات معقد جداً بحيث لم يمكن ألبت فيه . وعندما يأتي الوقت تكون نائرة الشعب البريطاني قد هدأت . . .

وكان مشروع المعاهدة يجبر ألمانيا على دفع خمسة آلاف مليون دولار ذهباً قبل ١ مايو سنة ١٩٢١ بجانب ما ستقدمه من الفحم والكيماويات . إلخ . . . عل أن تعقد لجنة للتعويضات لتجرى حساب ما يجب أن يدفع . ، ولكن الأمريكيين رأوا أنه خلال هذين العامين سيمحق الحق على ألمانيا ، وأن من الخير تحديد مبلغ معين ، خاصة وأن هذا سيدفع العمال الألمان للعمل بجد وإخلاص . ولكن فرنسا رفضت ذلك .

ولم تكن النقطة الثالثة التي أثارها حق الألمان تتعلق بأرض أو مال ، ولكنها كانت تتعلق بأثم الحرب . ففي مقدمة القسم الخاص بالتعويضات . وضع الحلفاء — كمقدمة له — مادة مختصرة هي المادة ٢٣١ أريد بها تبرير دفع ألمانيا للتعويضات . وكانت هذه المادة تنص على أن « الحلفاء والحكومات

المرتبطة بهم ، تؤكد أن ألمانيا تقبل مسئوليتها وحلفائها لكل الخسائر التي لحقت بالحلفاء والحكومات المرتبطة بهم ، ومواطنيهم نتيجة للحرب التي شنها عليهم عدوان ألمانيا وحلفائها .»

وكما لاحظ أحد المؤرخين ، فمع أن المادة لم توضع عرضا فإنه لم يتصور أن تثير ما أثارته من معارضة ، والواقع أن لجنة التعويضات لم تفكر في وضع هذه المادة حتى إقترح الفرنسيون ذلك إقامة للحق المادى على أساس أدبي ومعنوى ، ووجدت اللجنة الفكرة طيبة .

وكانت دهشة الحلفاء عظيمة ، عندما وجدوا أن هذه المادة بالذات إستأثرت بأعظم أجزاء من معارضة الألمان وأن ألمانيا لا تقبل « أثم الحرب » War Guilt Clause ورأى الحلفاء أنهم لم يذكروا كلمة إثم guilt ولكن مسئولية responsibility ، ولكن الألمان - فيما يبدو - لم يفرقوا بينهما خاصة وقد سبق هذه المادة المواد من ٢٢٧ - ٢٣٠ التي تتحدث عن العقوبات وكان منها محاكمة القيصر الخلع وتسليم مجرمي الحرب (وقد كان منهم هندنبرج - الذى سيصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية) . وفى ١٠ مايو أرسل الوفد الألماني مذكرة إلى الحلفاء يقول فيها إن ألمانيا ليست الدولة الوحيدة أو الرئيسية التى تلام على الحرب ، وبينما كان الحلفاء يعتقدون أن مسئولية ألمانيا عن الحرب مسألة لا تحتاج إلى تدليل ، فإن الألمان بتأثير دعاية الحرب الطويلة ، وتداخل الأحداث التى أدت إليها - كانوا مقتنعين أنهم دخلوا حربا دفاعية . ومع أن الحلفاء لم يكن يهمهم بوجه خاص هذه المادة ، إلا أنهم هم أيضا ، بفضل دعايتهم الطويلة عن أنهم إنما دخلوا الحرب دفاعا عن المبادئ الإنسانية لم يكن أمامهم إلا التمسك بها . لأن التنازل عنها ، بعد أن أثبتت ، يصبح له مدلول إيجابى ، فإذا لم يكن اثم هذه الحرب المدمرة يقع على ألمانيا فعلى من يقع وكيف يمكن لأى واحد

من الثلاثة الكبار مواجهة الناخبين بمضمون هذه النتيجة ، وهكذا تمسك الحلفاء بالمادة المشتومة ورفضوا مناقشتها .

* * *

بعد أن قدم الألمان ملاحظاتهم بفترة ، ونتيجة لإلحاحهم وكشفهم عن وجهة النظر الأخرى وما حفلت به المعاهدة من ثغرات ، تملكث الهواجس لويديجورج ، خاصة بعد أن كتب إليه الجنرال سمثس مندوب اتحاد جنوب أفريقيا ، وأحد الشخصيات اللامعة . ومن كانوا من أعداء الامبراطورية البريطانية ، ثم اقبلوا من أكثر أبنائها حماسة — مذكروه مسهبه في ٢٢ مايو حافله بالنذر — أوضح له فيها أن احتلال الرين سيكون بداية لقلقل في المستقبل وأنه لما كان على ألمانيا أن تدفع نفقات جيش الاحتلال فلن تتردد فرنسا في أن ترسل جيشاً جراراً يستنفد مالية ألمانيا .

ولما كان هذا الاحتلال لا يتهى إلا بعد التثبيت من أداء كل التزامات المعاهدة وهو أمر مشكوك فيه . فإن هذا يعني بقاء الاحتلال وبقاء العبء المالى والإثارة المعنوية أما التعويضات ، فحتى الدفعة المقررة من الذهب والكيويات والفحم هي أكبر مما تطيق ألمانيا دفعه . وحذره من أن الحلفاء سينبججون الدجاجة التي تبيض بيضة الذهب . وأن ألمانيا بعد أن جردت مناجمها في سيليزيا والساار لن تستطيع أن تدفع شيئاً ، وحذر سمثس من اعطاء بولندا مزيداً من الأرض الألمانية لأن هذا سيكون خطأً بالغاً سينتقم له في المستقبل ، كما رأى أن من الحماقة مطالبة ألمانيا بتسليم أى واحد يطلبه الحلفاء وأن تخفيض الجيش الألماني إلى مائة ألف ميشجع الثورة بالداخل باختصار طالب سمثس بتغير شامل في المعاهدة .

وبعد ذلك بأسبوع كتب إلى الرئيس ولسن خطاباً مماثلاً ذكره فيه بالنقط الاربعة عشر وأن المعاهدة المائلة تتناقض قلباً وقلبا مع نقاط ولسن .

ومن العجيب أن الرئيس الامريكى الذى تملكه القرف واليأس ، والذى كان فى حالة صحية سيئة وحالة نفسية أسوأ ، لم يعن بهذه المذكرة ، على تقيض لويد جورج الذى عندما واجهته هذه الحقائق الرهيبة تملكه الذعر . وفى أول يونيو دعا أعضاء الوزارة البريطانية ومندوبى الدومنيون للاجتماع فى باريس حيث أعلفتوا على أنفسهم الابواب وبقوا فى مناقشة ظلت يومين كاملين .

ولافتتح لويد جورج الاجتماع بعرض مذكرات الوفد الألمانى وردد الحلفاء ، ثم تلاه ستس بتنديد كاسح للمعاهدة وأوضح لويد جورج أن من الممكن للحلفاء إجبار ألمانيا على توقيع المعاهدة ، ولكن ماذا يحدث لو أن الحكومة الألمانية رفضت التوقيع وإستقالت بصفة جماعية ، وحلت محلها وزارة لا قيمة لها تصدق على الإتفاقية ولا تستطيع تحقيق بنودها . إن فرنسا المستفيدة الأولى من المعاهدة ، ستجر بريطانيا بحكم التزامها إلى منازعات لا حد لها . وقد يتطلب الأمر الإبقاء على جيش كبير . ثم هناك احتمال أن لا توجد أى وزارة تقبل توقيع المعاهدة ، فهل بريطانيا مستعدة لتعبئة جيش جديد لإحتلال ألمانيا؟ وتلا لويد جورج وستس الخبراء المليون الذين أوضحوا حماقة التعويضات وإستحالة دفعها . وما سيؤدى إليه ذلك من فوضى مالىة ستتهز دعائم الإقتصاد العالمى .

وصرح المجلس للويد جورج ، بل وجهه ، لأن يطالب بتعديل شامل للاتفاقية فإذا رفض ذلك فله أن يوقف الحصار الذى يفرضه الأمطول البريطانى أو العمليات العسكرية التى تقوم بها الجيوش البريطانية .

وما أن قدم لويد جورج اقتراحه بالتعديل الشامل للمعاهدة حتى هاجمه كليمنصو ، وأوضح أن بريطانيا لم تقدم شيئاً يهدأ نائرة الألمان على حساب للمصالح البريطانية فلم تقترح مثلاً تخفيض عدد السفن الألمانية التى تسلم إليها .

أو إعادة الأسطول الألماني الذي يسلم إليها أو رفع القيود على التجارة الدولية لألمانيا أو إعادة مستعمراتها وبدلاً من ذلك فإنها اقترحت تنازلات على حساب المصالح الفرنسية وقال كليمنصو «نحن نعرف الألمان خيراً منكم . إن هذه التنازلات ستشجع الألمان على المقاومة وستحرم شعوبنا من حقها . ولنناقى حاجة لأن نلتمس العذرة لانتصارنا » وعرض أن يقدم لويد جورج إلى مجموعة من النساء الفرنسيات ما بين سن ١٤ و ٦٥ اغتصبهن الألمان .

ولم يكن هذا المسلك مفاجئاً لـ لويد جورج ، فقد توقعه ، ولكن ما لم يتوقعه هو مسلك الوفد الأمريكي الذي كان عدد من أبرز شخصياته قد أظهر تماطفاً مع ستمس وكينز ، وكان لانسج وزير الخارجية يعارض المعاهدة . لهذا تملكك الدهشة الوفد البريطاني عندما قام الرئيس ولسن وعارض التعديل وأوضح أن إتمام المعاهدة كان معجزة وأنه يستحيل تعديلها من جديد . فقد غادرت معظم الوفود باريس وقد لا يمكن إقناع بعضها بالنصوص الجديدة . .

وأوضح الرئيس ولسن وجهة نظره الأخيرة « لست أريد أن أكون غير معقول ، ولكن مشاعري هي كالآتي . ليس علينا أن نعدل في المعاهدة بفكرة الحصول على توقيعها . إن وقت تقدير هذه الاعتبارات كان وقت كتابتها . وإنه لما يشعرني التعب أن يأتي إلى إناس يقولون إنهم يخشون من عدم توقيع ألمانيا للمعاهدة وها هو ذا فريق بريطاني يمثل كل أنماط الفكر البريطاني يتملكه الهلع . إن عليهم أن يكونوا عقلاء . . فليسوا في حاجة إلى الهلع . . وليكن الله معنا » . .

وأحبط هذا الموقف آمال لويد جورج ، فلم يستطع أن يحصل إلا على تعديلات تافهة واستبعدت فكرة الإعادة الشاملة بحيث أتم الحلفاء ردودهم على الملاحظات الألمانية يوم ١٦ يونيو . وسكن روع لويد جورج ، وأطار

سكرتيره فيليب كير Philip Kerr الذى كان يعد أكفأ وأسرع ديبلوماسى لإعداد الصياغة الأخيرة التى تضمنت أن هذا النص يمثل الكلمة الأخيرة وأن الحلفاء يريدون إعلانا من الوفد الألمانى خلال خمسة أيام باستعداده لتوقيع المعاهدة، وفي حالة عدم إرسال مثل هذا الإخطار فإن الهدنة ستنتهى وسيقوم الحلفاء بما يرونه لازما لتحقيق شروطهم .

وسلم هذا الرد مع نسخة واحدة من المعاهدة المعدلة إلى الوفد الألمانى الذى وجد لفعيخته أن التعديلات طفيفة لدرجة لم يجد فيها الحلفاء حاجة لإعادة طبع المعاهدة . . وإنما كتبوا التعديلات على هامش المشروع الأصيل بالخط الأحمر، وعلى الفور قرر بروكدورف رانتزو أن ليس إليه ما يبقيه فى فرساي وأن قبول أو رفض المعاهدة هو ما تبنت فيه برلين . فسافر فى سواد الليل البهيم ، دون أن يتوافر العدد اللازم من العربات أو الحماية الكافية من الجمهور المعادى بعد أن اكتسب من الحلفاء مدة يومين هى فى الحقيقة مدة السفر — وبذلك أصبحت المهلة أمام ألمانيا سبعة أيام . .

وخلال يومى السفر عكف بروكدورف رانتزو على إعداد تقريره الذى انتهى فيه إلى أن شروط الحلفاء مما لا يمكن قبوله أو الوفاء به . وما كاد القطار يدخل فایمار فى صباح ٨ يونيو حتى كان التقرير قد كتب على الآلة الكاتبة . وهرع بروكدورف رانتزو الى الرئيس ايبرت والمستشار شيدمان وبقية أعضاء الوزارة الذين كانوا فى الانتظار .

ولو جاء بروكدورف رانتزو قبل ذلك بأسبوع لوجد الوزارة مجمعة على نيل المعاهدة ولكنه الآن وجدها منقسمة على نفسها فى خلال هذا الأسبوع استطاع رجل واحد أن يؤثر عليها بمنطقة البارد ذلك الرجل هو ماتياس ارزبرجر .

وكان ارزبرجر في الرابعة والأربعين من عمره ، وقد بدأ مستقبله في عمر مبكر واستطاع أن يشق طريقه صعباً من نائب في حزب الوسط الكاثوليكي حتى أصبح زعيماً له . وعندما بدأت الحرب تحمس ارزبرجر لها ولكنه أدرك في صيف ١٩١٧ أن المعركة خاسرة ولم يتردد في أن يعلن في الرشتستاج أن ألمانيا عاجزة عن الهجوم . وأن عليها أن تناور بالدفاع لحين الحصول على أفضل شروط السلام .

وفي نوفمبر سنة ١٩١٨ منه المستشار ما كس رئيساً لوفد الهدنة ولما تشكلت وزارة شيدمان كان ارزبرجر قد أعاد تشكيل حزب الوسط الكاثوليكي وغير اسمه إلى حزب الشعب للمسيحي . وجاء هذا الحزب في انتخابات يناير سنة ١٩١٩ بعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي (الأغلبية) مباشرة فاختاره شيدمان وزير دولة ، ولكن مقدراته فرضته على الوزارة بحيث أصبح واحداً من أقوى أفرادها .

وكان ارزبرجر منذ أن عين رئيساً لوفد الهدنة قد استطاع أن يتفهم نفسية الحلفاء وأن يوجد بعض الصلات بهم بحيث أصبح في الوزارة العمدة فيما يتعلق بالحلفاء وكان يتكلم في اجتماعات الوزارة هن علم ودراية وصلة لا تتوفر لأي واحد آخر ، وعندما عين بروكدورف راتنز وزيراً للخارجية نشأ نوع من الصراع الخفي بينهما ، وشك بروكدورف في أن ارزبرجر يطمع في أن يحل محله ، وأنه يقوم وراء ظهره باتصالات ببعض دوائر الحلفاء .

وحقيقة الحال أن ارزبرجر كان قد قام بعدد من الاتصالات لعجم عود الحلفاء وللتعرف على حقيقة موقفهم من ألمانيا إذا رفضت ألمانيا التوقيع ، وقد بددت هذه الاتصالات كل الشكوك التي كانت تساوره في إصرار الحلفاء على احتلال ألمانيا إذا رفضت التوقيع . وعندما تأكد من هذا جابه ١٦ — ظهور وسقوط .

مجلس الوزراء بها . وأن الحلفاء ليسوا على استعداد لإجراء تعديلات جنسية في المعاهدة وأن خطتهم هي احتلال ألمانيا وتجزئتها إلى ولايات وفرض للمعاهدة على كل ولاية على حدة . وأعلن أنه يناصر توقيع المعاهدة على فداحة ذلك . وما قد يؤدي إليه من احتمال انشقاق شرق ألمانيا أو وقوع انقلاب عسكري ولكنه في الوقت نفسه سيكفل فك الحصار وعودة الأوقات والتجارة ، والاحتفاظ بوحدة الريخ . أما إذا رفضت الوزارة التوقيع فسيكون هناك الاحتلال والبطالة والمجاعة وستندعم البلشفية وتتقطع أوصال الدولة الألمانية وتحول إلى دويلات صغيرة .

وعندما قال أحد الوزراء إن التوقيع على معاهدة دون الوفاء بالتزاماتها يعد جريمة قال « إذا استطاع بعضهم أن يقيد يدي وأن يوجه إلى رأسي مسدساً طالباً أن أوقع على تعهد أن أطير إلى القمر خلال ٤٨ ساعة فإن أي واحد عاقل لا بد وأن يفضل التوقيع حرصاً على حياته » وإذا كانت الشروط بما لا يمكن أن تطبق فسيرى الحلفاء بأنفسهم ذلك وسينزولون على حكم الضرورة أو سيكون هناك حل بطريقة أو بأخرى ؛ ولكن الكونت بركدورف كان يرى غير ذلك ونصح الوزارة بأن ترفض التوقيع وتثبت فالوقت في مصلحة ألمانيا .

وكان هناك جهة أخرى يجب التعرف على رأيها قبل الانتهاء إلى الرأي الأخير تلك هي القيادة العسكرية العليا . فما من مجموعة متأثر بالمعاهدة كالجيش إذ انحطت به هذه إلى مائة ألف جندي منهم أربعة آلاف ضابط أي أن يكون الجيش الألماني العظيم أقل من جيش دويلة بلقانية . كما نصت المعاهدة على إيجاد لجان مراقبة للحلفاء للتثبت من عدم مجاوزة هذه الأرقام . وحددت صنع الأسلحة الثقيلة والدبابات وقضت بتسليم الأسطول الألماني إلى الحلفاء .

وكانت القيادة العامة قد قامت قبيل ذلك بعدة اتصالات بالوزارة عبرت فيها عن تمسكها بالجيش القوي القائم على التجنيد الإجبارى وعرض جرونر على بروكدورف خطة يقوم بمقتضاها الجيش الألماني بعملية غزو منظم للبيلشيفية الروسية لحساب الحلفاء . ولكن بروكدورف رفض الفكرة من أساسها . وعندما بدأت كفة التوقيع ترجح ارتوى أولا الحصول على رد صريح من القيادة العسكرية عما إذا كان من الممكن للجيش أن يقاوم ويدخل المعركة من جديد .

كان الموقف حرجا للغاية ، فمن ناحية ما من ضابط يمكن أن يقبل هذه الشروط المهينة . ومن ناحية أخرى فإن الجيش لا يستطيع أبداً مقاومة بحافل الحلفاء وستنتهى المعركة لا بهزيمة مشرفة ولكن بانتصار الفوضى والبيلشيفية وتفكك الجيش . وأمام هذه المعادلة توقف جرونر نفسه ، وهو أكفا الضباط وأكثرهم حكمة واتزاناً وواقعية ، ورأى أن حكمه وحده لا يكفي ، ولا بد أن يصدر المارشال هندنبرج نفسه وكتابة قراراً عن ذلك . لأن هذا وحده هو الذى يمكن أن يلزم الضباط . ولكن هندنبرج لم يكن بدوره ليجد مخرجاً وبعد ليلة نابغية لم ينم فيها المارشال . . . سلم جرونر مذكرة مقتضبة جاء فيها :

« فى حالة استئناف العمليات العسكرية فيمكن للألمان أن ينتصروا فى الجهة الشرقية . ولكنهم فى الجهة الغربية لا يستطيعون — بالنسبة لتفوق العدو العددي واستعداده — مقاومة هجوم جدى للحلفاء . ومن هنا فمن المشكوك فيه أن نحصل على نتائج مرضية ولكنى كجندى أفضل الموت فى شرف على توقيع صلح مهين . »

وفى دوائر الجيش — ارتأى الجنرال والتر رينهارد وزير الحربية فى

بروسيا أن لا توقع ألمانيا المعاهدة أبداً . فليفترو الحلفاء ألمانيا وليجزؤونها إلى ولايات فستظل بروسيا . وسيظل جيشها وسيكون ذلك نواة ألمانيا الجديدة وإذا وقعت الحكومة المدنية المعاهدة فعلى القيادة العليا أن تزعم ثورة شعبية عسكرية وتضع على رأسها المارشال هندنبرج ، ولكن جزونر رفض هذه الدعاوى ورأى أن ذلك سيكون نوعاً من الانتحار ، وأن الحلفاء أو البلاشفة سيقضون على البقية الباقية من هيئة الضباط والجيش .

وخلال هذه الفترة كانت الوزارة في اجتماعات مستمرة دون أن ترى مخرجاً فهي لا تستطيع التوقيع وهي لا تستطيع عدم التوقيع ، وقرأ نوسكه على أعضاء الوزارة مذكرة هندنبرج ، وأعلن أنه يؤيد توقيع المعاهدة رغم كل ما فيها . . . وفي يوم ١٩ يونيه أجرت الوزارة أخذ الأصوات وتزعم فريق التوقيع أرزبرجر ، وتزعم فريق الرفض شيدمان ولكن النتيجة كانت متعادلة تقريباً ، فقرر الرئيس إيبرت إحالة الموضوع على الجمعية الوطنية ، وفي الوقت نفسه دعا الجنرال رينهارد كبار الضباط إلى مجالس حرب حضره كل الجنرالات المسئولين ، وعرض عليهم رينهارد فكرته في أن ينسحب الجيش إلى بروسيا ، ويعمل كل شيء للاحتفاظ بها بصرف النظر عما يحدث لبقية ألمانيا ، لكي تستطيع بروسيا بعث ألمانيا من جديد ولكن نوسكه الذي حضر هذا الاجتماع كوزير الدفاع قال لهم إنه يشك في قدرة بروسيا على الصمود أمام هجوم مزدوج من الحلفاء والبولنديين ووجه أنظارهم إلى الجانب السياسي . فالاشتراكيون المستقلون والشبوعيون يترصبون بالبلاد — وشيدمان وعدد كبير من الوزراء سيستقيلون بمجرد توقيع المعاهدة ، بل إن إيبرت نفسه قد يستقيل فإذا يكون حال ألمانيا ؟ إنه قد يطلب إليه تشكيل وزارة يكون له فيها سلطات مطلقة ولكنه لن يفعل هذا ما لم يتأكد أولاً من مناصرة الجيش له تماماً .

وفتحت هذه الامة افاقا جديدة أمام الضباط ، فإذا حدث هذا وأصبح نوسكه حاكم المانيا وديكتاتورها فيمكن أن ينالوا كل شيء ، إن نوسكه هو رجلهم المفضل وهو . يجمع بين ظاهره كمدني واشتراكي وباطنه كمناصر ومؤيد للضباط على طول الخط . فعمدت صفة مضمرة يؤيد بمقتضاها الضباط وزير الدفاع إذا وقعت الوزارة على المعاهدة بشرط ابعاد بند « اثم الحرب » بأمل تقلد نوسكه السلطة على أسس مطلقة .

ولكن توقعات نوسكه لم تصب . فع ان شيدمان وبروكدورف — رانزو وأربعة من الوزراء الديمقراطيين قدموا استقالاتهم إلى الرئيس ايرت في الساعة الواحدة من صباح ١٩ — ٢٠ يونيو ، وأصبحت ألمانيا بلا وزارة ، فإن اختيار الرئيس ايرت لم يقع على نوسكه ، فملاقته الوثيقة بالضباط وماضيه الملوث بالدماء وشططه في استخدام أساليب السكبت والتمع جعلت الرئيس ايرت يعزف عن ترشيحه ويسين شخصية أقل نفوذا وقوة ، ولكن أكثر أمنا وحرصا على التقاليد الديمقراطية والبرلمانية . فاختار جوستاف باور Gaustav Bauer وزير العمل في الوزارة السابقة واحد الشخصيات النقابية البارزة ولكنه فيما عدا هذا لم يكن له ما يشفع لتعيينه في منصب المستشار . ولم يكن نوسكه — الذي احتفظ بمنصبه كوزير للدفاع هو الوحيد الخائق ، إن ارزبرجر أيضاً استاء لأنه اعتقد أنه أجدر وأحق من باور . وناقشت الوزارة الجديدة قضية المعاهدة وبعد مناقشة مستفيضة تقدم ارزبرجر بما بدا وكأنه الحل . فقد ذكر أنه في حكم الواثق من أن الحلفاء يمكن أن يتنازلوا عن المواد المثيرة (من ٢٢٧ إلى ٢٣١) الخاصة باثم الحرب ، وأن هذا التنازل يتيح للحكومة اكتساب تأييد الجمعية الوطنية والضباط معا . وطبقا لهذا أعلن باور يوم ٢٢ يونيو أمام الجمعية الوطنية أن وزارته ستوقع المعاهدة دون المواد

من ٢٢٧ إلى ٢٣١ وايدت الجمعية الوطنية الموقف الذي اتخذته الوزارة ولكن
الاشتراكيين المستقلين نددوا بربط التوقيع باستبعاد المواد ، قائم الحرب
بين ، ومصير القيصر والضباط لا يهم في قليل أو كثير ، وعندما عارض
نواب اليمين ذلك جاءهم باور « عما إذا كانوا على استعداد لتقبل مسئولية
الحكومة ؟ وما هو الذي يريدونه بالضبط وكيف سيدافعون عن البلاد تجاه
هجوم الحلفاء الذي يمكن أن يبدأ في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي »
ولمالم يكن هناك رد فقد وافقت الجمعية الوطنية بأغلبية ٢٣٧ إلى ١٣٨ على
توقيع المعاهدة بشرط أن تحاول الحكومة استبعاد المواد من ٢٢٧ إلى ٢٣١ .

وما أن حصلت الوزارة على هذا التفويض حتى ابرقت إلى فرساي عن
طريق خط تليفوني مباشر بقبول التوقيع على المعاهدة دون الاعتراف بأن
الشعب الألماني هو الذي أغرى بهذه الحرب ودون التعمد بتسليم أشخاص
طبقا للواد من ٢٢٧ إلى ٢٣٠ . ولكن من سوء حظ ألمانيا أن بعض رجال
الأسطول الألماني الراسي في ميناء سكا بافلو البريطانية اغرقوه صباح ٢١ يونيو
أى قبل ذلك بيوم واحد، واثار ذلك حنق الحلفاء وبوجه خاص لويدي جورج،
فوضع الرئيس ولسن مذكرة مقتضبه جاء فيها إن وقت المناقشة قد فات وأن
المطلوب من ألمانيا هو قرار بقبول التوقيع على المعاهدة ككل . وصدرت
الأوامر إلى جيش الحلفاء المرابط في الرين بالاستعداد للزحف على برلين ، كما
تأهبت جيوش البولنديين والتشكيين .

ونزلت انباء رفض الحلفاء على الوزارة كالصاعقة ، فقد كانت توقعات
ارزبرجر صائبه دائما ولكنها هذه المرة الهامة والحساسة أخطأها التوفيق
وارتأت الوزارة عرض الأمر على الجمعية الوطنية مرة أخرى فدعيت على عجل
في هذه الاثناء كان الجنرال ميركور رائد الفرق الحرة ومعه أركان حرب

نوسكه الميجور فون جيلسا يقابلان نوسكه ، ويعرض الأول عليه أن يرفض الاشتراك في توقيع المعاهدة . وأن يكون ديكتاتور ألمانيا ، وعندئذ تقف وراءه كل الفرق الحرة وهيئة الضباط والجيش وأنه هو وضباطه وجنود على استعداد لموتوا ، وليقطعوا أربا في سبيله . وأصاب هذا العرض الوتر الحساس في نوسكه ، فقام واقفا وشد على بد الجنزال ووعدته بأن يكون معهم ، وذهب فعلا إلى الوزارة وقدم استقالته على أساس أن التوقيع سيؤدى إلى سقوط الوزارة - وعدم توقيع المعاهدة ، وسيادة الفوضى ، وسيكون للجيش الحرية في إقامة حكومة .

ووجد الرئيس ايرت نفسه في أزق ، فإذا استقال نوسكه واستقال معه عدد من الوزراء فستسقط الوزارة ، ولن يتيسر تشكيل وزارة جديدة قبل انتهاء مدة الانذار، فالنقط التليفون واتصل بجرونر وطاب إليه افادته بصورة صريحة ما إذا كان الجيش على استعداد للمقاومة . فإذا كان فسيؤيد رفض المعاهدة وستعود ألمانيا مرة أخرى إلى الحرب . ولكن إذا لم يكن هناك أمل ، فيجب على القيادة أن تصارحه بذلك وعندئذ لا يكون هناك مناص من التوقيع . وحمل جرونر الرسالة إلى المارشال الذى قال له « إنك لتعلم - كما أعلم أنا - أن المقاومة مستحيلة » ولكنه رفض الاقرار بذلك علانية وعندما جاء وقت اتصال ايرت نظر المارشال في ساعته وقال « ليس هناك ضرورة لبقائى إنك تستطيع أن تقدم الإجابة للرئيس كما لو كنت أنا » وعندما اتصل ايرت أخبره جرونر أن المقاومة ميثوس منها . وأن المعاهدة يجب أن توقع . وفي المساء أخطرت الجمعية العمومية بفحوى إجابة القيادة وأمكن اقناع نوسكه بالبقاء في الوزارة وقدمت الجمعية الوطنية قرارا غامضا مهتزا ، يصرح للوزارة بتوقيع المعاهدة طبقا لتصويت اليوم السابق وعندئذ أرسلت الوزارة المذكرة التالية للحلفاء .

« إن حكومة الجمهورية الألمانية - خضوعا منها لاقتوة للقاهرة ، ولكن دون هجر لفكرتها عن الاعداله التي لم يسمع بمنلها لشروط الصلح - تعان أنها على استعداد لقبول وتوقيع معاهدة الصلح التي فرضها الحلفاء والدول المرتبطة بهم . »

وجاءت هذه في آخر وقت ، قبل تسعين دقيقة من زحف القوات ، وكان مجلس الأربعة منعقدا وآخر سطر في محضره « أعطيت الأوامر باطلاق النيران » عندما دخل أحد الضباط يلوح في يده بإشارة الحكومة الألمانية .

* * *

كانت معاهدة فرساي شتوما على العالم كله أوقعت به الفوضى والدمار والازمات. وحقت لعنتها على كل شعوب العالم وليس ألمانيا وحدها - كما حقت على المهندسين الأساسيين لها ، فاغتيل ارزبرجر الذي دما إلى قبولها . وهزم فرسانها الثلاثة كليمنصو - ولويد جورج وويلسن في الانتخابات التي أعقبت المعاهدة . ونجى كل واحد منهم عن الحكم ، وعاش كسير القلب حتى أدركته الوفاة

الفصل الثالث عشر

مؤامرة كاب

وقعت معاهدة فرساي في الملابس التي شرحناها في الفصل السابق، وبعد أن عرضت أكثر من مرة على الجمعية الوطنية وامتنعت في أمرها القيادة العليا، وبعد أن اتضح أن توقيع المعاهدة كائنة ما كانت - أفضل من أي بديل آخر. ومع هذا فلم يكبد التوقيع يتم في ٢٨ يونيو سنة ١٩٢٠ حتى ثارت الدواير العسكرية، وانهزمتها فرصة لكي تعيد جذعة أسطورة الطعنة من الظهر Dolchstoss التي تهنتت عنها الحيلة لتبرير طلب الهدنة، وماتلا ذلك كله من أحداث، وطبقا لهذه الأسطورة فإن اليهود والشيوعيون هم الذين قاموا بالثورة في ٩ نوفمبر في وقت كان الجيش - فيما ظنوا - بعيدا عن الهزيمة ومستعدا للمقاومة.

لقد قيل إن الكلمة جاءت عرضا على لسان الجنرال سيرنيل والكولم في سياق حديث له مع لودندورف الذي ما أن سمعها حتى هب واقفا وأكدها فإذا صححت الرواية فإنها تكون رمية من غير رام. لأن التعبير يتجاوب مع أعماق الأساطير الألمانية التي تصور الدور التاريخي والقدر الألماني. بل إن له أصلا حريا في هذه الأساطير، فسيجفريد، البطل الرمزي لألمانيا قد حصن ضد الموت عندما غمس جسده في دم التنين، ولكن ورقة شجرة صغيرة لصقت

بظهره ، وحالت دون أن يغمس مكانها في الدم . وكانت هذه البقعة الصغيرة هي المقتل الذي أوتى منه .

وكان من حسن حظ أنصار هذه الدعوى أن الشواهد التي تعززها كالأخرابات وبروز العنصر اليهودي في الدعوة الشيوعية — وما قام به السفير الشيوعي جوف من جهود . . الخ معروفة ومعلنة ، وأن الشواهد التي تنفيها كاعتراف لودندورف بمعجز الجيش عن المضي وطأبه الهدنة مما يصعب اثباته ، فضلا عن أنها كانت تنفذ الكبرياء القومي على حساب حفنة من الشيوعيين واليهود . ولهذا رزقت ذيوعا وانتشارا ، وآمن بها الكثيرون بما فيهم الذين ابتدعوها أنفسهم .

وكان من أبرز شروط المعاهدة تسريح الجيش والإبقاء على مائة ألف جندي وضابط وعمليا فإن الجيش كان مسرحاً ، ولكن هيئة الضباط وحدها كانت تقارب المائة ألف كما كان هناك الفرق الحرة التي تكاثرت تكاثرا وبائياً في الفترة التي سبقت وعاصرت توقيع المعاهدة ، فضلا عن الفرق التي كانت تجارب في منطقة بحر البلطيق ولم تكن الحكومة لتستطيع شيئا أمامها . بل عندما حوصرت إحدى هذه الفرق تكونت قرقة حرة في برلين وشقت طريقها نحو لاتفيا لإنقاذ الفرقة المحاصرة ، ضاربة عرض الحائط بأوامر الحكومة .

وعندما أمرت الحكومة بتسريح فرقة البحارة الثانية ، التي كانت تحمل اسم الكابتن إيرهاردت ، زحفت هذه وعدد أفرادها قرابة ثلاثة آلاف في مساء ١٢ مارس ١٩٢٠ على برلين وامتنعت أن تقيم إليها فلولا عديدة من مختلف الفرق وفي الساعة الواحدة صباحا . . أصبحت على مشارف برلين .

وعقد نوسكه وزير الدفاع في مكتبه اجتماعا لكبار الضباط لوضع خطة رد هذا الهجوم — ولم يكده يبدأ الحديث حتى قاطعه الجنرال هانزفون سيكت .

قائلاً « إن الجيش لا يطلق النار على الجيش . إذ عندما يحدث هذا فإن أوامر الزمالة بين هيئة الضباط تتلاشى » ودهش نوسكه وتوجه إلى بقية القواد ووجد لفجيعته أن اثنين فحسب من احدى عشر قائدا على استعداد لحماية الجمهورية من التمرد . أما البقية فقد أعلنوا أنهم سيكونون على الحياد ، وللمرة الأولى يكتشف نوسكه حقيقة أصدقائه الضباط وأنهم على استعداد لسحق أى تحرك يقوم به الشيوعيون ، ولكنهم ليسوا على استعداد لمقاومة احدى الفرق العسكرية للمتمردة . وأنه بعد كل ما قدمه لهم لا يعنى شيئا بالنسبة لهم .

واضطر نوسكه وبقية الوزراء إلى الفرار من العاصمة أولا إلى درسدن ثم إلى استوجرت ، وفي الساعات الأولى من فجر يوم ١٣ مارس كانت الجنود المتمردة تدخل « التيرجارتن » ويقابلها الجنرال لودندورف وفي الوقت نفسه وصل إلى برلين أحد كبار الموظفين المدنيين السابقين ويدعى ولفجانج كاب ليرأس الحركة وايكون المستشار .

وتملكتم الحيرة الحكومة في ملاذها القصوى ماذا تفعل ، إنها لا تستطيع رد القوه بالقوه ، فقد ظهر أن « لودندورف » وراء الحركة وأن أحد مساعديه . من أبرز المنظمين لها . وأن أمر الزحف إنما أصدره الجنرال فون لوفتيز الذى قاد عملية سحق قومة الشيوعيين فى يناير . ولم يكن ليجهديها أن تصدر الأمر بإقالته . والواقع أنها نفسها كادت تصبح أسيره فرقة الجنرال ميركر أثناء عملية انسحابها . وكاد الجنرال يقبض على الوزارة بأسرها ولم ينثنى عن هذا إلا بصعوبة ، وبعد أن حذر الوزراء من أن الفرق الحرة كلها تناصر الحركة وتقف وراءها .

فى هذا المأزق تحرك العملاق الذى ظل نائما طوال هذه السنين — الحركة النقابية — فدعا اتحاد النقابات الشعب إلى الاضراب العام — وأيدت الحكومة هذه الدعوة وقد الزعيم النقابى العنيد كارل لين الاضراب من مخبئه فى برلين .

وكانت النتيجة رائمة فقد شل الاضراب كل المرافق وتوقفت كل وسائل الحركة الصناعية والحياه والمرافق والخدمة للمدينة ، ووقفت الطبقة العاملة وقفة رجل واحد بحيث لم تستطع القوات الزاحفة أن تفيد من انتصارها بشيء واضطربت في يدها الأمور فاضطرت إلى أن تنسحب ، وتعود من حيث جاءت وفركاب إلى تمبلهوف حيث كانت تنتظره طائرته أقلته إلى السويد . . . بينما اتجه لودندورف إلى ميونيخ .

وكانت المجموعة الشيوعية بين العمال هي الوحيدة التي رفضت الاشتراك في الاضراب بحجة أنه ليس لها من مصلحة في عداة بين فريقين رجعيين ، اولسكنها تبينت خطاؤها قبيل نهاية الاضراب خاصة وأن اللجان الحليمه رفضت أن تنصاع للتوجيهات السلبية التي أصدرتها « السنترال » أي اللجنة المركزية للحزب .

وفي رأى أحد الكتاب « لم يحدث قبل — كما لم يحدث بعد — أن ظهر تضامن الشعب الألماني واشتراكه عظيمًا كما حدث في قومه كالب Kapp Putsch (كما سميت) ولم يحدث قبله كما لم يحدث بعده ، ان كانت الفرصة مهيأة أمام الشعب الألماني ليخلص نفسه من قوى العداوان والرجعية وليضع أسس ديمقراطية فعالة (١) » .

ولم يغيب عن لجنة الاضراب أن تفاوض الحكومة حول شروط الوضع الجديد فدعت إلى اجتماع ووضعت عددا من المطالب تقبلتها الأحزاب المشتركة في الحكم وكان أبرز هذه المطالب :

١ — معاقبة الذين قاموا بالتمرد أو اشتركوا فيه عقابا صارما .

٢ — اجراء تطهير دقيق في الجيش .

٣ — اجراء تطهير في موظفي الدولة .

٤ — تأميم الصناعات المهيثة للتأميم .

٥ — تكوين حكومة جديدة يكون للنقابات فيها نفوذ حاسم .

والشيء العجيب الذي يدل على أن الحركة النقابية وإن أثبتت فعاليتها في العمل المهني (الاضراب) فإنها تفتقد الوعي السياسي تماما أنها لم تتميز هذه الفرصة للقضاء على التحالف الوزاري الذي أثبت عجزه وفر أمام تأمر العسكريين، وكان يجب ابقاء الاضراب لحين التوصل إلى تحقيق المطالب أو على الأقل تشكيل وزارة قوية من عناصر تمثل الطبقة العاملة حقا . وإذا كان الزعيم النقابي كارل ليجين قد استطاع أن يدير هذا الاضراب الناجح وأن يدير شبكة الحركة النقابية القوية . فإنه كان يصلح دون ريب لتفقد أي وزارة . ولكن شيئا من هذا لم يحدث واكتفت النقابات في بلاهه بقبول الحكومة لهذه المطالب .

صحيح ان نوسكه الكريه قد أجبر على الاستقالة كما أقيل أيضا وزير الداخلية البروسي هاين، ولكن سلبية النقابات وامتناع الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل عن الاشتراك في الوزارة نتيجة لضغط الجناح الشيوعي الذي كان يتزعمه دومينج Daumig جعل التغيير الوزاري لا قيمة لأنه جاء بوزارة ائتلافية أخرى برئاسة هرمان مولر ، وحال دون تكوين الوزارة العمالية التي أرادت النقابات .

إن الفرصة التاريخية الحاسمة قلما تسنح إلا مرة واحدة. وقد منحت الفرصة أمام الطبقة العاملة الألمانية حتى الآن مرتين ، وأضاعوها في المرتين . المرة الأولى غداة الثورة في الأيام الأولى لنوفمبر . . والمرة الثانية في آثار «قوم» كواب .

وفي كلتا المناسبتين عجزت عن ممارسة السلطة وسلمتها دون ضمانات أو استثمارات .

ولاريب أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل يتحمل مسئولية كبرى حتى وإن كان السبب في هذا الموقف هو الجناح الشيوعي الذي كان نوعا من النحس لازم الحزب منذ البداية حتى أودى به في النهاية .

إن فن السياسة لم يكن قط هكذا . . وإلا فلا .

إن هذا يكون في العقيدة وإلى حد ما في الثورة . . ولكن السياسة تتطلب الولوج من مداخل متعددة .

وفي أعقاب نجاح اضراب كواب كان يجب على الحزب الاشتراكي المستقل أن يدخل الوزارة مستندا إلى القاعدة الشعبية والعمالية الضخمة والمنتصرة التي جاءت به ، وأن يقود هذه القاعدة — التي لم يكن ينقصها إلا القيادة — لاستعادة الثورة . . أو على الأقل . . تصحيح مسارها بحيث تتخلص من قبضة العسكريين أو من برائن الأحزاب البورجوازية . . وكانت هذه وتلك تستحوذ على الثورة شيئا فشيئا وتحتويها .

وقد دفع العمال ، كما دفع الاشتراكيون المستقلون ، منا غالبا وسريعا لهذا الغياب السياسي .

ف عندما واصل عمال الرور اضرابهم أرسلت الحكومة كارل سيفرنج زعيم عمال معادن برلين للتفاوض معهم ، وتوصل سيفرنج مع العمال إلى اتفاق حمل اسم اتفاق Bielefeld Agreement في ٢٤ مارس ، وكانت تتضمن بالإضافة إلى مطالب لجنة الاضراب المركزية ، الافراج عن المسجونين وبعض المطالب الأخرى . . ولكن الاضرابات استمرت ، فأرسلت الحكومة الائتلافية الجديد الجيش إلى منطقة الرور لاختضاع العمال وقام الجيش بهذه العملية بوحشية . ولعله رأى فيها فرصة للانتقام من العمال الذين ضيعوا عليه ثروة كواب — فكانت الحكومة عاقبت حلفاءها بأيدي أعدائها .

الفصل الرابع عشر

ثورة بالمراسلة

لم يكذب يمشى شهران على صدام ينيار الدامى (١٩١٩) ، ومصرع روزا لوكسبرج . حتى حدث الصدام الثانى الذى كان نقطة تحول فى توازن القوى ، وأوضح بما لا يدع شكاً أن القوى العسكرية قد أصبحت ذات اليد العليا والكفة الراجحة ..

وكانت قيادة الحزب الشيوعى قد آلت بعد فقد زعيميه الملمهين روزا وليسكنشت إلى ليوجوجيش Leo Jogiches زميل روزا وزوجها الأفلاطونى والذى كان يتولى الأمور التنظيمية والإدارية للحزب ، وكان قد قبض عليه عليه فى صدام ينيار ، ولكن لم تعرف شخصيته ، فأطلقوا سراحه .

وانتهى جوجيش من تحليله للموقف إلى أن قوى الحفاظ والعسكرية تسترد قواها بسرعة بقدر ما تخسر قوة الفريق الثورى ، ففى نوفمبر ، عندما قامت الثورة لجأ القيصر المتعالى إلى هولندا ، وهرب فى آثاره لودندورف ممثل العسكرية الألمانية ، وأصبحت أزمة الأمور فى أيدى مجالس العمال والجنود ولو من الناحية الرسمية . وتحمل الجيش الامبراطورى . وتوارى الملاك والنبلاء بينما سلم أصحاب الأعمال بكل مطالب العمال .

ولكن عجز القوى الثورية عن انتهاز الفرصة السانحة لاستئصال فلول

العهد القديم . أدى إلى عودة هذه الفلول القديمة . وتبين جوجيتش أنه إذا أريد قيام ثورة شيوعية في ألمانيا فيجب أن تقوم بسرعة ، لأن كل يوم يمضي يكسب القوى الرجعية نفوذا . فضلا عن أنه يسمح للجمعية الوطنية بأن تجتمع وتضع دستورا يقوم على أسس ستكون - على أفضل الأحوال - هي أسس الديمقراطية الكلاسيكية الليبرالية وليست الأسس الشيوعية أو الماركسية ..

وانتهى جوجيتش أيضاً إلى نتيجة أخرى أكدتها الوقائع ، ففي كل الانبعاثات والقومات لم تستطع جموع البلوريتاريا أن تقاوم الفرق الحرة ، وانهمزت أمام أسلوبها وتنظيمها وسلاحها ، وأنه لا ينتظر أن تتغير هذه النتيجة ، بل إن إتاحة فرصة لاشتباك مسلح مع الفرق الحرة ستؤدي إلى تصفية البقية الباقية من الحزب الشيوعي والقوى الثورية . ولهذا يجب تفادي هذا الاشتباك .

وكانت ثمرة هاتين النتيجةين هي أن على الحزب الشيوعي أن ينظم انبعاثه جديده تشل الحكومة وتجبرها على التسليم دون الدخول معها في معركة مسلحة تنتصر فيها بفضل جيشها وسلاحها . وليس لهذا من سبيل سوى الاضراب العام . فلن تستطيع الحكومة أن تطلق النار على العمال العزل المضربين وفي الوقت نفسه ، فإن الاضراب يمكن أن يشل الحياة .

وفي يوم ٣ مارس خصصت الصفحة الأولى من مجلة العلم الأحمر لنداء وجه إلى العمال يناشدتهم الاضراب العام وحثهم على الاعتصام بالمصانع في هدوء - وأن لا يسمحوا لأحد باستدراجهم إلى صدام « إن نوسكه ينتظر مثل هذه التعللة لسفك المزيد من الدماء » .

وفي يوم ٤ مارس اجتمع ١٥٠٠ مندوب من مندوبي العمال وانفقوا بأغلبية تزيد على ٩٠ ٪ على القيام بالاضراب ، ووضعوا قائمة بالمطالب التي على

أساس قبولها ينهى الاضراب . وكانت هذه المطالب تتضمن حل الحكومة للفرق الحرة ، وأن تعيد العلاقات التجارية والديبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي وأن تزيد من دور سلطات مجالس العمال ، وكانت هذه المطالب ، كما اعتزم واضعوها ، ليست إلا مقدمة فحسب . فإذا تقبلتها الحكومة فسيكون هناك مطالب أخرى ، ولن تجدد الحكومة وقد جردت من سلطاتها مناصبا من القبول .

وعندما بدأ الاضراب ، بدأ وكأن كل شيء يسير طبقا للخطة المقررة ، ولكن هذا لم يستمر إلا فترة وجيزة ظهر بعدها أن من المستحيل كبح جماح العناصر الثورية في العمال ، أو في المعسكرات الأخرى ، فهاجمت مجموعات مسلحة مراكز البوليس واستولت على قرابة ثلاثين منها وزحف أفراد فرقة بحارة الشعب على مقر البوليس في السكساندر بلاتز واشترك مع البحارة والعمال فلول الميليشيا التي كان أميل ابشهورن قد كونها ، وأخذت تضع الاسلاك الشائكة وتنصب المدافع الرشاشة في للمدينه وحاول جوجيش وزملاؤه عبثا مقاومة هذا الاتجاه ، فقد أفلت الزمام من أيديهم ، وأصبح في يد الثوريين المسلحين الذين أعمتهم انتصاراتهم السهلة الأولى ، أو مفاهيمهم السطحية عن الثورة .

وكانت تلك هي فرصة نوسكه والمعسكريين ، فقد اجتمعت الحكومة وأعطت نوسكه سلطات مطلقة في منطقة برلين ، فأعلن هذا الأحكام العرفيه وبدأ يحرك قواته طبقا لخطة مرسومة يطوق بها برلين ، وكان القتال عنيفا خاصة في الشوارع المحيطة بميدان السكساندر بلاتز ، ولكن الفرق الحرة التي كانت تحت قيادة الجنرال فون لوتفيتيز ، بدأت تتقدم وعندما استعصى عليها الاستيلاء على مقر رئاسة البوليس الذي كان الثوار قد استولوا عليه يوم ٣ مارس ١٧ — ظهر وسقوط

استدعوا طائفة قصفت المبني ، بينما ضربت المباني الأخرى بالقنابل المحرقة ، وفي ٦ مارس استولت قوات الحكومة على ميدان الكساندريلاتز والمناطق المجاورة ، وبدأت عملية تعقب الثوار المنسحبين .

ولم يعد من مبرر للاضراب ، فأعلن انهائه يوم ٩ مارس ولكن هذا لم يؤثر أقل تأثير على سير العمليات العسكرية ، فقد رفضت الحكومة يديها من الموضوع ، وذابت كل الذكريات الاشتراكية القديمة أمام ضرورات السلطة والمآزق التي الجئت إليها . بل إن نوسكة اصدرهنا اليوم نفسه — ٩ مارس — امره المشهور Schiessbefehl باطلاق النار فوراً على أى واحد يحمل السلاح ضد قوات الحكومة ، وارتكب الضباط كل جرائمهم المعهودة وافتملت اشاعات لإثارة نفمة الجنود على العمال وغررت إحدى الفرق ببقايا فرقة بحاره الشعب فأمرتهم بالتوجه إلى مكان معين يوم ١١ مارس لاستلام أوراق تسريحهم ومكافآتهم ، وما أن وصلوا إلى هناك حتى قبض عليهم . واقتاد أحد الضباط ويدعى مارلو تسعة وعشرين منهم واطلق عليهم النار . وكاد هذا الضباط أن يهدم ١٥٠ بحارا لولا أن أوقفه ضابط آخر .

وانتهى القتال يوم ١٣ مارس عندما اطبقت القوات على المكان الأخير الذي تجمع فيه الثوار ، ولما سألوا نوسكة عن شروط الصلح قال « سلوا دون قيد أو شرط . والافلست مستولاً » وسلم البعض بينما آثر الآخرون أن لا يموتوا هرباً وواصلوا القتال حتى قتلوا .

وأُسفرت ممالك الأيام العشرة هن قتل ما بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ من الثوار وجرح قرابة عشرة آلاف وكان من بين القتلى جوجيتش ودورانباخ زعيم فرقة بحارة الشعب وقد أطلق عليهم النار مخبر بوليس واحد يدعى تامشيك .

وتكرر في مارس ، ما حدث في يناير قبل شهرين ٠٠٠

والحقيقة أن المفكر ليدش من سلوك الشيوعيين هذا المسلك مرتين
متتاليتين في برلين وحدها . وكان لهم منأى عن ذلك . . .

فإذا كان اندفاع ليبسكنشت هو الذى ورط الشيوعيين فى القومة الأولى ،
فإن المنطق الدقيق والمحسوب لليوجوجيتش هو الذى أدى إلى القومة الثانية ،
التي لم تسكن بأفضل من الأولى . . .

أخطأ جوجيتش عندما أعتقد أن من الممكن فى مثل الظروف الملتبهة أن
يستمر الاضراب العام دون أن يتحول إلى اشتباك .

وأخطأ فى حساب التوقيت كذلك .

ذلك أن مد القوى العسكريه .. وأنحسار القوى الثورية كان قد بدأ بالفعل ،
وعندما يبدأ المد فإن كل محاولة لابقافه تصبح عبثا ويتعين انتظار وقت الجزر .

ولكن اذا حم القدر عمى البصر . . .

وليس الشيوعيون بعد بدعا فى ذلك ، فقد قرع القرآن أسلافهم فى القديم .
« أفلا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين — ثم لا يتوبون . . .
ولا هم يذكرون » .

وقبل أن يفتى العام كان الجناح الثورى قد فقد معظم قاداته فى يناير قتلت
روزا وليبسكنشت ، وفى فبراير قتل كورت ايزنر وفى مارس قتل
اليوجوجيتش ودورنباخ . . .

وكان فى أصل هذه الانبعاثات كلها الحزب الشيوعى . . .

وكان الحزب الشيوعى قد تكون فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١٨ على أساس
برنامج وضعته روزالو كسمبرج وأشرنا إليه فى حينه ، وكانت كتلة الحزب
هى مجموعة الاسبرتا كوس .

ولكن روزا لم تعش للحزب أكثر من أسبوعين ، وولى شئونهم بعد مصرعها ليوجوجيتش الذى لقي حتفه هو الآخر فى مارس . فألت القيادة إلى بول ليني .

وكان بول ليني محاميا يهوديا من الطبقة الوسطى وعلى قدر كبير من الثقافة والنبوغ . وكان محاميا لروزا ثم معجبا بها وتابعا لها ولكن كان ينقصه وقتئذ العمق الإنسانى الذى وهبته روزا وجعلها تضيق بأساليب لينين وترفض تكوين « الدولية » .

ولا ريب فى إخلاص ليني وتغانيه فى قضية الماركسية ، فلو أنه أراد لوصل إلى أعلا المراكز ولحسب مئات الألوف بفضل نبوغه فى مهنة المحاماه . لقد كان مفكرا من المفكرين الذين تربهم البورجوازية فى حجرها وتقديهم بلبانها ليكون لها صدوا وحزنا وليستخدم كل ازودته به لخدمة الطبقة العاملة . شأنه فى ذلك شأن ماركس وأنجلز وروزا ولينين وكولونناى .

ولكن ليني أوتى من ناحيتين :

الأولى : أن النزعة التنظيمية التى غلبت عليه بحكم تخطيط الحزب من ناحية ، واستعداده الشخصى من ناحية أخرى أسلمته شيئا فشيئا إلى دوامة الضرورات التى اضطرتة إلى إغفال بعض القيم الثمينة التى حرصت عليها روزا ، والتى كانت فى أصل مقاومتها للنزعة التحكيمية عند لينين .

الثانية : أن التطور الاشتراكى العالمى و بروز الدوليه الثالثة جعل له فى المجموعة الشيوعية الألمانية شركاء متشاكسين ، وفى كثير من الحالات . أمسك هؤلاء الشركاء على غير معرفة دقيقة بزمام الأمور أو التوجيه .

وهذه العوامل كلها : الأصل البورجوازى ليني . ونبوغه الفكرى والمهينى ومقدرته التنظيمية ، وما تركته روزا له من تراث . وما اضطرتة الأحوال من

مشاركة للكونغرس آونة ومعارضة له آونة أخرى جعلته شخصا فذا . وعندما مات في ١٤ فبراير سنة ١٩٣٠ حضر جنازته جموع غفيرة من أعلى المستويات الثقافية والفنية والاجتماعية إلى أدناها .

وورث ليفي عن روزا معارضة انبعاثات وقومات الحزب الشيوعي ومحاولاته السيطرة على الحكم بالثورة ، وكان هذا الاتجاه يتفق تماما مع اتجاهاته وميوله الخاصة . وقد انتقد كل هذه الصورة من النشاط في ميونيخ وفي المجر . وهاجم دعوى رادك عن أن الهزائم التي حدثت في المجر تدعم الوعي الطبقي فيه .

وفي أعقاب نكسه مارس أراد ليفي أن يشفي الحزب من دائه الانقلابي العضال . فاستبعد كل ذوى الميول السينديكالية والانقلابية وأدى هذا إلى تقلص الحزب من ١٠٧ ألف إلى أقل من نصف هذا العدد وشكلت المجموعة المنشقة الحزب الشيوعي الألماني KAPD . وعندما حدثت قومه كاب — كان ليفي في السجن . وكان الذى يشرف على الحزب هو اوجست تايمر August Thalheimer الذى تردد طويلا فى مناصرة الاضراب العام بحجة أن من الخطأ تأييد « اشتراكي الثورة المضادة ضد رجعي الثورة المضادة » ولم يقف موقف التأييد الاقرا به النهاية . . وانتقد ليفي هذا الموقف .

وفي هذا الوقت تقريبا كان المؤتمر الثانى للكونغرس يجتمع فى يوليو سنة ١٩٢٠ ويضع خطين أساسيين لسياسته تلقاء الأحزاب الاشتراكية فى مختلف دول العالم . الخط الأول تشجيع تكوين أحزاب شيوعية جماهيرية . وذلك يجذب جماهير الأحزاب اليسارية دون قياداتها ، وصهر هذه الجماهير فى بوتقة الحزب بوسائل الضبط والربط « والمركزية الديمقراطية » المدعاه . والثانى جعل الأحزاب الشيوعية تابعة تبعية تامة للكونغرس بحيث يضع (أى الكونغرس) الخطط والتوجيهات وتصبح الأحزاب مجرد هيئات تطبيقية ، ولتحقيق هذا

الهدف المزدوج وضع المؤتمر الثانی للکومنترن الواحد والعشرين نقطة المشهورة . فقد كانت من ناحية تجذب الجماهير دون القيادات لأنها تنص على استبعاد القيادات الصفراء ، العميلة ، الانتهازية . الخ . ولأنها كانت تتضمن التبعية التامة للکومنترن .

وقد كانت هذه النقاط أولا تسع عشر ، ولكن لما اعترض مندوبان الفرنسيان کاستين وفروسارد على بعض ما جاء بها أضيفت نقطتان تقضى الأولى منهما بأن يعاد تنظيم كل الأحزاب الشيوعية بحيث يكون ثلثا أعضاء مجالس الإدارات من الذين اعترفوا بالکومنترن قبل المؤتمر الثانی ، وتقضى الثانية فصل كل الذين يعترضون على النقاط الواحد والعشرين .

وفي الدنيا كان الحزب الاشتراکی الديمقراطي المستقل هو الفريسة المشتهاه من الشيوعيين التي أريد الاستحواز عليها عن طريق هذه النقاط . ففي الانتخابات التي سبقت المؤتمر الثانی للکومنترن أكتسب الحزب قرابة خمسة ملايين صوت في حين لم يکسب الحزب الشيوعي سوى نصف مليون . وكانت خطة الشيوعيين هي ايقاع التفرقة في الحزب بحيث تنشق المجموعة الكبرى ، وتنضم للحزب الشيوعي . ولم يكن هذا عسيرا عليهم بحکم تداخلهم المستمر في الحزب ، وبذلك تمسکنوا من أن یقرر الحزب في مؤتمر لیبزج (١٩١٩) الانضمام إلى الکومنترن . وفي المؤتمر الثانی ذهب وفد من الحزب إلى موسكو لمناقشة الأمر حيث عرضت عليهم الشروط الواحدة والعشرين للانضمام ، والتي كانت جملة وتفصيلا مما لا یسکن للقيادات قبولها .

وعندما نوقش هذا الأمر في مؤتمر الحزب في هال في أکتوبر ١٩٢٠ أرسل الکومنترن رئيسه زينو فيف ، کما قام ليني بدور كبير لا یتناسب أغلبية الأعضاء . . .

ووصفت تونى ساندر التى كانت عضوا بالحزب والرشتستاج كيف أن زينويف حضر بنفسه ليتأكد من تزيق أفضل حزب ثورى فى ألمانيا، وكيف جاء مختالا، زهوا كأنه «بريمادونا حسنة التغذية ومحاطا بشلة من المعجبين الشبان» ولاحظت ما لم يلاحظه هؤلاء: دخول الزعيم الاشتراكى والمكافح القديم «مارتوف» الذى سجنه القياصرة ثم جاء البلاشفة فعادوا سجنه، ونفى أخيرا، وكان يقضى سنواته الأخيرة ضاويا عليلا يعبت به السل الذى أصيب به فى سجنه.

وتحدث زينويف أربع ساعات فى عرض البدائه الشيوعية لدرجة أثارت الفيظ وجعلت تونى ساندر تمنع نفسها بصعوبة من أن تصيح «إننا لسنا موجيك^(١)» ثم تحدث عن الثورة السوفيتية وأعدادها دون أن يشير إلى الشروط الواحدة والعشرين المسمومة ..

وقام رودلف هيلفردينج بالرد عليه . ولم يكن هيلفردينج خطيبا فقد كان كاتباً ومنظراً ، ورئيساً لتحرير كبرى الصحف الاشتراكية ولكن كان لديه من اللبواهى ما يثيره وما يجعله يفند خلال ثلاث ساعات إداءات زينويف . وحذر من استخدام الارهاب ومن أن هذه الطريقة ستبعده الحزب عن الجماهير وتضعه للفساد والديكتاتوريه .

ولكن هذه النبوءه لم تكن لتعنى شيئاً وقتئذ . كان لابد أن تمر سنوات وسنوات قبل أن يفصل ليفى من السكومنترن ، ومن الحزب نفسه ، وقبل أن يواجه زينويف طابور الأعدام بعد الفصل والحماكة؛ وقبل أن تصبح الاحزاب الشيوعية أدوات طبعة فى يد متالين، أما فى اكتوبر

(١) الفلاحون الروس ، وكان يضرب بهم المثل فى العنف والفتوحه والجماهه ..

سنة ١٩٢٠ . فقد كانت شخصية زينوفيف ، ولباقة ليفي ، « وصيت » الثورة
الباشفية المدوى من القوة بحيث أعمت أغلبية الاعضاء ، فوافقت على النقط
المسمومة وكونت مع الحزب الشيوعى الحزب الشيوعى المتحد VKPD (١) ،
وتحمل الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل وفي ٢٤/٩/٢٢ عادت البقية منه
إلى الحزب القديم (الحزب اشتراكي الديمقراطي — الأغلبيية) وذابت فيه ،
وإن رفضت ذلك قلة على رأسها ديبور ، وهذه الطريقة فقدت فإيمار حزبا
الموعدود والوحيد الذى كان يمكن أن يتوسط ويتصرف طبقا لما تقتضيه الحكمة ،
وأصبح ليفي رئيسا لحزب جماهيرى يبلغ ٣٥٠ ألفا وحاول أن يسير به بعيدا عن
التورطات فى الانقلابات ، ولكن القدر كان يدخر للحزب وليفي غير
ذلك . .

ففى يناير سنة ١٩٢١ شهد ليفي ممثلا للشيوعيين الالمان مؤتمر الحزب
الاشتراكي الايطالى الذى عقد فى ليفورنو ، وأريد فيه إرغام « سيراتى » زعيم
الحزب على تطبيق الشروط الواحدة والعشرين ، ولكن سيراتى لم يؤخذ
بإرهاب الكومنترن وأدى هذا إلى تصدع الحزب وانتقد ليفي طريقة تدخل
الكومنترن ، وإن وافق عليه من ناحية المبدأ ، وعند عودة راكوسى ،
مندوب الكومنترن فى ايطاليا إلى روسيا بطريق المانيا توقف فى برلين
حيث عرض موقف ليفي على اللجنة المركزية ، ولما أدانت اللجنة ، بأغلبيية
ضئيلة ، هذا الموقف . استقال ليفي من اللجنة المركزية وأستقالت معه
كلارازاتسكن وثلاثة اعضاء آخرين ووقع لحزب مرة أخرى فى أيدي « الصقور »
التي كانت تناصر سياسة هجومية . خاصة بعد أن اتخذ الكومنترن نفسه
هذه السياسة .

(١) أسقطت الـ ٧ الأولى من اسم الحزب من أغسطس سنة ١٩٢١ .

وفي مارس سنة ١٩٢١ ظهر بلاكون مساعد زينو فيف ويمثل الكومنترن في برلين حاملا تعليمات إلى الحزب الشيوعي، تلك هي أن هناك حالة ثورية في المانيا، وعلى الحزب أن يقبض على السلطة .

وحدث وقتئذ (١٦ مارس) أن أمر اوتو هورسنج حاكم سكسونيا البوليس بأحتلال المناجم ردا على مازعم وقوعه من اضرابات وسرقات ، وقدمت هذه الواقعة تعله لبدايه القومة الشيوعية المنشودة ونجحت الوسائل الشيوعية في حمل عمال المناجم في مانسفيلد ، والسكياويات في هال على الثورة المسلحة . ولإستحداث الحركة أعلن الحزب الشيوعي الاضراب العام في ٢٤ مارس وسيطر الشيوعيون على مباني بلدية هامبورج . وفي ليزج وبقية مدن وسط المانيا وجه الشيوعيون هجومهم نحو المحاكم والبنوك وأقسام البوليس بينما حفر عمال مصانع النروجين الضخمة في ليونا الخنادق حول المصانع وتسلحوا بالبنادق والقنابل اليدويه . .

ولسكن هذه الجهود رغم ما ظهر فيها من فدائية وبطولة — خاصة تحت قيادة الفوضوى ماكس هولز — كانت جزئية . وحاول الحزب الشيوعي أن يعرض ذلك بأن يدفع المتمطلين لقتال العمال الذين واصلوا العمل . وتخبط الحزب ، وفي ٣١ مارس انتهى الاضراب بعد أن قتل مئات من أخلص الشيوعيين وقبض على الالوف وخسر الحزب ما بين نصف وثلث اعضائه بحيث هبط إلى قرابة خمسين ألفا .

وأصبح الفشل في عملية مارس March Action — كما أطلق عليها —، موضوعا لصراع حزبي وجدل مذهبي . وأرسل ليفي الذي شاهد العملية كمراقب خطاباً شديداً إلى لينين يبرىء نفسه ، وعندما اجتمعت اللجنة المركزية للحزب في ٧ — ٨ أبريل لمناقشة الأمر إدعت أن الاجراء كان خطوة هامة لكي يكون

الحزب حزباً ثوريا واضطر ليفي - لكي يفند هذا الزعم ، وبعد أن جرد من كل سلطاته - أن يكتب رسالة نشرها على الملأ ووزق فيها دعاوى الحزب اشلاء واتهم الحزب والكونمترن بأرتكاب « اعظم حركة انقلابية باكونينية في التاريخ » وان الحزب اسماء العمل ، كما أن مندوبي الكومنترن - من نوع بيلا كون - لم يكن لهم لا الخبرة ، ولا المكانة التي تجعلهم نافعين للحزب ، وأعتبرت اللجنة المركزية للحزب هذه المخالفة لقواعد الانضباط الحزبي خيانه للحزب . وفصلته ، وعندما أستأنف أمام الكومنترن قرار الفصل بدأت محاولات تشويه « المارق renegade » ليفي ونشر رادك مقالا ندد فيه بشخصيه ليفي ، وأدعى أنه انتهازي ، ومثقف متفسخ وأحد بلشفيك الصالونات ، وأنه لم يكن أبداً محلاً للثقة وترك مكانه كجيبان . ورد ليفي في أغسطس بنشر سلسلة من الخطابات أرسلها رادك إلى بعض اتباعه من أعضاء اللجنة المركزية مثل براندار ، وثلهيمر وفرويش تثبت أنه كان يسعى لتكوين « عصبه » خاصة لمعارضته ، وفي المؤتمر الثالث للكونمترن الذي اجتمع من ٢٢ يونيو إلى ١٢ يوليو عرضت كل من شيعة ليفي واللجنة المركزية دعاواها . وناصر رادك وبخارين وزينو فيف اللجنة المركزية ، بينما ناصر ت كلارا زاتسكين ليفي ودافعت عنه ، وارتأى لينين وتروتسكي وكامنيف أن التطور العالمي من ناحية والأحوال في الاتحاد السوفيتي من ناحية أخرى تقتضى النكوص عن السياسة الهجومية ، والأخذ بالسياسة الدفاعية والتسلل إلى الأحزاب البورجوازية والنقابات ودعمت قيادة الحزب الشيوعي الألماني إلى أن تقدر في المستقبل ظروف العمل مسبقا ، وأن تلاحظ المركزية الديمقراطية .

وهكذا طرح الحزب الشيوعي الألماني والكونمترن السياسة الهجومية ، فلما سنحت له للمرة الأخير - فرصة العمل الايجابي تردد حتى ضاعت الفرصة . .

وكانت هذه الفريضة هي احتلال فرنسا لمنطقة الرور ، وما سبق ذلك من تضخم مالي وبطالة ، وما عقبه من اجراءات استنزافية قامت بها السلطات الفرنسية بعد أن أعلن العمال المقاومة السلبية في منطقة الرور .

كان الجو مهيئاً للثورة ، وتضاعفت هذه الحالة النفسية تلقائياً إلى إضراب عام بدأ في برلين وانتشر منها إلى غيرها من المناطق ، واستهدف اسقاط حكومة كينو التي أصبحت رمزا لكل ما يكرهه الشعب وفي ١٢ أغسطس سقطت الوزارة . .

وفي رأى أحد الكتاب .

« بعد إضراب كواب ، يمد إضراب كينو اعظم اجراء جماهيري قامت به الطبقة العاملة الألمانية ، على أنه كان هناك فروق أساسية بين إضرابين . ففي مارس سنة ١٩٢٠ — استجابت الطبقة العاملة لنداء تقاباتها وحكومتها معا ، ولكن مثل هذا النداء لم يصدر في أغسطس سنة ١٩٢٣ لا من النقابات ، ولا من أى حزب من الأحزاب العمالية . لقد كان إضراب كينو اضراباً تلقائياً تاماً ، ويمكن لهذا السبب أن يعد فريداً في تاريخ الحركة العمالية الألمانية . فقد تقلد مندوبو العنابر والزعماء المحلبون لعمال زمام المبادرة ، وقادوا الحركة ولم تفتن الاحزاب إلى ما يدور إلا بعد أن أصبحت حركة هذه الجماهير واقعة . وكان لهذا نتائج هامة ، فقد استنزفت الحركة واستنفدت كل قوتها بعد أن حققت غرضها — أى استقالة الحكومة — وكان استغلال هذه الحالة الثورية والنجاح هي المهمة المدخرة للأحزاب السياسة^(١) » وبالذات الحزب الشيوعي الذي كان قد أخذ ينهض من كبوة مارس ، وأخذت للمواقف السياسية العقيمة للحزب الاشتراكي الديمقراطي تدفع العمال دفعا للحزب الشيوعي .

(1) Hammer or Anvil p. 92-93

كان الحزب الشيوعي يدرك ذلك ، ولكنه خلال الفترة الحاسمة من يوليو إلى أغسطس تردد . ولم يستجمع شجاعته ، وتراءى له شبح « عملية مارس » وآثر أن يتلقى التوجيهات من الكومنترن الذى كان بدوره يراقب الحالة ، ويتخلص شيئاً من آثار الأحداث والسياسات السابقة . كما كان الروس - سادة الكومنترن بالطبع - يتخوفون من سياسته سترسمان وتقربه إلى الغرب ، وأخيراً فقد كان هناك اعتقاد تملك بعض قادة الكومنترن أن ألمانيا ستتم بتجربة « أكتوبرية » تماثل تجربة الاتحاد السوفيتى .

وفي اجتماع سرى عقده « البوليتبرو » الروسى فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٣ تقرر أن يتعاون الحزب الشيوعى الروسى والكومنترن والحزب الشيوعى الألمانى للقيام بثورة . وعينت قيادة عليا من خمسة أشخاص تضم رادك ممثل الكومنترن وبياتا كوف وانشليكht (من البوليس السرى) وشميدت وزير العمل وكريستنسكى Krestinsky الوزير السوفيتى المفوض فى ألمانيا لتوزيع الأموال اللازمة ، وقرابة آخر الشهر استدعى براندلر للتشاور واستدعيت بعده فيشر وماسلو وتالمان الذين يمثلون المعارضة اليسارية فى الحزب الشيوعى الألمانى واستمرت المداوالات بين هؤلاء جميعا حتى انقاد براندلر - الذى كان يتخوف المخاطره - للحماسة الروسية والتفاوض الذى جعل زينوفيف يتنبأ بأن ٢٢ مليوناً من العمال الألمان سيسهمون فى الثورة المقبلة ، واقترح تروتسكى جعل يوم الثورة ٧ نوفمبر ، وطلب براندلر ان يرسل تروتسكى إلى ألمانيا لقيادة الثورة ، ولكن البوليتبرو أرسل بياتا كوف .

ووضعت ترتيبات خطة كبرى يفز فيها الشيوعيون أولاً حكومة سكسوفيا ذات الاتجاهات الاشتراكية ، ويفعل الشيء نفسه فى تورنجيا وفى الوقت نفسه تبعاً للمثلث البلوريتارىه . Proliterian hundreds وهى المليشيا التى دربها

الحزب والخبراء السوفيت ويستشار العمال بحيث يمكن للقومة أن تكون في مجموعها ثورة ناجحة .

وكانت هذه كلها مجرد تهيؤات . .

فأولاً : وقبل كل شيء ، أن المد الثورى الذى كان قد تعالى في يوليو أخذ ينحسر شيئاً فشيئاً مع نهاية أغسطس بحيث استعادت الحكومة بسلسلة من السياسات الاقتصادية والسياسية زمام المبادرة . .

وثانياً : كانت العملية مقسمة ما بين ثلاث جهات هي الحزب الشيوعى الألمانى . والحزب الشيوعى الروسى ، والكومنترن . ولكل واحد من هؤلاء اعتزازه ، ومنطقه ، وتخوفه من الآخرين . .

وقد نجحت بعض اجزاء الخطة ، فبين ثلاثة من الشيوعيين في حكومة سكسونيا . ولكن الحكومة الاتحادية أمرت الجنرال مولر بالزحف على سكسونيا واعادة النظام إليها . وبهذا هزمت الثورة قبل أن تبدأ . .

على أن فشل هذا الجانب من الخطة لم يؤثر على مضمون بقية الجوانب التي كانت الاطراف الأخرى في العملية تقوم بها فالاتحاد السوفيتى كان قد أصدر الأمر إلى عدد من ضباط المخابرات السوفيتية بالسفر إلى ألمانيا ، وعلى رأس هؤلاء و.ج. كريفيتسكى W.G. Krivitsky الذى سجل أحداث هذه الفترة في كتابه « كنت عميلاً لستالين » .

ويقول كريفيتسكى أنه وبعلمه عمداً على الفور إلى العمل ، وكونوا ثلاث أنواع من المجموعات من بين أعضاء الحزب الشيوعى هي أولاً إدارة مخابرات الحزب التي كانت تحت إدارة القسم الرابع بالجيش الأحمر ثانياً تشكيلات عسكرية تصالح لتكون نواة الجيش الأحمر الألمانى ثالثاً وحدات صغيرة من الرجال مهمتها إفساد معتوية الجيش والبوليس — ووضع على رأس إدارة

مخابرات الحزب هانز كينبرجر^(١) Hans Kiepenberger الذى استطاع أن يعمل بدأب وصبر ليضع رجاله فى كل الهيئات والمنشآت حتى فى الجيش .

وكان تكوين التشكيلات العسكرية من وحدات كل وحدة من مائة رجل . وضمت كل وحدة الأعضاء الذين حاربوا خلال سنوات ١٤ — ١٨ طبقاً لنوعيتهم العسكرية ، وبدأت عملية استخلاص الضباط والفنيين من بين هذه المجموعات كما نظمت وحدة من النساء كمرضات .

واعمد الحزب الشيوعى عمدته للقيام بالثورة ، وأخذ ينتظر اللحظة الحاسمة ، لحظة صدور الأمر بالثورة ، وكان الذى سيصدر هذا الأمر هو زينويف رئيس الكومنترن .

وأخيراً قيل إن الأمر قد صدر، ووصل تلغراف بذلك إلى اللجنة المركزية، وأسرع رسل الحزب إلى كل لجنة أو فرع ، واستخرجت البنادق من مخابئها استعداداً لساعة الصفر . .

ولكن قيل إن تلغرافاً من « جريشا » ، وهو اسم الشفرة لزينويف ، قد وصل وهو يؤجل الثورة . .

ومرة أخرى أسرع الرسل بالأوامر الجديدة والانتظار لميعاد آخر قريب . .

(١) وكانت نهايته هى للنهاية التقليدية للشيوعى . وفى سنة ١٩٢٧ انتخب نائباً فى الرشتاج وعضواً فى لجنة البعثون الحربية ، ولما كان يعتبر نفسه ممثل الكومنترن فى هذه اللجنة ، أقدم المخابرات السوفيتية بمعلومات ثمينة . وظل فى ألمانيا لفترة بعد حكم هتلر يواصل العمل السرى للحزب حتى استطاع فى خريف ١٩٣٣ الفرار إلى روسيا ، وفى سنة ١٩٣٦ قبض عليه باعتباره جاسوساً نازياً وطلب منه الاعتراف بأنه كان فى خدمة المخابرات الألمانية . ومع انه رفض إلا أن ستة أشهر من « الاستجواب » جعلته يعترف . . بعد أن ظل يردد « إن مسماراً فى رأسى أصلونى شيئاً لأنام » .

ولم تسكد أنفاس هؤلاء الرسل تهادى حتى قيل إن تلغرافا جديدا وقد وصل،
ومرة أخرى أسرع الرسل . .

وظلت هذه اللعبة مستمرة — لعدة أسابيع . . تنوالى تلغرافات جريشا . .
حتى بدا أن هذه الثورة بالمراسلة لن تبدأ أبدا . .

وأخيرا جدا وصل التلغراف المنتظر ، والذي اعتقد أنه الأخير ولن
يكون بعده تأجيل . .

ولكن فى آخر دقيقة . وقبيل الميعاد بفترة قصيرة جدا فوجيء الحزب
بتلغراف يؤجل الثورة ، فأرسلت التعليمات على وجه السرعة إلى فروع الحزب .
ولكن هذه التعليمات لم تصل إلى فرع هامبورج قبيل الميعاد ، ونتيجة لذلك ثار
شيوعيو هامبورج واحتلوا بالليل عددا من مراكز البوليس ، ودعوا فى الصباح
التالى إلى الاضراب العام ، ولكن بقية عمال هامبورج الذين لم يفهموا السر
فى هنا ، ولم يجدوا من بقية عمال المدن الأخرى ما يساعدهم على الفهم أو يشجعهم
على التجاوب رفضوا ، فوقف شيوعيو هامبورج وحدهم ، وتعرضوا وحدهم
لوطأة الجيش الذى سحق تمردهم بعد ثلاثة أيام من مقاومة عنيفة انتهت
بإستئصال معظم الشيوعيين ، بينما دخل الجيش بقيادة الجنرال فون سيكت
مدينة درسدن واسقط حكومة سكسونيا الاشتراكية ولاقت حكومة تورنجيا
المصير نفسه ، كل هذا دون أن يتحرك الشيوعيون الذين التزموا بتلغراف
التأجيل . .

كانت قومة أكتوبر هى الفرصة الأخيرة التى منحت للشيوعيين . .
وهو ما يعترف به التحليل الشيوعى نفسه لفترة ما بعد الحرب إذ يجعل من
انبعاث أكتوبر الفاشلة نهاية للمرحلة الأولى التى يرمز لها بالموجه الثورية
Revolutionary wave.

وقد كان التطور كريمة أمام الشيوعيين ، وأتاح لهم ثلاث فرص سابقة في يناير ١٩ ، ومارس ١٩ ومارس ٢١ وأضاعوها جميعا بطريقة واحدة ، ودون أن يحاولوا الافادة من أخطائهم أو تغيير مواقفهم ، حتى ليتمكن القول أنهم أحق من البوربون بما قيل عنهم من أنهم « لا ينسون شيئا ولا يتعلمون شيئا » . . أو ممن قال عنهم القرآن « لا يتوبون . . ولا هم يذكرون » . .

* * *

إن مؤامرة كاب العسكرية وانبعاث « جريشا » الشيوعية تصوران أصدق تمثيل الموقف الذي اضطرت الجمهورية الناشئة لأن تقفه بين نارين :

نار العسكريين من اليمين .

ونار الشيوعيين من اليسار .

كان الموقف كموقف طارق القديم ما بين البحر والمدور .

وكانت الجمهورية في حاجة لمثل عزيمة طارق أو نخيلة شوق لتتري في هذا

الموقف . . اليأس خاف ، والرجاء إمام

الضعف والاحجام فيه اذا هما

قتلا ، فأقتل منهما الاحجام

ولكن لم يكن لدى جمهورية فايمار عزيمة طارق أو نخيلة شوق . .

وكان لا بد أن تحترق في النهاية . .

الباب الرابع

سنوات التحول

- الفصل الخامس عشر : الديمقراطيةية المزملة في معسكر الأعداء ..
- الفصل السادس عشر : التقابلات تدفع الثمن ..
- الفصل السابع عشر : من الانهيار إلى الإزدهار ..

الفصل الخامس عشر

الديمقراطية العزلاء في معسكر الاعداء

ليس من العسير على من يتابع مجرى الأحداث في الجمهورية الناشئة أن يرى أن المجموعات الثورية قد استنفدت قوتها خلال السنوات الخمس الأولى للجمهورية في قومات طائشة لم ترزق التنظيم الدقيق أو التوقيت السليم ، وأنها بذلك خسرت المبادأة وسمحت للمجموعات العسكرية والرأسمالية باستعادة قواها وتنظيم صفوفها بحيث كانت سنة ١٩٢٣ سنة فاصلة ، فقد انطلق التحول الذي كان كامنا في طبيعة وملابسات الثورة دون أن تقفه أو تكبح جماحه حركات جماهيرية كالتى حدثت حتى ذلك الوقت .

وأخذ هذا التحول عددا من الصور كان أبرزها تقهقر الحزب الاشتراكي الديمقراطي أمام أحزاب الوسط أو الاحزاب الرجعية ، وهيمنة العسكريين على الحياة المدنية ، وانتصار الرأسمالية على الحركة النقابية .

ومتابعة تطورات التشكيل الوزاري تمكس تقهقر الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، فحتى في الانتخابات الأولى وجد الحزب أنه ، وإن نال أكبر عدد من الأصوات ، إلا أنه وحده يعجز عن تشكيل الوزارة . وأن عليه أن يدخل في ائتلاف مع أحزاب لم تكن تؤمن تماما بالجمهورية ، وهي حقيقة ذات مغزى لا يقتصر على المجال السياسي وحده . .

على كل حال ، كان يمكن تقبل هذه الحقيقة ، على ما فيها ، ما ظلت الأغلبية للحزب الاشتراكي . ولكن هذه الأغلبية لم تبق طويلا ، ففي الأسبوع الأول من يونيو سنة ١٩٢٠ ، وفي أعقاب موامرة كلب التي كان يمكن أن تؤدي إلى تشكيل وزارة عمالية ، فقد الحزب أغلبيته ، ولم يظفر إلا بأقل مما يظفر به من عامين . ورأس الوزارة كوستانتين فهرنباخ من حزب الوسط ، وتلاه (من مايو ٢١ حتى نوفمبر ٢٢) جوزيف ويرث ثم (من نوفمبر ٢٢ حتى أغسطس ٢٣) ولهدم كنو . وفي أغسطس سنة ٢٣ شكل ستريمان الوزارة وتماقب بعد ذلك على المستشارية ولهدم ماركس . وهانز لوثر . . ولم يستعد الاشتراكيون الديمقراطيون قوتهم ، أو تشكل الوزارة برئاسة مستشار منهم إلا سنة ١٩٢٨ عندما شكل هرمان مولر وزارته ، وكانت وزارة أشخاص ، وكان وزير الخارجية فيها ستريمان وفي ٢٧ مارس سنة ١٩٣٠ استقالت . . ومن هذا التاريخ وقد فقد الحزب الاشتراكي الديمقراطي ليس فحسب الأغلبية . بل أيضا الوزن الذي يفترض أن يكون لمثل هذا الحزب وأصبح لعبة الأحداث . . . حتى اكتسح النازي النظام بأسره وقضى على جمهورية فايمار .

حقيقة إن علينا عندما نحاسب الحزب الاشتراكي الديمقراطي على ضعفه ونهقه . أن نضع في هذا الحساب أن قسما من المسؤولية لا يعود إلى الحزب نفسه ، ولكن إلى الحرب الضارية التي شنها عليه الشيوعيون الذين جعلوا أنفسهم حلفاء متطوعين للرأسماليين في القضاء على الحزب الاشتراكي . واستخدموا في هذا السبيل من الأساليب والتكتيكات الشيوعية ما كان يمجز الرأسماليون عن استخدامها ، ومع أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي مسئول — جزئيا — عن هذا أيضا إلا أن قسما كبيرا من المسؤولية لا يعود إلى الحزب قدر ما يعود إلى شأن العداوة والعمى المنهجي الذي أصيب به

الشيوعيون وكانوا هم أنفسهم الضحية التالية له ، بعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي .

* * *

وهناك ظاهرة أخرى تكشف عنها هذه التطورات وتظهر لنا نقصا خطيرا لا في سياسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، ولكن في بنية الجمهورية ونظامها الأساسي ، فقد تأثر واضعوا دستورها بالنظام البرلماني في بريطانيا والولايات المتحدة ، ولكنهم نسوا أن هاتين الدولتين تأخذ بنظام الحزبين ، وأن هذا النظام بدوره يعود إلى ملابسات وجدور تاريخية لم تمتأ لألمانيا ، ونتيجة لهذا أفسح النظام البرلماني في ألمانيا المجال لظهور عدد من الأحزاب ، لم يكن كبيرا فحسب ، بل إنه أيضا كان يمثل تعارضا في الاتجاهات ، فالأحزاب المحافظة على اختلافها كانت تؤثر الوضع الامبراطوري القديم . والحزب الاشتراكي الديمقراطي يناصر البرلمانية الديمقراطية ، والحزب الشيوعي لا يؤمن الا بديكتاتورية البلوريتاريا . ولما لم يكن لأى حزب من هذه الأحزاب قدرة على نيل الأغلبية أو تشكيل الوزارة ، فقد كان عليها أن تدخل في ائتلاف . ولكن الخلافات لم تكن تسمح بأن يمضى هذا الائتلاف طويلا . كان الاختلاف أكبر من الائتلاف مما أدى إلى عدم فعالية العمل ثم سقوط الوزارة . . خاصة وأن الأحزاب المعارضة التي ترصد للوزارة كانت تملك — في معظم الحالات — من الأصوات ما لو اجتمعت لكونت الأغلبية وأسقطت الوزارة .

وظهر هذا جلليا في تعدد الانتخابات ، وقصر مدد الوزارات بحيث لم يكن من النادر ان تجرى الانتخابات مرتين في السنة الواحدة ، ولم يكن من شأن هذه اللعبة الحزبية استقرار الأمور في أى بلد ، فضلا عن ألمانيا التي كانت تتميز بها الخلافات وتبتهظها بمعاهدة فرساي

ومع أن هذه قضية لانزاع فيها ، فلكي نكون عدولا وعارضين لكل الحقيقة ، وليس لجزء منها ، فإن علينا أن نتصور موقف واضع دستور فايمار في تلك الأيام المكفهرة من عام ١٩١٩ . عندما كانوا يكفون على مهمتهم القاسية . . فإذا كان البديل ؟ هل البديل هو مجالس العمال والجنود التي لم تكن مؤهلة للحكم بديل تنازلها عن صفتها كهيئة حاكمة ، ومناصرتها للنظام البرلماني . ولو قدر لها البقاء لأصبحت - دون أقل ريب - مطية الشيوعيين ؟ هل يكون البديل الحزب الواحد ؟ إن هذا البديل مرفوض لأنه لم يكن يعني شيئا إلا الحزب اللينيني المقيت ، والديكتاتورية . . هل كان يتصور تكوين حزبين بالأمر ؟

لقد اعتقد واضعو دستور فايمار أن ليس هناك إلا مخرج واحد هو ما انتهوا إليه ، وبالفعل فلم يكن في الفقه الدستوري الديمقراطي ما يمكن أن يقدمه غير ذلك . وقد حاولوا علاج هذا النقص بوضع المادة ٤٨ التي كانت تعزز وضع رئيس الجمهورية وتمنحه سلطات تكاد تكون مطلقة في حالات معينة ولكن هذا حل « اجرائى » . وهو أشبه بعلاج الازمة برفع سعر الخصم أو اتباع سياسة انكماشية . . . وفي كثير من الحالات يكون له أثر عكسى . .

لقد كان الحل الوحيد ، مادام الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد آثر الديمقراطية البرلمانية أن يحكم بالأغلبية ، اعنى أن يحرص على أن تكون له الأغلبية المطلقة التي تمكنه من تشكيل الوزارة دون شركاء . وأن يعمل باستمرار على كسب القاعدة الشعبية ، وبهذا يستطيع إن يحكم بقوة وفعالية دون أن يخشى المعارضة لأنه يظفر بالأغلبية .

وبالطبع فإن هذا ليس سهلا أو هينا . ولكن من قال إن الحكم سهل أو هين ؟ إنه لمقعد الشرف والخطر . . والتعب والدأب ويجب على كل من

يتصدى له أن يضع هذا نصب عينيه ، فإذا لم يكن له أهلا ، فليقدم في بيته مع القاعدين ..

وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطي يستطيع بفضل دفعة الثورة ومدىها العالى أن يهتبل الفرصة ليتخذ الاجراءات الحاسمة التي يعزز بها مركزه ، يقدر ما يوهن بها مركز أعدائه ، ولكن سيامتته المائة خلال الشهرين الحاسمين — نوفمبر وديسمبر — كانت كافية لأن تفقده الأغلبية المطلوبة. وأن تقفل الباب في وجهه من أول انتخاب ..

لقد ظن الاشتراكيون غداة إكتسابهم ١٦٣ مقعدا ، وتفوقهم على أى حزب آخر في الانتخابات الأولى (٥ يناير ١٩) أنهم انتصروا .. والحقيقة أن هذا كان أول الوهن ، إن عدم ظفرهم بالأغلبية التي تمكنهم وحدهم من تشكيل الوزارة كان هزيمة قضت على كل الآمال .. لأنها كانت تعنى أن هزائم المستقبل ستكون أكبر وافدح ، وهذا ما حدث بالفعل .

وما من شيء كهذا يوضح جريرة التخبط والضعف والتميع ..

في مقابل تقهقر الحزب الاشتراكي ، وبقدرة ، كان تقدم القوى العسكرية التي لم تستشعر شيئا من الخجل بعد موامرة كاب ، ولم تتعرض لمواخضة الحكومة ...

وكانت هيئة الضباط والقيادة العسكرية العليا لا تزال تعتقد أنها الأمانة على حاضر البلاد ومستقبلها . وأن ألمانيا — كإمبراطورية — إنما قامت بفضل السيف البروسى .. وتدعمت بالانتصارات في المعارك الثلاث الفاصلة وارتلو . وسادوا وسيدان . وأن مستقبلها — كما ضيها — يجب أن يقوم على السيف ويحمى بالجيش . أما السياسيون ... فلا يستطيعون البناء والانتصار وإنما

الكلام والانهزام . وكانت شواهد الحل تؤيد ذلك ، فإذا كانت تفعل الحكومة بدونهم ؟

من أجل هذا انصرفت القيادة العسكرية الألمانية — التي لم تكن قد تحللت — لكي تعمل بكل دقة وضبط في جبهتين الأولى تدعيم الجيش والتغلب على نصوص معاهدة فرساي والثانية المهيمنة على الحياة المدنية والسياسية في الداخل والتخلص ممن سموهم « مجرمي نوفمبر » .

وكان من أغرب الوقائع التي قامت بها القيادة العليا للعمل في الجبهة الأولى تلك الاتصالات والمفاوضات التي بدأتها من سنة ١٩٢٠ مع الاتحاد السوفيتي ، وكانت هذه الاتصالات والمفاوضات على أعلا مستوى وقام بها من جانب السوفيت رادك ، وكراسين وكريستنسكي ومن جانب الألمان فون سيكت القائد العام وفون شليشر ووزير المالية في هذه الفترة جوزيف ويرث ووزير الدفاع جيسلر . وكانت هذه الاتصالات التي تجرى وراء ظهر الاشتراكيين الديمقراطيين ، وتجمع بين العدوين اللدودين تثير الدهشة . فبينما كان رادك يضع سياسة الحزب الشيوعي الألماني ويسهم في انبعاثاته ويصب اللعنات على العسكريين، وبينما كان فون سيكت والضباط يتعقبون الشيوعيين ويوقعون بهم دون رحمة ، كان هؤلاء أنفسهم — رادك من ناحية وفون سيكت من ناحية أخرى وبقية أتباعهما يجتمعون ويتفقون من سبتمبر سنة ١٩٢١ على تكوين مؤسسة أطلق عليها الاسم المختصر Gofu تتولى صنع الأسلحة لحساب المنشآت الألمانية برأس مال قدر في نهاية فترة التضخم بقاربة ٧٥ مليون مارك ذهبي . واقامت هذه المؤسسة عددا من المصانع في الأورال وبتروجراد بينما بدأ إنتاج الطائرات في فيلي Fili على مقربة من موسكو لحساب الروس . وكونت شركة روسية ألمانية لإنتاج الغاز السام في تروتسك (بجوار سمارا) وأقام عمالقة الصناعة

الرأسمالية الألمانية : كروب وديملر ورينمتال . Rheinmetall فروعا في قازان لصنع الدبابات . وكان تبادل الضباط للتدريب يتم بنظام ، فيأتي الضباط الروس إلى ألمانيا ، وينذهب الضباط الألمان إلى روسيا . وقد كان الكولونيل فون بلومبرج وزير الدفاع في عهد هتلر — أحد الاساتذة الذين تولوا تدريب الضباط الروس ، وفي مقابل هذا كان الطيارون الألمان يتدربون على الطيران الذي حرم عليهم بمقتضى فرساي — في روسيا . وعندما انتهت خدمة الجنرال فون سيكت الذي تبني هذه السياسة سنة ١٩٢٦ ، وتكشفت بعض هذه الحقائق ، هاجم شيدمان الجيش والضباط ، ولكن هذا الهجوم كان يمكن أن يضر الحكومة أكثر مما كان يضر الجيش ، ولهذا لم يكن له نتيجة حاسمة . وظلت سياسة سيكت مستمرة — إلى حد ما — في عهد خليفته الجنرال كورت فون هامرستين ا كورد^(١) .

وحق تولى هتلر الحكم ، كانت العلاقات ما بين الجيش الألماني والجيش الأحمر قائمة . ففي مايو سنة ١٩٣٣ زار وفد من كبار ضباط الألمان الاتحاد السوفيتي . واستقبلهم المارشال فورشيوف ، وأكد لهم ضرورة بقاء العلاقات بين الجيشين . ولكن هتلر أمر بانهاهما .

وكان من الوسائل التي امتدتها العسكرية الألمانية للهيمنة على الحياة المدنية وبث الرعب في نفوس السياسيين أسلوب الاغتيال السياسي الذي وجه ضد « مجرمي نوفمبر » وكان يدخل في هؤلاء دعاة الجمهورية على اختلافهم ، دون أن يقتصر الأمر على الشيوعيين . وبعد أن قضى هذا الاغتيال على زهرة قيادات الشيوعيين اتجه نحو الديمقراطيين مثل ارزيرجر الذي قتل في أغسطس سنة ١٩٢١ ووالتر راينبو الذي اغتيل في ٢٤ يونيو سنة ١٩٢٢ وقد قدر أحد

الكتاب الاغتيالات السياسية التي حدثت ما بين يناير ١٩ و يونيو ١٩٢٢ ،
والمسؤولين عنها والأحكام التي صدرت على مقترفيها ، مع التفرقة ما بين اليمين
واليسار فكانت كالآتي :

الاغتيالات السياسية

	عدد الاغتيالات التي قام بها اليسار	عدد الاغتيالات التي قام بها اليمين
عدد الاغتيالات	٢٢	٣٥٤
عدد الأشخاص الذين حكم عليهم لهذه الاغتيالات	٣٨	٢٤
أحكام بالموت	١٠	—
قتلة اعترفوا ، وبرئوا	—	٢٣
سياسيون نالوا ترقيات في الجيش	—	٣
متوسط مدة السجن لسكل حالة اغتيال	١٥ سنة	٤ شهور
الغرامة	—	٢ مارك

وعندما اغتيل راتينو قامت اضرابات عديدة ، واتحدت النقابات
والأحزاب الاشتراكية الثلاث وأرسلت نداء طالبت فيه بإصدار قانون لحماية
الجمهورية يتضمن العقاب الرادع للمسؤولين كما طالبوا :

(١) بكبت التشكيلات العسكرية التي نظمت الاغتيالات السياسية .

(ب) باجراء تطهير في الموظفين المدنيين العاملين في الجيش والمحاكم

يخلص هذه الهيئات من العناصر المعادية للجمهورية .

(ج) بإصدار عفو عن المسجونين السياميين باستثناء الذين تثبت اداتهم بمقتضى القانون الجديد .

والحقيقة أن مثل هذا القانون كان موجودا بالفعل ، ولكن تجهيز القضاة جعله معدوم الأثر ، ولم يكن هذا التجهيز مجهولا أو طفيفا ، لقد كان معلوما وصارخا فمن بين قتلة ليبككنشت حكم على واحد بثلاثة شهور وحكم على آخر بغرامة زهيدة . وحكم على واحد من قتلة روزا لوكسمبرج بالسجن سنتين وسمح للباقيين بالفرار ، ولم يحاكم قتلة جوجيتش ودورنباخ رغم التعرف عليهم وحكم على الضابط مارلو الذى أضر باطلاق النار على ثمانية وعشرين بحارا بثلاثة شهور من تحديد الإقامة ، وفر معظم المشتريين فى موآمة كاب .

ولكن لم يستطع أحد أن يفعل شيئا لإصلاح النظام القضائى حتى عندما امتدت يد الاعتقال إلى شخصيات عامة ومسئولة من غير الاشتراكين مثل راتينو وازربنجر كانت كل جرائمهم أنهم اشتركوا فى الحكم أو توقيع معاهدة فرماى . الأمر الذى دفع المستشار ويرث زعيم الحزب الكاثوليكي لأن يقول فى الرشتاج « إن العدو يقف فى اليمين » .

وقد يصور زحف القوى العسكرية على الجمهورية ، وتؤيد بتعاطف القضاة ما حدث فى بفاريا . . .

فبعد ثورات بافاريا الاشتراكية التى قعت بارهاب أبيض غشيم، أصبحت بافاريا مأوى لكل المتآمرين، وهرع إليها عدد كبير من الروس البيض الفارين من السوفيت . وعدد آخر من ألمان البلطيق الذين كانوا قد حاربوا الإتحاد السوفيتى . بينما كان أنصار الأسرة المالكة يعيشون فى سلام ويمدون المتآمرين بالمال . وقيل إن زوجة البرنس كيريك - كوبرج المطالب بالعرش الروسى - وهى ألمانية - وضعت مبلغا كبيرا من المال فى يدي لودندورف .

ما بين عام ٣٢ و ٢٤ لتمويل الحركات الألمانية اليمينية . بينما كان الضباط الألماني ما كسى ايروين فوق شوبنر - ريشتر يضم الجماعات المتعددة والمتعادية للروس البيض ويحاول أن يوحد جهتهم .

وبينما كانت فرقة اهر هارديت Ehrh: rdt تحتل برلين أيام موآرة . كتاب ثار عدد من الضباط في بافاريا بزعامة الجنرال فون موهل وارغوا وزارة هوفمان الاشتراكية على الاستقالة وأثار ذلك الحكومة المركزية فأحالت الجنرال فون اب قائد الجيش في بافاريا على الاستيداع وأحلت محله فون لوسو ، وعينت فون كاهر حاكما عاما .

وفي هذا الوقت كان شاوئش بإحدى الفرق المرابطة في ميونيخ (بافاريا) يستكشف ، بأمر روسائه ، أمر مجموعة سياسية مغمورة وقادته هذه المهمة لأن يسيطر على هذه المجموعة ، ويجعل منها حزبا ناهضا . وكان هذا الشاوئش هو أدولف هتلر وقد استطاع أن يكسب تأييد لودندورف وعدد من الضباط بما فيهم رئيسه المباشر الكابتن روهم رئيس القسم السياسي بالجيش وشيئا فشيئا استطاع أن يكون فرق العاصفة وأصبح عددها بضعة ألوف .

ووضع هتلر خطة لانقلاب يسيطر به على الحكم ، وكانت هذه الخطة تقضى بأن تحاصر فرقه المسلحة مشرب بيرة كان فون كاهر سيخطب فيها في مساء ٨ سبتمبر ١٩٢٣ ، بينما يدخل هتلر ويعلن الثورة ويدعو فون كاهر وفون لوسو وفون سينزر (قائد البوليس) للتشاور معه . وتم هذا تقريبا ، واستطاع هتلر أن يسيطر على القاعة وأن يأخذ الثلاثة السكبار أسرى في غرفة جانبية وهناك ذكر لهم أنه كون حكومة جديدة بالاتفاق مع لودندورف — وعرض عليهم الاشتراك معه ووافق هؤلاء بعد أن قال لهم هتلر إن في مسدسه أربع رصاصات رصاصة لكل واحد منهم والرابعة له . وهرع هتلر إلى الخارج وأعلن أنه كون

الحكومة بالاشتراك مع المسئولين الثلاثة ، وضجت القاعة بالتصفيق خاصة بعد أن جاء لودندورف وظهر الجميع أمامهم .

واستطاع فون تاهر وفون لوسو الانصراف حيث كانت قواتهم وحيث تبيينوا خطأهم . وعند الصباح تقابلت القوتان : قوة هتلر . وقوة الحكومة ، ولم تجد هذه الأخيرة صعوبة في تفريق القوة الشائرة . والقبض على هتلر . بينما ترك لودندورف ينصرف دون أن يتعرض له أحد وتبددت قومة مشرب البيرة .

وعندما علمت برلين بنبا هذه المحاولة استدعى ايرت رئيس الجمهورية الجنرال فون سيكت القائد العام وسأله « أخبرني أيها الجنرال من ذا يطيع الجيش .. الحكومة أو المتأمرين » فرد هذا ببرود « إن الجيش يطيعني ياسيدى الرئيس » .

وحوكم هتلر وحكم عليه بالسجن خمس سنوات فى احدى القلاع حيث وضع كتابه .. كفاحى وأهداه « للذين سقطوا اضحية الحركة » .

* * *

وفى فبراير سنة ١٩٢٥ مات ايرت .

ومع أن ايرت لم يكن فى مستهل حياته جمهوريا متحمسا . وأنه تجهم لشيدمان عندما أعلن هذا الجمهورية دون مراعاة للرسميات أو الشكليات ، فإنه كان أكثر من أى شخص آخر ، يجسد جمهورية فايمار ، ولم يكن هلكه — على حد قول الشاعر :

هلك واحد . . .

ولكنه بنيان قوم تهدما

وحمل معه إلى قبره الجمهورية التى رأسها ، فمع أنها ظلمت بعد وفاته سبع

سنوات إلا أنها كانت سنوات النهاية والاحتضار ولم يكن هذا حقيقيا من ناحية
اختفاء الرجل الذي حاصر الجمهورية وأخلص لها وتفانى فيها ، وكان - رغم كل
ما قيل فيه - الذي جمع المعسكرات المختلفة حوله ، ولسكنه كان حقيقيا من ناحية
أن اختفائه أظهر شخصا بعيدا كل البعد عن الميول الديمقراطية . شخصا كان
ينظر إلى القيصر باعتباره « صاحب الجلالة سيدي ومولاي » وطلبت معاهدة
فرساي تسليمه باعتباره مجرم حرب ، وأديت وراء ظهره أو باسمه كل الأدوار
التي دعمت القوى العسكرية ، بقدر ما أوهنت الجمهورية الاشتراكية . بحيث
يمكن القول دون مبالغة أن وفاة أوبرت وتولى هندنبرج كان يمثل نهاية سنوات
التحول التي جاذبت الجمهورية .. وبداية مرحلة النهاية والتصفية .

لقد دفع أوبرت غالبا عن الموقف الذي اختاره ، من أعصابه ، ومن صحته ،
ومن كرامته الشخصية ، وتعرض في أول توليه لمنصبه ، وقرابة نهاية مدته ،
وما بين هاتين لسلسلة من المآزق والمتاعب ، ففي مستهل عهده كانت مشكلة
تحديد المسار الشائكة وما تطلبته من تصفية اليسار الشيوعي وفكرة مجالس
العمال والجنود ثم كانت في الحقيبة الأخيرة مآزق وضرورات معاهدة فرساي
القاسية . وخلال هذه الفترة كلها شنت صحف اليمين ، بعد صحف اليسار -
حملة شعواء عليه ولم تخلها رحمة أو تقدير للملابسات الصعبة التي وضع فيها
الرجل ، وأنه في النهاية آثر العجز على الفجور ، وأنه كان أقرب إلى اليمين منه
إلى اليسار ، وكان مستحقا لتقديرها لالتنديدها ، رغم هذا فإن «وى النفوس
وغلبة الأثرة نغصت عليه حياته ، فأخذت الصحف اليمينية تنبش أبامه الأولى
عندما كان صبي سروجي ، أو صاحب قهوة . وفي سنة ١٩٢٢ عندما كان يزور
ميونيخ زيارة رسمية اقتحم شخص يدعى جانسر Gansser الجموع وصاح
في وجهه « خان » واضطر أوبرت لرفع قضية قذف عليه ، وشاهد الشعب رئيسه

وهو يطالب في محكمة بافاريا - باظهار الأدلة على وطنيته . ومع أن الحكم قد صدر في جانبه، فإنه تضمن أن الرئيس - من الناحية الفنية - كان خائناً للملكية عندما دعا إلى الاضراب العام يوم ٩ نوفمبر . ولم تكن هذه إلا حالة واحدة من حالات عديدة وصلت إلى ١٥٠ حالة . ولم يظهر القضاة الاحترام الواجب لرئيس الدولة ، ولا التقدير الشامل للموقف، وسمحوا للاعتبارات المضيقة والفنية أن تقودهم ، فوطنية ايبرت لم تكن أبدا محل شك . وإذا كان هناك نقد . فهو لاجتهاداته ويفترض أن يأتي من اليسار لامن اليمين ، فإن ايبرت هو أكبر مسئول عن الاتجاه اليميني الذي أخذته الثورة ، وقد يكون هذا خطأ ، ولكنه لا يكون كذلك من وجهة نظر اليمين .

وقد كان من الدناءة التي قلما تخاص منها الصحافة البورجوازية أن تتحدث هذه الصحف عن ماضيه وعصاميته بفكرة النيل منه أو تشويه سمعته وأن تضعه للوقوف أمام المحاكم لإثبات وطنيته . ومن الناحية الموضوعية ، فإن هذا كله يشرف ايبرت ويبدل على عدلته ، كما كان يمكن أن يشرف القضاء ويؤكد « أن في برلين قضاة » لولا الهوى واستغلال الشكليات والنصوص .

* * *

حقيقة إن ايبرت - كما قلنا - هو المسئول الأول عن كبح الثورة أن تبلغ المدى الواجب . والسماح لقوى الملاك والرأسمالية بالبقاء ، ثم استعادة قواهم ومراكرهم .

وكان هذا خطأ لا شك فيه .

ولكن الثورة بالمعنى اللينيني - وديكتاتورية البلوريتاريا المزعومة . التي كان يطالب بها الشيوعيون .. كانت أيضا خطأ .

وقد رماه الشيوعيون بالصغار لأنه لم يكن لديه القوة والعرامة التي يفرض

بها على ألمانيا الثورة التي فرضها لينين على روسيا .
ولكنه لو فعل ذلك لما كان ذلك شجاعة ، وإنما تقليدا عميقا لنظام سوء
بطبيعته وغير مطلوب لألمانيا بالذات .

كان المطلوب تغييرا حاسما . ولكن دون تلك الحماقات والمنكرات التي
وصفت الثورة السوفيتية .

وكان ذلك يتطلب قائدا يتوفر له الخيال والشجاعة .

ولم تتوفر هذه الصفات في ايرت فغلبرت عليه قوى الحفاظ التي كانت
كامنة فيه .

وعزز اتجاهه هذا ، وجعله يصر عليه ، سرف الشيوعيين في ألمانيا وجرائمهم
في روسيا .

وقد حلل الكاتب والمفكر الاشتراكي هيلفردينج - وهو أحد زعماء
الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل وقتئذ الموقف وشخصية ايرت في
حديثه مع جولوس برونتال .

« في الثورة الفرنسية والروسية كان هناك إرادة ثورية متوجهة اكنسحت
البلاد كالخريق المستعر ، وكان هناك رجال تملكهم إرادة تغيير العالم ،
ولكن الايرتيين والشيدمانيين لدينا لا يريدون تغيير العالم ، وكل ما يريدونه
هو الحكومة البرلمانية .

إن أسوأ الخطوط قاطبة أن يواجه مثل هؤلاء الرجال الصغار - مثل هذه
الفرصة الكبيرة .. خذ مثلا ايرت وشيدمان وأمثالهما .. أنا لأقول إنهم
خانوا الثورة عمدا . إن هذا يستحيل لأنهم لم يكونوا ثوريين أبدا . ولهذا
فإنهم لم يشعروا بأى ولاء نحو الثورة . لقد كانوا منظمين بارعين ودعاة في
وقتهم ، ولكنهم ، ببساطة لم يفهموا الحاجة التي يتطلبها اليوم . إنهم مجردون

من الخيال كلبية . إنهم البورجوازية الصغيرة التي تريد قبل كل شيء النظام . وبعد كل هذا فقد أفسدتم المديح والأطراء الذي تملقوه من الطبقات المالية وأرادوا أن يرضوها .. فما هي الفكرة في أن يترك هندنبرج في القيادة لقد سعد إيبرت بأن يتقدم إليه هذا الشخص المهول - المارشال .. والآن فإن الجنرالات والمصرفيين ورجال الصناعة يتملقون المر إيبرت . إيبرت سعيد ويرى من واجبه أن يوافق ما بين الثورة والجنرالات ورجال الصناعة^(١) .

إن النقده سهل دائماً ، خاصة إذا كان الناقد يعيداعن مسرح الأحداث أو ثقل المسئولية أو حيا المعركة ، ولم يكن هيلفردينج يعلم وهو ينقد إيبرت أنه هو نفسه سيصبح بعد أقل من عشر سنوات إصلاحياً أكثر من إيبرت ، وأن مدرسة مانشتتر ستجعله أقرب إليها أكثر من أى مدرسة اشتراكية ، وأنه سيناصر ضعف الميزانية وتخفيض مزايا البطالة .. الخ .

وهذا لاينفى أن نقد هيلفردينج حقيقى - ولكن يجب أن يوضع فى الحسبان أمران :

الأول : أن إرادة التغيير التي كانت تمنقص إيبرت يجب أن لا تفسر بأنها الثورة اللينينية - كما يروق للشيوخيين أن يتصوروا ذلك - فالحزب الاشتراكي المستقل قد اصطلق بالشيوخيين وذاق من نخبهم ما أودى به فى النهاية ، وقد كان هيلفردينج نفسه هو الذى قاوم الانضمام الذليل إلى الدولية - كما عرضنا . إن التغيير الذى كان يريد هيلفردينج وكل المنصفين كان هو التغيير الاشتراكي وليس التغيير اللينيني وكان يمكن اقتلاع العسكريين وكبار الملاك والرأسماليين بقدر محدود من العمل وإراقة الدماء بفضل المد الثورى والتحلل العسكرى .

(1) In Search of The Millennium p. 242.

والثانى : موقف الحلفاء المتعنت من المانيا وعدواتهم المريرة للاتحاد السوفيتى وضيقتهم بالشيوعيين . ومن هنا فقد كان واجبا على ايبرت أن يتحرك بكل حكمة وبصورة لا تثير شكوك الحلفاء .

وهذه الاعتبارات وإن لم تكن تبرىء ايبرت إلا أنها توضح الصعوبة التى تجابه رجل الدولة عند تحديد موقفه ، وكيف أن عليه أن يحاور ويداور ، وأن يسير بين المتناقضات التى تملأ طريقة كما لو كان يسير فى حقل ألغام أو أن يعبر الطريق إلى غايته كالبهلوان على سلك أدق من الشعرة وأحد من السيف ، أو أن يبدع طريقا آخر جديدا بفضل سعة الأفق وقوة الخيلة ، طريقا يستبعد اليسار السوفيتى واليمين الرجعى على سواء .

ولم يستطع ايبرت استكشاف هذا الطريق ، كما لم يستطع أحد آخر استكشافه وقتئذ ، وكان لابد من حرب عالمية ثالثة ومخاض دموى جديد حتى يستكشف هذا الطريق الثالث .

الفصل السادس عشر

الحركة النقابية تدفع الثمن

أين كانت النقابات التي تعيىء جمهرة العمال وتدير حركة العمل والإنتاج خلال هذا الصراع الدامى الحافل بالأحداث الجسام ؟

لئن كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى يمينا بعض الشيء ، فقد كانت النقابات على يمين الحزب ، وعندما أعلنت الحكومة الحرب ، يادر الزعيم النقابى « ليجين » فأهلن تأييده للحكومة والقيصر ، وعندما عارض ليبكنشت وبعض النواب الاشتراكيين ، اعتمادات الحرب فى الرشستاج طالب ليجين بفصلهم وحدث هذا فعلا بعد مدة .

ولما تدهور الموقف المسكرى كان مندبو العنابر ، وليس القادة النقابيين ، هم الذين ظموا بالاضرابات ، التي كانت النذر الأولى للثورة وعند اشتملت بالفعل كان البحارة والعمال هم جنودها الأوفياء ، وكونوا مجالس العمال والجنود التي ضاقت بها النقابات قدر ماضق بها الحزب الاشتراكى الديمقراطى . وبعد أن هدأت ثورة الحماس ، ولانعدام الخبرة التنظيمية والتأهيل الفكرى فى مجالس العمال والجنود استطاعت النقابات والحزب الهيمنة على الموقف والعودة إلى الخط الذى كان الحزب ينادى به قبل الحرب .

الحقيقة أن الثورة وضعت النقابات - كما وضعت مجالس الجنود فى أزق -

وكانت محطة لاختبار قدراتهم ، فهل النقابات على استعداد لإدارة الصناعة؟ وهل الجنود على استعداد لليمينه على الجيش ؟ أثبتت التجربة أن النقابات ومجالس الجنود أيضا لم يكن لديها هذا الاستعداد، أو حتى الرغبة وأن استعدادها ورغبتها إنما كان يدور حول محور المدالة .. وليس الحكم .. رغم وجود قلة سينديكالية اقترحت إحلال مجالس العمال محل النقابات والأحزاب الاشتراكية معا ، على أساس أن النقابات تعنى بالعمل المهني وحده ، وأن الأحزاب تعنى بالعمل السياسي البرلماني . وأن أي كفاح ثوري تتوفر له الطبيعة المهنية والسياسية لا يمكن أن ينبع إلا من الجماهير نفسها والأجهزة التي توجد بها هذه الجماهير لتحقيق هذا الغرض المزدوج.

وفي الأيام الأولى للثورة أصدرت وزارة القومسيرين عدداً من القوانين دعمت بها الحركة النقابية وأرغمت أصحاب الأعمال المدعورين على أن يقابلوا العمال في منتصف الطريق . ورحب أصحاب الأعمال بذلك ووضعوا أيديهم في يد النقابات ، لاحقاً في النقابات ، ولكن حرباً للجنح الشيوعي ومجالس العمال ولأن هذا الموقف كان كرماً من الحكومة لم يحلم به أصحاب الأعمال بعد أن أصبحوا قلب قوميين من الاعداء والمصادرة .

ونتيجة لهذا عقدت النقابات مع أصحاب الأعمال ماسي باتفاقية نوفمبر ، وتهدد أصحاب الأعمال بمقتضاها بعدم الاعتراف بنقابات المنشآت . كما وافقوا أيضاً على :

(أ) إعادة كل العمال المسرحين إلى عملهم .

(ب) ضبط كل ظروف وشروط العمل عن طريق للمفاوضة الجماعية التي تتضمن نصوصاً عن التحكيم في حالة الخلاف .

(ج) جعل الحد الأقصى لساعات العمل ثمانى ساعات .

(د) تشكيل لجنة برئاسة مندوب نقابى فى المجال التى بها خمسون عاملا فأكثر .
(هـ) تكوين لجنة قومية من عدد متماثل من العمال وأصحاب الأعمال
لحل كل للمشكلات الصناعية .

وفى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨ أصدرت الحكومة عددا من المراسم تجعل ساعات
العمل ثمانية وبأن يكون الاتفاقيات الجماعية التحريرية قوة الالزام القانونى
وفى بعض الحالات التطبيق على كل الصناعة . وأن تكون قرارات مجالس
التحكيم ملزمة للطرفين .

وفى ١١ فبراير سنة ٢٠ صدر قانون حدد حقوق وواجبات مجالس العنابر
Works Councils وبمقتضى هذا القانون تنتخب فى كل المنشآت والمجال التى
يعمل بها أكثر من خمسين عاملا مجالس عنابر تكون مهمتها الاشتراك مع
أصحاب الأعمال فى وضع لوائح العمل ، وملاحظة تطبيق الاتفاقيات الجماعية
واشترطات الأمن الصناعى . . الخ ولها حق محدود فى الاعتراض على فصل
أحد العمال ومقاضاة أصحاب الأعمال لاعادتهم أو لنيل التعويض . ولا يمكن
فصل قيادات هذه المجالس .

ورأت النقابات أن ومجالس العنابر يمكن أن تكون الخطوة الأولى والقاعدية
فى تحقيق الديمقراطية الصناعية التى كانت الهدف الأسمى للنقابات الألمانية قدر
ما كانت الديمقراطية البرلمانية الهدف الأسمى للحزب الاشتراكى الديمقراطى .
وأن مالا يمكن أن تؤديه المجالس مباشرة سيقوم به المجلس القومى الاقتصادى .
للذى أصرت النقابات على أن يدمج النص عليه فى صلب الدستور وكان لها
مأراوات بمقتضى المادة ١٦٥ من دستور فايمار .

وكان تأميم بعض الصناعات من اللطالب النقابية التى وافقت عليها حكومة
اللقوميسرين الستة — وفى مارس سنة ١٩ أجازت الجمعية الوطنية قانونا يمنح

الحكومة سلطة تأميم كل الصناعات التي تكون مهينة للتأميم وبوجه خاص للصناعات الاستخراجية كما صدر قانون وضع صناعة الفحم تحت رقابة المجلس القومي للفحم الذي كون وقبئذ وضم ممثلين للنقابات وأصحاب الأعمال والمستهلكين والجمعيات التعاونية والدولة، كما كونت لجنة تأميم أو تشريك Socialisation Commission لدراسة التفاصيل ولكنها تحلت بعد شهر من انعقادها لعدم تمكن أعضائها من الوصول إلى قرار متفق عليه .

وبعد دحر مؤامرة كاب كان من المطالب التي قدمتها لجنة الاضراب تأميم بعض الصناعات ، وكونت لجنة ثانية . واحتدم النزاع بين فريق العمال وأصحاب الأعمال . وفي نوفمبر سنة ١٩٢٠ نشرت اللجنة مذكرة باسم مذكرة أسن Essen Memorandum عن تأميم صناعة الفحم موضحة وجهة نظر أصحاب الأعمال وخدمهم إذ رفض العمال التوقيع وكان في هذا نهاية المحاولة الثانية .

وفي ديسمبر سنة ٢١ طالب عمال السكك الحديدية زيادة في الأجور ولكن الحكومة رفضت فأضرب العمال . وحاولت القيادات النقابية التدخل ولكنها لم تظفر برضاء العمال وفي الوقت نفسه أضرب عمال الغاز والصناعات الكهربائية فاستنجدت الحكومة بفرق الطوارئ الفنية Teno التي تكونت خلال الثورة للقيام بالخدمات عند الطوارئ ، وكانت ذات اتجاهات رجعية ويتكون معظمها من الطلبة والضباط والجنود المسرحين والمهندسين وتشبه منظمات « البنكرتون » الأمريكية التي تخصصت في تحطيم الاضرابات .

وأدان المؤتمر الحادي عشر للنقابات الذي عقد في ليزج في يونيو سنة ١٩٢٢ استخدام فرق الطوارئ الفنية ، وندد بتحويلها إلى منظمة لتحطيم الاضرابات واحتج على استخدام الأموال العامة لإعانة هذه الهيئات وأعلن أن أى اتصال بها لا يتمشى مع العضوية النقابية .

وتعمل أصحاب الأعمال بالتضخم الذي أخذ شكلا حادا في أواخر عام ١٩٢٢ لاستئناف هجومهم على القوانين الاجتماعية التي أصدرتها الثورة في أيامها الأولى فوجه ستينس عميد أصحاب الأعمال وقتئذ خطابا مفتوحا إلى المستشار ويرث يقول فيه « أن خلاص ألمانيا الوحيد إنما هو في العودة إلى يوم عمل العشر ساعات » وبعد ذلك بأشهرين في الذكرى الرابعة للثورة ألقى ستينس خطابا في المجلس الاقتصادي القومي جاء فيه :

« لست أتزدد في القول أنني مقتنع بأن على الشعب الألماني أن يعمل ساعتين إضافيتين في اليوم خلال العشر أو الخمس عشرة سنة القادمة فالشرط الأول لكل تثبيت ناجح هو - في رأيي - استبعاد الأضرار ومنازعات الأجور لمدة طويلة ويجب أن تكون لدينا الشجاعة لنقول للشعب في الوقت الحاضر ، ولبعث الوقت الآتي ، عليك أن تعمل عملا إضافيا . . دون أن تأخذ أجراً إضافياً » .

وعرضت الهيئة الأهلية للصناعيين الألمان على الدولة فترة التضخم قرضا بشرط أن تصبح السكك الحديدية وكل المنشآت المؤتمنة ملكا خاصا . وقاومت النقابات هذه المحاولة للابتزاز ونجحت في الخيلولة دون عقد الصفقة . .

وفي الوقت الذي كان أصحاب الأعمال يحملون الاحتلال الفرنسي لمنطقة الرور كل أوزار التضخم وسوء الحاله الاقتصادي ، فإنهم في حقيقة الحال كانوا يرحبون به ويمقتونه ، لأنه يقدم لهم فرصة للتستر وراءه ولتحويل غضب الجماهير عليهم إليه ، ولطمس الحقائق بحيث تمجذ الطبقة العاملة عن تحديد المسوؤل عن مشقتهم وهل هو ستينس ممثل الرأسماليين الألمان أو بوانكارية داعية الاحتلال الفرنسي . والحقيقة انهما كانا مسؤولين معا ، وان جرم الصناعيين لم يكن ليقل عن جرم المحتلين . فقد استغل هؤلاء الاحتلال الفرنسي للمنطقة

فبدأوا التفاوض مع سلطات الجيش الفرنسي لاكتساب تأييدها في ٥ أكتوبر سنة ٢٣ اجتمعت لجنة تضم ستة من كبار رجال الصناعة في منطقة الروهر. منهم ستينس وفوجل بالجنرال ديجوت Degoutte قائد قوات الاحتلال وقالت أن رجال الصناعة في منطقة الرور ووستفاليا قرروا العودة إلى وقت عمل ما قبل الحرب ابتداء من الإثنين المقبل ولكنهم لا يستطيعون تحقيق ذلك دون تأييد قوات الحلفاء ولكن استمراء قوات الاحتلال الفرنسية على العمال فشلت . لأن قائد قوات الاحتلال الفرنسية رأى أنه لا يستطيع انتهاك القانون الألماني .

ولم يثن هذا الرد الرأسماليين ، فبعد هذا الاجتماع بيومين أرسل ستينس إلى سترسمان خطابا تضمن عددا من المطالب والتعويضات منها تأييد الحكومة في اطلالة ساعات العمل في المناطق المحتلة وغيرها . والغاء القوانين التي تحمي العمال من الفصل وتلزم أصحاب الأعمال باعادة المسرحين من العمال إلى وظائفهم .

وعندما علم نقوى هذا الخطاب واجتماع الصناعيين بالجنرال ديجوت اجتاحت موجه من الاستياء الشعب . فسارت مظاهرات عديدة . وندد النائب الديمقراطي اركالن Erkalans باجتماع الصناعيين بالجنرال دجوت ووصف بأنه « واحد من أكبر الأحداث المشينه في التاريخ الألماني الحديث » ونشرت جريدة فوروارت لسان حال الحزب الاشتراكي الديمقراطي مقالا جاء فيه « لقد حاول ستينس بمساعدته الحراب الفرنسية أن يخضع العمال لديكتاتورية الاستغلال الصناعي » ورأت هيئات أخرى عديدة أن هذا التصرف يقارب الخيانة . وقدم الحزب الشيوعي في الرهستاج اقتراحا بمحاكمة الصناعيين السنة بتهمة الخيانة العظمى .

ولكن لم يكن لكل هذه الاجراءات من أثر عملي ، على العكس ، لقد

رد سترسمان على خطاب ستينس واعداد باجابة عدد من مطالب الصناعيين ، بما في ذلك دفع تعويضات جسيمة عن الخسائر التي أصابهم خلال المقاومة السلبية. ولم يعلم زملاء سترسمان في الوزارة بهذا الوعد ، ولم يعرف إلا بعد خمسة عشر شهرا أن الحكومة قدمت إلى الصناعيين مبلغ ٧١٥ مليون مارك ذهبي كتعويض عن الخسائر ونال ستينس وحده مائة مليون مارك .

ولم تشبع هذه المبالغ الرأسماليين بل يبدو انها فتحت شهيتهم وشجعتهم . ففي ٣٠ سبتمبر سنة ٢٣ عقد أصحاب المناجم الفحم اجتماعا في يونا Unna واتخذوا قرارا بزيادة ساعات عمل الذين يعملون داخل المناجم من سبع إلى ثمان ساعات ونصف ، والذين يعملون خارجها من ثمان إلى عشر أو اثني عشر ساعة . وحاولت النقابات أن تعارض هذا القرار . ولكنها لم تستطع ذلك فترة التضخم والمقاومة السلبية . وعندما ثبت المارك أخيرا عرض أصحاب الأعمال حدودا بخسة للأجور رفضتها النقابات فأخذ أصحاب الأعمال في تكوين نقابات صورية . وكان هذا خرقا صريحا لاحد بنود اتفاقية نوفمبر بحيث أعلنت النقابات في يناير سنة ١٩٢٤ انسحابها منها .

وكان يمكن أن يكسب هذا الانسحاب النقابات حرية العمل ، ولكن النقابات كانت قد فقدت الكثير من قوتها وحماستها ، ثم جاء التضخم فأودى بكل مياستها ، فلم تفد شيئا من حرية العمل ، وواصل الرأسماليون انتصاراتهم فصدر مرسوم في ٢١ ديسمبر ٢٣ يعطى أصحاب الأعمال اعماءات عديدة من يوم عمل الثمان ساعات ، كما أزيلت كل القيود على حرية أصحاب الأعمال في فصل العمال أو اغلاق المنشآت . وهبطت هبوطا كبيرا مستويات الأجور .

كان السبب الرئيسى فى وهن النقابات هو سياستها الضيقة وأفقها المحدود الذى جعلها لا تعمل إلا للحاضر ، ولا تنظر إلا للمصالح المباشرة . وكان يمكن لهذه السياسة — على خطتها — أن تستمر ما ظلت الأمور تسيرا عاديا ، وان لم تكن هذه السياسة نفسها لتساعد على سير الأمور سيرا عاديا حتى فى الدول الأخرى التى لم تكن تتعرض لظروف استثنائية مثل المانيا فما بالك بالمانيا . . .

وعندما ظهر التضخم ، كشف عن هذا النقص ، ووضع النقابات فى مأزق ، فلم يكن ثمة مخرج من هذا المشكل القومى إلا بالمعالجة على المستوى القومى وليس على المستوى المهنى ، بمعنى معالجته باعتباره مشكلة اقتصادية تعود إلى النظام ويعانى منها كل الشعب وليست مشكلة مهنية تعنى العمال فحسب . ولكن هذا المنهج كان غريبا على الحركة النقابية الألمانية المتأثرة بتقاليدها الفنيه . وحقا إن النقابات أساسا هيئات مهنية . وان وسائلها المقررة وسائل مهنية وفنيه ، ولكن هذا لا يعنى ابدا انعزال النقابات عن مجرى الأحداث وتجاهلها للمطالبات المتغيرة خاصة عندما تبلغ النقابات حجما معيناً يمكنها من التأثير على مجرى الأحداث وكما أن الانغماس فى العمل السياسى أو التبعية التامه لحزب أمر يخالف طبيعة العمل والتكوين النقابى فإن ملاحظة المرونه والتكيف مع الأوضاع وانتهاج الوسائل التى تتطابق مع المشكلات أمر لا يمكن لأى حركة نقابية حيه وواعيه ان تتجاهله . وقد كان يجب على الحركة النقابية عندما كان الجو مواتيا للعمل القومى — السياسى ، بل عندما كان — يتطلبه — أن تنوم به وتكون على مستواه . وقد تهيأت لها الفرص غداة نجاحها فى دحر قومه كاب ، وعندما أخذت اضراب العمال ضد سياسة كنو شكل الاضراب العام الناجح الذى أدى إلى سقوط الوزارة ، وليس هاتان إلا فرصتين من فرص عديدة سنحت للنقابات منذ أن بدأت الثورة — ولكن النقابات لم تنتهز هذه الفرص

وتركتها تغلت من يدها فسارت من ضعف إلى ضعف . ومن تحلل إلى تحال .
وقدمت شيئا فشيئا ثقة العمال ، فكان عجز النقابات يشبه تماما عجز الحزب
الاشتراكي الديمقراطي الذي كان دائما يؤثر السلامه ، ويعزف عن الدخول في
تجربه ومعركة ، حتى وان تطلبت الاوضاع ذلك .

والواقع أن جزءاً كبيراً من عجز كل من النقابات والحزب يعود إلى انفراد
كل منهما بالعمل ، فقد افقد هذا الانفراد العمل النقابي أى مضمون سياسى ،
كما أفقد الحزب قاعدته الجماهيريه والماليه العريضه . وفي تلك الفترة التي كانت
المانيا تجتازها فإن هذا الانفراد مرفوض شكلا وموضوعا - وقد تتهت روزا
لو كسمبرج إلى عقم هذا الوضع . ولما لم تسكن ترى - كما كان يرى لينين -
استلحاق النقابات بالحزب . فإن الفكرة التي عرضتها في رسالتها « الاضراب
الجماهيرى . الحزب السياسى . والنقابات » كانت جديره بالنظر ، حتى وان لم
يؤخذ بها حرفيا بالنسبه لانها عاجلت المشكله من منظور ماركسى في هذه الرساله
كتبت روزا -

« وحقيقة الحال أن الفصل بين الكفاح السياسى والكفاح الاقتصادى
واستقلال كل منهما عن الآخر ليس إلا ثمرة مصطنعه للفترة البرلمانية التي قد يوجد
التاريخ . وفي المجرى السلمى والهادى للمجتمع البورجوازى ينشطر الكفاح
الاقتصادى إلى حشد من الكفاحات الفردية في كل منشا . ويتخلل في
كل فرع من فروع الإنتاج ، بينما لا تقوم الجماهير بنفسها بتوجيه الكفاح
السياسى بصورة مباشرة . ولكن بصورة غير مباشرة . بصورة تمثيلية عبر
الهيئة التشريعية ولكن ما أن تبدأ فترة الكفاحات الثورية ، أى ما أن
تظهر الجماهير على مسرح الصراع حتى تنتهى تجزئة الكفاح الاقتصادى على
أجزاء متعددة . وتنتهى كذلك طريقة الكفاح البرلمانى غير المباشر . ففي
العمل الثورى الجماهري يصبح الصراع الاقتصادى والسياسى واحدا ، وتكسح

الحدود للمصطنعة ما بين النقابية والديمقراطية الاشتراكية التي تجعل لكل واحدة منها صورة مستقلة تماما، ولكن حتى في المرحلة البرلمانية، يمكن أن توجد ترجمة صلبة للحركة الثورية الجماهيرية بقدر ما تسمح الظروف القائمة، فلا يكون هناك كفاحان طبقيان مختلفان للطبقة العاملة كفاح اقتصادي وكفاح سياسي. ولكن يكون هناك كفاح طبقي واحد يستهدف، في وقت واحد، تضيق مدى الاستغلال الرأسمالي في إطار المجتمع البورجوازي جنباً إلى جنب محور المجتمع البورجوازي نفسه.

وعندما يتفصل هذان الجانبان للكفاح الطبقي أحدهما عن الآخر لأسباب فنية في الفترة البرلمانية، فأنهما لا يكونان عمليين متوازيين، ولكن مرحلتين أو درجتين لتحرير الطبقة العاملة، إن الكفاح النقابي يضم المصالح العاجلة للحركة العمالية، بينما تعالج الاشتراكية المصالح المستقبلية لها. والشيوخيون — كما يقول البيان الشيوعي — يمثلون في مواجهة مصالح المجموعات المتميز المصالح المشتركة للطبقة العاملة ككل في مختلف مراحل تطور الكفاح الطبقي. لأنهم يمثلون مصالح الطبقة بأسرها. أغنى الهدف النهائي: تحرير البلوريتاريا. إن النقابات لا تمثل إلا مجموعة مصالح، وإلا مرحلة واحدة من تطور الحركة العمالية بينما تمثل الاشتراكية قضية التحرير ككل. ومن هنا فإن علاقة النقابات بالاشتراكية الديمقراطية هي علاقة الجزء من الكل. وعندما نجد نظرية السلطة المتساوية قبولا بين القيادات النقابية — فإن هذا يقوم على سوء فهم جوهر النقابية نفسها ودورها في الكفاح لتحرير الطبقة العاملة.

ومع هذا فإن نظرية العمل المتوازي للاشتراكية الديمقراطية والنقابات والسلطة المتساوية لكل منها ليست دون أساس. ولكن لها جذورها التاريخية، أنها تقوم على وهم المرحلة السلمية والعادية للمجتمع البورجوازي التي يبدو فيها الكفاح السياسي للاشتراكية الديمقراطية وكأنه يستنفد في

الكفاح البرلماني . الذي يقابل الكفاح النقابي، والذي هو بحكم طبيعته عمل اصلاحي سياسي ، كما أن عمل النقابات عمل اصلاحي اقتصادي . وهو يمثل العمل السياسي للحاضر كما تمثل النقابات العمل الاقتصادي للحاضر . وهما مما مرحلة ودرجة في العملية الكاملة لكفاح البروليتاريا الذي يستهدف بصورة نهائية ، ما يجاوز الكفاح البرلماني وما يجاوز الكفاح النقابي . ومن هنا ، فإن الكفاح البرلماني للاشتراكية الديمقراطية هو أيضاً جزء من كل ، وككفاح النقابات تماماً ، والاشتراكية الديمقراطية اليوم تضم الكفاح البرلماني والنقابي في كفاح طبقي واحد يستهدف القضاء على نظام المجتمع البورجوازي .

إن نظرية « السلطات المتساوية » للنقابات والاشتراكية الديمقراطية ليست كذلك مجرد سوء فهم نظري ، ولا هي حالة من حالات الخلط ، ولكنها تعبير عن نزعة معروفة جيداً للجناح الاتهامي من الاشتراكية الديمقراطية الذي ينحط بالكفاح السياسي للطبقة العاملة إلى درك المناقشة البرلمانية ويريد تحويل الاشتراكية الديمقراطية من حزب بروليتاري ثوري إلى حزب من الاحزاب الاصلاحية للبورجوازية الصغيرة . وإذا تقبلت الاشتراكية الديمقراطية مبدأ « السلطة المتساوية » للنقابات فإنها تقبل — بصورة مضمرة وغير مباشرة — هذا التحويل الذي عمل له طويلاً ممثلو النزعة الاتهامية .

إن التخصص الفنى للقيادات النقابية ، والافق الضيق بطبيعته لذي يلتصق بالمنازعات المفككة يؤديان إلى تطرق البيروقراطية وضيق الافق إلى القيادات النقابية . ويظهر ذلك في سلسلة من الاتجاهات يمكن أن تكون وخيمة العاقبة على مستقبل الحركة النقابية . فهناك أولاً التقييم المبالغ فيه للتنظيم الذي تحول بالتدريج من وسيلة إلى غاية في حد ذاته . ويمكن أن تصبح مقتضيات الكفاح ثانوية بالنسبة له ، ومنها أيضاً ينبع ذلك الجنوح إلى السلام والعزوف عن

المخاطر والميل إلى الاستقرار . . وكذلك المبالغة في تقدير الوسيلة النقابية في الكفاح واحتمالاتها وإنجازاتها . والقادة النقابيون مستنفدون باستمرار في حرب العصابات الاقتصادية التي يكون هدفها المنشود جعل العمال يمنحون قيمة كبيرة للإنجازات الضئيلة . فكل زيادة في الأجر أو تقصير في العمل يؤدي بالتدريج إلى فقد القوة على رؤية العلاقات الأكبر أو استطلاع الوضع كله ، وهذا هو الذي جعل عدداً كبيراً من القيادات النقابية يشيرون في رضا إلى إنجازات الخمسة عشر عاماً^(١) الأخيرة ، بدلا من أن يبرزوا الوجه الآخر للمدالية ، أي الانحطاط الكبير في مستوى معيشة البلوريتاريا نتيجة لاستغلال ملاك الأراضي ونظام الضرائب والجمارك وارتفاع الإيجارات وغير ذلك من ثمرات السياسة البورجوازية التي التهمت ثمرة الخمسة عشر عاماً من الكفاح النقابي .

إن ذكر الحقيقة الكاملة وإن اقتضى الاعتراف بأهمية وضرورة العمل الحالي فإنه يتطلب مقارمة التفاضل النقابي الذي يجعل النقابيين يعتقدون أن من الممكن الوصول إلى درجة لاحد لها من التقدم بفضل العمل النقابي داخل النظام الرأسمالي ، وهي النظرية التي يروج لها البروفيسور سومبارت بفسكرة وضع إسفين ما بين النقابات والاشتراكية الديمقراطية . وإغواء النقابات بالوضع البورجوازي .

الفصل السابع عشر

من الانهيار إلى الازدهار

ما حدث في ألمانيا سنوات التضخم شيء لم يحدث مثله في أي دولة أخرى من قبل ، ويغلب أن لا يحدث شيء مثله من بعده ، فمع أن التضخم عرض مألوف من أعراض الاقتصاد الرأسمالي ، فلم يسبق أبدا أن حدث ، أو كشف عن المفارقات المذهلة التي تصطبج به ، كما حدث ، أو كشف ، في ألمانيا ..

فعندما اضطرت ألمانيا إلى قبول معاهدة فرساي حرصا على وحدة الريخ ، وتجنباً لهزيمة ثانية كان عليها أن تجابه الإلزامات العديدة التي رضخت لها ، وكان بعضها قد نفذ بالفعل ووضع الخلفاء أيديهم على المصانع والسفن والقاطرات ، كما بتروا من الوطن الألماني بعض المناطق الغنية بالفحم والمعادن ، وتأخرت عملية التعويضات شيئاً ما لأن الخلفاء ارادوا أن يحملوا ألمانيا بكل تكاليف الحرب « بما في ذلك معاشات القتلى وتعويضات الجرحى » وإذا علمنا أن بريطانيا قد أنفقت خلال سنوات الحرب ما يعادل ما أنفقته خلال قرنين ونصف. ادركنا فداحة ما كان على ألمانيا أن تدفعه لبريطانيا وقس على ذلك أيضاً فرنسا التي كانت سخيماًتها على ألمانيا تفوق نعمة بريطانيا ولما كان الحقد — وليس العقل — هو الذي يملئ فاتورة الحساب فقد رفض الخلفاء كل الدفوع التي ذكرت عن عقم هذا الإجراء ، وكان من سوء حظ ألمانيا أن نفقت أميركا يدها من كل ما يتعلق بذلك بعد أن رفض الكونجرس الأمريكي الموافقة على فرساي ،

إذ كان ينتظر أن يرأس أمريكي لجنة التعويضات ، وأن يستطيع إهو والعضو البريطاني والعضو الإيطالي السيطرة على غلواء العضوين الفرنسي والبلجيكي . ولكن انسحاب الولايات المتحدة جعل فرنسا سيدة الموقف .

وبعد مرحلة طويلة من المكاس والأخذ والرد أتمى الحلفاء إلى تحديد مبلغ رأته باريس أقل مما يجب ، ورآه العالم افدح مما يجب . وحددت مواعيد للدفع تبدأ من سنة ١٩٤١ وتنتهى سنة ١٩٦٢ ، ويكون على ألمانيا أن تدفع كل سنة خلال هذه المدة مبلغا يتفاوت ما بين ٢ مليار مارك ذهبي (سنة ١٩٤١) و٦ مليار مارك ذهبي (سنة ١٩٦٢) وعندما قدمت « الغائورة » ، كانت نسبة المارك الورقي إلى المارك الذهبي هي نسبة ١٥ إلى ١ ، أى أن كل خمسة عشر مارك ورقي كانت تعادل ماركا ذهبيا .

ولو كان لدى الحلفاء وقتئذ مسكة من العقل لأدركوا جنون ما أمضوا في تدبيجه الأسابيع الطوال .. لأن التعويضات المطلوبة كانت تعنى أن تصدر ألمانيا ما يزيد على ما تصدره بريطانيا وأمريكا ، فلو فرضنا جدلا وحققت ألمانيا هذه المعجزة الخارقة لتتقضى ذلك على صادرات أمريكا .. وبريطانيا ، ولأوقع بهما مشكلات اقتصادية ومالية لاحد لها ٠٠ كما كان على الحلفاء أن يعلموا أنهم مفتاح لا يملكون الغيب ولا يستطيعون مصادرة مقادره والتحكم في مصيره حتى يفرضوا على أمه كبيرة ومتقدمة إرادتهم الغاشمة لمدة أربعين سنة قادمة .

وعندما جوبه الألمان سنة ١٩٤٠ بالتقدير الأول للجنة التعويضات سنة ١٩٤٠ وكان يقضى أن تدفع ألمانيا ٢٦٩٠٠٠ مليون مارك ذهبي . أحتجوا وأوضحوا استحالة ذلك وتمكنوا في السنة التالية (١٩٤١) من تخفيض المبلغ إلى ١٣٣٠٠٠ مليون . قدر مادفع منها بالفعل بثمانية بلايين . وفي أواخر ابريل طالب الحلفاء بالدفع ودفعت ألمانيا بليوننا ذهبيا آخر . وكان هذا مع كل آثار

أودى بالمعيار الأساسى الذى يعيش عليه المجتمع اليرجوازى ؟ وصف سنيفان زفايج هذه الحقبة فى النمسا والمانيا .

« ٠٠ إن أغرب شيء هو اننى لا استطيع أن اتذكر - مهما حاولت - كيف استطعنا أن نحافظ على إدارة البيت ؟ وبأى طريقة استطاع النساء أن يواصلوا إصدار الالوف ومئات الالوف من « الكروتين » واستطاع الألمان أن يواصلوا إصدار الملايين اللازمة من المارك كل يوم للبقاء على الرmq ؟ مهما كانت الغرابة فإنهم استطاعوا ذلك فقد تكيفت المواد . وقد يتصور البعض أنه فى الوقت الذى بلغ ثمن البيضه رقما يفوق ثمن كافة العقارات الألمانية أن النساء لا بد وأن يجربن فى الشوارع كالجبنونات وأن الحال قد أغلقت أبوابها وأن المسارح أصبحت قاعا صفصفا، ولكن الحقيقة غير ذلك ، إن إرادة الحياة كانت أعظم ، وظل الخبازون يخبزون والحنائون يصنعون الأحذية والمؤلفون يضعون الروايات والمسارح تمتلأ بالمشاهدين . »

بل لقد كشف زفايج عن آثار أخرى غير متصوره للتضخم : إن سقوط قيمة النقود أعلى من قيمة العواطف . وأنه لا يندكر أنه عمل بحماسة ونشاط كما عمل تلك الفترة .

ويشترك كل الذين كتبوا عن تلك الفترة أنهم - بعد أن فترت شررتها وحدتها لا يندكرون كيف استطاعوا البقاء والتصرف « لأننى لم أستطع أبدا أن أفهم كيف أمكن للفرد العادى أن يكون أى فكرة عن هذه الأرقام المذهلة . لقد كانت العملة لا تكاد تصل إلى يد أى واحد حتى لا يستقر أو يرتاح حتى ينقها . فالعملة الآن أفضل منها غدا . . وكان العامل يشتري حاجاته بمجرد تسلمه لمرتبته من أقرب محل للمصنع . . فلو أنه انتظر حتى العودة وترك زوجته مهمة التسويق لفقدت النقود معظم قيمتها .

ممارسه حميا الجنس « الأطفال مع البنات والأطفال مع الأطفال ، والبنات مع البنات ، والرجال مع الأطفال والبنات والنساء مع الأولاد أو الحيوانات الاليفة . »

لقد اكنسح الأعصار الملايين ودفعمهم إلى ذهول المستيريا والجونج . وأصبح الرقص نوعا من الهوس . كل شيء يرقص ، رقص البأساء والشيزوفرونيا ورقص الشبق والرقص بأقنمه زنجيه وخوذات جوتيه .

أصبحت برلين تتحدى « أنظر إلى انى بابل وحش المدائن اننى سدمم وعمورة على الطريقة البروسية . . اننى سيرك الرذائل والانحراف . »

وانتشرت البارات وبؤر الفساد وأما كن التلاقى واندية القمار وفتح كبار للموظفين بيوتهم وأجرت أرامل الجزرالات غرف نومهم بالساعة وكانت كل هذه الأما كن تزدهم لأن برلين لم تكن لتنام . ان التوتر كان يطرد الاعياء والخوف . أما البغايا فكن من كل نوع من فتيات فى السادسة إلى عجائز فى الستين . منهم المنكسرات ومنهن الامازونات المفترسات « حدثت فى احداهن وقالت أتريد ان تكون عبدى . . لن يكلفك هذا سوى ستة بلايين وسيجارة .. انها صفقة . . . »

هذه نماذج من كتابات هذه الحقبة ، فهل حقا أن هذا الهوس قد جعل للشعب الألماني ينغمس فى مباءة قومية ؟ أو أنها مبالغات كتاب . . أو وصف لبعض القطاعات والفئات دون الأخرى ، وبعد فإن برلين ليست كل ألمانيا بل ان الميادين والأحياء التى تكرر ذكرها ليست هى كل برلين ولعل السؤال الجدير بالنظر هو هل استنفدت هذه المباءة النشاط الاجتماعى والسياسى للعاصمة خلال سنتى التضخم بحيث حال ذلك دون أن يحدث التضخم ما أحدثته الازمه التى جاءت بعده وكانت أقل حدة ولكنها حملت هتلر إلى الحكم؟؟

على كل حال انحصرت موجه الانحراف الجنسى بالسريعة التى انتشرت بها .
وفى عام ١٩٢٥ أصبحت « مودة » قديمة وأصبح اغراء الرقص العارى لا يجذب
أحدا « اينتا بربر .. لقد رأيتها منذ عهد طويل .. منذ سنتين . إن الرذيله
لم تعد « شيك » وأصبحت المودة هى الواقعية « وانحصرت بقايا ذلك الوباء
القومى فى جيوب محدودة واصلت البقاء بعد انقشاع التضخم فى صورة بيوت
التدليك التى تحدث عنها دو جلاس ريد فى كتابه Insanity Fair وكانت
محلا لمختلف أنواع الشذوذ الجنسى .

وكيف حدث هذا ؟ حدث لأن الازمه بلغت الغاية والنهاية ، كانت كحريق
هائل ا كتحس كل ما حوله حتى انتهى إلى الغضاء أو البحر فلم يجد ما يحرقه
وخذ من تلقاء نفسه ، أو أنها بلغت القاع الذى لا قاع تحته وبقدر ما كانت تصل
إلى النهاية كانت تفسح المجال لبداية الانقاذ .

وكانت الوزارة التى اعتبرت مسئولة أكثر من غيرها عن التضخم هى
وزارة كونو التى كانت تمثل رجال الصناعة والرأسماليين . وكان رجال الصناعة
قد عارضوا على لسان ستينس محاولات التثبيت على أساس أنه سيوهن قدرة
ألمانيا على التصدير ، دون أن يلحظوا بالطبع أنه حتى لو كان هذا صحيحا فإنه
سيحدث على حساب فاقه العمال وبخس أجورهم وكشفوا عن زيف وطنيتهم
باتصالهم مع الفرنسيين وضيقهم بالبقية الباقية من آثار الاشتراكية بحيث
عرضوا على الحكومة ضمنا بخمسمائة مليون مارك ذهبي مقابل عدم التدخل
فى ظروف الصناعة وجعل الصناعات المؤممه صناعة خاصة . ومن هنا انصبت
على وزارة كونو نقمة الجماهير وادى الاضراب العام التلقائى إلى سقوط
الوزارة وكلف ايبيرت سترسمان بتشكيل الوزارة وأخذ سترسمان يعمل جاهدا
لوقف التضخم بمساعدة ساحر المالىه « شاخنت » بحيث بدأت موجه التضخم

توقف شيئا فشيئا وإن لم يعالج الموقف إلا بفضل مشروع داوز . فقد اقنع سترسمان الأمريكيين بالتدخل . وكان لهؤلاء مصلحة مباشرة لأن دائني ألمانيا كانوا مدينى أمريكا . وسيؤثر عجز ألمانيا عن سداد ديونها الدائنينها على مقدرة هؤلاء على سداد ديون أمريكا وبهذه الطريقة وضع الكولونيل داوز الذى كان يرأس لجنة التعويضات مشروعا جديدا يقضى بتخفيف الأقساط واعطاء ألمانيا قرضا يمكنها من إصدار عملة جديدة على أساس معيار الذهب . واخلاء منطقة الرور وفى الوقت نفسه ترك المارك فى الدرك الذى انحط إليه . واوجدت عملة جديدة هى « الرنتمارك » بضمان أصول ثابتة . وقبيلت الحكومة الألمانية المشروع بعد معارضة عنيفة لأن المشروع كان يجعل للدول الدائنة نوطا من الأشراف على إدارة بعض الموارد المالية ضمانا للقروض . وبدأت الجيوش الفرنسية تنسحب من الرور . وعندما تحسنت الأحوال اعادت الحكومة الريشارك على أساس معيار الذهب .

وكانت الشخصية التى هيمنت على الأفق السياسى خلال هذه الفترة بل ونابعدها هى شخصية جوستاف سترسمان ، وما من دليل على أن الكفاءة تفرض نفسها على الأصدقاء والاعداء وتنتصر على الميول والتحيزات من أن الوزارات الهبت التى توالت من ٢٣ إلى ٢٩ لم تستطع أن تستغنى عنه كوزير خارجيه . وكان سترسمان « بروسيا » ومن غلاة الوطنيين فى الأيام القديمة ، وارتبط أيام الحرب بلودندورف وطالب بالحق البلجيكى . وعندما سئل وماذا يترك للحلفاء استشهد بالكلمة الماثورة « اترك لهم عيونهم لبيكوا بها » .

ولكن سترسمان كان ذكيا شجاعا ، فاستطاع أن يكيف سياسته طبقا لما تتطلبه الأوضاع الجديدة بعد الهزيمة ، وبعد فرساي كون حزب الشعب . وعندما تخرجت الأمور ونقش التضخم وتوقفت الحياة فى الرور تصدى

سترسبان بشجاعة وبصيره لهذه الكوارث المتتالية وأثبت أنه كفء لها . وكان الخط الرئيسى فى سياسته هو كسب ثقة الحلفاء حتى تستطيع ألمانيا الوقوف على قدميها . ولو كان سترسبان أقل شجاعة لرأى فى مصرع ارزبرجر وراينيو نذيرا يثبطه . ولكنه كان وطنيا شجاعا فأقدم على هذه السياسة التى كان اعداؤه فيها هم الذين أراد لهم المصلحة . . أعنى الوطنيين الألمان . وتكن عبقريته فى أنه استطاع أن يستخدم أسلوبا دبلوماسيا لتحقيق أغراض امبريالية ، وأن يتبين أن هذا ممكن فى المدى البعيد . وبفضل التقدم خطوة خطوة، وأن يحكم هذا كله إحكاما ممكنه من أن يخدر الحلفاء وجملهم يتعلمون دعائته بشرائه « ويطلبون المزيد » على حد تعبير سياسى بريطانى لأن سترسبان كان يشكرهم على حسن تقديرهم وتجاوبهم وبذلك يرضى غرورهم ويستل سخيمتهم ويضعف مقاومتهم وكان الشيء الوحيد الذى أنقذ الحلفاء من أن تستمر هذه اللعبة هو موت سترسبان نفسه سنة ١٩٢٩ ، إذ ايقظت جميعه هتار الحلفاء من دغدغة سترسبان، وبذلك انقذتهم فى الساعة الأخيرة ، والحقيقة أن سترسبان قد مهد لهتلر ، كما مهد بسمارك لوهلم ، ولكن هتلر هدم بفظاظته ما بناه سترسبان بكياسته كما هدم وهلم بخيلائه ما بناه بسمارك بدهائه .

واستطاع سترسبان أن يقنع مختلف الدول أن فرنسا تريد أن تعاقب ألمانيا على الأخطاء الثلاثة التى أهدرف نابليون بارتكابها « أن تركت بروسيا تقوى ، وأبقيت على بولندا ضعيفه ، وأسأت فهم روسيا^(١) » فهى تحاول الآن أن تضعف بروسيا وأن تقوى بولندا وأن تناصر دنكن وترانجل وغيرهما ، وهى سياسة خاطئة لأن ألمانيا لاتدخل عن بروسيا بل تتمسك بها ، ولأن بولندا سنظل ضعيفه بحكم هوامل القلق الكامنة فيها ، ولأن مناصرة

(1) The Hope of Europe by Philip Gibbs p. 199.

جنرالات الجيش القيصرى اساءة في فهم روسيا أكثر من اساءة نابليون فهمها .
وفي الوقت نفسه كان سترسمان يقنع فرنسا بحسن نية ألمانيا وإيمانها بالسلام
واستعدادها لدفع كل التزاماتها بقدر ما تمنح من فرص لإثبات ذلك . وكان
من حسن حظه أن سقط بوانفكاريه وأن جاء بريان « المتفهم الذي رأى بعينه
أن سياسة القوة والحقد والأرهاب واحتلال الرور لم تجد . وبذلك استطاع أن
يوقع حلف لو كارنو الذي كان نقطة تحول من سياسة امتصاص ألمانيا وحربها
إلى سياسة التسوية والمهادنة . وفي ٧ سبتمبر سنة ٢٥ عشية انتهاء مفاوضات
لو كارنو كتب سترسمان إلى ولي العهد الامبراطورى الذى كان يعيش وقتئذ
كمواطن عادى . ذاكرا أن المهام الرئيسية الثلاث أمام المستقبل الألماني هي :
(١) تسوية موضوع التعويضات وتأكيده السلام لذي هو الشرط الأول
لاستعادة ألمانيا لقوتها .

(ب) حماية الاثنى عشر مليوناً من الألمان الذين يعيشون في أرض أجنبيه
من النير الأجنبي (وكان يقصد بذلك الألمان في تشيكوسلوفاكيا والنمسا) .
(ج) اعادة النظر في الحدود الشرقية الألمانية . بما يحقق استعادة دانزج
والمر البولندى .

وكما لاحظ سير جيوفرى نو كس في كتابه « السلام الأخير والمقبل » فإن
هذا البرنامج لم يكن ليختلف عن برنامج هتلر عندما بدأ حكمه وختم سترسمان
خطابه بأنه يأمل أن يرى الأمير قراره في ضوء التقدير السليم الجدير به
« ولكن إذا كان سموكم الامبراطورى يمنحني الفرصه الحديث هادىء فإنى
سأكون تحت تصرفكم » وكما هو واضح فإن سترسمان يخاطب ابن القيصر
المخلوع « كما لو كان ولي العهد » وكما لو لم يكن هناك جمهورية على الاطلاق .
ووراء سترسمان كان شبح « ستينس » الهائل يقف ، وكان ستينس وقتئذ

يعتدل الاقتصاد الألماني ، ووصلت شخصيته من القوة والامتداد درجة جعلت بعض الكتاب يطلقون على سترسمان « الممثل السياسي لهوجو ستينس » وكان هوجو ستينس قد ورث عن والده من الأراضي والمناجم والمصانع ما قدرت قيمته بسبعة ملايين جنيه استرليني وليس معنى هذا أنه كان منعماً ، فقد عمل جرافاً داخل المناجم وعلى أرصفة السفن وكانت فلسفته هي فلسفة الرأسماليين البريطانيين في منتصف القرن الثامن عشر ، وقبيل التضخم أصبح ستينس مالسكالامبراطورية صفيره تضم كل شيء . صحف . فحم . صلب . مواصلات . الخ يعمل فيها ٢٥٠ ألف عامل ويبلغ رأسمالها ١٢ مليون مارك . ولم يكن ستينس هو الوحيد — لقد كان هناك أوجست تيسن أحد أعمدة صناعة الفحم والحديد . والذي كان يعمل في مصانعه قرابة ١٢٥ ألف عامل منهم ٦٥ ألف في ملهم . وكان كلوكنر Kloeckner يأتي بعد تيسن مباشرة . أما كروب ومصانعه التي زودت ألمانيا طوال الحرب بأكبر مدافع عرقتها الجيوش حتى ذلك الوقت ، فقد راهمت بسرعة ما بين إنتاجها والظروف الجديدة . وأصبحت تنتج كل صور الصناعات المعدنية من سكك حديدية أو آلات زراعية . الخ .

ومع أن تثبيت المارك قد أودى ببعض هؤلاء مثل ستينس الذي توسع فترة التضخم توسعاً انعكس عليه فترة التثبيت ، فإن الصناعة الألمانية بدأت تلتمش بفضل القروض التي انهالت على ألمانيا وأخذت هذه القروض تتمشى في الصناعة كما يتمشى الدم في الجسد . . بحيث طوت بسرعة صفحة البأساء . وفتحت مع بداية ١٩٢٥ . العشرينات الذهبية The Golden Twenties .

* * *

ولكن في هذه الفترة — فبراير ١٩٢٥ — توفي رئيس الجمهورية فردريك ايبرت وبرزت مشكلة انتخاب خلف له . .

وتقدمت الأحزاب المختلفة بسبعة مرشحين . فرشحت كتلة المحافظين (حزب الشعب الألماني والحزب الوطني الألماني) الدكتور جاريس Garres الذي نال ١٠٧ مليون صوتا ورشح الاشتراكيون الديمقراطيون اوتو براون Otto Braun وهو رئيس وزراء بروسيا ونال ٧٨ مليون صوتا . ورشح حزب الوسط ويلهم ماركس وحصل على ٤ مليون صوتا ورشح الحزب الشيوعي تالمان وحصل على مليونين من الاصوات . كما حصل مرشح الديمقراطيون على مليون صوت وحصل مرشح حزب الشعب البافاري على نصف مليون صوت . أما الجنرال لودندورف الذي رشحه النازي فلم ينل سوى ربع مليون صوت .

ولم ينل أى واحد من هؤلاء الأغلبية المطلقة ، فقد كان يجب بحكم الدستور اجراء انتخاب ثلث بين أكبر فائزين ، وأصبح من الواضح أنه لو تكلمت الأحزاب الاشتراكية وكونت جبهة ديمقراطية لكان هناك احتمال أمامها بالفوز بالأصوات المطلوبه للأغلبية .

ولكن الذى حدث كان غير ذلك .

فقد خشى الاشتراكيون الديمقراطيون أن يعجزوا عن كسب مزيد من الأصوات البورجوازية لمرشح اشتراكي وبذلك يساعدون خصمهم المحافظ فسحبوا مرشحهم وايدوا الدكتور ويلهم ماركس مرشح حزب الوسط الكاثوليكي والذي لم يكن قد نال سوى نصف عدد أصوات مرشحهم ومن هنا فقد كان هذا التصرف من الناحية الحسابية المحضه مثيرا للدهشه وأهم من ذلك أن ماركس كان مكروها من العمال والأحرار ، وله سجل موغل في الرجعية . وكان تأييده يعنى بالتأكيده فقد أصوات جميع اليساريين والراديكاليين .

وفي الوقت نفسه غيرت كتله المحافظين مرشحها ، فوضعت محل الدكتور

جارس الماريشال هندنبرج وأدارت حملة من الدعاية الانتخابية بعثت فيها كل الذكريات العسكرية الجيدة للمارشال ووصفته بأنه « الخالص » لألمانيا ، بينما لم تكن صحف الحزب الاشتراكي الديمقراطي لتستطيع أن تسبغ على مرشحها إلا أنه « أقل الضرين » .

وأسفرت الانتخابات عن النتيجة التالية .

نال هندنبرج ١٤٦٦٥٠٠٠ صوتا .

نال ماركس ١٣٧٥١٦١٥ صوتا .

نال تالمان ١٩٣١١٥١ صوتا .

وتبادل الاشتراكيون والشيوعيون اللوم وكل منهما محق في لومه .

• • • مستحق لفشله • • •

فلو لم يصر الشيوعيون على ترشيح مرشح خاص بهم رغم تأكدهم سلفا من فشله وأنه ليس هناك أى احتمال لفوزهم وأن النتيجة المؤكدة الوحيدة هي إنخذال عدد من الأصوات سيؤدي إلى رجحان كلمة المحافظين . ولو ضموا أصواتهم لأصوات الاشتراكيين الديمقراطيين لكان من المحتمل أن ينجح مرشح الاشتراكيين الديمقراطيين في الانتخابات الأولى ومن هنا فإن خطأهم لا يمكن تبريره ، ومن ناحية أخرى فإن سحب الاشتراكيين الديمقراطيين لمرشحهم وتأييدهم لشخصية بغية لا تفضل هندنبرج لم يدع للشيوعيين خيارا في الانتخابات الثانية إلا الاصرار على مرشحهم .

وقد عكست المعركة الانتخابية وتلخصت بأساة فإيمار كلها : تخبط الحزب الاشتراكي الديمقراطي في إنخاذ المواقف السلمية . وتحمل الجناح الشيوعي لشطر كبير في المسؤولية : ولولا ذلك لما كان يمكن أن يرأس الجمهورية التي قامت بفضل الثورة على العسكريين - كبير هؤلاء العسكريين وقائدهم الأعلى .

الفصل الثامن عشر الصيف الهندي

وهكذا أصبح هندنبرج رئيسا للجمهورية ..

وكان هندنبرج قد أصبح نوحا من الأسطورة القومية ، لقد كان متقاعدا في نوفمبر سنة ١٤ عندما نشبت الحرب العالمية الأولى وأرسل تليفرافه إلى القيصر « إني مستعد » فأرسلوه إلى الجبهة الشرقية فدحر الروس وحول إنتصاراتهم إلى هزائم .. ثم استنجدوا به في الجبهة الغربية فنظم الدفاع الذي جعل الألمان قاب قوسين من الإنتصار . ولما حدثت المفاجئة ظل اسمه نظيفا بعيدا عن أى شائبة لأنه رزق مساعدين تحملا عنه كل الأعباء المباشرة ، ففي المرحلة الأولى كان لودندورف هو المخطط والمنفذ ممّا ، ولم يتردد في الظهور بهذا المظهر مدفوعاً بطموحه الخاص . وعندما لم يكن ممكنا إخفاء الهزيمة كان لودندورف هو الذى دفع الثمن وإستقال بينما ظل المارشال فى منصبه ، وعين له مساعد قدير آخر هو جرونر . وحرص جرونر على إبقاء اسم هندنبرج عاليا ، وفوق كل الأحداث والضرورات الكريمة وتقدم بنفسه لإتخاذ كل القرارات التى تمليها الظروف المؤلمة حماية لاسم المارشال وشخصه وحرصا على أن يكون فوق الخلاف والشوائب والإتهامات . وتقبل المارشال من من مساعديه هذه المواقف لأنه كان مهيوّا لها بحكم المزاج ..

وعندما إنتهت الحرب قاد المارشال عملية الإنسحاب بحيث تمت بكفاية

وسرعة وصورة مشرفة وبعدها آب إلى عزلته في هانوفر كما كان قبل الحرب. ولكنه ظل رمزاً حياً لا فضل ما توحى به العسكرية الألمانية ، ولعله في عزلته تلك كان يمثل في أذهان الكثيرين ، ألمانيا الحقيقية المعترلة لتلك الأحداث المحيرة التي كانت تمر بها وتمحك في قدرها ، وكأنها ليست من صنع يدها أو سلطان إرادتها ، وإنما فرضها الغزاة في الخارج والخونة أو الضعاف في الداخل . وأقام له الألمان تمثالا خشبياً يعادل في ضخامته تماثيل « ريسيس الثاني » وكانت المسامير تشتري لحساب مشروعات البر العسكرية لتدق فيه فكاً بما هو « باب المتولى »

وعند موت ايبرت اهتبل العسكريون الفرصة ، فدفنوا به رئيساً للجمهورية ، وبطلا قومياً ، ومنقداً ، ونجحوا ، فأصبح رئيساً للجمهورية ، وواصل دوره في رئاسة الجمهورية ، كما كان يؤديه في القيادة العليا بحيث كان يقوم مساعدوه بالعمل ، ولولا جو المؤامرات والوضع الخاص للجمهورية لأدى هندنبرج - رغم ماضيه العسكري - دور الحاكم الذي يملك ولا يحكم أداء نموذجياً .

وقد راقب الكاتب السياسي البريطاني دوغلاس ريد الذي كان في ألمانيا في الثلاثينات - هندنبرج خلال بعض الزيارات التي قام بها في أعقاب إخلاء منطقة الرين ، ولس كيف تجاوزت ألمانيا مع رجالها القديم ، وكيف أن عين الحب جعلت من هذا « التيتان الخشبي » الثقيل ، المترهل . الجاد ، معبودا كل شيء فيه يثير حساستهم ، وشاهد الجموع الغفيرة من مقاتلي مارك ١٨٦٤ و ١٨٦٦ و ١٨٧٠ التي شهدوها مع المارشال ، وهم الآن في ارضل العمر .. إلى البراعم الصغيرة من الصبيان والبنات ... وما بين ذلك من رجال أعمال وضباط ومهنيين وأساتذة جامعات .. تهتف له .. وتسير وراءه واستطاع دوغلاس ريد أن يطلع على النسخة الأصلية لبعض الخطابات التي ألقاها ، وفي

هذه النسخ كانت بعض السطور قد كتبت بالحرف الكبيرة Capitals ، وبعضها الآخر بالحروف الكبيرة التي وضعت تحتها خطوط . وكانت هذه السطور هي التي يرفع فيها صوته ، أو تشتد حماسه ...

كان هندنبرج في الحقيقة هو الممثل الأخير لألمانيا فردريك الثاني .. ووليم الأول وتمسكت به الجماهير الألمانية لأن صورة الزعيم العسكري كانت هي الصورة الوحيدة التي كانت ألمانيا تألفها حتى جاءت سنوات المهزبة والتضخم والإنهيار الاقتصادي فاجتذت هذه الصورة وكيفت الاجيال الجديدة تكييفاً مختلفاً بحيث تهباً الجو لان يبدع هتلر الصورة الجديدة للزعيم الذي لا يكون عسكرياً كما ألفت ألمانيا القديمة . ولا يكون سياسياً على غرار ساسة فامار وإنما وطنياً قومياً من نمط جديد .

* * *

كانت السنوات التي أعقبت تولية هندنبرج سنوات رخاء ظاهر ، فقد تدفقت الأموال الأجنبية لتمويل مختلف المشروعات .. فهل غفرت أوروبا لألمانيا جرماً عندما ولى أمرها « مجرم الحرب » الذي طالبت في معاهدة فرساي بمحاكمته .. أو أن كراهيتها للشيوعية وخشيتها منها كانت أعمق من كراهيتها للعسكرية الألمانية .. أو أن جهود سترسمان وتمصه لقميص « الأوروبية » و « الوفاء » ألى ثماره .. لقد يكون هذا كله . ولكن الحق أن السياسة المالية تختلف عن السياسة السياسية . وأن عالمية هذه السياسة المالية إنما تتأثر بالعامل الاقتصادي ومدى « رأسماليته » وربحيته أكثر مما تتأثر بالنظم السياسية أو الرجال الحاكمين .. فلماذا لا يعرف الوطنية ، ولا يفرق بين دين ودين .. دولة ودولة .. وهو دائماً فوق العداوات السياسية فقد هاجت اليابان في الحرب الثانية الولايات المتحدة بترول وحديد باعه لها رجال الصناعة الأمريكيون .. وحارب نابليون بريطانيا

بفضل أموال قدمها مصرفيو لندن بفائدة ٨٪ وكان الأخوة روتشيلد يسكنون عواصم العالم ويمجرون معاملاتهم المالية فوق مستوى الحكومات . . واللواء الوحيد الذى يتبعه المال هو الربح أو سعر الفائدة ، وكانت ألمانيا تقترض بفائدة عالية تصل إلى ٨٪ فتدفقت الأموال من أمريكا إلى ألمانيا ومن هذه الأموال كانت ألمانيا تدفع ديونها لفرنسا وأ إنجلترا اللتين كانتا تدفمان منها ديونهما لأمريكا . . لتقدمها قروضا لألمانيا وهلم جرا . . وبفضل هذه العجلة الدائرة نهض الاقتصاد الألماني من كبوته واستطاعت ألمانيا أن تستكمل انطلاقتها الذى أوقفته الحرب والأحداث التى تلتها ، وأدخل أصحاب الأعمال طريقة «السير المتحرك» Conveyor belt التى استخدمت وقتئذ فى الولايات المتحدة ، وفتحت صناعة الكيماويات تلك الآفاق والعوالم الجديدة التى مكنتها من استخلاص الجازولين من الفحم وصناعة المطاط الصناعى والأنسجة الصناعية . وتضاعف إنتاج الفحم الذى كان قد وقف سنة ٢٠ عند ٨٥٠٠٠٠٠٠ طننا فوصل إلى ١٦٣٠٠٠٠٠٠ طننا سنة ٢٧ كما قفز إنتاج الصاب خلال المدة نفسها فقفز من ٦٣٠٠٠٠٠٠ طننا إلى ١٦١٠٠٠٠٠٠ طننا بينما وقف إنتاج بريطانيا ثابتاً عند ٩٠٠٠٠٠٠٠ طننا وهبط إنتاجها من الفحم من ثمانية ملايين إلى ٧٢٠٠٠٠٠٠٠ وتكون خلال هذه الفترة أكبر عملاقين صناعيين هما ترست فاربن للصباغ I. B. Farben سنة ١٩٢٥ وترست الصلب Varsinglig Stahlworks سنة ٢٦ .

ولاحظ دو جلاس ريد الذى كان يطوف بألمانيا وقتئذ «إن ألمانيا التى حرما الخلفاء من أسطولها التجارى بأسره ، أصبح لديها بعد عشر سنوات واحد من أكبر أساطيل العالم ، وقد حرروا عليها أن تبني الطائرات الحربية ، وهبطوا بإنتاجها المدنى منها ، ولكن ألمانيا استطاعت أن تبني العديد من

من الطائرات ومنها السفينة الطائرة DOX التي تطير عبر بحيرة كونستانس وعليها ١٧٣ راكبا، وهو شيء — فيما أعلم — لم يسبق كما شيدت السفينتين « برين » و « أوروبا » اثنتين حازتا الشريط الأزرق وجعلت المنتصرين يجاولون اللحاق بها ببناء نورماندى وكوين مارى. وفي سنة ١٩٢٩ كان المنطاد زبلين يجتاز المحيط في رحلته عبر العالم .

ودهش ريد لأنه لم ير « الأكواخ » المعروفة في بريطانيا ، والتي تسود مناطق الفحم في دير هام وغيرها ، ووجد بدلا منها مدنا جميلة بحدائق يسكنها عمال الفحم أو عمال كرب أو غيرهم .

وقال ريد إن مشاهد الرخاء والتقدم في ألمانيا ما بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٢ جعلته يسأل نفسه « ماذا كسبت بريطانيا خلال قرن من الازدهار والأمن والانتصار في الحرب العالمية .. وماذا خسرت ألمانيا من هزيمتها ، وهلا يكون من الأفضل — في المدى الطويل — لو هيمنت ألمانيا على أوروبا مادامت تستطيع أن تدير الشؤون بأفضل مما نديرها؟

ولاريب أن جزءا كبيرا من هذا الازدهار أو على الأقل مايتعلق منه بالناحية الاجتماعية ووضان حقوق العمال يعود إلى الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي كان يفخر ، وله الحق ، أنه زاد هذا الميدان، وشق طريقه فيه ، وأنه سيمضى فيه قدما رغم مضايقات الشيوعيين من اليسار والغلاة من اليمين .

صحيح إنه فقد المبادأة التي كانت له في الأيام الأولى للثورة ، ولم يصبح للمستشار منه منذ فترة طويلة، وأنه اضطر للتعاون مع أحزاب الوسط والديمقراطيين ولكن هذا لم يكن ليضيره كثيرا لأنه لا يخالف فكرته الأساسية عن الديمقراطية البرلمانية القائمة على الأحزاب ، وهو بعد يستطيع التأثير خلال أى تحالف تأثيرا يتناسب مع عدد أعضائه في الرشيستاج .

وكان الضعف الرئيسى فى مثل هذه السياسة هو فى « الروح » أكثر مما كان فى الأسلوب. فلم يكن الخطأ فى التحالف فى حد ذاته ، ولكنه كان فى التسليم ، إذ لا يكون للتحالف عندئذ من معنى إلا التبعية . وعندما كان التحالف يخبىر الاشتراكيين بين البقاء فى التحالف وما يقتضيه من النزول على رغبة شركائهم ، أو التمسك بأرائهم ، وما قد يقتضيه ذلك من استقالة ، فإنهم كانوا يفضلون دائماً البقاء على أساس أن ذلك هو أضعف الإيمان ، أو أقل الشرين . وفى ظل هذا للمنطق سارت سياسة التسامح حتى تساحت فى حياة الجمهورية نفسها ، ولم يتنبه الاشتراكيون الديمقراطيون إلى خطئهم إلا أخيراً جداً ، وبعد أن كانت كل فرص الإصلاح قد ضاعت .

ولهذا السبب نفسه كان الحزب الاشتراكي الديمقراطى موفقاً فى المعارضة أكثر مما كان فى الحكم ، لأن بقاءه فى الحكم كان رهناً برضا شركائه ومن ثم كان عليه إذا أراد البقاء استرضاءهم الأمر ، الذى لم يكن موجوداً بالطبع فى المعارضة . وقد يصور ذلك أنه وهو فى المعارضة استطاع أن يحقق قانون التأمين من البطالة لسنة ١٩٢٧ ولكنه عندما ولى الحكم فى السنة التالية قَبِل الانتقاص من المزايا التى تضمنها القانون كما سبلى .

كما قد يصور هذا الموقف بطريقة دراماتيكية قضية بوارج الجيب فعندما أسفرت انتخابات سنة ١٩٢٨ عن ظفر الحزب الاشتراكي الديمقراطى بأغلبية المقاعد (١٥٢ مقعداً) هلى حين لم يظفر الحزب الشيوعى بسوى ٤٥ مقعداً وحزب الوسط بسوى ٦١ مقعداً الف هرمان مولر وزارة ائتلافية ضمت كتلة الوسط والديمقراطيين وكان من الموضوعات الأولى التى جوبهت بها الوزارة الجديدة قضية بوارج الجيب التى كلن الرشتاج قد أقرها فى دوره السابقة ولكنها كانت موضوع معارضة شديدة من الاشتراكيين وبرزت هذه المعارضة فى فى المعركة الانتخابية وأخذت صورة التساؤل « بوارج الجيب .. أم مرا كز تغذية الأطفال » .

وكان فوز الاشتراكيين يعنى استبعاد موضوع البوارج ، ولكن العناصر العسكرية القوية أصرت على ضرورة صناعة هذه البوارج وأصبح مولر أمام أمرين : إما أن يثير أزمة وزارية تعرض الوزارة الجديدة للمقروط إذا أصر على عدم صناعة هذه البوارج ، وإما أن يتنكر للدعاية الانتخابية المعلنة للحزب . وانتهى إلى معارضة المشروع على أساس أن وزراء الأحزاب المؤتلفين تقبل ، وعندئذ يقبلون بفكرة ضغط الأغلبية عليهم ، بيد أن الوزراء الديمقراطيين أيدوا الاشتراكيين ، ولم يعد لهؤلاء عذر . ولكن لو أن مولر وقف موقف المعارضة لاستقال عدد من الوزراء — منهم متر سيمان الثمين ، والذي رأى مولر أنه لا يستطيع الاستغناء عنه فضلاً عن اكتساب عداوة العسكريين ، ولهذا آثر مولر أن لا يعترض على بناء البوارج . وأثار هذا — كما هو منتظر — موجة من الاحتجاج والامتناء ، ورفضت الهيئة البرلمانية للحزب في الرشتاج هذا القرار ، وعرضت للتصويت قراراً مضاداً برفض صنع البوارج . . . ولكن القرار لم يظفر بالأغلبية . . . وكشفت هذه القضية عن ضعف الحزب ، وعدم ثقته في نفسه وعدم تملكه لأزمة القيادة بالحسم والعزم المطلوبين .

* * *

وكانت السياسة التي انتهجتها النقابات — وهي بعد كل شيء القاعدة الشعبية للحزب تماثل في روحها سياسة الحزب الاشتراكي ، فمع أن النقابات بدأت تستشعر شيئاً من القوة بعد انحسار موجة التضخم وعودة الازدهار ، إلا أن هذا الإحساس لم يكن مطلقاً . فقد كان قبل التضخم أقوى منه بعده . كانت النقابات سنة ١٩٢٢ تضم ٧٨٠٠٠٠٠٠ عضواً ولكنها سنة ٢٤ كانت تضم ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ عضواً ، ولكن أهم من هذا الانخفاض في العضوية الذي لم يكن ملحوظاً فترة الازدهار لأنه جاء بعد انسحاق التضخم ، أن سياسة العمل النقابي كانت

تبتعد شيئاً فشيئاً عن العمل الذاتى والكفاحى الذى تمارسه النقابات نفسها عن طريق الاتفاقيات الجماعية ، وتتوصل به إلى تقرير شروط وظروف العمل ، قدر ما كانت تقترب إلى سياسة التحكيم والاعتماد على الدولة . وهى سياسة مهما كانت حسناتها ، فإنها تشعر العمال أن النقابات ليست هى الأداة الفعالة والحاسمة فى الموضوع ، وإنما هى أجهزة الدولة فيبدأ احساسهم بالحاجة إليها والتمسك بها فى الضعف ، وقد أدت النقابات دوراً كبيراً فى وضع وإقرار قانون تأمين البطالة سنة ١٩٢٧ ، ولكن هذا الدور لم يبرز تماماً لأنه ذاب فى فى قالب التشريعى الذى تتولاه سلطات الدولة .

وحاولت النقابات أن تعوض هذا النقص بالنشاط فى مجالات أخرى كالرعاية الاجتماعية والإسكان والتأمين الاجتماعى على أساس تعاونى . ومامن شك فى أن هذه الجهود قدمت خدمات ومساعدات لعدد كبير من العمال ، ولكن أثرها على الاقتصاد القومى كان معدوماً فضلاً عن أن عناية النقابات بهذا الجانب من النشاط كان بالطبع على حساب مهامها الأصلية .

ومما يثير الدهشة أن النقابات والحزب واصلاً سياسة الاحتفاظ بالشعارات الثورية فى المؤتمرات والبرامج رغم سياسة التهدئة والتدرج والمساومة التى كان يتبعها عملياً، فقد تضمن برنامج الحزب الذى وضع فى مؤتمر هيدلبرج التعبيرات الماركسية القديمة مثل « إن عدد البلوريتاريا ينمو .. والصراع ما بين المستغلين والمستغلين يزداد عنفاً وتصبح الحرب الطبقيّة ما بين الرأسماليين الحاكمين والعمال المكبوتين أشد وحشية » وهى كلمات لم يكن لها أى صدى عملى .

وبالمثل قرر مؤتمر النقابات الذى عقد فى برسلو Breslau سنة ١٩٢٥ تحويل مجلس الاقتصاد القومى المؤقت Provisional National Economic Council إلى « برلمان إقتصادى سليم » وطالب بترشيد الصناعة ولم يكن من

ناحية العمال على الاقل لهذه المطالب صدى على . وأهم من هذا أن البرلمان الاقتصادي المنشود لم يكن ليفيد العمال كثيرا مادامت أعنة الصناعة في أيدي الرأسماليين، إذ ستكون النقابات فيه في موقف يشابه الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الوزارة ، وأن الدعوة للترشيد على ما فيها من وجهة موضوعية، إلا أن هناك احتمال أن يؤدي الترشيد ، مادام النظام الاقتصادي رأسماليا ، ومع ضعف الحركة النقابية إلى الاضرار بالعمال حتى مع انتعاش الصناعة والاقتصاد.

وماذا كانت مواقف الشيوعيين وهم القوة العمالية الثالثة بعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي والنقابات؟ كان النحس النظري لا يزال يلاحق الشيوعيين فعلى أثر التهمة الشيوعية؛ الفاشلة سنة ٢٣ التي راح ضحيتها براندلر ، وثب على زعامة الحزب روث فيشر وماملو وهم من دعاة اليسار الهجومي ، فبنينا سياسة لجهه المتحدة وشنا حملات متوالية على الحركة النقابية والحزب الاشتراكي الديمقراطي ، ولكن سقوط الأصوات الشيوعية في الرشتاج هذه الفترة حكم على السياسة بالفشل ، وهكذا ضحى بفيشر وماسلو وطرادا (كما طرد ليفي وبراندلر من قبل) وانفرد تايلمان بالزعامة وبدأ يعود مرة أخرى إلى سياسة الجبهة المتحدة ، ولكن عندما كون الحزب الاشتراكي الديمقراطي وزارة مولر الائتلافية عادت مرة أخرى حملات الشيوعيين على «الفاشست الاشتراكيين» وكانت الظروف السياسية في الاتحاد السوفيتي وراء ذلك. ومع أن أنصار براندلر حصلوا على أغلبية في اللجنة المركزية وأسقطوا تايلمان إلا أن الأوامر صدرت من موسكو بإعادة تايلمان على رأس اللجنة . ونفذ الأمر بالطبع فوراً .

وحدث وقتئذ بضعة حوادث كانت ذات آثار بعيدة المدى على الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي الديمقراطي .

ففي خريف سنة ١٩٢٨ طالب عمال الصلب والحديد في المنطقة الغربية من

المانيا بزيادات في الأجور ، ورفض أصحاب الأعمال كالعادة ، فعرض الأمر على التحكيم الذي قضى بزيادة تبلغ خمسي (٤/٥) الزيادة التي طلبوها، وقبل العمال ولكن أصحاب الأعمال رفضوا رغم أن حكم التحكيم ملزم قانونا، وبدلا من الانصياع لجأوا إلى الإغلاق ، وهو في مثل هذه الحالة يعد عملا غير مشروع فتعطل مائتا ألف عامل ، فضلا عن ألوف أخرى من العمال الذين يعملون في صناعات تتوقف على الصلب والحديد . ولما كان القانون يحكم للعمال في مثل هذه الحالة بإعانة بطالة من الدولة ، فقد تدخلت الحكومة في شخص وزير الداخلية سيفرنج الذي أمكنه اقناع أصحاب الأعمال بقبول زيادة طفيفة في الأجر تقل عن زيادة الخمسين المحكوم بها للعمال . وكان هذا انتصارا لأصحاب الأعمال على العمال الذين تملكهم المرارة خاصة وأن الذي أشرف على هذه النهاية الفاشلة كان وزير الداخلية الاشتراكي الديمقراطي ولم يقصر الشيوعيون في استغلال هذه الفرصة للتنديد بالاشتراكيين الديمقراطيين . وعندما أخذ أصحاب الأعمال في الامتناع عن العمال نتيجة للأخذ بنظم الترشيح والاحساس بأولى بوادر الأزمة بدأ الشيوعيون في تنظيم مظاهرات العمال العاطلين الذين تجاوز عددهم ثلاثة ملايين استثنى منهم قرابة نصف مليون من حق تقاضي إعانة البطالة ، فأصبحوا أعداء دأئمين للنظام .. وأصدقاء مقربين للشيوعيين .. ومع أن هذه المظاهرات التي استهدفت اجتذاب العمال للاضراب كانت فاشلة لأنها كانت خارج إطار التنظيم النقابي ، الذي ينظم الاضرابات ، إلا أنها على حد تعبير كتاب « المطرقة أو السندان » تبلور كلمات بيرنشتين عن أن « الحركة هي كل شيء .. والهدف لا شيء » وكانت النتيجة الوحيدة هي فصل العمال الشيوعيين بحيث أصبح الحزب الشيوعي حزبا من العمال المتعطلين .

في هذا الجو المسكف حل أول مايو سنة ١٩٢٩ وكان الاحتفال بيوم أول مايو من التقاليد العربية في الحركة النقابية الألمانية التي حاربت في سبيلها من

أيلم بسمارك . ولكن زورجيبيل Zorgiebel مدير بوليس برلين الاشتراكي الديمقراطي الذي خشى هذه الملايسات أصدر أمراً بمنع المظاهرات في الميادين العامة . واهتبل الشيوعيون هذه الفرصة لتحدى أوامر البوليس ودعوا العمال للتظاهر . ولجى العمال الدعوة فاكنتظت أحياء عديدة بالعمال وأطلق البوليس النار على العمال المتظاهرين والعزل الذين دافعوا عن أنفسهم بقدر استطاعتهم ، وظلت المناوشات يومين بعد اليوم الأول ، وقتل خمسة وعشرون عاملاً وأصيب عدد آخر كبير . وحاول زورجيبيل تبرير إطلاق البوليس النار على العمال ، بأن العمال هم الذين بدأوا وأنهم أصابوا عشرين بندقية من بندق البوليس ، وإن لم يصب البوليس نفسه بسوء . واستولت الصحف على هذا القول وأخذت تتندر بقدره العمال الفعائقة على التصويب .. وأعاد هذا الحادث ذكرى نوسك ، وأطلق الشيوعيون اسم « زورجيبيل » على القيادات النقابية والاشتراكية . وبقدر ما أدى هذا الحادث إلى أنحياز عدد كبير من العمال إلى الشيوعيين ، فإنه عمق الهوة ما بين الشيوعيين والاشتراكيين ، وزاد في العداوة بينهما بحيث استحال اتفاقهما لمحاربة العدو المشترك - النازية .

ولم تكن متاعب الجمهورية والحزب الاشتراكي الديمقراطي لتقتصر على هذه المواقف من الشيوعيين والنازيين . إذ برزت ظاهرة أخرى لم تكن مألوفاً في المجتمع الألماني ، حتى جمهورية فايمار ، أو على الأقل لم تكن معلنة . تلك هي « الفساد » الذي سمحت به بيئة الجمهورية من حرية أو تسامح ، على تقيض ما كان يأخذ المجتمع الألماني نفسه به قبلاً من ضبط والتزام وتدقيق . ولم تكن بيئة الجمهورية تسمح بظهور هذا الفساد فحسب ، بل انها أيضاً كانت تعمل على إعلانه وعلى أن يأخذ شكل الفضائح العامة التي تقتنصها الصحف المعارضة وتأخذ وتعيد فيها أو تتناولها المحاكم بالدرامه ومناقشة التفاصيل . والامتناع إلى الشهود والمراقبات الخ . . مما يضاعف من أثرها السوء . وقد

لاتكون بيئة الجمهورية ونظامها الديمقراطي الحر هو الوحيد المسئول ، إذ من المؤكد أن الحصار الذي تلى الحرب ، والحرب الأهلية ، والتضخم الذي أدى إلى تحلل خلقي جاوز كل الحدود المعروفة وقتئذ كلها ساعدت على إبراز الفضائح العامة ، ولكن كائناً ما كانت الأسباب ، فقد وضعت تحت عنوان واحد هو جمهورية فايمار .

وكانت أولى القضايا الدائمة قضية ارزبرجر ، فبعد أن تناول بالنقد اللاذع السياسة المالية لأحد رجال الدولة السابقين ويدعى كارل هلفريش ، اتهمه هلفريش ببعض التصرفات الشائنة . وأدانت إحدى محاكم برلين ارزبرجر بالفساد البرلماني .

وبعدها جاءت فضيحة الأخوة سكلارز Sklarz وهم أخوة أربعة بدأوا من سنة ١٩١٨ في بيع مخلفات الحرب . وكان في هذه المخلفات قلاع وحصون كاملة مثل هيجولاند ودانزيج . وساعدهم في هذه الصفقات عدد من النواب والموظفين حتى أتروا ثراء فاحشاً وأخذوا يقيمون حفلات باذخة في قصرهم . وأخيراً كشفت الفضيحة وأدانهم القضاء .

ومن القضايا التي رزقت شهرة كبيرة قضية الأخوة بارماتس Barmats وهم ثلاثة جوليوس ، وسالمون وهرشل . وقد استطاعوا بحكم صلاتهم السياسية أن يحصلوا على اعتمادات وقروض لا تتناسب مع الضمانات التي قدموها ، أو بدون ضمانات ، فاقترضوا من بنك بروسيا ٤٣ مليون ماركا لقاء ضمانات لاتساوى أكثر من مليونين ونصف مليون كما أقرضتهم هيئة البريد أربعة عشر مليوناً مقابل أوراق مالية لاتتعدى أربعة ملايين . واستمرت هذه العمليات المالية عدة سنين قبل أن تكتشف ويحكم بالسجن على الأخوة بارماتس .

وتماثل القضيتين السابقتين قضية الاخوة سكلارك Sklarek . وهم ثلاثة كذلك . ما كس وليو وويلي وقد جاءوا بعد الثورة من بوسترا ، وبتعبير « إدجار مورر » مؤلف كتاب « المانيا تعيد الساعة إلى الوراء » فقد شاء جيو هوفا أن تكون لهم صلات عرضية ببعض رجال الادارة في برلين . ولما كانوا موهوبين في فن « الانبساط » فلم يعسر عليهم أن يظفروا بمعظم عقود ملابس وأقمشة الهيئات الحكومية والمستشفيات ، كما تلقوا مبالغ جسيمة لقاء عقود وهمية ، وفي مقابل هذا كانوا يزودون كل موظفي بلدية العاصمة تقريبا بالملابس مجاناً .. ويعقدون حفلات باذخة تقدم فيها « تلال من الكافيار وبراميل من الشمبانيا » .. كما كانوا يحتفظون بأسطبل خاص لخيول السباق .. وبعد محادثة استمرت ثلاث سنوات حكم على الاخوة سكلارك بالأشغال الشاقة .

ومع أن سجل الغش والفساد لا يقف عند هذا ، وأنه يحفل بقضايا مثل قضية د.ك Dumke المدير العام لإحدى شركات التأمين . ورجل المال لودفيج كاتز تيلوجين Katzenellenbogen المصرفي المعاصر . الخ .. إلا أن الحالات الثلاث الأولى لها أهمية خاصة لأنها كلها تدور حول عدد من الاخوة اليهود الذين استطاعوا بالرشوة والفساد واصطناع رجال الادارة تكوين ثروات ضخمة وكانت مثل هذه الحالات تعد لقيه تهيئة للصحافة النازية بوجه خاص لأنها تمكنها من أن تضرب عصفورين بحجر واحد ، أعنى أنها تمكنها من مهاجمة اليهود ، والجمهورية معاً ، خاصة وأن بعض المتسببين فيها ، أو المتورطين معها كانوا أعضاء في الحزب الاشتراكي الديمقراطي .

كانت هذه المشكلات والمنازعات تتداخل ، فشكالة التعويضات الاقتصادية كانت ترتبط بمشكلة فرساي السياسية واحتلال الرين ضماناً للدفع ، كما

كانت ترتبط بالمشكلات الداخلية ، كمشكلة البطالة والتأمينات وغيرها . وكان في الوزارة شخص واحد على الأقل يعرف ما يريد ، ويعمل بكل قوة ليخلص من هذه المتاهات ، ذلكم هو سترسمان وزير الخارجية ، وكان مايريد هو أن يحقق السيادة الألمانية وتطهير التراب الألماني من احتلال الحلفاء له وكانت معاهدة فرساي قد قضت باحتلال منطقة الرين « الرينلاند » وقسمتها إلى ثلاثة أقسام تجلى القوات منها ما بين ١٩٢٥ و ١٩٣٥ ، وتم الجلاء بالفعل عن المنطقة الأولى . ولما كان من أهم أسباب هذا الاحتلال ضمان دفع التعويضات ولم يكن مشروع داووز يعالج هذه النقطة بطريقة حاسمة ، فقد أراد سترسمان الاتفاق مع الحلفاء عليها ، وفي الوقت نفسه فقد كان هناك احتمال توقف هذا التيار المتدفق من القروض الخارجية . وفي منتصف ديسمبر سنة ٢٨ وبعد اتصالات متوالية ومكثفة من سترسمان وافقت فرنسا وبريطانيا على تكوين لجنة من الخبراء للنظر في الموضوع ، ووافقت الولايات المتحدة على الاشتراك واجتمعت اللجنة المختصة في فبراير سنة ٢٩ وضمت فردين عن كل دولة ورأسها العضو الأمريكي أوين . د . يونج . وفي ٧ يونيو سنة ٢٩ وضعت المشروع الذي أطلق عليه مشروع يونج وكفل لألمانيا السيادة التامة على أرضها مقابل أن تدفع أقساطا سنوية تصاعديّة تبدأ من ١٧٧ بليون مارك في السنة الأولى إلى ٢٥٥ بليون سنة ١٩٦٦ ثم تنزل بعدها إلى ١٥٥ بليون حتى سنة ١٩٨٨ . وتقرر تشكيل بنك للتسويات الدولية يتلقى هذه الأقساط ويوزعها . وكانت هذه التقديرات على جسامتها أقل من أي تقدير آخر . وان كان يعيها أنها لم تربط المدفوعات بمستويات المعيشة أو أرقامها القياسية وإنما بـمعيار الذهب . ولكن هذا لم يكن ليثبط سترسمان بل لقد أبدى تنازلا آخر في سبيل استحضاث الجلاء الأمر الذي تذرّع به شاخنت الذي اشترك في المفاوضات لكي يتنصل من الاتفاقية وينحاز إلى اليمين المعارض . كان سترسمان يكافح أيامه

الأخيرة ضد المرض ليتحقق أمل حياته وفي أكتوبر سنة ٢٩ مات بالفعل ،
ولكن بعد أن وضع الأساس لجلاء القوات الأجنبية وفي ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٠
غادر آخر جندي فرنسي وبريطاني منطقة الرينلاند وتحررت ألمانيا من أسوأ
آثار الهزيمة .

على أن مشروع يونج لم يقابل بترحاب أو برضا من المعسكرات اليمينية
التي بدأ حزب النازي يظهر فيها، كما خضع الحزب الوطني الألماني لنفوذ هو جنبرج
وطه وحه . ونظمت هذه المجموعات معارضة قوية للمشروع وامتناعت في
سبتمبر سنة ٢٩ أن تجبر الحكومة على إجراء استفتاء على قبول مشروع يونج،
وأظهر الاستفتاء أن أقل من ستة ملايين من قرابة ٤٥ مليوناً هي التي أيدت
معارضة المشروع .

وكانت الصخرة التي تصدع عليها الائتلاف الوزاري هي المشكلات الداخلية
فقد كانت سنة ١٩٢٨ هي قمة الازدهار الألماني ، وبدأت بعده نذر الانحسار
نوراء هذا الازدهار كانت القروض التي انهالت على ألمانيا ، وكان يمكن
لألمانيا أن تبني بفضلها صناعتها من جديد ، لولا أن ألمانيا كانت مطالبة
في الوقت نفسه بتسديد أقساط التعويضات الباهظة فكانت تأخذ من
أمريكا لتمطي فرنسا وإنجلترا ، وكانت تسدد فوائد القروض القديمة بقروض
جديدة ولم تترك لها « فترة سماح » تمكنها من استثمار القروض استثماراً طويلاً ،
أو إعادة الاستثمار . ولم يكن هذا الوضع بالوضع السليم أو الذي يمكن أن يدوم
ولكن لم يكن لألمانيا خيار فضت تستمتع به .. وتفيد منه ، حتى جاءت
سنة ١٩٢٩ فتقلصت القروض التي قدمتها أمريكا لألمانيا من بليون دولار
في السنة السابقة إلى ٢٢١ مليون دولار . كان هوس المضاربات المسالية على
أسده في الولايات المتحدة وقتئذ واغراء الاتراء السريع هناك يفوق أى اغراء

آخر، كما وقفت عملية الترشيد في الصناعة الألمانية بعد أن خلفت عددا كبيرا من العاطلين . . وتضافرت هذه العوامل كلها على الحكومة . فعجزت عن موازنة مصروفاتها وإيراداتها، وتمسك شركاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الوزارة بخفض مزايا التأمينات، وخاصة تأمين البطالة، ولم يكن المستشار مولر يستطيع تخفيض تأمينات البطالة للمعارضة العنيفة التي أبدتها النقابات والجنح اليساري للحزب الذي كان يقوده الشيوعي القديم « بول ليفي » الذي عاد إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي بعد حياته العاصفة في المعسكر الشيوعي.

ومع أن هيلفرد دينج المنظر الاقتصادي للحزب والذي كان يتمتع بنفوذ كبير أيد التخفيض كأمر لا محيص منه، فإن أغلبية الحزب وقفت ضد الفكرة . وعندما طلب مولر من الرئيس هندنبرج استخدام سلطات الطوارئ الاستثنائية التي كانت تميز قرارات الحكومة رغم معارضة الرشتاج سأل هندنبرج القادة العسكريين عن مدى صواب اتخاذ هذا الاجراء، فنصح جرونر، وزير الدفاع وساعد المارشال أيام الحرب، وشليشر الذي كان يأتي في الدوائر العسكرية بعد جرونر. برفض الطلب وذكر شليشر أن هناك مرشحا لآمة الوزارة يمكنه أن يكسب أغلبية البرلمان للترددة هو هنريش بروننج . ونتيجة لذلك رفض هندنبرج طلب مولر . ولما كان مولر يعلم أنه ليس له الأغلبية في الرشتاج فلم يعد أمامه إلا الاستقالة، فاستقال وكان آخر اشتراكي ديمقراطي يشغل منصب المستشار .

ومن هذه اللحظة فقد الحزب الاشتراكي الديمقراطي صفته كأكبر الأحزاب الألمانية وانفسح الطريق أمام العودة إلى الورا . . وانتهت تلك الحقبة القصيرة التي اشبهت الصيف الهندي في حياة الاشتراكية الديمقراطية . . ولم تلبث أن تحطمت على صخور اليقظة .

الفصل التاسع عشر المستشار البرلماني الاخير

كان المستشار بروننج رجلا قديرا، وعلى جانب كبير من الشجاعة والنزاهة اعترف له بها الأصدقاء والأعداء . ولو كان بمكنة رجل واحد أن يوقف التيار أو يجمد المد لكان من المحتمل أن ينجح بروننج، ولكن تجربة التاريخ توضح لنا أن هذا أمر بعيد، وأن رجال الدولة وعباقرة السياسة إنما ينجحون في دفع التيار أو توجيهه وليس وقفه أو تجميده، وأن قصارى ما يمكن أن ينجحوا فيه لو أرادوا الوقف هو التأخير وقتا ما . . لياتى بعد ذلك الطوفان بدفع مضاعف .

بالاضافة إلى هذا العامل الموضوعى، فإن بروننج كان رجلا من المدرسة القديمة يعمل بالطرق التقليدية ويحاول أن ينقذ الميزانية على حساب الدين وضعت من أجلهم هذه الميزانية . ولم يتبين خطأ ذلك لأنه لم يكن رجلا شعبيا فحسر صداقة الطبقة العاملة دون أن يكسب تأييد الطبقات المميزة التي كان يفترض أن تقف بجانبه .

وبدأ بروننج عمله بالحملة على الأسلوب السياسى الذى أدى بالبلاذ إلى هذه الحالة، واتهم الأحزاب بتمزيق وحدة البلاذ ودعا أعضاء الرشمستاج لأن يجحدوا سبيلا للعمل وإلا فإن الرشمستاج سيحففر قبره بنفسه .

وكان هذا حقيقيا، ولكنه كان ثمرة النظام الحزبي الذي كان برونج نفسه باعتباره زعيم الحزب الكاثوليكي، جزءا منه، وكان من المستحيل أن يخلص، هو أو سياسته منه، ما ظل كذلك، ولم يكن هو من الشعبية بحيث يجمع الشعب حوله، وقد وجد نفسه بحكم الظروف المعقدة، وتبعاً للأفكار السائدة منساقاً للعمل بطرق ديكتاتورية ولأهداف تضاد رغبات وآمال الجماهير، وربما تختلف عن طبيعته عندما كان يقرع الرشتاج ويحذر أن يحفر قبره بيديه، وأن يكون هو — برونج — المستشار البرلماني الأخير.

كان برونج يسابق الزمن فانهب البورصة في الولايات المتحدة كان بداية اللانهب المالى والمصرفى أوقف التيار الذهبى الذى كان يتدفق على ألمانيا ويحمل إليها الحياة ويمكنها من دفع التعويضات. واستهدف برونج ضغط المصرفيات بكل طريقة فخفضت الأجور ومزايا التأمينات وزيدت الضرائب الموجودة، كما أضيفت ضرائب جديدة كان بعضها يسوى بين الفنى والفقير كضريبة المواطن Citizen Tax التى أطلق عليها الشعب ضريبة العبد Nigger Tax وكانت تفرض على كل ألماني مبلغا واحدا سواء كان شحاذا أو مليونيرا، وأشبهت بذلك ضريبة الرووس Poll Tax التى كانت السبب المباشر فى اشتعال ثورة الفلاحين فى القرن الرابع عشر فى بريطانيا وهدمها ضاق الرشتاج بهذه الاجراءات استصدر برونج قرارا بحله وواصل الحكم بمراسيم الطوارئ الاستثنائية التى كانت المادة ٤٨ تعطىها لرئيس الجمهورية.

ولم يكن حل المشكلة الاقتصادية ليتأتى بزيادة الضرائب وضغط الانفاق فقد تنبه المجددون من رجال الاقتصاد الرأسمالى وقتئذ إلى عقم هذه السياسة وعجزها عن تخليص المجتمع من الأزمة واهتدوا إلى فكرة «الأشغال العامة» وكان يمكن للنقابات أن تنبه إلى مثل هذه الفكرة التى كانت تعالج أول ماتعالج البطالة، وهناك مايدل على أن النقابات الالمانية فكرت فى هذا ولكن

الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي كان يفترض أن يكون أكثر تقدمية من النقابات رفض الفكرة ، لأنه كان أسيراً للأوضاع المائلة بحيث سلك هيلفودنج منظر الحزب السلوك الذي سلكه سنودن وزير مالية حكومة العمال البريطانية سنة ٢٩ عندما تمسك بانقاذ الجنيه . . وليس بانقاذ العمال وملاك المسلك الانكاشي بما يقتضيه من ضغط النقابات والتأمينات . . الامر الذي لم ينفذ الاقتصاد وإن كان قد أسقط الوزارة ، وكافعل هو فر في الولايات المتحدة أيضاً .

وتحدث و . س . ويتنسكي الذي كان يعمل وقتئذ في خدمة اتحاد النقابات الحرة « الادجيب » عن خطة للمشروعات العامة تقدم بها إلى النقابات ومالت هذه إلى تقبلها ، ولكن أوتوفيلز ، رئيس الحزب الاشتراكي الذي حضر الاجتماع طرض الفكرة وسأل الخبير الاقتصادي الذي احضره ويتنسكي .

— وما الذي سنبنيه ؟ لدينا ما فيه الكفاية من الطرق والبيوت هل تريد منا أن نبنى أهرامات كما كانوا يفعلون في مصر .

واجاب الخبير :

— هذه فكرة ممتازة ياميدى النائب في الرشتاج يجب على البلد الذي لا يستطيع أن يفكر في شيء أفضل أن يبني أهرامات لتكون تمثالا خالدا لعبائه . ولكني آمل فعلا وبعض اليهود أن تجد ألمانيا مشروعا أفضل .

ومع أن المشروع ظفر بموافقة النقابات إلا أن الحزب رفضه وكان من المبررات العجيبة التي ذكر ويتنسكي أن الحزب ساقها لتبرير ذلك أن عليه أن يعنى بالعمال المشتغلين بالفعل « إن العاطلين يعطون أصواتهم للشيوخيين والنازي ، ويجب أن ندع لهذه الأحزاب أن تفكر فيما تعمله لهم » .

فإذا كانت هذه الأفكار بدت جديدة وغريبة للاشتراكين الديمقراطيين فن العليهي أن تبدو كذلك أو أكثر لبروننج ، ومن ثم فقد فكر هذا

في اجراء اتحاد جرمنى بين ألمانيا والنمسا التى كانت تعانى من الضائقة التى تعانىها ألمانيا وكان هذا يحقق نوعاً من الانتماس الاقتصادى والسياسى للبلدين، ولكن فرنسا رفضت الموافقة على مثل هذا الاجراء خشية أن يكون خطوة نحو وحدة البلدين، وفي الوقت نفسه فان عدوى الانهيار المصرفى أصابت النمسا عندما تهاوى بنك كريديت انستالت Credit Anstalt الذى كان يهيمن على ثلاثة أرباع بنوكها، وعندما طلب البنك مساعدة البنوك الأجنبية اشترطت فرنسا أن لا تتخذ النمسا أى خطوة نحو التوحيد الجرمنى، فاستقالت الوزارة النمساوية وأعلن «موراتوريوم». وهكذا، فبدلاً من أن يأتى الانقاذ من النمسا، فإن تهاوى النظام المصرفى فى النمسا عجل بتهاوى البنوك الألمانية. فخلال أربعة أسابيع سحب من الريبينك أكثر من خمسين مليون جنيه استرلينى ذهباً. وكان عليه أن يقبض يديه عن مساعدة البنوك الأخرى التى أغلقت أبوابها وأخذت البنوك الخارجية فى لندن ونيويورك وباريس تطلب ودائعها قصيره الأجل. وتهددت العملة الألمانية بأن تبلغ ما بلغته سنة ٢٣ فأرسل الرئيس هند نبرج نداءً مؤثراً إلى رؤساء الدول، وأيد الرئيس هو فررئيس الولايات المتحدة هذا النداء مقترحاً اعلان «موراتوريوم» لمدة سنة يمكن خلالها لألمانيا أن تلتقط أنفاسها، وتنظم أمورها، ووافقت معظم الدول ولكن فرنسا تلكأت لمدة ثلاثة أسابيع قبل أن توافق بتحفظات واضع هذا وذاك الاثر الطيب الذى كان يمكن للموارة توريوم أن يحدثه لو وافقت عليه فرنسا تواءمًا وتجلت فوراً أعراض الأزمة التى كانت كامنه فزاد عدد العاطلين من ١٨٣٠٠٠ سنة ٢٨ إلى ٢٨٥١٠٠٠ سنة ٢٩ إلى ٤٣٨٤٠٠٠ مع نهاية عام ٣٠ إلى ٥٦٦٨٠٠٠ مع نهاية عام ٣١، وانخفضت الصادرات بنسبة ١٣٪ وبلغ المعجز أكثر من بليون مارك وكان يجب بالإضافة إلى هذا كله دفع ما يقارب مائة مليون جنيه استرلينى سنوياً طبقاً لمشروع يونج وهو مبلغ

كان يمكن أن يشتري من المنتجات والمواد ثلاثة أمثال ما كان يشتريه قبل ذلك .

ودعا بروننج الحلفاء للاجتماع للنظر في قدرة ألمانيا على الدفع كما أمل أن يتجاوب معه مؤتمر نزع السلاح الذي تقرر أن يعقد في فبراير سنة ١٩٣٢ وأن يكسبه انتصارا دبلوماسيا يعزز مركزه في ألمانيا، ولكن اجراءات مؤتمر النعويضات طالت وأخذت تمتد من شهر إلى آخر لمحاولة فرنسا . . كما دل التغيير الوزاري في بريطانيا واستقالة وزير الخارجية هندرسون . . على أنه لا أمل يرجى من مؤتمر نزع السلاح .

وفي الداخل — كان المسرح السياسي يعرض رواية المغارات والمنتاقتات السياسية ، فلم يكن الذين تصدوا لمعارضة بروننج من النقابات أو العمال الذين كانوا ضحية قراراته الجائرة ، إذ قضت الرواية عليهم أن يمثلوا دور الحلفاء له، بينما تصدى لمعارضه من هم أقرب إليه . . الوطنيون بقيادة الفرد هوجنبرج ، والحوذه الحديدية بزعامه سيلست وفون سيكت والنازي ورجال المال بقيادة شاخت . وفي اكتوبر سنة ٣١ اجتمع هؤلاء في هارزبورج Harzburg وكونوا ماسمي جبهة هارزبورج لمعارضه بروننج .

وكان هذه المشكلات كلها لم تكف . . فقد كانت مدة الرئيس هندنبرج تنتهي مع آخر مارس سنة ١٩٣٢ . . وكان المرشح الوحيد سواه هو هتلر . وكان هذا يعني النهاية لبروننج ولكل جمهورية فايمار فعمل بروننج بكل قوة وأيدته معظم الأحزاب — وعلى رأسها الحزب الاشتراكي الديمقراطي — لاقناع المارشال الشيخ الذي كان قد بلغ من العمر عتيا وسرى إليه وهن الشيخوخه بترشيح نفسه ، واستجاب هندنبرج لنداء الواجب وشرح نفسه ونال ١٨٦٦١٧٣٦ صوتا مقابل ١١٣٣٨٥٩١ صوتا نالها هتلر و٧٩٠٧٩٨٤٢ صوتا نالها تالمان

(مرشح الشيوعيين) ولما لم تكن الأصوات التي نالها هندنبرج تبلغ الأغلبية المطلوبة فقد أجريت انتخابات ثانية نال فيها الأغلبية .

ولم تكن هذه النتيجة انتصارا شخصيا خالصا لبروننج ، لأن هندنبرج وإن كان أفضل من هتلر فإنه لم يكن يضمم ودا خاصا لبروننج وتوالت الأحداث السيئة ، فلم يحقق بروننج نجاحا في مؤتمر نزع السلاح لمعارضة فرنسا، وفي أبريل سنة ٣٣ طرحت بريطانيا قاعدة حرية التجارة وفرضت ضرائب جمركية متفاوتة ما بين ١٠٪ و ٣٣٪ فأضاف هذا عبئا جديدا على الصادرات الألمانية التي كان معظمها يدخل بريطانيا دون ضرائب .

وتوترت العلاقات ما بين بروننج وهندنبرج عندما فكر بروننج في المساس بأمالك الاقطاعيين والبروسيين . وكان هندنبرج قد حصل من مولر - كشرط لتصديقه على مشروع يونج - على مبلغ كبير لتعويض كبار الملاك عما حاق بضياعهم من خسائر . وكان ثمة تقارب طبيعي بين هؤلاء الملاك وهندنبرج زاد عندما أهدوا إليه ضيعة نيودك Neudeck . وعندما دفعت الضرورات بروننج لأن يفكر في استخدام بعض هذه الضياع لتوظيف عدد من العاطلين ثار هندنبرج وتحركت حاشيته « الكاماريللا » Camarilla التي كانت في الفترة الأخيرة قد اكتسبت نفوذا كبيرا ، وواعزت إليه بأن بروننج قد خضع لتأثير البولشفيك والاشتراكيين . وقام ابنه « أوسكار » بدور كبير بحيث أصبح الماريشال المسن على استعداد لاقالة بروننج .

وفي هذا الوقت كان شليشر الضابط السياسي المتآمر ينسج خيوط موآمرة جديدة ، لقد كان هو المسئول بالدرجة الأولى عن إختيار بروننج ، وقد فشلت تجربة بروننج ، فلم يستطع أن يخضع الرشمتاج أو أن يكتسب تجاوب الشعب . وأصبح عليه أن يبعث عن رجل آخر يحقق له المعادلة التي يريدها . . والتي

كان يجب بمقتضاها اكتساب تأييد الجيش وثقة النازي النجم الصاعد في سماء
السياسة الألمانية الذي كسف شمس المجموعة الاشتراكية - الشيوعية،
واخضاع الرشتناج بحيث يصبح هيئة تصدق على القرارات التي تضعها الوزارة
كان شليشر يريد وزارة رامية، تستمد سلطاتها الأساسية من الرئيس، ولكنها
في الوقت نفسه ترتكز على تأييد أو على الأقل قبول الرشتناج، وكانت هذه
في الحقيقة عودة إلى الطريقة الامبراطورية مع تغيير طفيف يتمثل في وضع
« رئيس الجمهورية » محل « الامبراطور » واعتقد شليشر أنه وجد الشخص
المناسب في « فون بان » وهو ضابط من الفرسان، ينتهي إلى فصيلة « الجونكرز »
البروسيين وفي الوقت نفسه فإنه يمت بصلة إلى كبار الصناعيين الذين أصهر
إليهم فزوج بنت أحد كبارهم. وظن شليشر أن فون بان بحكم كونه ضابطا
بروسيا وكاثوليكياً ميكنسب تأييد الوسط في الرشتناج. أما بالنسبة للنازي
فلم يكن خافياً أنه على علاقات وثيقة بمدد من زعماء النازي وخاصة الضابط
« روم » قائد فرق العاصفة. وفي الأسبوع الأخير من أبريل عام ٣٢ أجرى
شليشر اتصالاته مع روم وهيلدورف وأخيراً مع هتلر، واستمرت هذه
الاتصالات حتى الأسبوع الأول من مايو عندما عقدت الصفقة في بيت شليشر
ما بين حاشية هندنبرج (أو سكار هندنبرج - أو توميسنر) وبين هتلر على
رفع التحريم الذي كان جرونر وزير الدفاع قد فرضه على فرق العاصفة بعد أن
اقنع هتلر هؤلاء أن فرق العاصفة ليست جيشاً أو ميليشيا لحرب أهلية، وإنما
هي تنظيم حزبي للدعاية الانتخابية، واتخاذ الديمقراطية البرلمانية يتطلب الإبقاء
عليها، وفي مقابل هذا تعهد هتلر بأن يؤيد في الرشتناج الوزارة التي سيعينها
الرئيس بعد سقوط بروننج. وكان على شليشر أن يطيح بجرونر وزير الدفاع
ومساعد هندنبرج في الأيام الأولى. ولم يثن شليشر عن ذلك أن جرونر كان
« الأب الروحي » له الذي رعاه وأحبه منذ وقت طويل. واستطاع شليشر
٢٢ - ظهور واستوط

أن يشوه صفحة جرونر لدى هندنبرج وأخبره أن من الممكن تشكيل وزارة تكنسب تأييد الرشتاج وتحكم بطريقة مشروعة ، وفي الوقت نفسه لا تكون من ممثلى الأحزاب وإنما من أشخاص يأتمنهم ويشق فيهم شخصيا ، فعاد هندنبرج إلى برلين ، وفي ٢٩ مايو طلب بروننج - الذى وإن أحس بخيوط الموأمة ، إلا أنه لم يتصور أنها قد سارت إلى هذا المدى - ولما أدخل عليه قرأ المارشال من أوراق كتبت بحروف غليظة ليكنه قراءتها وراء نظارتيه « بلغنى أن لديك فى الوزارة وزراء لهم خطط بلشفية . وهذا أمر لا يمكن أن يمضى طويلا » . وطلب منه إن لا يسأله اقرار مراسيم طوارىء بعد الآن . وكان معنى هذا أن يقبل الريشتاج بروننج إن لم يستقل هو . وفي اليوم التالى استقال بروننج واتصل أوسكار هندنبرج بجورننج وطلب منه إحضار هتلر فجاء هذا ، وأخبره هندنبرج أنه عين فون بان مستشارا فهل يعترم حقا تأييده فرد بالايجاب .

ولم يكن لدى فون بان مقدرة إدارية أو سياسيه خاصة ولكن توفرت له مجموعة من « المواصفات » المطلوبه . فقد كان ضابطا بروسيا من ضباط الفرسان يحظى بثقه وهطف المارشال الذى رأى فيه صورة من شبابه ، كما كان بشوشا ، دبلوماسيا ، ناجحا فى الدوائر والنوادر الارستقراطية ، ولكنه لم يكذب يبدأ العمل حتى اصطدم بالصعوبات . فقد رفض الوسط الكاثوليكي شروط بان واقترح الدكتور كاس Kasse زعيم الوسط أن يقحم بالنازى فى السلطة وأن يقوموا بمسئوليتهم عمليا وعلنيا حتى يجرموا من وضع المعارضة الذى يمكنهم من النقد دون أن يوقمهم فى ضرورات التطبيق ، أو يلزمهم تحقيق وعودهم المسرفة ، ولكن هذا كان يختلف عن الصيغة التى أرادها هندنبرج وجاء فون بان على أساسها . ووجد هندنبرج نفسه فى مأزق لا يستطيع التراجع فيه ، فأمر بتشكيل الوزارة من شخصيات سبق لمعظمها العمل تحت امرته ،

وتمت هذه العملية بسرعة . فعين كونستانس فون نورات السفير في لندن
وزيرا للخارجية ، وعين شليشر وزيرا للحرية وعين الكونت فون شورين
كروسيك Schwiren Krosigk وزيرا للمالية . واختير فرانز جرتز وزيرا
للعدل . وبهذه الطريقة تكونت في الأسبوع الأول من يونيو « وزارة
البارونات » كما أطلق عليها . وحل الرشتاج . .

وكانت الصعوبة الحقيقية التي واجهها باين هي موقف النازي فقد كان
يجب طبقا لشروط الصيغة اعفاء فرق العاصفة من الحظر الذي كان مفروضا
عليها واطلاق حريتها ومنح رجالات النازي بعض المناصب الوزارية ، ولكن
فون باين تردد في إطلاق حرية فرق العاصفة ، وطلب تأييدا مكتوبا من هتلر
بتأييد الوزارة حتى بعد الانتخابات ولم يكن هتلر مستعدا لتقديم مثل هذا
التأييد . وفي خلال هذا الوقت كانت فرق العاصفة تستعد لتستعيد حريتها
كاملة ولتحتفل بانتصار « الفوهرر » بحيث ساد جو محموم ، ووقعت
المصطدمات بين مجموعات من النازي ومجموعات من الشيوعيين والاشتراكيين
في بعض المناطق بحيث أعلنت الحكومة يوم ٩ أغسطس سنة ٣٣ الأحكام
بالعرفية . وفي منتصف ليل هذا اليوم نفسه عمد خمسة من النازي إلى قرية بوتما
Potempa من أعمال سيليزيا العليا واقتحموا بيت فحام شيوعي وانتزعوه
من فراشه وأناولوا عليه أمام أمه وأخيه ضربا وركلا حتى فاقت روحه وقبض
على الجناة وبارق إليهم هتلر ، ويدا ومشجما . وكان لهذا أسوأ الأثر لدى كل
الدوائر السياسية - باستثناء النازي بالطبع .

وتمددت الاتصالات ما بين هتلر وأعدائه من ناحية ، وبين باين وشليشر
من ناحية أخرى ، وفي هذه الاتصالات طالب هتلر بالمستشارية فيما أبدى شليشر
لاستعداده لمنح النازي منصب نائب المستشار ورأسه بروسيا وعددا من المناصب
الأخرى . وقام صراع داخل بين النازي الذين يقبلون « نصف الرغيف » ويفضلونه

على لاشيء والذين يرفضون هذا النصف انتظارا للاستئثار بالرفيف كاملا في مستقبل قريب . وفي بعض هذه الاتصالات أوضح هتلر أنه لا يريد السلطة حبا في السلطة . ولكن ليستطيع القضاء على الماركسية . وكان هندنبيرج يضمن نوعا من العزوف والزراية لهتلر ويضيق بأدعاءاته ويحس نحوه أحساس الضابط الارستقراطي البروسي نحو «عسكري» مساوى فلما لم تسفر الاتصالات هن طائل تدخل هو ، وطلب هتلر فجاء هذا وفي رفقته روم وفريك . وكان هندنبيرج إلى جانب حبه المقنود لهتلر يضمن كراهية لروم . فاستقبل الثلاثة واقفا ومتسكنا على عصاه حتى يضطروهم للوقوف ، وليعطى الحديث معنى الاقتضاب ووقف وراء هندنبيرج ابنه أوسكار ، وميسر وبابن وشلميشر وبادر هندنبيرج الحديث قائلا :

— هر هتلر : إن لدى سؤالا واحدا أحب أن أوجهه إليك : هل أنت مستعد لتقديم تعاونك مع حكومة بابن .

وفوجى « هتلر بهذا الاستقبال المقتضب فتمتم بأنه عرض شروطه فسأل هندنبيرج . . . وهكذا فأنت تطلب السلطة بأسرها . .

وذكر البيان الرسمي الذي صدر عن المقابلة أن هندنبيرج رفض ذلك لأن ضميره وواجبه نحو الوطن لا يسمحان له بتسليم السلطة كاملة لحركة الاشتراكية الوطنية ، وأن الرئيس «يأسف لأن هر هتلر لا يرى نفسه في وضع يؤيد فيه حكومة وطنية تتمتع بثقة الرئيس الأمر الذي قبله من قبل» وما لم يذكره البيان الرسمي بالطبع هو أن هندنبيرج زجر وهتلر يختنى من أمامه .. « هذا الرجل مستشارا . . سأجعله «بوسطجى» يلصق الطوايح التي تحمل رسمى» . .

وفي هذا الوقت كان بابن يحاول أن يثبت وجوده على طريقته الخاصة

مستطاع في مؤتمر لوزان أن يخفض التعويضات المطلوبة من ألمانيا إلى قرابة ثلاثة بلايين مارك (١٥٠ مليون جنيه استرليني) تدفع بعد مهلة ثلاث سنوات وبذلك انتهت قصة التعويضات الشائكة التي أريد لها أن تستمر ستين سنة أخرى . وطالب بحو « اثم الحرب » وأن تكون ألمانيا على قدم المساواة مع الدول في التسليم ، وعندما رفض الحلفاء ذلك انسحب من المؤتمر .

وفي الداخل أوجد إدارة للعمل التطوعي في انشاءات عامة امتصت ٢٨٠ ألفا من العاطلين ، وإن لم يقدم إليهم إلا المأوى والطعام وحاول أن يشجع المنشآت الخاصة بائتمانات من الدولة بأن أصدر « شهادات ضريبية » قيمتها قرابة سبعة ملايين مارك تعطي كقروض للمنشآت التي تستخدم مزيدا من العمال بواقع شهادات قيمتها ربعمائة مارك لكل عامل يستخدم ويمكن للمنشأة أن تسدد بها ماعليها من ضرائب . وأمل باين أب ذلك سيؤدي إلى تشغيل مليون وسبعمائة وخمسين ألف عامل ، وفي الوقت نفسه سمح لأصحاب الأعمال الذين يستخدمون العاطلين بتخفيض الأجور المتفق عليها مع النقابات .

ولسكن هذه السياسة حسنة أو سيئة لم تحظ بأى نوع من التأييد أو النجواب فحتى ذلك الانجاز الضخم في مجال التعويضات أطلق عليه هتلر « فشل باين » لأنه رأى أن الالتزام بدفع ثلاثة بلايين - إذا كان من الممكن عدم الدفع إطلاقا - نوع من الفشل ، وقال « إن اتفاقية لوزان إن تساوى بعد ثلاثة أسابيع ثلاثة ماركات » .

وعندما أجريت الانتخابات في نوفمبر سنة ٣٢ هبطت أغلبية النازي في الرشتاج من ٢٣٠ نائبا إلى ١٩٧ . ولسكنه ظل مع هذا أقوى الأحزاب ، وتطلب الأمر أن يقابل هتلر هندنبرج مرة أخرى للظفر في الوزارة للقبلة . واصطحب هتلر معه جورج الذي كان هندنبرج يتقبله . وفي هذه المرة إطلب منه الجلوس

وسمح له بالحديث لمدة ساعة . وبدأ لأول مرة يثير اهتمام الماريشال ، وفي المرة الثانية التي رجا فيها هتلر أن تكون المناقشة مكتوبة قرأ الماريشال « إنك لتعلم أني أناصر فكره الوزارة الرأسية . وأنا أعني بالوزارة الرأسية وزارة لا يقودها زعيم حزبي، ولكن رجل يقف فوق الأحزاب، ويتمتع بثقتي الخاصة » وأوضح ميسنر ، الذي كان نوعا من رئيس الديوان ، أن هذا لايعنى الحكم ضد البرلمان « كقاعدة فإن الوزارة الرأسية يمكن أن تقوم بالاجراءات الوزارية اللازمة دون الموافقة المسبقة من البرلمان ولكنها بصفة عامة تريد تصديق ، أو تقبل البرلمان ومن ثم فيقترض أن تحصل على تأييد الأغلبية » وقال هندنبرج لهتلر إنه لما كان قد أعلن أن حركته لا تؤيد إلا وزارة يرؤسها هو (أي هتلر) فإن عليه أن يحصل على الأغلبية ، فإذا حصل عليها فإليخطرته في ظرف خمسة أيام .

وفي الوقت نفسه فقد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن مغامرة فون بابن في رئاسة الوزارة - رغم ما يحق لها الادعاء به - قويات بعداوة كل الأحزاب باستثناء حزب الشعب الذي نال خمسين صوتا ، وأنه وقد يأس من نيل تأييد هذه الأغلبية ، أصبح يفكر في فرض دستور جديد نصف اقطاعي ، ورأى شليشر أن عليه أن يقيله من المنصب الذي رشحه له . وهكذا فعندما اجتمعت الوزارة في صباح ديسمبر أعلن نصف الوزراء أنهم سيستقيلون ما لم يستقل بابن نفسه ، واضطر هندنبرج رغم ميوله الخاصة وتماطفه مع بابن أن يعفيه من الوزارة على أن يظل مستشاره الخاص . ولم يكن هناك مرشح الا شليشر الذي كان بتعبير بابن نفسه الوحيد الذي يستطيع أن يرخي التوتير ويتجنب الخلاف مع الرشتاج ، ومع أن شليشر كان يفضل الحكم وراء الستار وأن يحرك الخيوط دون أن يظهر على المسرح ، فإن هندنبرج أصر على أن يتحمل المسئولية كاملة وعلنا . ودخل شليشر الحلبة ، كما دخلها برونيج وبابن من قبل ، آملا التغلب على

الأزمة وخاصة «لعبة الأغلبية» ولعل شليشر يحكم أنه الأخير والأكثر خبرة. لكن أقدر من غيره، ومع ذلك فقد كان القدر يأتمر بهذا المتآمر الكبير ويدخر له فشلا ذريعا . . ونهاية شنيعة .

حاول شليشر أن يكسب النازي بطريقته التأميرية ، فعرض على أقوى شخصية جماهيرية في الحزب - جريجور ستراسر - وليس على هتلر منصب نائب المستشار ورئيس بروسيا وكان ستراسر أحد منظمى الحزب القدامى ومن أصحاب الاتجاهات الاشتراكية والعمالية فيه. وكان قد استطاع أن يكون داخل الحزب تشكيبا عماليا يقوم على خلايا العنابر ويحمل الحروف الأولى N. S. B. O. ولكنه أضعاف الفرصة السائجة. وبدلا من أن يعمل بسرعة ، فإنه عندما اختاف مع هتلر قدم استقالته وسافر إلى إيطاليا حيث الشمس الساطعة وأخذ يمضى أوقاته في الشراب متصورا أن هتلر لا بد وأن يأتي إليه معتذرا .

وبالطبع لم يأبه هتلر حتى وإن اعتبر جريلا وغيره أن الاستقالة كانت بمثابة « قنبلة » وعلى العكس لقد مكنه هذا التصرف من أن يحكم قبضته على الحزب وأن يحصل على توقيعات كل قيادات الحزب ، بما فيهم أصدقاء ستراسر نفسه. الذين أوهنهم غيابهم - بتأييد هتلر وإدانة ستراسر . وبهذه الطريقة فشل مخطط شليشر للحصول على تأييد النازي من وراء ظهر هتلر .

وحاول شليشر اكتساب تأييد النقابات ، فالتصل بتيودور ليبارت رئيس النقابات الاشتراكية الديمقراطية وتعهده برفع كل الغبن الذى أوقعه بابين بالعمال - وبوجه خاص الانتقال من الأجور ، بحيث كتب ليبارت إلى القيادات النقابية « إن الهدف الأخير للطبقة العاملة هو تحقيق الاشتراكية ، ولكنكم تعلمون أن النقابات إنما قامت لتحسين حال الطبقة العاملة فى إطار النظام الاقتصادى القائم » ومع أن قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطى أدانت

هذا الاتجاه ، فقد ظهرت في صحف الحزب نفسها مقالات تنادى «دعوا شليسر يعمل» وارتأى ليبارت «إن الشيء الوحيد الذى نحن الآن فى حاجة إليه هو سياسة إنتاجية وعمل حازم لتحسين وضع العمال الألمانين . وشليسر يحاول أن يحقق بعض مطالبنا . إن هذه الحكومة لن تأتينا بالاشتراكية ، نحن عالمون بذلك . ولكن هل نستطيع فى هذه الحالة أن نرفض نداءً للحكومة للمساعدة فى توفير العماله » .

وتحدث و . س . ويتنسكى عن مقابلة شليسر وليبارت فقال « ورددت الاشاعات أن رئيس الحكومة الجديد يميل إلى اتهام سياسة وسط ، وعندما خاطب الصحافة أبدى بعض ملاحظات يراد بها كسب عطف العمال ثم دعا ليبارت إلى المستشارية وعقدت لجنة الادجيب اجتماعاً طارئاً للاستماع إلى تقرير ليبارت عن مقابله مع الجنرال فقال ، « جلس قبالتى على المكتب ، ولكنه لم ينظر لى أبدا ، وبدا كأنما يتحدث نفسه وقال إنه بوصفه رجلاً عسكرياً يفضل أن يخدم امبراطوره فى ساحة القتال ، ولكنه مستعد للدفاع عن الجمهورية ضد الشيوعيين والنازى ، وفى إمكانه أن يبعدهم إذا كانت لديه قوى يعتمد عليها ، وسألنى عما إذا كانت النقابات تؤيده إذا التزم تنفيذ برنامجها الاقتصادى أم لا .

وسألته عن نوع التأييد الذى يتوقمه منا فأجاب قائلاً إن ذهنه كان يتوجه للعمل المباشر والاضراب والقتال فى الشوارع ، وأخبرته أنه كان ينبغى أن يتوجه بكلامه إلى الرشستياج والحزب فقال إنه لا يثق بالسياسيين ، ولكنه على استعداد للعمل معنا ، لأنه يعتبرنا ألماناً طيبين وأمناء ، وكان يبدو مخلصاً فى أقواله وقد تحمل خطراً جدياً وهو يتحدث معى على هذا النحو ، ولسكنى لأثق به . . إنه ليس متآمراً ينفذ أهدافه فى هدوء ، ولكنه قد يكون من أصحاب أحلام اليقظة » .

والحقيقة أن شليشر ، هذا المزيج الغريب من العسكرية والذكاء، الاتهامية والنبالة، هذا الجنرال الاثرا كى كما سعى نفسه كان جادا فى إقامة مشروعات كبيرة من الأشغال العامة لتحقيق العماله تبلغ قيمتها بليون مارك ، ومع أنه اضطر لخفض هذا الرقم إلى النصف ، فقد كان واضحا أنه ليس بالذى ينثنى أمام القداست المدعاة للقوانين الاقتصادية أو الملكية أو الرأسمالية أو الاثرا كية وأنه فى هذا كان أكثر استعداداً للعمل من معظم المنظرين الاثرا كيين . وليس أدل على ذلك من أنه بدأ يخالس النظر «التابو» الذى تحقق الأئنة على كل من يمسه أو يقربه: أراضى كبار الملاك فى بروسيا الشرقية.

ولكن كائنة ما كانت شجاعة شليشر ، فإنها كانت منبئة ، ودون جذور وتفقد جدواها تجاه المذهب النظرى والتنظيم الجماهيرى ونحن لانستطيع أن نقاوم المناهب إلا بالمناهب وليس بالجهود الفردية أو الاجراءات الجزئية.. إن الاجراءات لا تبلغ أبدا نهاية الطريق .. ولا تنسج أبدا لكل المجالات .. وهى توقفنا فى نصف الطريق .. أو فى أحد المنعطفات .. ولا يكفى أن يكفر الإنسان بالقوانين الاقتصادية السائدة ، أو تكون لديه شجاعة لتجاهلها أو معارضتها ، لا بد أن يكون لديه أيضا قوانين اقتصادية أخرى لاتقل فى تماسكها عن القوانين القديمة وهذا ما كان ينقص شليشر، ومن هنا استطاعت القوانين الاقتصادية أن تنتقم منه .

فقد شهد العام الزراعى ٣٢ — ٣٣ محصولا زراعيا وافرأ لم يشهده ألمانيا لعقود خلت وزادت الحبوب والبطاطس واللحم والزيد زيادات كبيرة ، كما كان الجو لطيفا ، وكان يجب أن يسعد هذا الشعب الألمانى الذى طال جوعه وقرص برده ، ولكن الاقتصاديين تملكهم الهلع . فالشتاء اللطيف أدى إلى سقوط فى استهلاك الفحم كما أدت وفرة المحاصيل إلى سقوط فى أسعار الحاصلات ،

وفي هذا الوقت بالذات، بدأت أولى نتائج اتفاقية أوتواوا تظهر فقد أرغمت
الضرائب البريطانية منتجي الزبدة الدنمركية على تصديرها إلى ألمانيا بأثمان
رخيصة مفرقة ، فارتفع صراخ منتجي الزبدة الألمانية وطلبوا الحكومة بوضع
ضريبة جمركية حامية ولم يكن شليشر راغبا في هذا حتى لا ترد الدنمرك بالمثل
فتغلق الباب في وجه الصادرات الألمانية إليها ونصح منتجي الزبدة بأن يخلطوا
خمسة عشر ألف طن من الزبدة الدانماركية الممتازة بزبدتهم ، ورفض المنتجون في
هذه النصيحة ، ورفض هو أيضا الضريبة . فأخذوا يشنون الحملات عليه
ويتمهونه بمعادة المصالح الزراعية الألمانية وادعوا أمام هيندنبيرج أنه يعاملهم
معاملة أسوأ مما كان يمكن أن يعاملهم به أي حكومة ماركسية وبدأوا في الناصر
عليه وعندما علم شليشر بتآمر فون بابن عليه واجتماعه بهنر كشف عن بعض
الفضائح في تعويض ومعونة كبار الملاك اقترفها بابن فضاعف ذلك من حنق
كبار الملاك وتنديدهم به .

على كل حال لم تسكن القضية الزراعية هي القضية الحاسمة في وزارة شليشر
رغم ما أثارته له من ضيق ، أما القضية الحاسمة فقد كانت هي قضية النازي التي
لم تحل نتيجة الفشل خطة احتواء ستراسر ، وأخذت شكلا حادا عندما
تدخل بابن، المستشار الخاص لهيندنبيرج والذي كان لا يزال يحتفظ بحبه وتقديره
فعندها علم أن النازي يجتاز أزمة مالية عمل على الجمع ما بين هنر وبعض ممثلي
المصالح المالية والصناعية الكبرى ، وبهذه الطريقة تم اللقاء المشهور بين هنر
والبارون كورت فون شرويدر ، المصرفي في كولون حيث تمت تسوية تعهد
بمقتضاها رجال المال بمساندة الحزب ماليا، وتعهد هنر بالابتعاد عن الاتجاهات
الاقتصادية ذات الطابع الاشتراكي - والتي كان يرفعها بعض قيادات الحزب ،
كما كان هناك تقارب بين بعض دوائر الجيش والنازي اكتسبها النازي بفضل
تأييد الجنرال فون بلومبرج وعدد آخر من الضباط .

وضاعت هذه التطورات من الصعوبات أمام شليشر ووجد نفسه في مأزق ضيق ، فيما أن يحكم ديمقراطيا ، ويكون عليه عندئذ أن يستعين بالنازي وهو آخر من يؤمن بالديمقراطية. وإنما أن يدمر النازي ويحل الريستاج ، وعندئذ سيوقف الجهاز الديمقراطي ويحكم بالطرق الديكتاتورية ، وفي الوقت نفسه فإن الأزمة بينه وبين الرشتاج ستتحول إلى أزمة بينه وبين هندنبرج ، إذ أن شليشر إنما جاء لاكتساب تجارب أو تقبل الرشتاج لسياسته ، الأمر الذي فشل فيه بابل ، وكان سببا في استعفائه .

وقد احتفظ شليشر حتى الآن بتأييد هندنبرج ، ولكن أزمة الرشتاج كانت تدبر له الضيق ، ثم جاءت سعايات بابل الأخيرة فبدأت تحول هندنبرج شيئا فشيئا عن شليشر وفي ٢٧ يناير اجتمع شليشر بوزرائه للنظر في الموقف - وقيل إن بعضهم اقترح أخذ بابل وهو جنبرج ووضعهما في معزل ما لتخليص المارشال العجوز من تأثيرهما الضار كما أشيع أن فكرة تسيير الجيش من بوتسدام إلى برلين قد عرضت ، فإذا كانت هذه الاقتراحات قد ذكرت بالفعل ، فأغلب الظن أنها لم تكن أكثر من أقاويل ، ولكنها كانت كافية لتدفع أحد صفار الضباط ليهرع إلى أوسكار (ابن هندنبرج) ويخبره بها .

وفي اليوم التالي (٢٨ يناير ١٩٣٢) ذهب شليشر إلى هندنبرج ليطلب منه وضع أمر حل المجلس تحت يده . وطبقا لما جاء في البيان الرسمي فإن شليشر قال « إن حكومة الريخ الحالية ، بالنسبة لطبيعتها الرأسية لا تكون في وضع يمكنها من الدفاع عن برنامجها في الرشتاج ما لم يضع رئيس الريخ أمر الحل تحت تصرفها » ولكن هندنبرج رفض الموافقة ، وعندئذ قال شليشر إنه ما لم يحل المجلس فإنه لن يستطيع أن يمنع مناقشة موضوع إعانة كبار الملاك في بروسيا الشرقية ، ولكن هذا لم يخف المارشال الشيخ ، وإنما أثار غضبه وبعد هذا

لم يكن نمة مجال للبقاء .. فحسر هذا الجندي الذكي الطموح المتآمر كل شيء ..
وبعد فترة قصيرة خسر حياته نفسها على أيدي أعوان هتلر ..

أن مأساة شليشر هي أنه حاول في وقت ضيق وظروف غير مواتية أن يبني
مأمضى طوال حياته الماضية في هدمه عندما ملط الجيش على الحركات العمالية
والاشتراكية ، وعندما دفع بابن لية تلمع الحكومة الاشتراكية في بروسيا ،
وعندما أودى بجرونر وزير الدفاع الذي كان لديه الشجاعة لتحريم فرق
العاصفة . ولم يكن ذلك مستطاعا .. ليس فحسب لأن البناء أصعب من الهدم ،
ولأن الوقت ضيق ، والظرف حرج . ولكن أيضا لأنه ليس من السهل التخلص
من لعنة الماضي وذكراه التي لاحقته ولبدت سماء العلاقات ما بينه وبين أعداء
الأمس وحلفاء اليوم ، ومن هنا فإنه أخفق في أن يجعل من أعداء الأمس حلفاء ..
ونجح في أن يجعل من حلفاء الأمس أعداء . ولم يكن يستطيع باعتباره
وزير الدفاع أن يحرك الجيش ضد أعدائه .. فقد كان من بين هؤلاء الأعداء
عدد من كبار الضباط ، بل كبير العسكريين قاطبه - هندنبرج - وهكنا
سدت في وجهه الطرق . فلم يكن له حزب يعتمد عليه ولم يستطع أن يكسب
تأييد النقابات ولم يكن يستطيع أن يحرك الجيش .

وعادت مرة أخرى المشكلة ، مشكلة اختيار مستشار يتمتع بثقة هندنبرج
وتأييد الرشتاج . وكان النازي هو أقوى الأحزاب ولكن هندنبرج لم يكن
قد تغلب بعد على كراهيته لهتلر ، وفوض هندنبرج الأمر مرة أخرى إلى
فون بابن الذي استأنف مفاوضاته التي كانت قد بدأت منذ اجتماع كولون ،
وفي بعض الروايات أن النقاش حول النقطة الشائكة تقطة أن يكون هتلر هو
المستشار استمر طول الليل ولم يحسم إلا بعد أن سرت إليهم إشاعة تحرك
الجيش من بوتسدام إلى برلين بناء على أوامر شليشر ، وأن هذا وحده هو

الذى جعل جناح فون بابين يقبل إبان يكون هتلر مستشاراً ، وكائناً ما كان الأمر فإن الورقة الراجعة كانت فى يد هتلر فهو زعيم الحزب الذى كسب فى انتخابات نوفمبر ٢٣٠ نائباً وعليهم أن يخضعوا له ، ما ظلوا يتمسكون بالرشستاج . وأمكن أخيراً التوصل إلى تسوية يكون هتلر بمقتضاها مستشاراً ولكن لا يدخل الوزارة سوى اثنين فحسب من النازى هما فريك وعين وزيراً للداخلية وجورنج وعين وزيراً للطيران (وفيما بعد وزيراً للداخلية بروسيا) أما باقى الوزراء (وقد كان عدد الوزارات عشرة) فقد كان أبرزهم كونستاس فون نورات وهو أحد مستشارى هندنبرج وزيراً للخارجية والجنرال فون بلومبرج وزيراً للدفاع (ولم تكن قد اكتشفت بعد علاقته بهتلر) وهو جنبرج وزيراً للاقتصاد والزراعة وفراز سيلدت أحد زعماء الخوذة الحديدية وزيراً للعمل وفون بابين نائباً للمستشار .

وحى آخر لحظة عندما دخل هتلر وبقية أعضاء الوزارة على هندنبرج لم يكن الشيخ العجوز قد حزم أمره ، ولكنه رضى أخيراً الضغط بابين وبقية الحاشية التى لم يكن يخالجه شك أنها أوقمت هتلر فى مأزق وأنها عرضته للمستولية العامة دون أن تمنحه السلطة الحقيقية وكان الجميع يسهون بأن الشخص القوى والخوف فى الوزارة هو هو جنبرج ، أما هتلر فإن نفوذه لن يتعدى نسبة ٣٠ ٪ ، وروى هيودالتن فى كتابه « حرب هتلر » (١) .

ان أستاذاً جامعياً جاء من المانيا وقتئذ ، وصف كيف أن فون بابين قاد هتلر « مكبلاً بالأغلال » إلى حضرة هندنبرج ، وأن هذه الفكرة البارعة ، فكرة إثقال الداعية غير المسئول بضرورات السلطة كانت استثنائياً سيكشف سريراً عجز هتلر عن تحقيق وعوده الانتخابية ولم تكن لتخطر لغير فون بابين الذاهية !

(1) Hitter's War, Before and After by Hugh Dalton Penquin Special p. 49.

كان هذا هو اعتماد بابن وأنصاره ، وهو اعتقاد جمل أحد النقاد
يتساءل . . ألم يسمع رجل النوادي الرشيق هذا بالسيدة الصغيرة التي ذهبت
في نزهة إلى ريجا را كبة على ظهر نمر؟ وبلا ريب فإنه كان أجدر — من
الخليفة العباسي — بتحذير المتنبّي :

فيا عجباً من دائل أنت سيفه أما يتوقى شفرتي ما تقبلدا
ومن يجعل الضرغام في الصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا

* * *

وأين كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي أ كبر أحزاب الجمهورية
وأولاهها بها خلال تلك السنوات الحاسمة . .

كان آخر العهد به عندما استقال — أو أقيل — هرمان مولر إثر تصدع
الائتلاف الوزاري ورفض هندنبرج منحه سلطات استثنائية ثم جاء بروننج
بسياسة إئتمال الفقير بأوزار الأغنياء ، والهبوط بالأجور والتأمينات . الخ .
وآثر الحزب النفاضي عن هذا كله وتحمله وقد يصور موقفه كلام توني ساندر
« لقد جوهرنا — نحن أعضاء الرشتنج الذين كان علينا أن نقرر استمرار
سياسة التسامح تجاه وزارة الدكتور بروننج — باختبار رهيب فإن مواصلة التسامح
معه كان يتطلب توضيحات جسيمة من الطبقات العاملة ، ولكنه يعني أيضا ابقاء
النظام الجمهوري حتى ينقشع الكساد ، ويمكن لتحسن الاقتصاد أن يؤدي
لا انتخاب لمجلس أفضل والقضاء على وزارة بروننج — بينما كان عدم تأييد
وزارة بروننج يفسح المجال لوزارة أكثر رجعية وديكتاتورية .

ولهذا رأينا أن نحاول أولاً التسامح ، ولكن عندما جاء الدكتور بروننج
بمرسوم لتخفيض كبير في الأجور والتأمينات والخدمات الاجتماعية شعرت
أنني لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية المشاركة في تأييد هذه السياسة ، إن التبدير

الوحيد للتساح كان هو الابقاء على الديمقراطية والجمهورية . ولكن من هم الناس الذين يريدون ويؤيدون الديمقراطية ؟ انهم بالدرجة الأولى الطبقات العاملة ، وتخفيض قوتهم الشرائية وإلغاء القوانين التي اكتسبوا بها يكفاحهم لحماية ظروف عملهم سينفرهم من الديمقراطية وسيكون تهديدا مباشراً لها. ومن هنا فإن تقبل حكومة بروننج فقد كل المعانى التي كان يتضمنها . وقد كافتحت في سبيل إبراز هذه النقطة وسط فريقنا البرلماني ، محذرة من الخسائر الكبيرة في الانتخابات القادمة ، وتوهين الروح الكفاحية لدى أعضائنا ، ولكن الأغلبية — كما كان يحدث — كانت ضدي ، ومن ثم مضت سياسة التساح قدما .

وقد سنحت للاشتراكيين الديمقراطيين فرصتان كان يمكن فيهما استعادة زمام المبادرة الذي فقدوه مع سقوط وزارة مولر الأولى هي الإطاحة بالحكومة الاشتراكية في بروسيا والثانية هي مساندة شليشر ضد القوى القائمة .

وقد كانت ألمانيا جمهورية اتحادية تمثل بروسيا أقوى ولاياتها وتبلغ ثلاثة أخماس الدولة الاتحادية كلها . وكانت هي التي تولت تحقيق الوحدة الألمانية وتكوين الامبراطورية كما رأينا في الفصول السابقة . ومن الأيام الأولى للجمهورية وقد قام الحكم في بروسيا على أساس ائتلاف ما بين الاشتراكيين الديمقراطيين والكاثوليك والديمقراطيين . وفي عام ١٩٣٢ كان أوتوبرون Otto Braun الاشتراكي الديمقراطي يرأس الوزارة . وحاولت القوى الرجعية أن تغري بروننج بالبعث بالوزارة ، ولكنه رفض . وقيل إن هذا كان من الأسباب التي بررت استبعاده .

ما أن ولي باين حتى أصدر في ٢٠ يوليو سنة ٣٢ مرسوما جعل به نفسه « قوميسيرا » للريخ في بروسيا ، واستدعى الوزراء إلى دار المستشارية وأخبرهم

بإعلان الأحكام العرفية ، وبتولية مهام السلطة في بروسيا ، وأن الجنرال فون دنهستدت Von Rundstedt قائد قوات برلين قد أعطى سلطة تامة لتحقيق ذلك ، وأن عليهم أن يعتبروا أنفسهم مقالين .

وفي رأى أحد الكتاب ان قليلا من الأحداث في عهد ما بعد الحرب في العالم بأسره كان أ أكثر أهمية من هذا الحدث . ويمكن القول أنه قبل هذا الحدث كان الاشتراكيون الديمقراطيون ومعهم الحركة النقابية يسكنون مصابير العالم بأيديهم^(١) فقد كانت بروسيا هي القلعة الاشتراكية الأخيرة فهل يتمسك بها أو يفرض فيها الاشتراكيون ؟ لو أرادوا التمسك بها لما كان هناك مناص من حرب أهلية . وقد قدر أن الاشتراكيين كانوا يستطيعون تعبئة مليون وستائة وخمسين ألفا . منهم مائة ألف من المليشيا الشيوعية وأن باين كان يستطيع تعبئة مليون وثلثمائة ألف منها مائة ألف هم الجيش النظامي ومليون من الخوذة الفولاذية ومائتي ألف من فرق الهجوم الهتلرية . ولكن قوة هذه المجموعات لا تتناسب مع أعدادها فالجيش النظامي مثلا كان أكثر قوة وتسليحا من أى تنظيم آخر ، كما أن مدى تجاوب بعض هذه الفئات (كالشيوعيين) مثلا كان محل مسائلة ، وفي مقابل هذا كان يمكن للثقابات أن تجرد سلاحها الرهيب « الاضراب العام » الذى شل من قبل مؤامرة كراب .

وما أن أعلن مرسوم باين حتى توتر وتقطب ما بين العمال والحكومة ، فتجمهرت جماعات العمال في المصانع والميادين العامة وعززت الحكومة بوليسها ووزعته في مختلف المواقع وتحفز الفريقان في انتظار القرار الذى سيتخذه الاشتراكيون .

ولكن هذا القرار لم يصدر ، واضطرت الجماعات التي احتشدت حول

(١) تاريخ شعبى لألمانيا - رايبوزا ولينغراس ١٦٥

« انشتراس Insistrasse مقر رآسة النقابات ولنداستراس Lindenstrasse مقر مكاتب الفورواردس لأن تنصرف بعد أن نال منها التعب ، وغربت الشمس .

إن قرارا يتناسب مع حجم المشكلة وتعقيدها لم يكن ليتمكن أن يتخذ في ساعات . . لم تكن النقابات تستطيع إعلان الاضراب العام عندما كان هناك قرابة ستة ملايين متعطل إن هذا وحده يجعل العامل المشتغل يتردد في الامتجابة ويجعل العامل المتعطل أداة طبيعية لتحطيم الاضراب لو تم . .

ولم يكن الاشتراكيون الديمقراطيون يستطيعون الاعتماد على الشيوعيين . وحتى لو أمكن ، فإن انضمام الشيوعيين كان سيؤدي إلى تنفير مجموعات عديدة من الشعب وتصديقتهم لدعايات الحكومة الاتحادية وقد كان الشيوعيون ، بعد ، هم أول من يريد الأطاحة بالاشتراكيين .

صحيح كان من الممكن للمقاومة أن تهجول إلى منطقة «الرينلاند» التي كانت معاهدة فرساي ولوكارنو تحرم على الجيش دخولها — وكان من الممكن الاعتماد ، ولو مؤقتا ، على البوليس الذي كان حسن التسامح وتحت إدارة اشتراكية ، وكان من الممكن أيضاً الاتصال بالولايات الجنوبية التي كانت تضيق بسياسة الجونسكروز . . ولكن هذه كلها كانت تتطلب إعدادات وترتيبات وعزيمة ولم تكن هذه موجودة . .

وقد كان التبرير الذي قدمه سيفرينج لعدم المقاومة هو أنه لم يجد من حقه أن يسفك دماء ألوف العمال في معركة يحتمل أن يدخل فيها الجيش ، وهو تبرير إنساني ، وقد يستحق عليه شكر الألوف المؤلفة من زوجات وأبناء العمال الذين كان يمكن أن يكونوا أرامل أو ينامي ، ولكننه — بصرف النظر عن

مدى وجاهته بالنسبة لهذه الحالة بالذات — ليس بتبرير رجل الدولة . .
أو الدعوة ، إن الدول والدعوات لا تقوم بإيثار السلامة . . ولكن بتقديم
التضحيات . .

وكانت المقاومة الوحيدة التي استطاعها الاشتراكيون مقاومة رمزية ،
فعندما ذهب الدكتور براشت Dr. Bracht عمدة مدينة إسمن ، الذي عينه بان
محل سيفرينج إلى مكتب سيفرينج وأخبره أنه خليفته ، وإنه حضر لاستلام
مهام وظيفته قال سيفرينج إنه لن يرضخ إلا للقوة ، وفي المساء حضر براشت
وفي صحبته رئيس البوليس وضابطان واعد طلبه ، فاعاد سيفرينج قوله ، فاضطر
رجال البوليس إلى المسالك بسيفرينج عنوة وإخراجه من المكتب . وحدثت
مثل هذه المشاهد في مكاتب أخرى . .

وكان سيفرنج اشتراكيا ديمقراطيا قديما ، ولكن في الأيام الأولى للحرب
كان هو الذي قال إن من حق القيصر أن يرسل ضابطا وعشرة جنود ليحلوا
الرشستاج وادخر له القدر هذه القوله في ضمير الغيب عشرين عاما حتى طبقتها
عليه ، بأقل من عشرة جنود .

وكانت المناسبة الثانية هي عندما سأل شليشر ، وقد ضاقت في وجه
المسالك — زعيم الهيئة البرلمانية للاشتراكيين الديمقراطيون بريتشلد
Breitscheild ما إذا كان الاشتراكيون الديمقراطيون على استعداد لإقامة
المتاريس في الشوارع إذا ما حل الرشستاج ولم تجر انتخابات جديدة ورد
بريتشيلدردا عاما غير محدد ، فاتصل بليبارت زعيم النقابات وسأله السؤال
نفسه ففلمع ليبارت وقال « ماذا عسى بك Bumke أن يظن في هذا » وبمك
هو رئيس المحكمة الدستورية في ليبزج الذي قدم إليه الوزراء الاشتراكيون
المقاتلون طعنا في دستورية إقالتهم .

حقيقة إن ماضى شليشر لم يكن مشجما ، ولكنه قدم عرضا مغريا ، وكان جديرا بالنظر لا بالهلع ، وبدلا من ذلك فإن سياسة التسامح التي نهجها الحزب جعلته يتحمل ويؤيد بروننج ، ثم يستسلم أمام بابن . . حتى بلغت آخر ما يمكن أن يتصور : أن يعلق الحزب الاشتراكي الديمقراطي أمله في المحافظة على الجمهورية على حرص هندبرج على الدستور وأنه ما أن ينسكت هتار بقسمه أو ينتهك الدستور حتى يطلب هندنبرج مساعدتهم في الاطاحة به ولم تكن تلك إلا إحدى التعلات التي يدفع بها العجز إلى العقل . .

فإذا كان الضعف المتوطن في الحزب الاشتراكي الديمقراطي وإثاره السلامة قد جعله يقف موقف التسامح والسلبية فماذا كان موقف الشيوعيين الذين ظلوا من الأيام الأولى للجمهورية يشعلون الثورات الواحدة تلو الأخرى. كان من شأن التضخم والأزمة والبطالة أن تدعم الأفكار الشيوعية عن تناقضات الرأسمالية وإفلاسها الوشيك . وكانت ألمانيا وقتئذ تقدم المثل الكلاسيكي لما تكون عليه الدولة الرأسمالية المتقدمة المهيأة للثورة الماركسية . ففي أعقاب التضخم والأزمة المائيه وصل عدد العمال للتعطالين إلى ستة ملايين وكان معظم العمال الآخرين يعملون بعض الوقت وكانت المصانع المردة والمناجم الغنية تقف عاطلة . ويعرض توزيع الثروة صورة من المفارقة تجاوز ما تعرضه بريطانيا أو الولايات المتحدة ، ولكن كل محاولات الشيوعيين لتطبيق النظرية على الواقع أعنى القيام بالثورة باءت بالفشل ، ومن هنا فقد حدث تحول جاء مع الفاشية وكان يقدم تبريرا للفشل القديم وتأميلا في نصر قريب ويقوم في الوقت نفسه على قطعه أخرى من قطع النظرية ، وقد صور هذا التحول متالين في خطاب له إلي زينو فيف وبخارين « لقد يكون من الأفضل

لنا أن يضرب الفاشست أولاً - فإن هذا سيجعل كل الطبقة العاملة تلتف حول الشيوعيين » وتعمقت هذه الفكرة شيئاً فشيئاً في أذهان الشيوعيين . وعندما حذر بروننج الرأسماليين في خطاب القاه في الرشستاغ في ١٣ أكتوبر سنة ٣١ أن لا يمضوا بعيداً حتى لا يدفعوا الطبقة العاملة لعمل موحد ، عقب في اليوم التالي - رمل Remmele المتحدث باسم الشيوعيين في الرشستاغ « لقد تحدث الهز بروننج بكل جلاء ، فما أن يكون الفاشست في الحكم » تتكون الجبهة المتحدة المضادة للفاشية وتكتسح كل شيء حولها (تصفيق حاد من مقاعد الشيوعيين) من سيضرب من ؟ تلك هي القضية التي تقرررت بالفعل والسؤال الباقي هو : في أي وقت سنطرح بالبورجوازية إن الفاشست لا يخيفوننا .. أنهم سينتهون بأسرع من أي حكومه أخرى (صيحات حقاً^(١))

وعقب انتخابات سبتمبر سنة ٣٠ التي اكتسب النازي فيها مئة ملايين ونصف مليون صوت بعد أن لم يزد ما نالوه قبل ذلك بمائتين عن ثمانمائة ألف صوت كتبت مجلة « روت فاهن » « أمس كان اليوم العظيم لتهتر ، ولكن هذا الانتصار الانتخابي المزعوم للنازي ليس إلا بداية النهاية » وقال تالمان زعيم الحزب الشيوعي « عقب الانتصار المذهل للاشتراكيين الوطنيين ، توقع أتباعهم الشيء الكثير منهم ، ولكننا لم نسمح لأنفسنا بأن نضلل بحالة الزهر التي سادت الدوائر العمالية وبالذات دوائر الحزب الاشتراكي الديمقراطي وقد قررنا بحجوية وإيمان إن ١٤ سبتمبر كان يعني أفضل أيام هتر ، وإن يكون بعدها ما هو أفضل منه ، ولكن أسوأ ، وصدقت اللجنة التنفيذية بالسكومنترن على هذا ، وهنأته^(٢) » .

(1) Der Fuhrer by Konrad Heiden p. 363.

(2) The Prophet Out Cast by gssac Deutscher p. 131.

وكانت قيادة الحزب الشيوعي قد واصلت تدهورها من قمة روزا لوكسمبرج المبدعه إلى حضيض تالمان المستعبد . وحقا إن براندلر الذى خلف ليفى كان قد بدأ سياسة الازدعان للكومنترن وكذلك روث فيشر التى ثارت على براندلر ، ولكن هؤلاء كانوا يملكون حتى النهاية قدرا من الشجاعة يمكنهم من تحمل طرد الكومنترن ، الأمر الذى حدث لهم جميعا وجعل الحزب الاشتراكي الديمقراطي يستعيد معظم زعماء الحزب الشيوعي الذين انشقوا عليه ، ثم وجدوا أن سياسة الحزب - على عيوبها - أفضل فى النهاية من جنون الكومنترن وتمسكه بالطاعة العمياء ، ولكن هذه الصفات لم تتوفر فى تالمان ولم يكن لديه الشجاعة والثقافة التى تمكنه من التصدى للكومنترن . وكانت ميزته الكبرى هى الطاعة العمياء والثقة المطلقة ، وعلى كل حال فلم يكن لديه خيار . فحلقة الطغيان الستالينى كانت تضيق شيئا فشيئا ، وتقضى على كل آثار وبقايا الحرية القديمه مهما كانت هذه الحرية محدودة أو محصورة فى دائرة الحزب .

ومع سابقة الفاشية فى إيطاليا والسياسة الشرسة التى أظهرها النازى بجلاء وأنه لم ينكر ابدأ أن هدفه الأول هو القضاء على الشيوعية ، فإن هذه النخر كلها لم تستطع أن تنقذ الشيوعيين من عبوديتهم للنظرية أو توظفهم من أحلامهم الوردية ، على العكس لقد دفعتهم لتشديد الكرة على « الفاشست الاشتراكيين » وتمريتهم لدرجة الاتفاق مع النازى عليهم .

وعندما افتتح الرשמساج الجديد يوم ١٢ سبتمبر سنة ٣٢ استدعى للشيوعيون النائبة الشيوعية والمكافحة العنيدة « كلارا زيتكين » رفيقة روزا لوكسمبرج فى الأيام القديمة من روسيا حيث كانت تقيم وتقضى سنواتها الأخيرة على الادوية .. وبالكاد تستطيع أن تتحرك .. لتأس الجلسة الاولى

للمجلس بحكم كونها أكبر الأعضاء سنا (٨٤ سنة) كما كانت تقضى بذلك
لوائح المجلس .

وتقدمت كلارا زتكن وهي تسير بصعوبة متوكئة على عصا ومستندة على
النائب الشيوعي « تورجلر » وسط ٢٣٠ نائبا نازيا يرتدون الزي الرسمي
والزمتهم المناسبة الصمت رغم أنهم .

واعتمدت كلارا زتكن المنبر بصعوبة وفيما يشبه المعجزة استمادت هذه
المكافحة العجوز من قواها القديمة ما جعلها ترتجل خطبة ملتتهبه ، سردت
فيها كل مخازي وأخطاء الرشتاج ، ورئيس الجمهورية . وقالت إنه كان يجب
أن يحاكم أمام الرشتاج لولا أن ذلك كاتهام الشيطان إلى جدته ، وأنها لتأمل
أن يكون لها في القريب العاجل شرف افتتاح المؤتمر الأول للسوفيت الألمان .

وأسفاه ! لقد كان ذلك حلما من أحلام الماضي السحيق .. وكانت ألمانيا كما
كانت كلارا زتكن نفسها . أبعدها ماتكون عنه .. فقد ماتت كلارا بعد ذلك
بقليل — كما لحقتها جمهورية فايمار في السنة التالية .

الفصل العشرون

ذلك الرجل ادولف هنتلر

من كان ذلك الرجل ادولف هنتلر الذي قدر له أن يقضى على جمهورية فايمار،
ويقيم على أنقاضها دولة الحسك المطلق ويشعل أكبر حرب عرقتها البشرية
ويمثل على مسرح العالم بأسره مأساة تصغر أمامها كل المأسى التي تصورها
الخيال الإنساني .

لقد ولد في برونو على الحدود النمساوية البافارية في أبريل سنة ١٨٨٩ من
أب كان موظفا صغيرا في الجرك ، وأم تصغره بثلاثة وهشرين عاما وذهب إلى
المدرسة في لينز حيث وقع تحت تأثير مدرس التاريخ لودفيج بوتش . وفي سن
الحادية عشر أعلن أنه يريد - أن يكون فنانا وأثار ذلك والده الذي كان يريد
له أن ينشأ موظفا ولكن وفاة أبيه ثم وفاة أمه حالا دون أن يستمر في الدراسة،
أو يبقى في تلك البلدة الصغيرة ، فشد رحاله إلى فينا ، حاملا مجموعة من
الرسوم والصور .

وكانت سنوات فينا - ١٩٠٩ - ١٩١٣ من أسمى السنوات على هذا الفقير
الحائر المضطرب اليتيم فقد رفضت الأكاديمية رسومه ، واضطر لأن يواجه
حياة العاصمة المأهجة دون أن يملك مفتاحا واحدا يفتح به بابا من أبواب المجتمع
التي لا يفتح إلا بها ، من مال أو أسرة أو شهادة دراسية أو حرفة فتلقفته
الشوارع والنزل والأعمال العرضية يوم بعد يوم ماوسنة بعد سنة دون أن يجد حيلة

أو يهتدى سبيلا ، وحز في نفسه أن يضطر لأن يعيش مع عامة العمال . ليس فحسب لما في ذلك من فاقة مدقمة ، ولكن أيضا لما اعتبره جهالة ، ورفض بشدة أن ينضم إلى « النقابة » ضاربا عرض الحائط بكل أقوالهم عن المطالب والحرفة إلخ وتحمل اضطهاداتهم ومقاطعتهم .

وافقت فشله خلال هذه السنوات وعجزه عن الاستقرار أنظار بعض المؤرخين ، ولكن هذا لا يدل على عجز أو جبن أو ضعف ، ولكنه بإيجاز يدل على شخصية لم تتلاءم مع المقاييس والمعايير المقررة ، ولما لم يكن المجتمع البورجوازي هو المجتمع الأمثل ، فإن عدم التلاؤم هذا لا يمكن أن يحسب ضرورة عليه أو يمد تقيصة فيه .

وجاءت الحرب ، فأثقتته من تلك الحياة العقيمة ، السقيمة ، المنخبطة وهيأت له مناخا يتجاوب مع مشاعره فتطوع في الجيش البافاري واشترك في القتال وأثبت بطولة ونال نيشان « الصليب الحديدي » وإن لم يترق إلا إلى رتبة « جاويز » في وقت كان يمكن أن يترقى كل جندي ينبت شجاعة أو كفاية إلى رتب الضباط ، ولكن هذا أيضا لا يمكن أن يكون له دلالة سيئة ، وإنما هو يسير مع خط شخصيته العام ، فخيأؤه وانطواؤه حالا دون أن يظفر برعاية رؤسائه وإن قام بواجبه خير قيام .

وعندما انتهت الحرب تلك النهاية التراجيدية المفجعة ، لم يقطع هتلر صلته بفرقته ، وعهد إليه رؤساؤه بالاستعلام عن جماعة سياسية مغمورة تعمل في ميونيخ وتحمل اسم « حزب العمال الألماني » .

كانت تلك هي اللحظة التاريخية التي أذخرها القدر لهتلر ، فالمرّة الأولى بعد سنوات التيه والتخبط الطويلة يجد هتلر نفسه ، ويجد « المعامل » الذي يفجر طاقاته التي ظلت مخبوءة مجهولة ، فإذا كان حقاً أن تلك المجموعة المغمورة التي تسمى نفسها « حزب العمال الألماني » قد ولدت من جديد عندما جاءها

هتلر متجسسا عليها ، ثم مشتركا فيها ، فإن هتلر نفسه قد ولد من جديد عندما اهتدى إليها .

وكانت هذه الجماعة التي تعد على الأصابع، وتجتمع في مقاهي ميونيخ الصغيرة تضم انتون دركسلر صانع الأقفال الذي يريد أن يجمع ما بين الاشتراكية والعمالية وجوتفريد فيدر المهندس المدني ، الذي كان يرى في « الفأدة » لعنة النظام الاقتصادي وديتريش ايكارت الكاتب وكارل هرر الصحفي ، وجاء فيما بعد روزنبرج والكابتن روم — الذي كان إلى حد ما رئيس هتلر في الجيش .

ومن الأيام الأولى وجد هتلر نفسه وهو يغمس في هذه المجموعة التي جاء ليجس عليها وأصبح العضو رقم « ٧ » ولم يلبث أن أصبح زعيم المجموعة وانفرد بالإدارة بعد أن كانت تقوم بها لجنة وغير اسمها إلى « الحزب الوطني الاشتراكي للعمال الألمان » ووضع لها برنامجا من ٢٥ نقطة إذاعه بنفسه في فبراير سنة ١٩٢٠ .

وكان البرنامج يتضمن الوحدة بين كل الألمان ، وإحفاء معاهدة فرساي وسان جرمان ، وحرمان اليهود والأجانب من الجنسية الألمانية ، وإخراج الذين جاؤوا منهم بعد سنة ١٩١٤ ، وإلغاء الكسب غير المشروع ومراقبة الدولة للتكتلات الاقتصادية والإهدام للخونة .. الخ .

ولم يكن هذا إلا بداية .. فقد خرج مرة واحدة الزعيم الموهوب من جلدته المواطن المغمور وكشف فجأة هن مواهبه وأخذ يصعد ويتقدم بأسرع مما كان يفشل ويتخبط أيام فينا، وظهر أن له قوة خارقة في التأثير على الجماهير وتحريكهم ومقدرة فذة على التنظيم وما هو أهم من هذا كله : ذكاء فطرياً وحاسة غريزية تهدي صاحبها دون علم أو ممارسة إلى اختيار المواقف السلمية .

وفي الأيام الأولى كان تقدم الحزب محدودا واضطر هتلر لأن يكسب سامعيه واحدا فواحدا، ولكنه تقدم فخرج من دائرة العشرات إلى المئات ومن المئات إلى الألوف وعرفه الكابتن روهم بعدد من الشخصيات المدنية البارزة في ميونيخ، كما اكتسب له أيضا تأييد الجنرال فون اب، وبهذه الطرق أمكنه شراء جريدة «الفولسكشي بونختر» وتوصل إلى شعار الصليب المقوف ونظم فرق العاصفة واختار لها طريقتهما في التحية وتولى تدريبها روهم وجريجور ستراسر وفي سنة ١٩٢٣ كادت مؤامرة هتلر في ميونيخ أن تنجح لولا أن سمح بافلات مؤن كاهر وفون سلو على ما أوضحنا، وعندما فشلت قبض عليه وحوكم وحكم عليه بالحبس خمس سنوات في قلعة لاندسبرج واستغل هتلر المحاكمة في الإعلان عن مبادئه، كما استغل الفترة التي أمضاها من مدة العقوبة في القلعة، وهي تسعة شهور، في كتابة كتابه «كفاحي». ولكن التجربة شفت هتلر من داء الثورات والانقلابات وكانت المؤامرة هي نهاية المتآمر الثوري، وبداية المنظم الحزبي.

وعندما مات ايبرت سنة ١٩٢٥ لم يرشح النازي هتلر للرئاسة ولكنه رشح لودندورف ولم ينل لودندورف سوى قرابة ربع مليون صوت وأعطى هذا مؤشرا آخر لهتلر الذكي عن أن عهد الانقلابات العسكرية قد انتهى.

وعكف هتلر منذ أن خرج من محبسه سنة ٢٤ على بناء حزبه من جديد وكفالة التوجيه السليم له وتحقيق التوازن ما بين عنصري الحزب: العنصر الوطني والعنصر الاشتراكي، ولم يكن هذا هينا بالطبع ولم يقد به هتلر إلا بعناء شديد، وعلى حساب أحد العنصرين ضد الآخر لفترة ما - فضلا عن تزايد نفوذ فرق العاصفة وضرورة كبح جماحها بعد أن كادت الصفة العسكرية تغطي على الصفة الايديولوجية لها.

ومع هذا كله كان الحزب ينمو . ففي سنة ٢٥ كان عدد الأعضاء ٢٧ ألف وعند نهاية سنة ٢٩ قارب ١٧٨ ألفا ، وخلال هذه الفترة عقد الحزب عددا من المؤتمرات التي كانت تؤدي أغراضا متعددة فهي تثير الحماسة في نفوس الأعضاء وهي تبث الخوف والرغبة في نفوس الأعداء وتقدم دعاية عملية وعلوية على قوة الدعوة الهتلرية ، كما نظمت تشكيلات نوعية وفرعية للمعلمين أو النساء أو المحامين ... الخ .

على أن آثار هذا النشاط كانت إقليمية أكثر مما كانت قومية ، وفي انتخابات مايو ١٩٢٨ لم يحز النازي سوى ٨٠٠ ألف صوت و ١٣ مقعدا بينما نال الاشتراكيون الديمقراطيون أكثر من تسعة ملايين ، ويمود جزء كبير من عدم تجاوب الشعب مع هتلر وقتئذ إلى عودة الرخاء بفضل سياسة سترسمان ومشروع داويز .

وكان من حسن حظ هتلر أن أثارت سياسة « بروننج » الاستياء في جميع الأوساط ، وأن تخوف الرأسماليون التطورات السياسية ، ورأوا في هتلر حليفا قويا فتقربوا إليه ، وقدموا إليه المساعدات المالية التي تكفل النهضة بحزبه والوفاء بمصروفات الدعاية الضخمة فقدم فريتر تيسن كبيرا صاحب مصانع الحديد في منطقة الزور ، ورشبرج Reichberg الذي كان يطلق عليه ملك البوتاس ، وكان عدوا لدودا للشيوخيين ومؤيدا لكل دعاية ضدهم ، وإيفار كروجر رجل الأعمال السويدي ، كما قدمت شركة جنرال موتورز ، التي كانت قد اشترت شركة أويل وبيوت الاصدار الأمريكية تصيلات ومساعدات كبيرة . وفيما بين سنة ٢٧ ، ٢٨ وضع أميل كيردورف صندوق تحطيم الاضراب تحت تصرف الحزب وقدرت ميزانية الحزب من سنة ١٩٢٨ إلى آخر سنة ١٩٣٢ بأكثر من ٢٥٠ مليون مارك خصص معظمها لعمليات

الدعاية ، والاحتفاظ بقوات خاصة وصل عددها إلى ٤٠٠ ألف . .

وقد يجوز لنا أن نقطع السياق لنقول إن هذه الصلة المالية المريبة ما بين حزب النازي ورجال الصناعة تقابلها صلة مالية مريبة أخرى ما بين الحزب الشيوعي والكومنترن ، فالحزب الشيوعي كان يستمد موارده المالية من الكومنترن ، وروى كريفتينيسكى - وهو ثقة في هذه الناحية - أن الكومنترن يدفع ما بين ٩٠٪ و ٩٥٪ من مصروفات الأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفيتي وأن هذا يتم بطرق ديبلوماسية أو بالوكالات التجارية ، وعندما فشلت قومة الحزب الشيوعي الألماني سنة ٢٣ تملك الحيرة ميروف - ابراموف Mirov - Abramov وكيل قسم الاتصال الدولي بالكومنترن الذي يرمز له بالحروف O M S والذي يتولى تمويل الأحزاب الشيوعية الخارجية فيمن يأتمنه على توصيل الأموال للحزب حتى ظهر ولهم بيك الذي كان محل ثقة ميروف ابراموف . وكان ميروف هذا هو ممثل قسم الاتصال في ألمانيا خلال ١٩٢١ حتى ١٩٣٠ ، وكان عمله الظاهري في إدارة الصحافة بالسفارة السوفيتية في برلين ، وكان يستخدم قرابه ٢٥ شخصا من الماوينين (١) .

وبالطبع ، فإن كلا من الحزب النازي والشيوعي كان يتكتم هذه الاتصالات عن جمهوره الذي كان يساعده بكل قوة بالاشتراكات ولكن هذه الاشتراكات لم تكن لتفي بالمصروفات الضخمة لهما .

وكشفت انتخابات سنة ١٩٣٠ عن التقدم الذي بلغه الحزب وصعد بالأصوات

(١) وقد لاقى النهاية الممهودة ، فقد استدعى إلى موسكو ليحل مساعداً لبياتنسكى Piatnisky رئيس قسم الاتصال الدولي واحد رفاق لينين المقربين وعند تصفية الحرس القديم استبعد بياتنسكى ومساعدوه وفي سنة ٣٧ أعيد في التطهير .

التي نالها من ٨٠٠ ألف في انتخابات ٢٨ سنة إلى ستة ملايين ونصف . وعدد المقاعد من ١٣ إلى ١٠٧ .

* * *

الحقيقة التي لا ريب فيها أن هتلر كان مهيباً لقدره ، وأن كل الأحداث كانت تسوقه إلى هذا القدر . .

ففي الوقت الذي كان أقرانه من الفتيان يعنون بالرياضة، والبنات والدراسة والمستقبل المهني ويبدأون أولى خطواتهم على الطريق البورجوازي المقرر ، كان هتلر ، بحكم وراثته ونتيجة لبيته، وفاقته ومزاجه، يجتر أحلامه ويعيش في عالم لا يمت إلى الرياضة أو اللهو وأرهفت هذه العوامل المبكرة حسه ، ونمت خياله وجعلت مشاعره تدور حول الميثولوجيا والبطولة وتأثر عميقاً بما قرأه في طفولته عن الحرب الألمانية الفرنسية في كتاب مصور ضخم من مجلدين وجده في مكتبة أبيه . ثم جاءت موسيقى واجتر وأبطاله . فوجدت له ألمانيا الجيدة الاسطورية وكان كل ما يقرأه - عندما كانت القراءة هي المتعة الوحيدة المتاحة له - يضرم فيه الشاعر . ويجول شيئاً فشيئاً الطموح الفني الذي ساوره في مستهل شبابه إلى رؤى البطولة التاريخية . وقد يصور هذا التأثير أنه ، وهو في قمة مجده ، قص على المستر تشمبرلين أسطورة بافاديه شائعه عن الامبراطور شارلمان الذي يجلس في كهف مستغرقاً في النوم - وقد أخذت لحينه البيضاء تسرمل في النمو وعندما تطول لدرجة تلف حول المائة الصخرية امامه ثلاث لغات - فإنه سوف يستيقظ وبحكم ألمانيا من جديد .

وبالإضافة إلى هذه العوامل الخاصة بالطفولة والنشأة والقراءة والثقافة فقد حفرت المعاناه القاسية التي عاناها فترات تشرده خطوطها العميقة ، وبذلك كله انتهى إلى ما عجز غيره عن الانتهاء إليه : أن من الضروري لأي مذهب

سياسي ألماني من عنصرين متكاملين الأول العنصر التاريخي البطولي الذي يمثل العنصر الذاتي في الأمة الألمانية والثاني العنصر الاجتماعي - الاشتراكي الذي يمثل العنصر الموضوعي والضروري التي يملها التعقيد الاجتماعي المعصرى. وهذا مناقات معظم الدعاة ورجال السياسة الألمان الذين كان كل واحد منهم يمثل عنصرا من العنصرين، أو لم يكن جمعهم للعنصرين جمعاً مثالياً وبالنسب الواجبه ، أو بالعمق الذي وصل إليه هتلر .

على أن الأهم من ذلك والأكثر أصالة بالنسبة لإضافة هتلر هو أسلوب العمل الذي أحكمه ، وكان يقوم على فهمه الغريزي لنفسية الجماهير وحاسته المرهفة التي كانت تهديه إلى القرارات السليمة. وبفضل فهمه الغريزي لنفسية الجماهير أصبح الخطيب ورجل الدعاية الذي لا يشق غباره ولا يبلغ شأوه ولا يمكن الاستغناء عنه ، وبذلك استطاع أن يقهر كل المنافسين له أو المؤتلفين معه ، وأن ينفرد بالزعامة والرئاسة ، ولم يكن هؤلاء ليستطيعوا شيئاً مهما ضاقوا به ، مادامت الجماهير مفتونة به . . .

ولم يكن الأثر العميق لخطابة هتلر يعود إلى إحكامه للأسلوب أو اللغة الألمانية ، أو تعمقه في فهم أسرارها ، أو ثقافته الرفيعة أو منطقته السليم . الخ فهذا كله لا علاقة له البتة بعالم الإثارة . بل من المحقق أنها تكون على حساب الإثارة . إن مصدر تأثير خطابة هتلر يعود إلى إيمانه التام بالمانيا وثقته المفرطة في نفسه ، وقدرته على التبسيط ، وتقديمه الحلول جذرية ، ووعود وردية ، وتركيزه وتكراره للمعاني المبسطة والوعود المؤكدة ، ولعبه على الأوتار الحساسة من حب أو بغض أو أمل . وكان إيمانه العميق يجعله يصدر هذا كله بصوت واثق وتأكيدي قاطع وعاطفة متأججة ..

وتحدث أحد الذين سمعوه في عام ١٩٢٢ د كانت ألفاظه كالسياط ، ولما

تحدث عن المهانة التي لحقت بألمانيا شعرت كأني أريد أن أنقض على عدو ،
والنتف حولي فوجدت أن هذه المغناطيسية قد جذبت الآلاف كفرد
واحد .. وأحسست بنشوة تماثل نشوة الإيمان الديني . وإنى لمتأكد أنه مامن
واحد سمع هتلر هذا المساء يمكن أن يشك أنه رجل القدر . والقوة التي
ستبث الحياة في مستقبل ألمانيا . فأعطيته رويحي » .

إلى جانب هذه المقطرة الخطابية التي جعلت هتلر يؤثر في الجماهير أكثر
مما يؤثر أي نجم سينمائي أو مسرحي ، وجعلت اجتماعات الحزب مورداً من
الموارد المالية له ، فإن إحكامه للدعاية وفنيها لم يكن يقل عن إحكامه للخطابة .
فالشعارات والممصقات والأعلام والطبول والعروض الرياضية والعسكرية هي مما
يدين به العمل السياسي لهتلر . ومما لم يكن للعالم به عهد من قبل باستثناء
موسوليني ، ولكن هتلر فاق موسوليني في هذا كله ..

كانت السياسة في يد السياميين البرلمانيين أسلوباً روتينياً رتيباً ، مملاً ،
يشير النوم ويبعث على الضجر ، وكانت في يد الشيوعيين علماً جافاً ، وفكرة
جبرية فجاء هتلر فجعل من السياسة فناً مثيراً ، وأعطاهم لونا قوياً .. بحيث
أصبحت مفعمة بالمعاطفة والحماة والحياة والآمال التي تنتقل من الزعيم
إلى الجماهير ..

ووصفت أ . أو . لوريمر E. O. Loimer أحد الاجتماعات الانتخابية التي
شهدتها في ٥ نوفمبر ١٩٣٢ في كولون فقالت « كان مكان الاجتماع قاعة
عظيمة في أحد أبنية المعرض شرق الرين في الساعة الثامنة والنصف ، ولكن
الأبواب فتحت من الساعة السابعة ، ووصلت المكان الساعة السابعة والدقيقة
العاشر فوجدت البناء قد أضاءته الأنوار وزينته الأعلام وغطيت الحوائط
بإعلانات كبيرة كتب عليها :

الألمان يتحدون في هتلر
حيث تعيش ألمانيا يجب أن تموت الماركسية
هتلر للحرية والعمل والطعام

ازدحم البناء بالوافدين رجالا ونساء ، وبينما كانت الجموع لا تزال مستمرة في قدومها كانت موسيقى النازي تعزف ، وكان الحشد ينشد مارش الفروسية « فردريك الأكبر » وعيونهم مغرورقة بالدموع بينما كان الرجال الطاعنون في السن يتحدثون عن الذكريات التي تثيرها في نفوسهم هذه النغمات . وكان الأطفال بائعو الجرائد يعرضون الصحف الهتلرية . وجاء أطفال في ملابس رسمية يعرضون للبيع أعلاماً وصوراً فوتوغرافية والنقود تنتقل أثناء كل هذا من يد إلى يد ونحن في صمت كصمت القبور ..

وكان مقدر أن يأتي « الزعيم » في الثامنة والنصف ، ولكن جاء قادم يعلن أن الزعيم قرر أن يخاطب اليوم في مدينة امن علاوة على خطبته التي ألقاها في بر ونام ، لهذا فإنه سيتأخر ساعة ولم تبد علامة واحدة تدل على خيبة الأمل وتقدم رجل يتحدث عن تاريخ الحركة النازية . وطال انتظارنا ساعتين ونصف وأخيراً ارتفعت الأ كف بالتصفيق فالزعيم قادم .

وما أن ظهر الزعيم وهو يسير بين صفين من أتباعه وقد انمقدت فوق رأسه الأعلام حتى هب الجميع هبة رجل واحد ، وتمالت صيحة واحدة من ١٢٥ ألف حنجرة « هايل هتلر » واستمرت التصيحات تتعالى حتى لوح الزعيم بيده ، فخل الصمت وعاد الناس إلى مقاعدهم وأخيراً تقدم رجل من هتلر ثم قال في إيجاز « أهلا بك في مدينتنا المقدسة كولون » وحينئذ رفع الزعيم يده بالتحية النازية ثم بدأ يتكلم ..

لقد صرت ثلاثة أرباع الساعة دون أن يسعل شخص واحد وهكذا كان الجمع صامت .. الخ .

فإذا أردنا أن نقيم الإضافة الهتلرية إلى عالم السياسة لرأينا أن هتلر لم يضع نظرية، ولم يكن منظرًا . ولكنّه أنشأ حركة وقدم نظاما وأقامه على عدد محدود من الأسس السيكولوجية، وكانت هذه الأسس تنجأوب مع نفسية الشعب الألماني وظروف مجتمعه وقتئذ كما لم يكن معظمها يخلو من أصل صحيح، أو على الأقل بعض الصحة والسلامة وإن كان شطط هتلر في بعضها وهو شطط لم يكن منه غير ما دامت السياسة فنا واستثارة وديماجوجية وفي غيبة الضوابط الموضوعية، قد أخل بالتوازن الواجب وأساء إلى ما فيها من صحة وسلامة، فقاومة هتلر للماركسية، ونظرته إليها كالعنود الأول الذي يهدد أمن ألمانيا وشنه لتلك الحرب العنيفة على الحزب الشيوعي أمر طبيعي تماما لأن قيادة الحزب الشيوعي كانت تتلقى أوامرها وتعليماتها وأموالها من موسكو، ولا ينال من هذه الحقيقة جهل جمهور الأعضاء بها، وهو أمر مشكوك فيه، لأنه حتى جمهور الأعضاء لم يكونوا ليروا حرجاً في مثل هذه التبعية، فلم يكن الحزب قيادة وجمهوراً في نظر كل الوطنيين سوى عميل « يتخبر » لحساب دولة أجنبية، ولأن المثل الايديولوجي السياسي الذي تمسك به الحزب من بدأ الثورة حتى خطاب كلارا زيتكن الدراماتيكي في الرشستاج، وهو — سوفيات العمال — كان غريباً على المجتمع الألماني وتقليداً للتجربة الروسية، وقد سلمت السوفيات الألمانية طائفة مختارة السلطة إلى جمهورية فايمار. ولم يكن موقف هتلر صحيحاً من الناحية الموضوعية فحسب، بل كان صحيحاً من ناحية الأسلوب والتكتيك لأن الشيوعيين، منذ أن كتب ماركس سطورته الملتهبة في الرين الجديدة، ومنذ ٢٤ — فهور وسقرط

أن ظهرت الأحزاب الشيوعية حتى الآن — وهم ينادون بسياسة « اللارحة » ويرفسون لواء البنفس وشنان العداوة ، ويرون جميع المعسكرات غيرهم « ملة واحدة » ولا يمكن أن يفهموا العدالة كعداله ، ولكن كضعف وهم على استعداد — يكاد يكون غريزيا — لاستغلال كل كرم نحوهم على أساس أنه « كسب من الرجعية » فسياسة هتلر الباطشة نحوهم كانت نوعا من المعاملة بالمثل ، فضلا عن أنها كانت قصاصا لموقفهم من الحزب الاشتراكي الديمقراطي وعقبا على قصر نظرهم وعقم تقديرهم .

ومن المواقف التي وقفها هتلر وعارض فيها التيار السائد دعوته للمرأة لأن تعود إلى البيت وأن تعنى بالأسرة ، وكانت جمهورية فايمار قد أعطت المرأة الحقوق السياسية والاجتماعية كما دفع الاتجاه الليبرالي والرأسمالي بها إلى اللصانع والمكاتب . . الخ . . ونشأت بذلك مجموعة من المشكلات التي لا بد وأن يظهرها السير وراء ماتوى الأنفس وبجفاة الطبائع وتقديم الرغبات الفردية على المقتضيات الاجتماعية من منافسة بين الرجال والنساء على موارد الرزق ، وتبيع خصائص كل جنس ، وافتقاد الشهامة والرجولة في الرجال ، والدعة والعطاء في النساء ، وتهدم البيت ، وتشرد الأبناء لعدم كفاية أو فعالية دور الحضانة . فعارض هتلر هذا كله ، وامتنع أن يجمل المرأة تعود إلى البيت وتمارس وظيفتها الطبيعية السامية ، الأمومة ، وإشباع الحب والعطاء . وكان في هذا أسد نظرا من دعاة التحررية وأنصار المرأة . . وأرضى الرجال والنساء معا وحل إلى حد ما مشكلة المتعطلين ، كما أقام البيت على أسسه الطبيعية من تخصص كل من الأبوين تخصصا يحقق التكامل والتعاطف ، وليس التنافس والتعارض .

واعلاء هتلر لشأن الدم قد يكون له ما يبرره لا من الناحية البيولوجية ،

والفسيولوجية فحسب ، ولكن لأن الدم له سره الخصاص الذي لم يتوصل إليه العلم بعد ، وإن حامت حواره ، أو استشفته بعض الأقوال أو الأمثال الدارجة التي تنبئ عن أصل ما ولكن هتلر أخطأ دون ريب في ما زعمه عن رقى الجنس الآرى ، لأن أرقى شيء خص الله به البشرية ، وهو الأديان السماوية الكبرى . هو مما لم يكن - فيما نعلم - للجنس الآرى نصيب فيه ، ولم يكن أسمى نموذج للأبطال - الأنبياء - من الجنس الآرى . ولم يشترك الجنس الآرى في وضع أصول التاريخ والحضارة ، فهذا ما قامت به مصر والعراق والصين والهند . وجاء بعد ذلك اليونان والرومان ، وحتى الفضائل التي زعمها هتلر للجنس الآرى ، فإنها لا يمكن أن تعد على إطلاقها فضائل . .

كما قد يكون لهتلر مبرر في حملته على اليهود ، ولعله لا يعدم أسبابا موضوعية وأخرى ذاتية لمثل هذه الحملة . فهنا الجنس العريق الذي جمع ما بين الملوك والأنبياء ، والقردة والخنازير . والذي ضرب الله به المثل في كفر النعمة التي أضفاها عليه ، مقسم الولاء وهو يعود بمشاعره وعواطفه إلى اسرائيل ، وإلى ذلك التاريخ الموغل في القدم ، والغريب تماما على المناخ الأوروبي . وقد لا تتغير هذه المشاعر حتى عندما ينتصر اليهودي ، فقد لا نجد شخصا مثل دزرائيلي يصل إلى اعلاقة في المجتمع في بريطانيا عندما كان التمسك بالمثل الفيسكتورية يكاد يكون دينا ، يكشف في رواياته عن مشاعر كلها اسرائيلية . . ويثبت أن فبنه للديانة الموسوية ، واكتسابه للديانة المسيحية لا يغير الحقيقة الواقعة : أنه يمت بجنوده إلى جنس غير الجنس البريطاني ، جنس آمن وصرح أنه أعرق واسمى من الجنس البريطاني نفسه ، فإذا كان المجتمع البريطاني وقتئذ من القوة وفي مرحلة من النمو والصعود ، بحيث لم يأخذ هذه المشاعر مأخذ الجد ، وأن دزرائيلي نفسه كان من الذكاء بحيث يحتفظ بها رواياته ، وليس لعملة السيامي ، فإن هذا قد لا ينطبق على ألمانيا المهيمضة المهزومة . وقد تحدى اليهود بعد كل المثل

الحضارية الأوروبية المعاصرة عندما أقاموا دولة « دينية » وفرضوا فرضا على المجتمع الدولى . ومن الناحية الذاتية فقد كان اليهود فى ألمانيا يشغلون مجالات الآداب والفنون ، بل يكادون يحتكرونها لدرجة دفعت هتلر لأن يقول « كل الكتاب يهود ، وكل اليهود كتاب » وكانوا يسيطرون على أجهزة الأعلام والسينما والمهن الأدبية والمحاماة والطب ، وكانوا يحتكرون صناعات بأسرها ويتحكمون فى البنوك ، وكان من المستحيل التخلص منهم بغير الوسائل الهتلرية لأنهم نجحوا فى فرض شبكته من الحماية Protection على أنفسهم ضد أى منافسة غير يهودية ، وأخيرا فإن التخلص من اليهود لم يكن يحل مشكلة العاطلين وتحرير الاقتصاد الألمانى فحسب ، ولكنه كان يحل عددا من المشكلات فى وقت واحد ، على أن المبرر « النظرى » للحملة على اليهود كان فيما رأى هتلر قضية الدم ومع أنه كان مخططا فإن آخر من يجهمه بذلك هم اليهود الذين هم أول جنس عنصرى فى التاريخ وقد بدأت الصيحة العنصرية فى العالم بأسره على لسان سارة عندما قالت « أبعد هذه المرأة الجارية - هاجر وابنها - » ونتيجة لذلك أبعد إبراهيم هاجر وابنه اسماعيل منها إلى صحراء الحجاز واستأثر اسراييل بكرامة الاعتراف والرعاية وظلت شئنة الدم على لسان عدد كبير من المفكرين اليهود بما فيهم دزرائيلى وغيره .

وربط هتلر ما بين الشيوعية واليهودية العالمية أمر لا يخلو من الصحة بمنطق الواقع نفسها فقد كانت الأغلبية العظمى من زعماء الشيوعيين من ماركس فنانزلا من اليهود ومنطق القسمة المشتركة ما بين السياسة اليهودية والسياسة الشيوعية كما أبرزتها ماركسات اليهود والشيوعيين على مدار التاريخ فهما يتسمان بالقسوة والجبروت والذاتية قدر ما يمدان عن العدالة أو النزاهة أو الموضوعية وينميان الحقد ويتسمان بالتعطل الخلقى والانتهازية .

وبالمثل فإن التركيز على مبدأ « القيادة » والزعيم وإن كان يتجاوب تماما مع العقلية الألمانية ، وأنه عمليا المبدأ الذى لا مناص عنه لإدارة الأمور بحزم وسرعة ، فإن المفالاة فيه إلى درجة تقديس الزعيم كانت نوعا من الردة بالإنسانية إلى العبود الوثنية التى كان فيها القيصر أو الفرعون نوعا من الآله المعصوم المعبود . . . وأدى هذا إلى تفتى الأخطاء وتضخمها دون أن تكون هناك وسيلة أو محاولة لكشفها أو علاجها .

وفي المجال السياسى أنكر النازى معاهدة فرساي التى أمليت على ألمانيا واستلمت الانتقام والثأر أكثر ما استلمت العدالة والحكمة وجهد التعويضات جملة وتفصيلا وكان فى هذين محقا ورزق من الشجاعة ماجله يحققهما — الأمر الذى لم يستطعه غيره — وسار على سنن الرأسماليين والعسكريين الذين لم يجدوا وسيلة لحياة الشعب الألمانى الكثير العدد فى رقته المحدوده إلا التوسع وبالذات التوسع شرقا ، ولم يكن فى هذا شىء جديد ، فهو التصور الروسى — الرأسمالى التقليدى ولعله كان من الصعب وسط السياسة الأوربية الخارجية التى قامت على الغزو والقرصنة أن نطالب هتلر بالتفكير فى حلول أخرى كتنظيم النسل أو المهجره أو زيادة فنيه العمل — وهتلر بعد أفضل من غيره عندما رفض التركيز على المستعمرات الخارجية وعنى بالتوسع شرقا .

من هذا يتضح أن معظم الأفكار التى اصطنعها هتلر لم يكن تخلو من صحة ووجاهه تبرر الأخذ بها ولم تكن كما صورها أعداؤه جنونا مطبقا . إن الجنون المعلق كان فى أسلوب الحكم . فأى حكم ديكتاتورى لا بد وأن يتسم بالشطط والسرفه والتعصب الذى يجنى على الفكره أو يحملها ما ليس فيباحق يصل بها إلى الجنون . . . وما تتميز به ديكتاتورية هتلر عن بقية الديكتاتوريات هى المزيد من الدقة والضبط والالتزام والتفانى . وهى كلها صفات يتميز بها الشعب الألمانى .

وعندما وضع برنامج الحزب أول مره سنة ٢٠ تضمنت نقاطه بعض النقاط ذات الطبيعة الاشتراكية وكانت تلك النقاط ثمرة تلاقى الفكر الاشتراكي للذين أسسوا الحزب قبل ظهور هتلر مع تجربة هتلر المرة في المجتمع الرأسمالي ، ولمسه المباشر لسؤات الاقتصاد الطليق وما يؤدي إليه من بطلاله وفاقه وأزمه الخ . . . وخدع الجناح الاشتراكي في الحزب بذلك بدون أن ينتبه إلى أن هتلر كان يرى في هذه النقاط مجرد شعارات وليست مبادئ . . . وأنها لما كانت أصلا إنطبعا على شخصيا ، فقد أخذت تبهت وتشعب مع انفراد هتلر بزعمارة الحزب، وابتعاده في الوقت نفسه عن واقع المعاناه والبطلاله المؤلم ولذلك فمنذما تمسك بها الجناح الاشتراكي تمسكا نظريا تصدى لهم وانسحب أوتوسر اسر زعيم هذا الجناح ونشر الانسحاب تحت عنوان الاشتراكيون ينسحبون من النازي « فخدع ذلك الرأسماليين الذين أغدقوا المساعدات على الحزب دون أن ينتبهوا إلى أن هتلر وإن تنكر للاتجاه الاشتراكي فليس لديه أقل استعدادا للتشكر لمبادئه الخاصة وعندما ولي الحكم أتضح أنه ليس الألعبه في يدهم كما تصوروا وأن عليهم أن يرضوا بما يقدمه لهم دون أن يفكروا في الاقتصاد الرأسمالي الطليق . . . وإن كان من المؤكد أن النظام النازي ، لعدد كبير من العوامل ، كان يهلى يد أصحاب الأعمال على العمال وفي التحليل الأخير فقد لا تختلف النارية الاختلاف المظنون عما هو واقع بالفعل في الدول الاشتراكية .

* * *

والحقيقة أن هتلر تأثر تأثرا عميقا بمختلف الأفكار الماركسية والشيوعية والاشتراكية التي كانت تتوجج بها فينا وميونخ وقتئذ ، ولا ريب أنه قرأ الكثير من الكتابات الحزبية وأنه فكر طويلا في الأساليب والوسائل الشيوعية ويمكن القول دون مبالغة أن الشيوعية كانت المدرسة السياسية

لهتلر وأن لينين كان استاذه الأول ، وصحيح أن موسوليني يبدو أكثر قربا ومباشرة ولكن موسوليني بدوره تعلم في مدرسة الشيوعية وكانت التي أبرزته من عالم الخمول والنكر ، ودفعته إلى الإمام هي الشيوعية الدولية البارزة انجيليكا بالابانوف وليس عجيبا أن يتعلم هتلر على يدي الشيوعيين ثم يتنكر لهم فإن هذا هو ألف باء التكتيك الشيوعي الذي بدأه ماركس عندما تعلمه على يدي هيجيل واستعار أسلوبه . . ولكن ليقاب فكرته الرئيسي . .

ولس بعض الكتاب تأثر النازي بالأساليب الشيوعية فكتب السير جيوفري نويس « إن مظاهر وأساليب النازيه نقلت نقلا ذليلا من البلشفيك^(١) » وأنه سمع الكثير في الدوائر الداخلية يتحدثون عن الجسناو باعتبارها « الشيكا » وأن الجناح اليساري في النازي لم يكن يختلف عن الحزب الشيوعي إلا في اختلافات واهيه وأن التنقل بينهما كان ملحوظا كما جذب انتباهه ما جذب انتباه الكثيرين من الاتفاق في الارتفاع والانخفاض في عدد الأصوات التي ينالها الحزبان معا . . وتجاوب ذلك مع درجة الارتفاع أو الانخفاض التي تسجلها أسعار البورصة فكان الحزبان يتأثران بصفه عكسية بدرجة الأزدهار ، فبقدر ما يسود الأزدهار بقدر ما يهبط عدد الأصوات التي ينالها الحزبان . وقد أعاد أحد المؤرخين تسليم الشيوعيين ازاء هتلر إلى أن عددا كبيرا من أكثر العناصر عدوانيه في الشيوعيين قد انضم إلى فرق العاصفه ورحب بهم رومم بفكرة أنه من الأسهل ضبطهم داخل الصفوف عن ضبطهم خارجها وأنهم لا يستطيعون الأضرار بالفرق وأن بعضا من أفضل رجاله من الشيوعيين السابقين وقال رومم « دعهم يطلعون عليهم » بفنيك Beefsteakes « - أي أحمر من الداخل بني من الخارج ، كما أطلق عليهم

(1) The Next and Last Peace p. 37

في برلين - فأنى أفضلهم ثوريين radicals .

ويمكن القول أنه حتى لو لم يتأثر هتلر بالتكستيك الشيوعي وهو فرض جدلي لأنه لا يمكن أن يفوت مثل هذا التكستيك ذكاء هتلر وحاسته المرهبة فإنه كان ولا بد سيسلك السبيل نفسه الذي سلكه الحزب الشيوعي - لأن الفكرتين معا شموليتان ولا بد أن تكون الوسائل واحده أو متقاربة وإن اختلفت المصادر . . .

وقد يتقارب الوصفان جدا . . . وموصوفاهما متباعدان . . .

وكل ما يمكن أن يقال أن هتلر كان يستلم حاسته أكثر مما كان يستلم ثقافته وإن لينين كان يستلم ثقافته أكثر مما كان يستلم حاسته ومن هنا فإن الوسائل التي ابتدعها لينين كانت في بعض الحالات مغلفة بطبقة من التهذيب أو التظاهر تجردت منها الوسائل التي وضعها هتلر فعندما جوبه لينين بمشكلة الإدارة والحسم ابتدع فكرة المركزية الديمقراطية ومع أنها كما ذكرنا في بعض كتاباتنا تسعة أعشار مركزية وعشر ديمقراطية فإنها على كل حال لم تتجرد تماما من قدر من التشاور لم يكن القاعد المثقف الذي درس التاريخ الاجتماعي والسياسي وألم في أكثر من مثل تاريخي بحيرة الانفراد بالرأى ليتمكن أن يتجاهله . ومثل هذا القدر أو الألام لم يكن متوفرا لهتلر الذي كان يستلم حواسه وليس ثقافته ولم يكن يعنيه في شيء تجربة التاريخ ومن هنا كان المبدأ الذي يتلاءم مع هتلر هو مبدأ القيادة وما افترضه من تسليم وطاعة عمياء ولم يكن في ذلك شيء جديد أو ما يمكن أن يعد إضافة أو إبداع أو تقدم وبالشأن فمع أن الشيوعيين كانوا سابقين في عمليات الاعتقال ، فإنهم اقتصروا على استغلال المعتقلين في العمل الجبري بينما سمح النازيون لأنفسهم باستخدام وسائل تهذيب سادية لغلبة العاطفة عليهم .

وفي صراع هتلر نحو السلطة دخل في عدد من المناورات وخاض العديد من المؤامرات مع معظم قيادات حزبه ، أو مع الذين كانوا في السلطة من هندنبرج إلى بروننج وشليشر وبان وهو جنبرج، كما كان عليه أن يحدد موقفه من رجال الصناعة والعسكريين وفرقة الخوذة الفولاذيه وأن يكبح جماح فرق الحزب . . . ومع أن كل هؤلاء كانوا في فترة ما أقوى منه واعتقد كل فريق منهم أنه أذكى وأنه سيربح الصفقة ، إلا أن هتلر أثبت أنه أذكى منهم جميعا في النهاية . . . وكفلت له حاسته المرهقة الانتصار عليهم .

الفصل الحادي والعشرون

خمسة دقائق قبل الثانية عشر

أخيرا حقق هتلر حلم حياته . . وأصبح ، وهو الشاويش المساوي الذي لم يكتسب الجنسية الألمانية إلا عندما منحته إياها ولاية برونزويك ليرشح نفسه للرئاسة سنة ٣٢ مستشار الريخ .

ولسكن هتلر كان يعلم أن انتصاره ذلك ليس خالصا لوجهه ، وأن شركاهه في الوزارة يترصبون به ، وأنهم يتصورون أنه سيقوم عنهم « بالعمل القدر » الذي يفقده الشعبية ويضعه أمام المواقف المستعصية والمعقدة . . ومن هنا فإن عليه أن يعمل فورا وبكل قوة .

فبعد احتفالات النصر التي سار فيها ٢٥ ألفا من شباب فرق العاصفة ما بين فندق « كيزرهوف » المقابل لدار المستشارية والذي كان يقيم فيه هتلر ، ودار الرئاسة حيث الماريشال المعجوز . . بدأ العمل .

كان هتلر يختلف عن بقية زعماء الأحزاب في أنه لا يعتمد على الطرق البرلمانية وحدها كقيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ولا يضطر إلى الوسائل التأممية كهنون باين . . لأن له جيشا خاصا كان يستطيع به أن يكتسح الشوارع وكان أعداء هتلر متفرقين يعادون بعضهم بعضا . فالشيوعيون، والحزب الاشتراكي والنقابات هم في الوقت نفسه أعداء العسكريين والملاك والوطنيين ، فإذا ضرب هتلر الأولين ، فلن يتحرك الآخرون بأمل أن يخلصهم منهم ، فإذا فعل جاء الدور

عليه ، بينما كان هو يفكر بنفس الطريقة تقريبا ، أن يتركوه يقضى على الشيوعيين والاشتراكيين والنقابات ليندار عليهم بعد ذلك .

كانت عملية سباق وخداع ينتصر فيها الأسرع عملا والأكثر دهاء .

وكان ينتظر أن تتحرك القوى التي سيوجه إليها هتلر ضربته الأولى وكانت هذه القوى هي الحزب الشيوعي ، والحزب الاشتراكي الديمقراطي والنقابات .

ولم يكن خافيا أبدا أن هتلر يعتزم أن يوجه ضربته الأولى للشيوعيين الذين اعتبرهم وباء يهوديا تفتى بين الألمان ويجب استتصاهم بلا رحمة . وقد كانوا هم الهدف الأول لهجمات فرق العاصفة ، وفي يوم ٢٤ يناير ، أى قبل أسبوع من تشكيل الوزارة حاصرت قوات العاصفة الأحياء الشيوعية ومركز رأسه الحزب « دار كارل ليبكشت » دون أن يستطيع الشيوعيون شيئا .

ولكن الشيوعيين كانوا ، حتى هذه اللحظة ، أسرى الفكرة المنحوسة عن أن دورهم في الحكم إنما سيكون بعد النازي ، ومن هنا فبقدر ما يتحقق هنا بسرعة بقدر ما يحين دورهم التاريخي بسرعة ، وفي ٢٣ فبراير سنة ٣٢ اتصل ماكس براور Mox Brauer وهو أحد أقطاب الحزب الاشتراكي الديمقراطي وعمدة التونا بأرنست تورجلر زعيم الهيئة البرلمانية الشيوعية وأشار إلى أنها « خمسة دقائق قبل الثانية عشر » وأنه قد آن الأوان للشيوعيين أن يكفوا عن حرب الاشتراكيين الديمقراطيين ويكونوا معهم جهة متحدة أو متحالفة فقال تورجلر إن هذا لا يخطر ببالنا فيجب أن يلي النازي الحكم ، وعندئذ فخلال أربعة أسابيع ستتحد الطبقة العاملة بأسرها تحت لواء الحزب الشيوعي وظن براور أن تورجلر يعانى من بعض آثار التوتر ، ولكنه بعد عدة أيام قابل السفير السوفيتي شينشوك Chinchook في هامبورج فسأله السؤال نفسه ليتلقى الرد نفسه ، ولم يكن هناك شيء يززع إيمان الشيوعيين بتلك

الفكرة التي قامت على فهمهم لمبدأ « الحتمية التاريخية » والتي تماثل صورة مشبوهة للقضاء والقدر ، وفاتهم أنه حتى لو كان المبدأ نفسه صحيحا فلا يجوز الاعتماد عليه وترك الأسباب ، وأن حسابات الحتمية التاريخية المزعومة قد لا تكون بالصورة التي تصوروها ، فقد تكون أبعد مدى ، كما يمكن أن تتدخل عناصر عارضة لا تؤثر هذه الحتمية فحسب ، ولكن تميمها أيضا ، وأن الحمقى وحدهم هم الذين يبيعون حاضرا مؤكدا لحساب مستقبل مظلون .

وليس أدل على تأصل تلك الفكرة في أذهان الشيوعيين من أنهم لم يتخلوا عنها حتى بعد أن شردهم الارهاب ، وظهرت أولى خصائص النازية المميزة لها فشرت مجلة Rundschau الناطقة بلسانهم في براج في العدد ٢٣٥ الصادر في ٧ يوليو سنة ١٩٣٣ « إن الابدان التام للفاشست الاشتراكيين^(١) من جهاز الدولة والسكبت الوحشى له ولصحافته ، لا يغير من حقيقة أنهم يمثلون الآن ، كما مثلوا من قبل ، القلمة الكبرى لديكتاتورية رأس المال » وحتى نوفمبر سنة ١٩٣٣ تحدثت المجلة عن الانتخابات التي أسفرت عن أغلبية ٩٢.٢٪ نازية فقالت « إن الانتخابات التي أسفرت تمثل انتصارا كبيرا للحزب تالمان . أن الجيش الجرار للملايين الشجعان المعارضين للفاشيه يؤكد صحة ماأيده اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى أكتوبر من أن دفعة ثورية جديدة قد بدأت فى ألمانيا » .

وقد يفسر « الانتصار الكبير » فقرة جاءت فى صحيفة أخرى علمت على انتخابات السار تحت مائشت كبير هو « هزيمة هتلر فى السار » وأوضح المقال أن هتلر يعنى - من الزارية الجدليه - مهزوما لأنه لم يحصل على نسبة ٩.٨٪ التي ادعى أنه سيحصل عليها ولم ينل سوى ٩.٠٪ وأمام هذا السخف الجدلى

(١) أى الاشتراكيين الديمقراطيين .

لا يجدى أى كلام ولا ينفع إلا منطق العمل . وكان منطق العمل أن محورى هذه المجلة ، رغم بجاحتهم النظرية أسرعوا فلاذوا بالفرار إلى فرنسا .

وكان قرار هكرت Heckert resolution سنة ١٩٣٣ م يدعى أن هتلر لم يهزم الطبقة العاملة ، وإنما قامت هذه « بانسحاب استراتيجى » وأن انتصار هتلر شيء حسن لأنه « شفى » الجماهير من تأثير الاشتراكيين ، وبذلك استحث خطا المانيا نحو الثورة البروتارية .

وأهم من هذه الاجتهادات الفردية ، الفتوى التى قضت بها اللجنة المركزية للكونغرس عندما اجتمعت فى ديسمبر سنة ١٩٣٣ إذ جاء فيها تحت عنوان « اقتراضات ديسمبر » .

« ليس العدو فى الدول الفاشية هو الفاشية ، ولكن الديمقراطية الاشتراكية إن الأزمة الثورية وتدمير جماهير غفيرة لسيطرة رأس المال يزداد ونتيجة لذلك اضطرت الرأسمالية لأن تلوذ بالديكتاتورية والإرهاب والشوفونزم المطلقة ، وقد رأى الرأسماليون فى الفاشية التى نمت فى رحم الديمقراطية البورجوازية وسيلة لإفقاد رأسماليتهم من الانهيار . ولاتزال الديمقراطية الاشتراكية تواصل أداء دور الأويد الأكبر للبورجوازية حتى فى الدول الخاضعة للديكتاتورية الغشيمة وذلك بمقاومتها الوحيدة الثورية ما بين البلوريتاريا والاتحاد السوفيتى »

ولم يزعزع الفشل الظاهر والقاطع لهذه التحليلات والسياسات من ثقة الشيوعيين فى مبادئهم . لأن موسكو على حد تعبير كريفيتسكى أحكت وضع المبررات النظرية والإيضاحات لفشل محاولاتها فى بولندا ، والمجر والمانيا وأستونيا وبلغاريا ، وهى تملأ مجلدات دون أن يتطرق إليها احتمال خطأ قيادتها ، فقد أبقّت على خرافة عصمة قيادة الكومنتر باصرار كمنسى .

وبصرف النظر عن المبررات النظرية التى وضعها الحزب الشيوعى والاتحاد

السوفييتي لسلوك هذا المسلك المشبوه الخطر ، فلا يملك الإنسان إلا أن يسأل نفسه أليس هناك دوافع « نفعية » ذاتية كانت أكثر تأثيرا من المبررات النظرية التي ادعاها الحزب الشيوعي والاتحاد السوفيتي . وبمعنى آخر أليس من المحتمل أن تكون غيرة الحزب الشيوعي من الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، كائنا ما تلبسته هذه الغيرة من صور من ذهبية هي السبب في معاداة الحزب الشيوعي للحزب الاشتراكي الديمقراطي ، خاصة وأن هذا الموقف هو الموقف التقليدي الذي وقفه قبل أن يظهر هتلر وقبل أن يتخذ دعوى « الحتمية التاريخية » سببا لمعاداة الحزب الاشتراكي . . ؟ أليس معقولا أن مجرد وجود حزب اشتراكي يرفع لواء الاشتراكية ويمد التسلسل المنتظم والمباشر من ماركس وإنجلز إلى كاوتسكي ويضم العمال باسم الاشتراكية كان يكفي لكي يضرم نار العداوة في الحزب الشيوعي ؟ وبالمثل فمن الواضح أن الاتحاد السوفيتي والكومنترن يهمن بالدرجة الأولى المصلحة السياسية للاتحاد السوفيتي ، وأن يكون الحزب الألماني خاضعا له ومنصاعا لأوامره . . ولم يكن هذا أو ذاك ليتوفران في الحزب الاشتراكي الديمقراطي وفي سياستنا . . ولأن من الواضح أن سياسة النازي كانت تتفق مع مصلحة الاتحاد السوفيتي من ناحية أن النازي كان سيبدأ بنقض معاهدة فرساي وجهد الديون ، وبذلك سيشتبك في عداوة مع الغرب ، الأمر الذي يتفق مع سياسة الاتحاد السوفيتي ، ومن ناحية أخرى فيقدر ما كان يمكن أن يسهل الاتحاد السوفيتي ، والكومنترن أن يكون الحزب الشيوعي الألماني قويا بقدر ما قد يريد أن لا يكون من القوة بحيث يستغنى عنهما أو يتمرد عليهما ، وقد رأى عدد كبير من الشيوعيين السابقين أن الكرملين كان يريد بالفعل أن يعانى الحزب الشيوعي الهزيمة ، وأنه حاول هذا عمدا بأمل مواصلة وتكليف سياسة رابالو مع هتلر . كما أن من الثابت أن الهلع تملك الاتحاد السوفيتي عندما بدأت مفاوضات ستريسمان مع بريان والتقارب الألماني الفرنسي . . ومن

الواضح أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان يؤيد هذه السياسة ، بل واشترك فيها ، بينما كان « الوطنيون » الألمان يحاربون هذا الاتجاه .

مثل هذه الدوافع التي تبرز فيها المصلحة بالمبدأ ، والذاتية بالموضوعية لا بد وأنها كانت وراء سياسة الحزب الشيوعي ، ولا بد أنها كانت من القوة بحيث تجعل المجلة المسائية للحزب الشيوعي Welt am Abend تدعو جوبلز واتوستراسر للكتابة فيها، بينما تتصور الجماهير الخدوعة « إن الاتحاد السوفيتي لن يتركنا ، إن ألمانيا ليست إيطاليا أو بلغاريا »

. . .

فإذا كان النحس النظري أو المصلحة الذاتية قد ساقط الشيوعيين على علم إلى هنا المسلك الذي لم يكن أصدقاء النازي وأعدى أعداء الحزب الاشتراكي ليقف موقفنا أكثر تشددا منه ، فما هو عند الحزب الاشتراكي الديمقراطي نفسه الذي لم يكن لديه أي مبرر نظري أو نفسي لمسألة النازي .

الأمر الذي لا ريب فيه أن الحزب لم يستطع أن يدخل معركة بعد سنوات السلام والدعة والعمل البرلماني . فحاول أن يرجئها وارد أن يترك النازي ماتركوه ، وأمل بطريقة ما أن ينجح في ذلك ، وفي آخر اجتماع في الهواء الطلق سمح للحزب استشهده أوتو فيلز بالحكمة المريحة «الحكام الأشداء لا يستمرون طويلا» .

ولكن النازي لم يكن ليترك الاشتراكيين الديمقراطيين حتى لو تركه الاشتراكيون الديمقراطيون ، وآمن بذلك عدمن القيادات الصغرى التي كانت لا تزال تحتفظ بقدر من الكفاحية ، وروت توني ساندر ، عضو الحزب ، وعضو الرشتاج والتي كان بها الأمر بوجه خاص . لأنها فضلا عن هذه الصفات كلها كانت يهودية — أنها قابلت أوتو فيلز واستحثته على العمل وأن

الطبقة العاملة تنتظر أوامرهم وأن الحزب حتى لو دخل المعركة وهزم — فإن هذا أفضل من الاستسلام المهين فقال فيلز «إننا سنسكافح، ويحتمل قبل ٥ مارس». والحقيقة أن الحزب في الشهور القليلة التي سبقت تسلم هنر للحكم توصل إلى ضرورة إعادة النظر في موقفه وروى. وُلّف «الحزب الاشتراكي الديمقراطي» أنه عتد سلسلة من الاجتماعات الاستثنائية بمدل ثلاثة اجتماعات كل أسبوع واتخذ عددا من القرارات منها استحضاث الفروع للعمل على حماية الجمهورية والنظام الديمقراطي والاتصال باتحاد النقابات لتوحيد صفوفه وتنظيم حملة صحفية ضد الحزب النازي وفضح سياسته وأساليبه.

ويستطرد، وُلّف «الحزب الاشتراكي الديمقراطي» وبتاريخ ٢٩-٣٠/١/١٩٣٣ عقد الحزب الاشتراكي اجتماعا موسعا برئاسة أوتوفيلز (رئيس الحزب) اشتركت فيه القيادة والكتلة البرلمانية (نواب الحزب) ولجان الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأعضاء مكتب الجبهة الحديدية في الحزب. وذلك لدراسة موضوع استمدااد الحزب للانتخابات البرلمانية القادمة التي ستقام في شهر مارس ١٩٣٣، وموضوع موقف الحزب في حالة فوز الحزب النازي بالأغلبية المطلقة (أكثر من مجموع نصف الأعضاء).

وبعد مناقشات طويلة استغرقت أكثر من ١٥ ساعة متواصله وافق المجتمعون على اقترح أوتوفيلز الذي ينص على مايلي : (في حالة فوز الحزب النازي بأغلبية عادية في الانتخابات البرلمانية وتمسك الحزب الاشتراكي في نفس الوقت من زيادة عدد مقاعده في البرلمان بنسبة ١٥٪ على الأقل عندئذ سيعلم الحزب والمنظمات التابعة له بالتعاون مع نقابات العمال الاضراب العام في البلاد وإجبار رئيس الجمهورية على عدم اختيار أدولف هنر لمنصب للمستشار، وتقرر أن يعلمن هذا الاضراب تحت شعار الجبهة الحديدية لاعطاء

هذا الاضراب الصفة الشعبية ، ومن ثم للبادرة إلى تغيير القواعد العامة وإعادة النظام الديمقراطي إلى وضعه الطبيعي) وبالفعل تم ابلاغ هذا القرار السرى إلى منظمات وفروع الحزب في كافة أنحاء ألمانيا لكي تتخذ الاستعدادات لتنفيذ أوامر قيادة الحزب بهذا الخصوص .

وقبل الإتهام من هذا الإجتماع وصل إلى قيادة الحزب خبر مفاده أن المارشال هندنبورج رئيس الجمهورية ينوى غداً (١/٣١/١٩٣٣) تعيين هنر بمنصب المستشار بسبب الضغط الهائل الذى مارسه القوى اليمينية وبعض الشخصيات السياسية المستقلة ورجال الجيش عليه ورغبته أى رغبة هندنبورج بإشراك الحزب النازى فى الحكم لكي تتمكن الحكومة من معالجة الوضع الإقتصادى وضمان الإستقرار والأمن الداخلى .

وبالفعل استلم هنر بتاريخ ١/٣١/١٩٣٣ مهام المستشار ، وعلق أوتوفيلز على هذا الخبر بقوله ان هذا يدل بوضوح على مدى صحة القرار الذى إتخذناه وضرورة تنفيذه) وبعد إنتهاء المؤتمر رسمياً عهد أوتوفيلز إلى هانس فوجل H. Vogel عضو قيادة الحزب مهمة القيام بجولة على المنظمات الحزبية والنقابات العمالية فى كافة أنحاء ألمانيا وبمبحث موضوع الإضراب إنعما بالتفصيل ومن ثم نقل آراء ومقترحات هذه المنظمات والنقابات بأسرع وقت ممكن إلى القيادة لدراستها قبل حلول موعد الإنتخابات . وبعد عودة فوجل من جولته قدم تقريراً مفصلاً إلى قيادة الحزب تضمن أن كل شئ على مايرام وأن المنظمات الحزبية والنقابات العمالية على إستعداد لتنفيذ قرار قيادة الحزب .

ووصف فوجل هذا الإستعداد بالقول : (كل ما نحتاجه هو الضغط على الزر الرئيسى لتنفيذ الإضراب العام) ، ولكن فياز كان متحفظاً تجاه هذا الوصف لأن حزب النازى بدأ هو الآخر ضمن إطار الدعاية الإنتخابية إتخاذ
٢٥ - ظهور وسترط

الاستمدادات اللازمة لمواجهة الطوارئ وبالذات في حالة خسارته في الانتخابات وفوز الحزب الإشتراكي الديمقراطي وقد أخذت هذه الإستمدادات الطابع العسكري وتوزيع السلاح على أعضاء الحزب وغير ذلك .

النقطة الهامة التي كان على الحزب الإشتراكي الديمقراطي أن يزنها تماما قبل التفكير في أي عمل هو . موقف النقابات ومدى تجاوبها الصادق وإستعدادها لدخول معركة ..

وكانت النقابات — وإن لم تتبين وقتئذ ذلك — في وضع الحزب نفسه بقسرياً ، بمعنى أن إستقلالها وكيانها ، والحقوق العمالية التي تحميها والمكاسب التي حازتها .. كلها كانت في مهب الريح ، وعرضه للضياع إذا سمح للنازي بالإنتلاق والحكم بما يريد ومن هنا ، فقد كان هناك مصلحة مباشرة للنقابات ، وعندما كانت تضع يدها في يد الحزب فإن ذلك لم يكن إنقاذا لشعارات سياسية .. ولكن دفاً عن حقوق ومصالح عمالية ومادية بل وعن صميم كيانها نفسه .

ولكن النقابات الألمانية لم تكن تخضع لقيادة واحدة ، أو حتى موحدة ، لقد كانت هناك النقابات الإشتراكية الحرة التي ناصرته الحزب الإشتراكي الديمقراطي من البداية ، وكان هذا القسم هو وحده الذي كان يمكن أن يفكر في الإضراب .. أما القسم الثاني فهو النقابات الكاثوليكية التي كانت تكتسب أهميتها الخاصة من أن معظم أعضائها هم من عمال المناطق الثلاث للغنية بالفحم والحديد ، ألا وهي السار ، والرور ، وسيليزيا العليا . وكان التوجيه السياسي لهذه النقابات في يد حزب الوسط الكاثوليكي الذي رأى — حينما — أن الحزب النازي عدو لدود للشيوعية ، وبالتالي يمكن أن يكون حليفاً للكنيسة . ومن هنا فلم يكن ينتظر أن تدخل هذه النقابات في معركة ضارية مع النازي ..

وبقدر ما أوهنت هذه النجزة قوة ووحدة الحركة النقابية ، فقد كانت هناك عوامل أخرى مشبطة عن العمل ، فلم تكن الحالة الاقتصادية سنة ٣٣ و ٣٤ كما كانت عليه سنة ٢٠ عندما قامت النقابات بإضرابها العام الناجح ضد مؤامرة كاب ، فقد كانت زيادة عدد الماطلين تضعف من فعالية أي إضراب ، بل وتهدد بتحويله إل حرب أهلية ..

وفي الوقت نفسه فإن هنر وحركته كان لها تأثيرها الخاص على العمال فلا كمال — ولكن كألمان ومواطنين . وكان هذا الأثر يجعلهم ، وإن لم ينحازون صراحة إلى النازي — فإن مقاومتهم له لن تكون على أفضلها .

باختصار ، وجدت النقابات — حتى لو أرادته — أن القيام بالإضراب عمل صعب وأن نتيجته مشكوك فيها .. وأن السكاسب الوحيد في هذه المعركة ، إن لم يكن النازي فهو الحزب الشيوعي .

لقد أضعفت النقابات فرصا عديدة . كانت يمكنها من العمل ، ولكنها لم تعمل .. وعندما أرادت العمل .. لم تكن هناك فرصة .. وأصبح عليها أن تدفع الثمن .

الفصل الثاني والعشرون

النهاية

في ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣ اندلعت فجأة ألسنة اللهب في مبنى الرشتاج حتى كادت أن تأتي عليه .

وكل مؤرخ يلم بوقائع التاريخ يعلم أن حرائق المنشآت القومية الكبرى كانت من الذرائع السياسية المشهورة للقيام بإجراءات معينة أو اتخاذ مواقف كان يعسر اتخاذها بغير الوهج للشتم ، ولو سجلت كل وقائع التاريخ لكان من المحتمل للمؤرخ أن يجد قبل حريق روما سنة ٥٠ قبل الميلاد . وبعد حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ بعد الميلاد من الحرائق المأثورة ما اتخذ سبباً لتحقيق مآرب خاصة . . .

وفي معظم هذه الحرائق عسر الوصول إلى الدليل اليقيني الذي يثبت الجرم على الفاعل ، ، ويكشف عن السبب الحقيقي وراء النملة الظاهرة ولكن للمؤرخين عرضوا الأقوال الدائمة والشائعات المنتشرة التي وإن أعوزها دليل الوقائع المحكمة أو الثبوت المؤكد ، فإنه لا ينقصها دليل الوجاهة ، ويصدق هذا على حريق روما قبل الميلاد ، كما يصدق على حريق القاهرة لعقود خلت ، وهو أيضاً ما يصدق على حريق الريشتاج ، ففي هذه الحالات كلها ، وسواء كان الحريق قد تم - من البداية حتى النهاية - عمداً وقصداً ، وبتدبير محكم ولغايات معينة ، أو أنه حدث عرضاً ثم أضحى استغلاله .. فإن

التقيجة واحدة ، استغلال الحريق لفرض ميامي غطى على الحادث نفسه
وأنسى أميابه .

وبالنسبة لحريق مبنى الرشتاج ، فمن المعروف أن النازي كان في ٢٤ فبراير
قد أجرى تفتيشاً لمقر الحزب الشيوعي « دار ليبكنشت » ، وأعلن جورج
العشور على أوراق تكشف عن « واصمة لذسف وإحراق المباني الرسمية ،
وأن ذلك سيكون إعلاناً بالثورة التي سيقوم بها الحزب ، ولكن جورج
لم يقدم هذه الأوراق .

ولم يقبض البوليس في مكان الجريمة إلا على شخص واحد هو ماريوس
غمان درلوب وهو عامل بناء في الرابعة والعشرين من عمره ، معتوه ، وعاطل ،
هولندي الجنسية ، وقيل إنه ينتمي إلى الحزب الشيوعي الهولندي ، وإنه قد
ضبطت معه كتيبات شيوعية ، ولكن رواية أخرى تنفي هذا على أساس أنه
قبض عليه عند الباب لم يكن يرتدي سوى « البنطلون ويبدو أنه عندما استخدم
أسماءه في الحريق . وادعى جورج أمام مجلس الوزراء أن النائب الشيوعي
تورجلر كان قد تحدث مع فان درلوب لمدة ساعات بمبنى الرشتاج قبل ذلك
وأعلن أن لديه أدلة لا تقبل النقص ، وفي صباح اليوم التالي ذهب تورجلر
بنفسه إلى البوليس وأعلن أنه لا يعرف فان درلوب ولم يقابله أبداً وأن
اتهامه أو اتهام الحزب الشيوعي لا نصيب له من الصحة ، فقبض عليه فوراً ،
كما قبض أيضاً على شيوعي بارز هو جورجى ديمتريوف ، وهو بلغاري
الجنسية ، وبلغاريين آخرين أيضاً أقل شأنًا هما بوبوف وثانوف .

وكان ديمتريوف من أخطر عملاء الشيوعية الدولية ، وله سجل حافل في
العمل السرى فقد كان هو الذى دبر سنة ١٩٢٥ نسف كاتدرائية صوفيا في
اليوم الذى كان مقرراً أن يشهد القديس فيها كل زعماء الحكومة . وقد نسفت

الكاتدرائية نفساً مروعا أدى إلى مقتل ١٥٠ شخصاً، لم يكن بينهم الأشخاص المطلوبون ، وكان ديمتريوف يعمل في ألمانيا بصفته ممثل « الكومنترن » وكان قد تلقى الأوامر من موسكو بالعودة إليها . ومع أن القبض عليه قد حال دون تحقيق هذه الرغبة في وقتها، فقد حققها بعد ذلك على ما سنرى ، وأصبح فيما بعد سكرتيراً للدولة الحمراء (الكومنترن) ومن الأبطال العالميين للشيوعية ..

ودافع ديمتريوف عن نفسه دفاعاً مجيداً يتسم بالجرأة ، وهدوء الأعصاب ، وأحرج جورج جورنيج الذي لم يجد للرد على أسئلته إلا الشتائم وفي النهاية برأته المحكمة ، كما برأت جميع المتهمين ، باستثناء فان درلوب الذي وجد متلبساً بالجريمة ، فقد حكم عليه بالموت .. وأعدم ..

ومع أن من حق ديمتريوف أن نعترف له بالصلافة والشجاعة في المحاكمة ، فيجب أيضاً أن نضع في حسابنا ليكون تقدير هذه الشجاعة دقيقاً الوقائع التالية :

الأولى : أن بعض الروايات تؤكد أن ديمتريوف كان من أول المحاكمة طالما بوجود اتفاق سري بين الجستابو وبين الاتحاد السوفيتي يقضى بأن ينقل ديمتريوف سالماً إلى الاتحاد السوفيتي كأننا ما كانت المحاكمة ، الأمر الذي حدث بالفعل - سواء صححت هذه الرواية أو لم تصح - إذ أركب ديمتريوف طائرة نقلته إلى الاتحاد السوفيتي (١) .

(١) أورد هذه الرواية مؤرخان للكونترن هاروث فيشر ، وفرانز بوركناف في كتابين صدر الأولى سنة ٤٨ وثاني سنة ٥٣ ، وأورد هذه الآراء ارتركوسنلر في كتابه الكتابة غير المرئية *The Invisible Writing* by Artnar Kostler وهو الجزء الثاني من ترجمته القديسة ص ٧٥٣ .

الثالثة : أن الدور الذي قام به كسكرتير عام للكومنترن في النزاع ما بين ستالين وتيتو يوضح - على حد تعبير الكاتب ارثر كوسنلر - « أن الشيوعي يميل لأن يتصرف كأسد تجاه أعدائه .. وكفأر تجاه رؤسائه في التنظيم الحزبي » .

الثالثة : إن من الخطأ أن نعتقد أن ديمتريوف كان يتصدى للنازي - كما عرف بعد - نازي الجستابو والتعذيب والحكم المطلق .. الخ .. إن هذا النازي لم يكن وقتئذ قد وجد ، بل إن ديمتريوف لم يحاكم أصلاً أمام محكمة نازية ، لقد حوكم أمام محكمة من محاكم جمهورية فيمار . ومن هنا سمحت له بحريات الدفاع التقليدية ، وضماناته أيضاً ، وأصدرت حكمها بمقتضى قانون العدالة الديمقراطية . ولو حوكم أمام محكمة نازية لاختلف الأمر سواء في موقفه ، أو في موقف المحكمة ، ولم يكن لتفديده وقتئذ شجاعته ، إذا سمح له بإظهارها ، وفي الواقع فإن هذا هو ما حدث بالفعل فيما بعد . إذ أدخل النازي طريقة تشبه محاكم الشعب ، يكون أغلبية القضاة فيها غير فنيين حتى لا تقف في سبيلهم الاعتبارات الفقهية أو الفنية أو الدفوع أو الاستشكالات ، وأخذت تصدر الأحكام على الشيوعيين والاشتراكيين .

وذكر دو جلاس ريد الذي تابع هذه القصة من اندلاع النيران حتى صدور الحكم أن الحارس الليلي للرشستاج « البرت ونديت » شهد أنه رأى أحد النواب يخرج من الرشستاج والحريق مشتعل ويجرى دون قبة أو ياقة كما هو هارب . واتضح أنه الدكتور البرشت أحد نواب النازي . وعند استجواب المحكمة له ادعى أنه كان قد نسى أوراقا هامة ، فلما رأى الحريق اقتبحم طريقه لأخذها ثم عاد مسرعاً ، ولم تعلق المحكمة على هذا الزعم ، ولا على نفي ونديت لرؤيته البرشت داخلاً ، كما اتضح أن نفقا يستخدم

لتكليف يصل ما بين قاعة الاجتماعات ، وقصر جورج (رئيس المجلس)
وأن هناك احتمالاً قوياً لاستخدام هذا النفق في إدخال المواد المتفجرة التي
أدت إلى اشتعال الحريق ، خاصة وقد ثبت أن النفق استخدم قبل الحريق
بفترة قصيرة عدة مرات .

ورأت المحكمة أن فان درلوب قد يكون هو المتسبب في الحريق الصغير
الذي شب بمطعم الرشستاج ، أما الحريق الضخم بقاعة الاجتماعات فلا بد
أنه من عمل أيدي عديدة وكميات ضخمة من المواد الملتهبة وضمت تحت
مقاعد القاعة وربط ما بينها ، بخيوط من السيلولويد وأوقد فيها النار . .

فإذا كانت العدالة قد عجزت عن أن تهتدي إلى الفاعل مثل بسا بحكم الأدلة
المادية ، فإن حكم المنطق ، وخاصة الرد على التساؤل التقليدي في كل جريمة
« من المستفيد؟ » يوضح أن المستفيد الأول هو النازي ، وأن هذا الحريق كان
بمثابة « نجدة من السماء » كما ذكر هتلر نفسه لستيفون دلمر محرر الديلي
تايمس ، لأنه كان التعللة المباشرة التي مكنت النازي من القضاء على الشيوعيين
والإشتركيين وإشاعة حكم الارهاب وإجراء الانتخابات بوسائل تحقق له
الفوز ، وتبعد عنه منافسة الأعداء الألداء ..

وأمرع هتلر إلى المارشال الشيخ الذي روعه الأمر ، فاستصدر منه مرسوماً
« لحماية الشعب الألماني » كان يسمح باعتقال الأفراد ، وبصادرة الصحف
وإيقاف الحريات ..

وواصل جورج إجراءاته التي كان قد بدأها في اليوم التالي لتعيينه وزير
داخلية بروسيا ، فطهر الجهاز المدني وإدارة البوليس بحيث فصل كل الذين
شك في ولائهم للنازي ، وكون فوق مساعدة Auxiliary للبوليس من فرق

العاصفة وأصدر أوامره للبوليس بإطلاق النار دون نظر إلى العواقب ، أو كما صورها بمض السكتاب « بإطلاق النار تم التحقيق بعد ذلك ، وأعتقل النواب الشيوعيين وعددا من نواب الحزب الإشتراكي ، ولكنه لم يحل الحزب الشيوعي « فن الأفضل تركه ليفتت الأصوات العمالية في الإنتخابات » وبسطت فرق العاصفة جوا من الارهاب وأعلن جورنج في أحد الإجتماعات أنه لن يقف في طريقه أى حائل قانوني أو يتعلق بالعدالة ، وأنه لن يتردد في تسخير أجهزة الدولة وبوليسها و فرق العاصفة في صراع حتى الموت ..

ومن ناحية أخرى كان هتلر يستسح المدن والأقاليم الألمانية بخطاباته الملتهبة ، وكان جوبلز يكشف ويركز كل وسائل الدعاية والتأثير وكان وزير الداخلية « فريك » يحرك كل أجهزة الدولة .. حتى يأخذ النازي أغلبية ساحقة في الانتخابات التي أجريت في ٥ مارس .

ليس من العجيب أن ينال النازي أكثر من ١٧ مليون صوت بزيادة خمسة ملايين ونصف مليون صوت من مجموع الأصوات التي بلغت ٣٩ مليوناً . ولسكن العجيب أنه في هذا الجو الأرهابي والدعائي الذي ينشط العزائم ، ويخدر الحواس . ورغم كل وسائل القسر والضغط التي اتخذت ضد الحزب الشيوعي والحزب الإشتراكي الديمقراطي . فإن هذين الحزبين لم يخسرا إلا عدداً محدوداً من المقاعد ، فالحزب الشيوعي ، وإن كان قد خسر مليوناً من الأصوات ، فإنه نال خمسة ملايين وأصبح من حقه أن يمثل بواحد وعشرين نائبا ، كما نال الحزب الإشتراكي الديمقراطي ، أكثر من سبعة ملايين صوت ، وأصبح له مائة وعشرين نائبا (بخسارة مقعد واحد عن الانتخابات السابقة) .

هذه هي فضيلة ظاهراً التي يجب أن تذكرها لها عند ما يلونها الآخرون بالوعل ، إن أربعة عشر عاماً من الديمقراطية والحرية الكلاسيكية والتمسك

بالشرعية والقانون قد غرست في نفوس الألمان المستسلمين الإرادة والقوة بحيث تصدوا للطغيان النازي وإرهاب فرق العاصفة . . . وكان لابد أن تخضع ألمانيا سنوات طوال ، وليس شهورا ، لأرهاب نظام شمولى محكم ، قبل أن يذوب ما غرسته الجمهورية من مثل . . . ويتبدد ما أرسته من أسس . . . وتصبح الحكومة هي السالطة العليا الحاكمة والمهيمنة على كل شيء . . .

ولم تكن الأصوات التي نالها النازي تعطيه الأغلبية المطلوبة في الرشتاج ، وإن كان إتفاقه مع الوطنيين في الرشتاج يمكنه من الحصول عليها ولكن هتلر لم يكن بالذي يضع نفسه موضع برونتج ، وبابن . . . كان يريد أن يستريح من التحالف الحزبي ومن باب أولى وأن يعمل حراً ، وحيداً بسلطات مطلقة . . . وأراد أن يظفر من المجلس نفسه بقانون يخوله ذلك حتى لا يبعد مقتصباً وليحقق الديكتاتورية . . . بوسيلة ديمقراطية ، محتدياً في ذلك حذو الأسلوب الذي وضعه وعمقه الشيوعيون ، ومن هنا رسم خطة ليحصل من المجلس على قانون التمكين Enabling Bill ليطلق يده لمدة أربع سنوات . . .

وقبض النازي على النواب الشيوعيين ، وزج بهم إلى السجون بحجة الاشتراك في حريق الريشتاج ، واستراح بذلك من معارضتهم المحتملة ، ولكن بقي هناك احتمال معارضة الاشتراكيين الديمقراطيين والوسط السكاتوليكي . ومن هنا فقد وضع النازي ترتيبات انعقاد الرشتاج الذي تقرر أن يعقد يوم ٢٣ / ٣ / ٣٣ في أوبرا كروول بنياية .

وقبل الاجتماع بيوم عقد نواب الحزب الاشتراكي الديمقراطي اجتماعاً اتفقوا فيه على معارضة القانون المطلوب ومهاجمة النازي ، وكان يجب أن يلقى كلمة الحزب « برايتشايد » رئيس الهيئة البرلمانية للحزب ، ولكنه كان مريضاً ، فأصر أوتو فيلز رئيس الحزب على القيام بهذه المهمة الخطرة ، وهندسا

انعقد الاجتماع قام أوتونيلز فهاجم هتلر ورماه بأنه يريد تجسيد البرلمان كخطوة أولى نحو فرض الأرهااب، وحييا الذين رفضوا الاستسلام وتمرضوا للإرهاب والانتقام ويجب أن نذكر أن هذا الخطاب ألقى في بهرة الانتصار النازي ووسط مظاهر إرهاب لاحد لها وجماعات مدججة بالسلاح ، حتى لكان مكان الاجتماع قلعة تشن حربا ، وليس برلمانا يعقد اجتماعا ، وأن الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان الحزب الوحيد المعارض ، لأن نواب الحزب الشيوعي كانوا في السجون . وهو إنذار لكل من يجرؤ على المعارضه ، إذا وضعنا هذا كله في حسابنا ، أدركنا أن الشجاعة لم تعوز الحزب الاشتراكي الديمقراطي حتى في أيامه الأخيرة ، وأن ما كان ينقصه في الحقيقة هو « وضوح الرؤية » التي تمكنه من تحديد الموقف ، وأنه ما أن تتوفر له حتى يجد الشجاعة التي تمكنه من الوقوف ووقفنا سليما ، ومن هنا فإن موقفه في ٢٣ مارس سنة ٢٣ كان أعظم دلالة من موقفه يوم ٤ أغسطس سنة ١٤ .

ومع أن السياسة التي اصطنعها هتلر كانت تقضى عليه بأن يظهر بمظهر المتساع والذي يحاول التوفيق وبعرض التعاون ، إلا أن خطاب فيلز أناره ، فلم يكده يترك المنبر حتى اعتلاه هتلر وصب جام غضبه على الاشتراكيين ، وعندما أتم كلمته نهض « كاس » ممثل الكاثوليك وأعلن وافته حزبه ، وبذلك أكتسب القانون الأغلبية المطلوبة ، وأصبح من الممكن لهتلر أن يحكم — بتفويض من الرشتاج — حكما مطلقا لمدة أربع سنوات . .

ومن الناحية الرسمية يمكن أن يعد إصدار هذا القانون نهاية للجمهورية فإما إلى حد كبير لولا وجود بعض النظم والاجهزة المتبقية من النظام الجمهوري التي ما عتم النازي أن أخذ يعمل للقضاء عليها ، وكان في المقدمة ، بالطبع الحزب الاشتراكي الديمقراطي . . والنقابات . .

وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد أحسن بما يراديه . وبتاريخ ١٩٣٣/٤/٢٦ ، عقد الحزب الاشتراكي الديمقراطي مؤتمر استثنائيا سريريا إليه قادة المنظمات والفروع الحزبية ..
وتذكر بعض المراجع :

« ومن خلال المناقشات التي دارت في المؤتمر لاحظ فيلر أن هناك آراء جديدة أخذت تسود جو المؤتمر تنادي بضرورة إيجاد حل وسط مع النازيين لكي تخف الحملة المعادية ضد الحزب ، وبالتالي التمسك من المحافظة على كيان الحزب ومنظماته القديمة ، وهذا معناه التنازل عن بعض الأهداف والمبادئ الاشتراكية .. »

وعلق فيلر على هذا الرأي بقوله « من الواضح لدينا أن حزبنا الاشتراكي هو عبارة عن فكر وكيان ، وعلى ما يظهر إن بعض الرفاق يريدون إنقاذ كيان الحزب على حساب أفكاره وعقيدته ولكنني أقول لهؤلاء إنه إذا ماتت أو اندثرت أفكار الحزب أندثر معها كيانه التنظيمي أيضا .. »

وأضاف فيلر قائلاً إن الذين يمتقدون من رفاقنا وأنصارنا أن الفرق ما بين الحزب النازي والحزب الاشتراكي الديمقراطي ليس كبيراً فهم على خطأ تام . إن الفرق بين الحزبين هو كبعد السماء عن الأرض ..

أما بالنسبة للذين يمتقدون أنه كان بالإمكان إيقاف زحف النازية عن طريق العمل والنشاط الحزبي فقط فهم على خطأ أيضا ، إن الذي جاء بحزب النازي إلى الحكم في ألمانيا هو الأزمة الاقتصادية الدولية ، بالإضافة إلى عدم اتفاق الأحزاب الاشتراكية والديمقراطية فيما بينها ..

ثم توجه بمديته إلى ممثلي النقابات العمالية وقال إن هذا ينطبق على منظماتكم أيضاً (إذا ماتت الأفكار مات معه التنظيم) .

وكلام فيلز صحيح في جوهره ، ولكنه لا يبرىء الحزب الاشتراكي
الديمقراطي الذي ما أن انتهت مرحلته الكفاحية مع سقوط التوانين المضادة
للإشتراكية وأيام بسمارك، حتى أصبح همه الأول تغذية الكيان على حساب الفكر،
وحقيقة أن الأزمة العالمية هي التي جاءت بالنازي إلى الحكم تعني ضمناً أن النازي
كان أحسن استفادة منها وفهما لها من الحزب الاشتراكي الذي كان يجب
عليه بسرعة أن يكيف سياساته ومواقفه طبقاً للتطورات ، وبالنسبة اللازمة ،
والبطالة .. الخ .. كان يمكن أن يتبنى قضية « الأشغال العامة » كأضعف
الإيمان وأن يتهج السياسة التي تدافع عن الإنسان .. وليس عن العملة ..
ومع ان هتلر كان ديماجوجياً إلا ان مسلكه الاقتصادي كان أكثر قرباً إلى
الأماني الجماهيرية والشعبية منها إلى مسلك الاقتصاديين الأكاديميين الذين
يدخلون الميدان بعدد من المفاهيم التقليدية المقررة سلفاً . وكان اتوفيلز
بالبات - إذا صححت رواية ويتنسكي التي ذكرناها في مكان سابق - هو الذي
عارض مشروعات الأشغال العامة الخ .. لانتصاص البطالة .

وكان موقف النقابات اسوأ من موقف الحزب الاشتراكي فقد تملكها
الذعر ، كما لو لم تكن تملك سلاحاً ، أو لم تخض معاركه . وفي غيبة المبدأ القوي
والمقيدة الملهمة التي تدفع إلى العمل والنضال ، سادت رغبة الابتداء على الحياة .
وسلك اتحاد النقابات مسلكاً يحاول ان يثبت به بعدم عن العمل السياسي
وعكوفه على العمل المهني ، فرفض قبيل مارس ان يؤيد انتخاب الاشتراكيين
الديمقراطيين وترك لكل عضو انتخاب من يراه .. وفي ١٣ إبريل اعان
هانز اهرنتيت Hans Ehrenteit في المؤتمر الإقليمي للنقابات في هامبورج
« إننا على استعداد ، ومقدرة لتحقيق آمال ورغبات البلوريناري في النطاق
الاقتصادي - الاجتماعي بالاتفاق مع الحكام الراهنين ، ونحن لا نخلجنا

أقل شك أن أحداث مارس تمثل ثورة ذات عمق ، ونطاق كبير ، ثورة
ستكتسح النظام الاقتصاد الرأسمالي الليبرالي وتضع نهاية للديمقراطية البرلمانية
التي كانت في السنوات القليلة للماضية مضلة وقد اقامت النقابات جسورا ما بينها
وبين الدولة وحكامها. وعلينا الآن أن نعلن عن مسلكنا تجاه الدولة والشعب،
ولهذا للمسلك أساسه ، وأفضل الطرق فيما نرى هي أن نقيم جسورا للذين
يريدون — بدافع من الجهالة — أن يحطوا النقابات اليوم أكثر مما كانوا
يريدون بالأمس . ونأمل أن يكون لدينا المقدرة للمساعدة في ذلك . ويجب أن
تواصل النقابات مهمتها الاجتماعية والاقتصادية . وهذه المهمة نفسها هي ما تقوم
به الحكومة الحاضرة للريخ ، ومن هنا فإن التعاون ما بين النقابات والحكومة
ممكّن .

وفي ٢٠ مارس سنة ١٩٣٣ نشرت الصحيفة الرسمية للاتحاد بيانا جاء فيه :
« إن كل ما هم سكرتارية الاتحاد العام للنقابات هو تنفيذ مطالب العمال
وتحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية لهم ، وليس من يتسلم مسئولية في البلاد^(١) » .
وعلق المتحدث الرسمي باسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي بأن هذا البيان
لا يمثل رأى النقابات والعمال في ألمانيا ، وإنما رأى السكرتارية فقط ، ولكن
هذا لم يمنع السكرتارية من إرسال أحد أقطابها « لايبارت » في اليوم التالي
(٢٠ / ٣ / ١٩٣٣) إلى هنر لتسليمه نسخة من البيان^(٢) ..

ونشرت الصحيفة نفسها مقالا بقلم والتر باهل Pahl جاء فيه :

« إن من المؤكد أننا لا نتنكر لجاهيرنا عندما اعترف أن انتصار
الوطنية الاشتراكية وإن كسب في كفاح ضد حزب ألفنا أن نراه تجسيدا

(٢٤١) ص ١٢٠ كتاب الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني « المشهاني »

للاشتراكية (أى الحزب الاشتراكي الديمقراطي) فإنه يعد إنتصاراً لنا أيضاً لأن الرسالة الاشتراكية وضمت لكل الشعب .»

وبالطبع فإن هذا الموقف لم يكن فعلاً موقف النقابات الألمانية كلها . ولا ريب أن عدداً كبيراً من القيادات النقابية — على الأقل اليهود منهم — تاروا عليه وراوا أنه لا يمثل وجهة نظرهم . . . ولكن هذا لا يمنع أنه يمثل وجهة نظر الأغلبية التي أعتقدت أن ليس أمامها من خيار آخر . . .
ووصف ويتسكى نفسية القيادة النقابية هذه الأيام الفاصلة .

«وواصلنا عملنا الروتيني في الأدجيب في انتظار الضربة القادمة . ولم تعرض النقابات في مستهل عهد الريخ الثالث لاضطهاد خاص ، وكان الهجوم الذي وجه إلى أعضائها وموظفيها راجعاً أساساً إلى علاقتهم بنشاط الحزب الاشتراكي الديمقراطي وأصبح توتر الأعصاب الناشئ عن القلق والتوقعات الفامضة من الأمور التي لا تطاق ، وذهبت إلى ليبارت وسألته عن رأيه فيما ينبغي أن يفعله الحركة العمالية المنظمة فأجاب « ليتنى أعرف لعلك تعرف الجواب » .
وقلت مقترحاً ربما لإضراب عام ..

ولكنه كان يفكر في إمكانية القيام بإضراب محلي في حالة هجوم مباشر على النقابات المحلية ، وأثار هذه المسألة في أحد اجتماعات اللجنة ، فوافق الكل بوجه عام على أنه يجب أن تكون النقابات مستعدة لمواجهة التحدي ، ولكن كيف ومتى ، واين .. كان نفس الشعور يساور جميع رؤساء النقابات « لقد فاتنا الوقت » وفي إبريل احتلت القمصان السمراء مقار نقابات عدة ، لم يبد أن مثل هذه الخطوة تبرر القيام بإضراب عام . وربما يكون إضراباً محلياً ، ولكن من الذي يأمر به ويتولى قيادته .

لقد كان يوم مايو ، وهو يوم العمل التقليدي في أوروبا يقترب حين تلقت

اللجنة خطابا من وزارة الداخلية الجديدة : لقد قررت الحكومة ان تجتمع من اول مايو يوم وحدة الشعب الألماني . وسوف يرأس الفوهور نفسه الاجتماعات التي تقام بهذه المناسبة . وسوف تتاح للعامل فرصة اظهار وطنيتهم وولائهم للنظام الجديد . ودعى اتحادنا للإشتراك في العرض مع جميع الرجال والنساء الألمان الآخرين ، وسيسير اعضاء النقابات الحرة في طوابير مستقلة تحت اعلامها ، ولا شك ان اشتراكم في العرض القومي سوف يكون شاهدا على التنسيق بينها وبين النظام الجديد .

قرأ لبيارت الخطاب في اجتماع اللجنة . وقد كان رجلا مسنا محطما ، ولهذا ارتعش صوته حين قال « هذا موقفنا ليس أمامنا خيار » .

وجلس الجميع في صمت ، والتفت لبيارت نحوى وظل هل أمامنا سبيل للاختيار ؟ لقد نصحتنا منذ هامين ياويتنسكى فماذا تقول الآن ؟

وأجبت « إن اختيارك هو أن تسلم نقاباتك إلى النازى أو تدعهم يأتون ويستولون عليها . وليس بين الأمرين فارق كبير الآن . ولكن سيأتى اليوم الذى يكون فيه الفارق كبيرا » .

والح لبيارت « بماذا تشير » .

— بعدم التسليم .

وطلب لبيارت رأى رؤساء النقابات ، فكانت إجابتهم الجماعية « ليس أمامنا خيار »

وختم لبيارت الاجتماع قائلا « سأرد على الوزارة بأن الاتحاد سوف يشترك في العرض » .

وفي اول مايو سارت النقابات كما لو كانت الأسرى الذين يسرون وراء

عربة الفاتح ، ولم يكسد ينتمى اليوم حتى داهم جورنج النقابات في ٢ مايو واحتل جنود العاصفة مقارها واعتقلوا قادتها وزعماءها ، وفي ١٣ مايو صدرت الأوامر بمصادرة كل أموال ومقتنيات النقابات .

وتهافت النقابات الألمانية الحرة .. وطويت صفحاتها .

* * *

لم يكن الاشتراكيون والشيوعيون هم الذين يقلقون هتلر بالدرجة الأولى ، إذ كان هتلر يضيّق بحلفائه الداخليين أكثر مما كان يضيّق بأعدائه الخارجيين وكان عليه قبل أن يصبح صاحب الكلمة الوحيدة المسموعة أن يخلص من حلفائه في الوزارة .. ومن بعض العناصر الثائرة في الحزب .

وقد قام هتلر بهذه المهمة ، في المدة ما بين مارس سنة ٣٣ ويونيو سنة ٣٤ وانتهت بتلك المنبجحة التي أشرف بنفسه على تنفيذها في ٣٠ يونيو ، ووضعت خاتمة لكل صورة من صور المنافسة أو المشاركة ، فضلا عن المعارضة .

في الفترة ما بين ٥ مارس و ١٦ مارس عنى هتلر باخضاع كل الولايات لحكم مركزي قوى ، وهدم ههنا تلك الحقوق التي توارثتها الولايات الألمانية من القرون الوسطى . فكانت بروسيا في قبضة جورنج ، وأرسل إلى بافاريا ، التي دارت فيها بعض الأحاديث عن الانشقاق وإعادة الأسرة المالكة ، الجنرال فون إب فحكّمها بيد من حديد ، وأرسل إلى كل الولايات محافظين لهم سلطات كاملة .. وأخذت هذه الاجراءات شكلها الرسمي في ٣٠ يناير سنة ٣٤ عندما صدر قانون ألغى برلمانات ووزارات الولايات ، وجعلها محافظات تتبع إدارياً وزارة الداخلية ، وبصرف النظر عن الغرض الذاتي للمعين ، أو النية وراء هذا الإجراء ، فيمكن أن يعد من أعظم الانجازات التي لم تظفر بعناية المؤرخين ، والتي حقق هتلر بها ما عجز عنه حتى بسمارك - رجل الدم والحديد ، وكان في ٢٦ - ظهور وسقوط

هذا أيضا - على ما في ذلك من مفارقة - محققاً لأحد الأهداف التي وضعها في بيانه « اتحاد سبورتا كوس » .

وأخذت الأحزاب المشتركة مع هتلر في الحكم ، وبوجه خاص هوجنبرج وبابن بتطور الأحداث وأدركت خطأها، ولكن بعد أن فات الأوان، ووجدت نفسها في موقف الحزب الاشتراكي الديمقراطي نفسه فاستسلمت وفضلت أن تحل نفسها بيدها .

وما بين يونيو ويوليو حل الحزب الديمقراطي ، وحزب الشعب ، وحزب الوسط الكاثولكي ، ودفع هوجنبرج الفخور لأن يحل حزبه « الحزب الوطني » أما سيلدت رئيس الخوذة الفولاذية فقد انضم بفرقة إلى فرق العاصفة ، وفي ١٤ يوليو أصدرت الحكومة أمرا رسميا أعلنت أن « النازي هو الحزب السياسي الوحيد في ألمانيا » .

وبذلك طويت صفحة الأحزاب كما طويت بالمثل صفحة الولايات وكما طويت من قبل صفحة النقابات .

وفي دوائر النازي نفسه كان نوع من التحفز والتقطب يحدث ما بين القوى المحافظة وما بين العناصر التي احتفظت بطابع اشتراكي .. ما بين الصفة السياسية المدنية للحزب والصفة العسكرية التي تضحمت بتضخم فرق العاصفة ، وما كانت تقرم به من دور كبير في حراسة الحزب وإرهاب خصومه ، وكان على رأس فرق العاصفة أرنست روهم ، الرئيس العسكري المباشر « للشاويش » هتلر في الجيش ثم زميله في الحزب .. والرجل الذي بنا الفرق وأشرف على تدريبها وكان يمكن لروهم أن يقنع بأن يكون جمع رأس جيش شعبي يبلغ تعداداه ما بين ٢ و ٣ مليون وأن يقف إلى جانب الزعيم . ولكن مشاعر روهم كانت غير ذلك سواء لأنه عاشر هتلر معاشرة رئيس لمروؤس . أو زميل لزهيل ، أو لأنه

كان يؤمن بأفكار اشتراكية أبعد مما كان هتلر على استعداد لأن يمضي إليها . . . أو لأنه كان يضيق بتشهير بعض قيادات الحزب بأجرامه الجنسي . . . أو لغيرته من هؤلاء الأقران الذين كان بعضهم مثل جورج ، يتقلدون بحكم صفاتهم السياسية والمدنية مناصب المسؤولية في الدولة . . . في المحصلة الأخيرة ظهر أن روم يداعب فكرة « الثورة الثانية » وأنه يختلف مع هتلر فهتلر اعتبر وصوله إلى الحكم تكليلاً للثورة . . . ولم يعد يريد إلا العمل . . . والتنفيذ ، وهذا بالطبع لأن فكره كان يدور حول نفسه ، ولكن روم الذي كان فكره لا يدور حول الزعيم ولكن حول مبادئ موضوعية أو نظريات معينة ، أو حول نفسه هو ، رأى أن ما وصل إليه هتلر لا يمثل إلا المرحلة الأولى من الثورة ، وأنه لا بد من مرحلة ثانية ، أو حتى ثورة ثانية . . . وتفكير روم في ذلك أمر ثابت تاريخياً ، ولا يمكن الطمن فيه وقد تحدث معه في هذا ، وبأدله روم الحديث « لوديك » عضو الحزب القديم ، وحاول أن يجمع ما بين روم وجريجور ستراسر . وفي يونيو سنة ٣٣ دار حديث طويل بينهما عن تطهير الحزب ، واطلع روم محدثه (لوديك) على إحدى صحف الحزب الشهرية التي نشرت مقالا بعنوان « فرق العاصفة والثورة الألمانية » جاء فيه « لقد اكتسب انتصار واحد على طريق الثورة الألمانية . ولن تسمح فرق العاصفة ولا فرق الهجوم التي تتحمل المسؤولية الكبرى في دفع الثورة الألمانية — بأن تنام الثورة أو أن تخضع في منتصف الطريق ، فإذا كان الغلاة يعتقدون أن الثورة الوطنية قد بقيت أكثر من اللازم ، فقد آن الأوان لأن تنتهي الثورة الوطنية ، وأن تصبح ثورة وطنية اشتراكية . إننا سنواصل كفاحنا بهم أو بدونهم ، وعند الضرورة ، ضدهم . . . إننا الحماة الذين لم يتطرق إليهم الفساد للثورة الألمانية » كما كان روم قد ألقى خطاباً في إبريل ١٩٣٤ قال فيه « إن الثورة الألمانية ليست وطنية ، ولكنها وطنية اشتراكية ، مع تركيز خاص

على كلمة اشتراكية . ويوجد رجال في مناصب مشغولة ليس لديهم أقل فكرة عن روح هذه الثورة، وستخلص منهم بلا رحمة إذا جرؤا على وضع أفكارهم الرجعية موضع التنفيذ » .

ومن المحتمل أن يعود هذا التطور الأخير في أفكار روم إلى تطور وضعه ، منذ أن كان « كابتن » في الجيش الرسمي إلى قائد لفيالق العاصفة ، وأن هذا التطور وضعه وفرقه موضع المنافسة للجيش الرسمي الذي كان يمثل التقاليد البروسية الوطنية والذي أخذ يضيق بفرق العاصفة ، ولما لم يكن روم يستطيع أن ينافس الجيش في اصطناع الوطنية ، فإنه ، تدريجياً وشيئاً فشيئاً اصطنع الاشتراكية وأصبح يؤمن بسياسة التحالف مع روسيا ضد الرأسمالية والغرب وهذا - في غيبة احتمال أى إيمان نظري أو مبدئي بأصول الاشتراكية - هو المبرر الوحيد لاتجاه روم ، هذا الاتجاه الجديد الذي جعله « كابتن اشتراكي » قدر ما كان شليشر « جنرال اشتراكي » .

ومن المحتمل ان روم في تحوله من اليمين إلى اليسار كان متأثراً ، ولو حتى دون ان يشعر ، بواقعة معينة هي ان فرق الهجوم في الفترة الأخيرة امتصت عدداً كبيراً من الشيوعيين الذين عمدوا منذ أوحى قبل أن حل حزبهم سنة ١٩٣٣ إلى التسلم إليها . وكان روم عالماً بهذا التسلم ، وكان يفخر به كدلالة على تسليم الشيوعيين بانتصاره كما سبق وذ كرنا في الوقت الذي كان للشيوعيين مآرب أخرى . وفي هذه اللعبة الخطرة كثيراً ما يصبح الصائد هو الصيد ، وليس من العجيب ان يجد روم نفسه ، وقد حرم مما يعتقد انه حقه من مناصب السلطة ومراكز النفوذ ، وهو ينحاز شيئاً فشيئاً إلى افكار اعدائه السابقين ، ومن المسلم به على كل حال ان انضمام الشيوعيين إلى فرق العاصفة استمر حتى بعد تصفية روم ، وكان سبباً في تصفية الفرق نفسها في خريف ١٩٤١ على

ماروى مؤلف قطار برلين الأخير عندما أكد له البعض له ان ٤٠٪ من اعضاء الفرق كانوا من الشيوعيين السابقين ، وان بعض هؤلاء وصلوا إلى اعلى المناصب فى الفرق . ومع ان هوارد .ك. سميت مؤلف قطار برلين الأخير استبعد صحة هذا الرقم ، فإنه ذكر ان فرق منطقتين كاملتين قد حلا عندما اكتشف ان الأغلبية الساحقة من عضويتهم شيوعية .

كما ان من الثابت ان دوائر الجيش كانت قد ابدت تخوفها صراحة من فرق العاصفة ، وان موضوع انضمام هذه الفرق إلى الجيش بكامل عددها ، ورتبها عرض على الجيش ورفضه فون بلومبرج وفون فريتش الأمر الذى اثار روهم . وان هتلر آثر ان يرضخ للجيش خاصة وانه وجد فى التنظيم الجديد الذى نظمه هملمر وحمل اسم S.S. (Schutz Staffeln) حرسا خاصا ، اى يؤمن به شخصيا كقائد وزعيم ويتفانى فى طاعته ، ولا يعلق بذهنه شىء من الذكريات القديمة ، او يكون له من « الدالة » ما يقضى ان يشركه فى الأمر . وعالج هتلر هذه المشكلة بحذر مستلهما حواسه المرهفة ، كان أشبه بالحيوان الذى يتشمم آثار الفريسة .. واتجاه الريح .. ومواقع الاقدام .. فأولا كانت فرق العاصفة ثمينة ولازمة له ليكتسح الشوارع ويستطيع الضغط بها على القوى للمعارضة بما فى ذلك الجيش ورجال الصناعة والاشتراكيين ، وكان روهم بالذات محل ثقته . وعندما تمردت بعض وحدات هذه الفرق سنة ٣٠ فى برلين ، واضطر هتلر للاستنجاد بالبوليس كان الحل هو أنه طلب إلى روهم ، الذى كان يعمل وقتئذ فى خدمة جيش بوليفيا ، العودة وضبط الفرق ، وفى الوقت نفسه فإنه لم يكن مستعدا لسماع أى شىء عن الثورة الثانية ، وحاول هتلر اجتذاب روهم فعينه وزيرا فى حكومة الريخ فى ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، وفى الذكرى الأولى لانتصاره (٣٠ يناير ١٩٣٤) أرسل إليه خطابا خاصاً رقيقا يشكره على خدماته

« التي لا تنسى » وقيادته لفرق العاصفة وختم خطابه بأنه يشكر القدر إذ جعل من بين أصدقائه وزملائه في السلاح . . أفرادا مثله . ولكن لم يكن لهذا الخطاب من أثر . وفي ٤ يونيو أمضى هتلر مع روهم خمس ساعات قال عنها فيما بعد لقد توسلت إليه لأخر مرة أن يقلع عن هذا الجنون ، وأن يستخدم سلطاته لإيقاف هذا التطور الذي لن يسفر إلا عن كارثة ، ولكن هتلر ، فيما يبدو لم يقنعه ، ولم يرهبه . . ولهذا فعندما بدأت الأجازات ، وسافر روهم في ٧ يونيو أعلن لفرق العاصفة « أنهم سيتلقون في الساعة ، وبالصورة اللازمة الرد المناسب . . »

وفي ١٧ يونيو ألقى فون باين ، الذي نحى جانبا طوال هذه الفترة خطاباً في جامعة ماربورج كشف فيه عن المخاوف التي تعتمل في رؤوس الكمنيرين والذي كان يمكن أن يعد موجهاً ضد روهم وأفكاره عن الثورة الثانية ، كما يمكن أن يكون موجهاً ضد جوبلز ، لسان حال العهد والحاكم بأمره في مجال الاعلام .

في هذا الخطاب قال باين إن صحافة حرة يجب أن توجد لتبلغ الحكومة علنا وبرجولة عن المواقع التي يمش فيها الفساد وترتكب فيها الأخطاء وحيث يشغل الرجال المناصب التي لا يصلحون لها ، وحيث ترتكب الجرائم باسم الثورة الألمانية .

وأشار إلى « الثورة الثانية » فقال :

« أن أي واحد يسمح لنفسه بأن تعبث به مثل هذه الأفكار يجب أن ألا ينسى أن للموجة الثانية قد تستتبع موجة ثالثة ، وأن من يهدد باستخدام الجيولتين . . قد يكون هو أول ضحاياها . . . »

فضلا عن أنه من غير المعروف إلى اين تنتهي هذه للموجة الثانية فهناك

أحاديت كثيره عن « النشريك Sociaeilization ، فهل قمنا بالثورة ضد الماركسية . . لكي . . لكي نطبق برنامجا ماركسيا . . وهل سيكون الشعب الألماني أفضل نتيجة لها ، إن الحركة يجب أن تنتهى ، بعد فترة ما يظهر البناء الإجتماعى الصلده . . ولن يكون هناك بناء خلال الاضطرابات المتلاحقة » .

بالاضافة إلى هذا التوتر الداخلى الذى كان يهدد وحدة الحزب فقد كان هناك عامل آخر كان يقض مضجع هتلر . ذلك هو مستقبل المانيا بعد وفاة المارشال الشيخ الذى كان قد بلغ من العمر عتيا وأصبح على أبواب القبر ، واحتمال التمزق الذى تتعرض له البلاد ، بوجه خاص لأن الجيش لم يكن يخفى امتعاضه من وجود فرق العاصفة وفرق الهجوم ، وبوجه خاص عندما يكون على رأس الفرق الأولى شخص يعلن اتجاهات اشتراكية ويضمم اراء عن جيش شعبي من فرق العاصفة ، وفي مثل هذا المأزق لم يكن هتلر ليستطيع الاعتماد تماما على إحدى هاتين القوتين : الجيش بسبب فرق العاصفة ، وفرق العاصفة بسبب اتجاهات روهم ، ولو ثارت عليه إحدى هاتين لما استطاع أن يستنجد بالثانية ضدها ، إلا على شروطها ، وبأن يصبح هو نفسه أسيرها ، وهذه الهواجس التى لم يتعرض لها معظم المؤرخين ، كانت فى نظرنا ، السبب الأول لتلك المنبجحة التى قام بها هتلر فى ٣٠ يونيو سنة ٣٤ ، ووضعت حدا لكل القلاقل الماثلة والمحتملة وضمن بها هتلر ولاء الجيش . .

وعندما انتهى هتلر من تفكيره الطويل بدأ العمل فوراً فسافر بالطائرة من بون إلى ميونيخ فى مساء ٢٩ يونيو ، وفى صباح ٣٠ يونيو انطلق هتلر بحرمه من الفرق الخاصة فى عربات مدرعة ومصطحباً جوبلز إلى الفندق الذى كان يأوى إليه روم فى فيز Weisse وانتزع من سريره وألقى القبض تورا على كل زعماء وفرق العاصفة من بيوتهم ونقلوا إلى ميونيخ حيث كان هيس فى انتظارهم وأودعوا سجن ستادلهم حيث ضربوا بالرصاص ووضع أمام روم مسدس

ليفتخر ؛ ولكنه رفض وقال إنه يؤثر أن يقتله هتلر واعوانه . . الأمر الذى حدث بالفعل واستمرت عملية الاعتقالات والاختيالات يومين متتابعين لم يقتصر القتل والاعتقال فيهما على روم وصحبه ، ولكن على كل الذين اشتبه في ولائهم فقتل فون شليشر وزوجته ، وقتل ستراسر وقتل فون كاهر حاكم بافاريا أيام . . . ومارية هتلر سنة ٢٣ وقتل اثنان من مكتب فون بابن ها فون بوز وادجار يوبخ ونجا بابن نفسه باعجوبة — وقتل دكتور كلوزنر Klausener العضو البارز في الحزب الكاثوليكي .

وكان من بين القتلى سكرتير روم الخصاص الشاب كونت سبرتي Count Spreiti وهو شاب اشقر وسيم اطلق عليه الصحفيون الأجانب Count Pretty وكان شريكه في انحرافه الجنسى ؛ كما كان من القتلى رئيس برسلو وقائد فرق العاصمة فيها هينز الذى اشترك في عدد من الاختيالات السياسية في اعقاب ثورة نوفمبر وقد قتل في سريره ، وإلى جانبه شريكه في انحرافه الجنسى الذى دفع بحياته من هذا الانحراف . . . كما كان هناك ابرياء لا ذنب لهم الا تشابه الاسم . وهكذا انتفض هتلر في هذه الليلة « كعهد اسود في ليلة مظلمة » على اعدائه وأخذهم بغتة . . . وقد عدد الذين قتلوا في مذبحه هاتين الليلتين بما بين ٣٠٠ و ١١٧٦ ، والعدد الأخير أقرب إلى الصحة لدى بعض المؤرخين . .

وفي ١٣ يوليو وجد هتلر أن عليه أن يقدم تفسيراً للشعب الألماني ممثلاً في مندوبيه الذين اجتمعوا في دار أوبرا كرويل . . . وفي هذا الاجتماع ادعى هتلر أنه علم أن روم تأمر على الحكومة و اراد السيطرة على الجيش ووضع خطة للقيام بانقلاب في عصر يوم ٣٠ يونية والقبض على هتلر . .

ولاشك أن روم كان لديه نوايا من هذا النوع ، ولكن يكاد يكون من المؤكد أيضاً أنه لم يكن قد حول هذه النوايا إلى عمل محدد ، فقد كان زعماء

فرق العاصفة بعيداً عن برلين ، وعن مراكز قياداتهم ، وعندما قبض عليهم كانوا يفظون في نوم عميق .. وكان « أرنست » الذى أدعى هتلر أنه سيقود الموامرة ، فى طريقه لقضاء شهر العسل وقد قتل شهيدا هتلر ، وليس تائراً عليه أو خائناً له ..

ولكن قد يوضح سر الحركة تلك الكلمات التى جاءت فى خطاب هتلر وهو بصدد الحديث عن تأمر روهم مع شليشر لسكى يجعله هذا الأخير وزيرا للحربية بدلا من الجنرال فون بلومبرج ..

« لقد كان مستحيلا هلى أن اوافق على تغيير وزير الحربية أو احلال روهم . وان تمهدى للرئيس فون هندنبرج عن أن الجيش يجب ان يظل اداة غير سياسية للريخ بأسره ينبع من ايمانى العميق ، وكلتى المعلنة . كما أن هذا العمل بالنسبة لوزير الحربية لم يكن ليعمد عملا من أعمال الرجولة . فأنا ، ونحن جميعا سعداء بأن نرى فيه رجلا شريفا من الرأس إلى القدم ، وأى عمل من هذا النوع يعد خيانته للفيلد مارشال هندنبرج ، ولوزير الحربية ، ولالجيش ايضا . ففي الدولة يجب أن لا يوجد سوى هيئة واحدة تحمل السلاح . تلك هى الجيش . »

ورد الجنرال فون بلومبرج قائد الجيش هذه التحية بأحسن منها ، ففي الأمر العسكرى الموجه للجيش امتدح « الشجاعة النموذجية التى قضى بها هتلر على اخوانه والمتآمرين » وأكد ولاء واخلاص الجيش .

بهذا العمل أكتسب هتلر صداقة الجيش ، وأمن نهائيا من أى إنقلاب يمكن أن يحدث فى الجيش أو فى الحزب نفسه .

* * *

بعد سنة ونصف من الحسك الهتلرى كادت جمهورية فايمار أن تصبح أثرل من

الماضى البعيد والشئ الوحيد الذى كان يحفظ لها وجودا رسميا وهنا هو الرئيس .
« هند نبرج » ..

وكان واضحا أن المارشال العجوز يسير نحو قبره ، وان الأيام الباقية له
معدودة .

ولسكن هتلر لم يسكن ليسمح لهذا الرمز من رموز فايمار أن يمضى دون أن
يفيد منه فى تدعيم مركزه .

إذ رأى ببداهته الحاضرة ما يمكن أن يفيد من المارشال العجوز ، وهقب
انتخابات مارس أسمر لاحد أوصيائه «لوديك» اننى أريد هند نبرج ، أريد هذا
الثور العجوز الضئيل العقل لأنه يمثل شهره خرافيه يجب استثمارها ، إن هنا
صورة رمزية يجب أن لا تفوتنى . الفلد مارشال العجوز .. والامباثى الشاب من
الجنادق يضعان أنفسهما تحت الصليب المعقوف فى بلاط فردريك الثانى ..
إننى سأقوم بتنفيذ هذا الدور فى بوتسدام .. »

وفى ٢١ مارس أقيم فى بوتسدام حفل مهيب حضره المارشال العجوز الذى
كان قد جاوز الثمانين ، ومضت ستة عتود وئيف من السنين منذ أن زار هذا
للمكان لأول مره وهو ملازم سنة ١٨٦٦ . وحضر الحفل كل القواد والضباط
والجنود الذين اصطفوا والمارشال يستعرضهم وإلى جانبه هتلر ، وكان منهم
اثنان من ابناء القيصر فى لباس جندى عادى كالذى يلبسه كل افراد « الفرقة
الفولاذيه .. » وتحدث هند نبرج عن الحكومة الجديدة ، وأمله فيها ، وللهمام
الثقيلة امامها ورد هتلر بكلمة أشار فيها إلى ١٩١٨ وشكر المارشال لأنه بفضل
تحقق هذا الزواج ما بين المجد القديم .. والفتوة الجديدة ، وشد هتلر على يد
هند نبرج بينما تقدم هذا ليضع ا كتيلا من الزهور على قبر فردريك ..

وفى مساء أول أغسطس فاضت روح هند نبرج .. وانقطع بذلك الخيط

الدقيق الذي كان يربط فايما بالخاصر ، وعقد احتفال بجنازته بعث مرة أخرى « روح يوتسدام » وتصور دو جلاس ريد أن جيش ١٩١٤ قد قام من قبره فقد اقتعدت الخوذات الفولاذية روؤسا لم يمدف فيها شعرة واحدة وحضر كل الحرس القديم ليؤدي التحية الأخيرة ، وأمام التابوت وقف في الصف الأول جورنج في بدلة جنرال ، واوسكار هندنبيرج والماريشال ما كنزن وفون بلومبرج .. ثم جاء هتلر ، والعيون كلها عليه ليرثي المارشال . ويبدو أنه أخذ خطابا غير خطاب النعي ، فبعد قراءة عدة جمل انطلق يرتجل ، ولكن لما كانت المناسبة تختلف عن تلك المناسبات التي تسمح له بالارتجال فإنه لم يطل .. وبعد عدة عبارات ختم مرثاته « إن المارشال الآن يذهب إلى « فالاهالا » (١)

وجنى هتلر ثمرة ضربة يونيو ، إذ لم يكد المارشال يموت حتى اعلن جوبلز أن منصب رئيس الريخ ومنصب مستشار الريخ أصبحا منصبا واحدا وأن سلطاتهما معا يتمثلان في « الفوهرر » ، ومستشار الريخ أدولف هتلر . واستبعدت كلمة « الرئيس » التي استحدثتها الجمهورية وارتبطت في الأذهان بها ، واصطنعت كلمة « الفوهور » التي يجتمع لها الجدة والاصالة من ناحية والنشئ مع فكرة هتلر عن الزمامة والقيادة كمحور للنظام الجديد ، واقسم الجيش كله جنودا وضباطا بين « الطاعة بلا حدود » للفوهرر ادولف هتلر وفي ١٩ أغسطس استلقى الشعب الألماني على هذا الوضع الجديد وأيدته الأغلبية الساحقة التي لم تسبق : ٣٨ مليون صوتا من جملة ٤٥ مليوناً .

وبموت المارشال انمحي ، رسميا وعمليا ، آخر أثر من آثار الجمهورية ثم جاء هذا الاستفتاء فوضع النهاية التامة لها . . . وأسدل عليها الستار . . .

(١) هي الدار الآخرة في الأساطير الجرمانية .

الفصل الثالث والعشرون

الفصل بعد الأخير

كيف حدث هذا .. ؟ كيف لم يقدر لهذه التجربة الفئدة أن تستمر لأكثر من أربعة عشر عاما .. ثم يأتي هتلر فيمسك بيد هندنبرج كأن لم توجد ما بين ألمانيا النازية ، وألمانيا « الوهلمية » تلك الإشرافة المرححة بأدابها وحرقاتها ، وفنونها ومبازلها ، والآمال الطموحة التي تعلقت بها ..
والدماء الفزيرة التي سفكت في سبيلها .

كانت جمهورية فايمار مفضى عليها من يومها الأول .. كانت شقية من بطن أمها ، فقد ولدت من الهزيمة ، وألصق بها الشعب كل ما جرته الهزيمة من بأساء . ومهانة حتى وإن كانت هي في حقيقة الحال ضحية الهزيمة نفسها .. ولم تسكن في نظر الشعب الألماني بداية عهد جديد . ولكن نهاية عهد مجيد .. عهد رفع رأس ألمانيا في كبرياء ، فجاءت الهزيمة فرغتها بالتراب ..

لم يغفر الناس لفايمار الظرف التمس الذي ولدت فيه وكرهوها لأنها كانت تذكيرا دائما لهم بالهزيمة . وغلب هذا الشعور عامة الشعب الذين يصعب عليهم التقصى والتحجيص ، يأخذون الأمور على علاتها وظواهرها .. وقد يصور ذلك ما رواه سير جيوفري نوكس عن سائق سيارته في برلين سنة ١٩٣٤ . وكان أحد الاشتراكيين الديمقراطيين النشطين الذين يتحدثون عما يلاقه الناس من صعب .. أو عن دور الاشتراكية لإنقاذهم ولكنة

كان يشير إلى جمهورية فايمار «هذه الجمهورية الخنزيرة diese Saurepublik» وكان يطلق عليها هذا اللقب بهدوء وكشء طبيعي ، بينما كان يتصلب وهو يُحيي العلم الإمبراطوري القديم الذي كان وقتئذ شعار الحزب الوطني والجونكر .

وروى الكاتب المشهور والترلا كبير في مقال بمجلة انسكوتر كيف أن أحد الشبان الذين كانوا يسبحون في نهر الاودر تسلق إلى قاربهم في أحد أمسيات الأحد عام ١٩٣٢ ، وكيف أنه أخذ يمسح مؤخرته بعلم فايمار « الأسود ، والأحمر ، والذهبي » وكيف أن هذا العمل أثار عاصفة من الضحك ..

وكانت الأسس التي قامت عليها الجمهورية نفسها تقف ضدها .. وتعمل
لحربها ..

كان نظام الأحزاب الذي سلمت به كأمر مقرر يؤدي إلى الفرقة وينح الاتجاهات المعارضة لها سلاحا لا يقل عن السلاح الذي في يد أنصارها ، ولم يكن من شأنه أن يحقق الوحدة والتركيز اللازمين لبناء عهد جديد . وحتى في أول وزارة ، وبأ كبر أغلبية ا كتسبها الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، فقد كان عليه أن يضع يده في يد حلفاء مشاكسين ، فثبطوا سيره وعرقلوا خطوه ثم لم يلبثوا أن انتزعوا القيادة . وأصبحت سياستهم هي نقض بناء الجمهورية حجراً حجراً حتى جاء هتلر فأتى عليها من التواعد .

وجاءت الجمهورية بالحرية وأشاعتها كما لم يشعها عهد ألماني آخر .. مسبها أولحقتها . ولكن الشعب الألماني لم يكن مهيباً لها ولم يقدر هذه الهدية الجينة لأن وشائج الماضي الطبقي كانت قوية ، وكانت أكثر تجاوبا مع نفسية الناس .. وكانت هذه الوشائج تجعل الالتزام المتبادل ما بين طبقات

الشعب ، وليس الحرية الفردية ، هي أساس العلاقات الاجتماعية وروى
و. وتينسكى واقعة لا ريب أنها تصور مشاعر الشعب الألماني في المقاطعات
والقرى وإن لم تكن مشاعره في برلين أو في بعض المناطق الصناعية . .

قال ويتنسكى « .. خلال أجازتنا الصيفية عام ١٩٢٣ ذهبنا إلى مدينة
صغيرة تجثم في تلال نورانجيا . وكانت المحطة مزينة بالأعلام الإمبراطورية ،
والمدينة تتلألأ بالأنوار ، وأقامت الجماهير المبهجة الاستعراضات في الشوارع
تتقدمها الفرق الموسيقية وأقننا في حجرة بأحد البيوت المعدة للسياح وسألنا
ربة البيت المتقدمة في السن عن هذه المظاهرات فقالت أوه . . إننا في غاية
السعادة لقد استرجع أمراؤنا المحبوبون قصرهم .

كانت هذه المدينة مقر أحد الدوقيات الصغيرة . وكان الكشيريون من
أهلها وثيق الصلة بالبلاط إن يكونوا من موظفي قصر الدوق أو الموردین
له — فعلى الأقل أقارب أو جيران أو معارف موردی القصر أو موظفيه .
وبعد الثورة هرب الدوق إلى خارج بلاده ، وصادرت الحكومة ضيعته وحولت
جزءاً من القصر إلى مدرسة وفتحت أبواب حديقته الفخمة للجمهور . ولجأ
محامو الدوق إلى المحكمة وكسبوا القضية في النهاية . لم يكن الناس متأكدين
من أن الدوق سيعود ولكن كان يكففيهم أن يعرفوا ان حديقته سوف تغلق
من جديد . وأن المدرسة ستطرد من القصر . ومن هنا كانوا يحتفلون
بانتهاء الدوق . .

واعتقد أن ويتنسكى لم يكن دقيقاً في تصويره هذا . أو أنه سمح لمشاعره
الخاصة بتأويل الموقف ، ولكن حتى مع هذا التأويل المغرض . فلا ريب في

أن المثل يقدم نموذجاً فذاً لترباط اجتماعي يتمناه أى نظام ، وعندما تقابل مشاعر الولاء من القاعدة مشاعر الالتزام من القيادة . فلا ريب أن هذا النسيج المترابط سدى ولحمه يفضل الأحاد « الفرط » التي تقوم عليها الفكرة الديمقراطية التي يكون الفرد فيها هو النواة .. والمصلحة الذاتية هي الهدف .. والحرية هي الأسلوب . إذ يغلب أن ينحدر هذا المجتمع إلى الفوضى .. وعندئذ ينطبق على المجتمع ما قاله الشاعر القديم ..

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة ، إذا جهلهم سادوا . .

والحقيقة أن فكرة « الالتزام الطبقى » لم تكن متأصلة في نفوس الريفيين لأنهم سذج أو لأنهم كانوا « موردين أو موظفين في بلاط الدوق » ولكنها كانت جزءاً من العقلية الألمانية تجدها لدى أساتذة الجامعة ، وطلمبتها والمهنيين والكتاب ، كما تجدها في جبار الفكر الألماني « سبنجلر » فهؤلاء جميعاً كانوا ينظرون في زراية إلى مبدأ مانشتستر .. وفكرة الربح والفرد .. ويضعون في مواجبتها الجامعة ، والالتزام ، وكان الشيء الوحيد الذي أعجب سبنجلر في حزب « بيبيل » هو التفاني في سبيل العقيدة . ولكنه رأى أن ذلك يمثل البرعة البروسية « وأن هذه الاشتراكية ليست ماركسية ، فللماركسية مادية ، وهي بهذا المعنى تتناقض مع كل مشاعر التفاني والتضحية » .

كما يمكن الإشارة إلى أن المرأة الألمانية - كما ذكرنا في فصل سابق - لم ترحب كثيراً بالحرية التي أعطتها لها فايمار ، وآثرت عليها الأمومة والبيت ، ومرة أخرى ، فلا يمكن القول إن إيثار المرأة - كفرد - للحرية أفضل من التزامها - كأنتى - بالأمومة والعكس أقرب . وعندما آثرت المرأة الألمانية التزام هتلر على حرية فايمار كانت أكثر اساقاً مع طبيعتها ، ومع مصلحة المجتمع .

وعملياً كان المستفيد الوحيد من حرية فائمار هم أصحاب الأعمال والعسكريون والملاك. ففي ظل هذه الحرية ، وحمايتها بدأوا معركتهم ضد فائمار . . وضد الحرية نفسها ، واستطاعوا في النهاية أن يجندوها ويسقطوها صريمة . . وكان جديراً بالحزب الاشتراكي الديمقراطي أن يعلم هذا الدرس لأنه أول فصل في كتاب الاشتراكية .

ولم يكن العمال - شأنهم في هذا شأن الريفيين وأساتذة الجامعات والنساء - من الذين يرحبون بالحرية . لأنهم يعلمون أنهم في المباراة التي تحكمها الحرية يغلبون . وتدور عليهم الدائرة . . وليسوا هم بدعاة الحرية . . ولكنهم دعاة العدالة . .

ومن بين كل فئات الشعب الألماني ، كانت الفئة الوحيدة التي يمكن أن تناصر الجمهورية هي للعمال ولكن العناصر الأكثر وعياً وحاسة من العمال انحازت إلى الشيوعيين ووقعت أسيرة للنظرية الماركسية اللامعة واجبولة التكتيك الشيوعي وأصبحت لاتقل عداوة للجمهورية عن الجوناسكروالنازيين

وهذا ما يجرنا إلى الحديث عن مسئولية الشيوعيين عن تدمير فائمار ، وقد أشرنا إلى ذلك في أكثر من موضع وما يمكن أن نضيفه هنا هو أنه حتى هذه القارعة التي أودت بالحزب الشيوعي كما أودت بجمهورية فائمار لم تكن كافية لتعيد الشيوعيين إلى صوابهم وتجعلهم يحسون بخطأ سياستهم ، وظلوا حتى الأربعينات وما بعدها متمسكين بشنشة معاداة الديمقراطيين وشهدوا الكومنفورم كما شهدوا الكومنترن من قبله وربما كان تروتسكي - هذا البسارك الشيوعي الذي بنى الاتحاد السوفيتي بالدم والحديد - هو الذي رأى في منفاه البعيد ما لم يره في أوج السلطة . . لأن نور السلطة المبهر يعمي عيون القيادة فلا يرون شيئاً سواها . . وهكذا انتقد تروتسكي بقسوة مسلك الحزب الشيوعي الألماني والسياسة الستالينية « أن تذهبوا إلى الشوارع بشعار «ليسقط بروثنج وبرون

إعما سيؤدي إلى إحلال حكومة هتلر وهو جنبرج ، ولكن هذا النداء لم يصدر من زعيم البلوريتاريا القوي .. ولكن من طرف البروليتاريا . . المبعد إلى ركن قصى في العالم ..

وعندما وقف الحلفاء ، وفقهم المتصلب من جمهورية فايمار وأصروا على توقيع معاهدة « فرساي » وعلى أن تتحمل الجمهورية الناشئة أوزار القيصر والعسكريين وتدفع ثمن أخطأهم فإنهم أوصدوا باب المستقبل في وجهها . وقضوا على أي أمل لها وجملوها تقف عزلاء وحيدة أمام أعدائها .. وأعدائهم .. وحتى عندما عرض جرونر عرضه الجريء على الحلفاء .. أن يقوم الجيش الألماني باكتساح الشيوعية في الاتحاد السوفيتي لحساب الحلفاء . فإن المصلحة العاجلة غلبت المصلحة الآجلة .. وكان على الحلفاء وحكوماتهم أن يدفعوا « فوائد » ربوية فاحشة لهذا القرار طوال فترة ما بين الحربين في صورة قلاقل داخلية مزقت السلام القومي والدولي ثم لا يصلون إلى بيت الداء . وعلى النقيض فقد أدى رفضهم ذلك لأن يضعوا أيديهم في أيدي الشيوعيين وأن يمزقوا بسلاحهم وعنادهم حليفاً سيصبح في المستقبل القريب شوكة في جنبهم ..

إذا وضعنا هذه الملابس كلها نصب أعيننا الرأي أن النقص الرئيسي كان بالدرجة الأولى في النظام والأوضاع والظروف التي أحاطت بالجمهورية الناشئة أكثر مما كان عجزاً أو تقصيراً من قيادات الجمهورية ، وأن الجمهورية كانت في جميع الحالات مقضى عليها وزائلة لأنها من الناحية الزمنية سبقت وقتها ومن الناحية البيئية كانت غريبة على ألمانيا ، وكانت مثلها مستوردة ومستلهمة من مثل خارجية أكثر مما كانت تقوم على أسس قومية . وهذا لا ينفى على كل حال مسئولية القيادات ، ولكنه في جميع الفشل يضعها في ضحضاح من النار ظهور وسقوط ٢٧ -

ويجعلها المستولة بالدرجة الثانية، وليس بالدرجة الأولى، وينفي عنها صفة الصغار والعقم والمجز بالدرجة التي يطلقها عليها بعض المؤرخين والكتاب ..

فقد كان معظم قادة الجمهورية من الرجال الأمناء الذين يسيطر عليهم الضمير . وقد عملوا أكثر من المهد الذي سبقهم والذي لحقهم ، والذي كان يهدم به الشيوعيون ، لأن يتمتع الشعب الألماني بعيشة رغده وحياة حرة وأن يأمن على حاضره ومستقبله . وعندما تطلبت منهم الظروف الخياري ما بين التضحية بالجاهير .. أو بالنظام الذي هم على رأسه فضلوا الثاني .. وآثروا الجاهير .. وفي الوقت الذي كان لينين يدعو الجاهير للخروج إلى الشوارع والانخراط في المظاهرات، وكان ستالين يحكم بالموت على ملايين الروس جوعاً في سبيل تحقيق المزارع الجماعية أو إحكام قبضة الدولة ، كان إيبرت يدعو الناس إلى إخلاء الشوارع «حرصاً على وصول الأقوات إلى الجاهير الجماعة» وكان سيفرنج وبرون يسلمان حكومة بوهوسيا وهي القلعة الأخيرة للاشتراكيين الديمقراطيين حتى لا يتسببوا في معركة تسيل فيها دماء العمال أنهاراً . وقد آثرت جمهورية فيمار أن تكون كالمسيح فيما ترويه الأناجيل فتحمل صليها .. وتسير بقمديها إلى مصرعها .. وأن تضحي بنفسها بدلاً من أن تضحي بالآخرين وكأئمة ما كانت نسبة العجز إلى الإيثار في اتخاذها لهذا القرار ، فإنه من اللناحية الموضوعية المجردة خطأ ، فلا تقوم النظم على العواطف سواء كانت إيثاراً أو عداوة أو رحمة .. وإنما تقوم على العدل ، فالعدل وحده وليس الحرية التي أرادتها الجمهورية ، أو الحب الذي نشرته المسيحية أو القوة التي طمع فيها هتلر أو الثروة التي استهدفتها الرأسمالية .. أو غير ذلك يمكن أن تقوم عليه دتائم نطام دتائم وثابت .

فإذا ذكرنا مسئولية قادة الجمهورية عن اندثار فايمار ، فعلينا أن نذكر
أيضا مسئولية هتلر في انتصار النازي .

وقد اعتبر هتلر وحشاً وعدوا للبشرية ومسئولا عن قتل وتشريد الملايين
من الناس وهدم وتدمير الألوف من المدن، ولو أنه انتصر لاختلقت النظرة ..
ولربما اعتبر مجدد العالم ، وفي كل الحالات ، فإنه في حربه تلك، لم يأت بمجديده .
إن تاريخ أوروبا هو تاريخ الحروب ، ولم ينثن أعداء هتلر عن استخدام السلاح
الذي عمل له — بمجرد أن وصلوا إليه قبله — القنبلة الذرية .. فلنصمت أوروبا
عن التنديد بالحرب .. لأنها واقعة فيها من رأسها إلى القدم .

والذي لا ريب فيه أن هتلر لم يكن شخصا عاديا، وأنه أوتي مالم يؤت غيره،
وأن عملية مقاومته أو التصدي له لم تكن سهلة ، أوحق ممكنة ، للحزب
الاشتراكي الديمقراطي أو للشيوعيين أو لرجال الصناعة والجيش الذين ساندوه
في بداية أمره لاستخدامه في مآربهم ، فاستخدمهم هو في مآربه ولم يستطيعوا
أمامه شيئا ، وكانت القوة الحقيقية التي تميز بها على نظرائه هي جاهيرتنا ، وأن
له قاعدة شعبية تؤمن به شخصيا ، وترى فيه — بلحمه وشحمه — رمز المانيا الناهضة
التي تحطم أغلالها وترفع رأسها .. وتتحدى العالم . وبدون هذا لانفهم كيف
يمكن أن تكون «هايل هتلر» تحية يتبادها الملايين . وكان هتلر يعرف ذلك ،
ويعلم أن هذه الجماهير هي قوته الحقيقية التي ستجمله ينتصر على غيره من
السياسيين وزعماء الأحزاب . ورجال الصناعة والجيش . وفي إحدى خطبه
الانتخابية قال « إنني ابن الشعب .. وسأظل كذلك » وكان لديه من
الفعالة والذكاء ما يجعله يرفض اغراء منصب يقل من منصب المنتشار ، ونأى
بنفسه أن يكون مثل « عيصو » الذي باع حق « البكورية » بطبق من العدس
وفي الوقت الذي كان معظم قيادات النازي تتقبل « نصف الرغيف » ، أعلن هو

« لقد قررت قرارا لارجمة فيه أن لأبيع حق ميلاد الحركة بطبق الشورى الذى يعرضونه — الاشتراك فى الحكم » .

وإنما استطاع هنر أن يتملك هذه القاعدة الجماهيرية الضخمة لأنه كان بفضل إيمانه بألمانيا ، وثقته نفسه يصيب صميم الوجدان الألمانى ، بينما كان الشيوعيون يصولون ويجولون فى مناقشات « عقلانية » مجردة . .

وأثبت هنر أنه يستطيع أن يعمل بجسم وعزم، وأن يضرب بقوة وقسوة . . وأنه يهتدى — عندما يتطلب الأمر اختيارا خطيرا — إلى الحل الأفضل . وظلت حاسته تقوده من نصر إلى نصر ، ومن توفيق إلى توفيق حتى ميونيخ التى رسمت قة ما وصل إليه ، وكان لابد أن ينزل منها ، وكانت اللحظة الحاسمة التى وضعت نهايته هى التى تخلى فيها عن حذره وخالف القاعدة التى وضعها هو نفسه : أن لا يجارب فى جهتين فقرر أن يفزوا الاتحاد السوفيتى ، وبذلك وضع نفسه تحت رحمة أقسى أعدائه .

ومع أن بداية ونهاية هنر ليست فى جوهرها إلا المأساة للمادة لكل ديكتاتور تقريبا : النجاح للمبدئى ، ثم المقامرة والكسب دورا بعد دور حتى يأتى الدور الأخير الذى يخسر فيه كل ما كسبه ، إلا أنها اتسمت بالعديد من التفاصيل المبتكرة والمبدعة التى تضافر عليها ذكاء هنر ومهارة الشعب الألمانى وصبره وطاعته وحققت انجازات رائمة وتقدما لم يسبق فى مجالات العلوم والفنون ، وعندما قامت الحرب ابرزت تضحيات وبطولات من الجنود ، والضباط والمدنيين . .

ولم يخل الأمر مع هذا من السفاهات التى لابد وأن تأت بها الديكتاتورية ، واتسم الكثير منها بطابع القسوة والدناءة والضمه ، فقد زج بكل المخالفين إلى السجون والاعتقالات ، وكان من هؤلاء أحد أبناء « ايرت » وحاولوا

وفي الأيام الأولى للتهارية ، تصور المجتمع الأوروبي أن حكم النازي لن يطول ، وأن الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين لن يلبثوا أن ينظموا حركة مقاومة تودي به ، وكان عجز هؤلاء من ذلك أمرا لم تفهمه وقتئذ الدوائر الأوروبية أو تتمكن من إساعته وعندما أعلنت ألمانيا أن أغلبية المسجونين في معسكر داشاو الرهيب الذي كان يضم المعارضين السياسيين قد أعطوا أصواتهم لهتلر في انتخابات مارس سنة ١٩٣٣ راوأ في ذلك مفارقة غير مفهومة ، ولو أن هذه الدوائر قرأت رواية « ديربارم » لستندال لوجدت فيها ما يساعدها على الفهم . ففي هذه الرواية يحدث ستندال عن مسجونى القلعة في الولاية الذين كانوا يعيشون مكبلين بالأغلال لا يستطيعون الجلوس ولا يتمكنون من الوقوف لأن زناياتهم لا ترتفع عن ثلاثة أقدام وعرضها ثلاثة وطولها ثمانية أقدام ومع ذلك فأنهم أقاموا صلاة شكر لشفاء مسجونهم القاسى فايوكوتى ونظم أثنان أو ثلاثة منهم مقطوعات شعرية تمجد السجنان الذى كانوا جميعا يمتقونه مقنا شديدا .

وفي الوقت نفسه فيجب أن لا ننسى أن هتلر قد أخذ كثيرا من الأوراق الراجعة من يد الاشتراكية والشيوعية ، ولم يكن عليه من حرج في هذا لأن هذه الأوراق بدورها لم تكن حكر الاشتراكية أو الشيوعية وحدها ، ولكنها كانت إرث الحضارة الإنسانية كلها ، والفكر البشرى بأسره ، بحيث أشبه النظام النازى تحت حكم هتلر ، في التحليل الأخير ، النظام الاشتراكى تحت حكم ستالين .. ففي كل من ألمانيا والاتحاد السوفيتى وجد نظام شمولى محكم يتخلل كل ناحية من نواحي الحياة وينسلح بالقوة الباطنة والأرهاب المنظم ، وفي كل من الدولتين وضع مشروع لأربع أو خمس سنوات يجسد النشاط الاقتصادى والإنتاجى للدولة . وفي كل من الدولتين تولى حزب رائد التوجيه الايديولوجى وفي كل من الدولتين حرم الاضراب والأغلاق

وخضع العمال لتوجيه الحزب مع فارق شكلى . فالاتحاد السوفيتى أبقي على النقابات بعد أن أفرغها - تماما من أى مضمون تقابى بالمفهوم التقليدى وادمج وزارة العمل فى الاتحاد العام للعمال ليغرقه فى المسئوليات الإدارية ويفقده طبيعته الشعبية والجمهيرية . وفى ألمانيا النازيه حلت النقابات وانظم العمال فى جبهة العمل ، وفى كاتنا البلدين أصبحت التنظيمات العمالية اجتماعية وفنية أكثر مما هى اقتصادية ، هيئات إنتاج ومساهمة أكثر مما هى هيئات ضغط ومطالبة واشبهت الطوائف القديمة فى عنايتها بالأعياد والمواسم وأفراح المجتمع واطراحه وتوجيه اهتمامها نحو العناية بالمجالات الاجتماعية والثقافية وفنية الصناعة والحرص على أمانة « وأدبيات » الاداء ..

وهذه القسمات فى النظام النازى جعلته أكثر من انقلاب ديكتاتورى ، بل إنها جعلته - إلى حد ما - طبعه من الاشتراكية تتلاءم مع نفسية الشعب الألمانى وظروفه وقتئذ . ولم يكن ثمة مبرر يدفع الاشتراكيين لثورة اللهم إلا الاشتراكيين الذين لا يطلبون مضمون الاشتراكية ، ولكن الصنف المعين من الاشتراكية الذى أمنوا به وورثوا عليه وأفنوا ماضيهم كله فيه . وهؤلاء بالطبع قلة . وقد خفيت هذه الحقائق على الدوائر الخارجية كما لم تبد فى ألمانيا نفسها فى الأيام الأولى للهتلرية وإن لم تدق على فطنة هيئة واحدة حملت أسم بداية جديدة Neu - Beginn . يعود تكوينها إلى سنة ١٩٣١ عندما استشعرت مجموعة من الاشتراكيين الديمقراطيين وبعض الشيوعيين الخطر المائل واحست بضرورة توحيد جبهة العمال من شيوعيين واشتراكيين وانقدت تصرفات حزبيهم ، ولكنها كانت أضعف من أن تؤثر على سياسة أى من الحزبين ، وبقدر ما كان الخطر يتزايد يقدر ما كانت تتماسك وترى ضرورة تكوين تنظيم سرى يمكن الاعتصام به عند هبوب العاصفة وفى العدد الأول من نشرتها التى إصدارتها فى سنة ١٩٣٣ أرست الجماعة المبادئ الآتية :

١ — إن الحكومة الهتلرية ليست إحدى الحكومات الرجعية التي يمكن أن تختفي بالسرعة التي جاءت بها - ولكن الفاشية تبقى تحولاً جذرياً في المجتمع الرأسمالي ستجعل لفترة طويلة فرص الاشتراكية ضئيلة للغاية .

٢ — إن من أكبر الفروق بين الفاشية والنظم الرجعية الأخرى أن الأولى إنما جاءت بها إلى الحكم حركة جماهيرية عريضة جذبت أعضائها من مختلف قطاعات المجتمع .

٣ — أنه ما ظل بقاء النظام الفاشي مكفولاً بتأييد شعبي حقيقي فإن الدعاية الجماعية ضد الفاشية (كما تقوم بها بعض المجموعات) لا تبقى إلا توضيحات لا مبرر لها دون تحقيق أية نتائج ملموسة .

٤ — إن المهمة الحيوية هي بناء تنظيم قوى من افراد مختارين بدقة يتوفر في كل منهم المقدرة على الحكم السيامي المستقل والتكهن من تحمل المسؤولية ويجب ان يمرن الأعضاء تماماً نظرياً وعملياً على الاتصال بمناطق نفوذ في أكبر عدد ممكن من المراكز الصناعية الهامة وكذلك في الأقسام الأخرى للمجتمع .

٥ — إن مهمة هذا التنظيم هي أساساً الأعداد الايجابية لاوقات الازمات العامة عندما تتيقظ المقاومة التلقائية للجماهير ويمكن تسييقها وتوجيهها .

٦ — أنه لهذا الانتصار المرتقب — فإن إعادة توحيد الاحزاب العمالية المتنازعة إنما هو مطلب هام . ومع أن « الوحدة » قد اصبحت الشعار الأول في معظم التنظيمات السرية ، فإن « البداية الجديدة » ترى أنه من الحيوى أن تتخذ الخطوات الأولى العاجلة لتنسيق كل القوى المسكافة داخل اطار اشتراكية ديمقراطية تبعث من جديد .

وترى البداية الجديدة أن الاشتراكية الديمقراطية رغم كل قصورها في
اللاضى فإن ملايين من العمال الألمان يواصلون أو يجب أن يواصلوا الاحتفاظ
بإخلاصهم لهذا الحزب الذى ساعدوا فى بنائه والذى يمثل فى عيونهم التجسيد
لعرف الطبقة العاملة وبجانب هذا فإن البناء الديمقراطى للحزب الاشتراكى
الديمقراطى (الذى يختلف فى هذا عن الحزب الشيوعى) يمكن أن يثبت
إمكانية النمو الحزبى للأفكار الجديدة والتقدمية . . .

٧ — إن استمرار المعارضة للمنظمة للنظام النازى هى على اعظم جانب
من الأهمية للمحافظة على تقاليد وخبرات الطبقة العاملة التى إذا تركت لشأنها
فإنها يمكن أن تندوى ، ومن هنا فلا بد من أن ينمى بوعى تكشيك سرى
لمجاهة الاجراءات المنهجية والدقيقة للجستابو . . .

وكانت هذه الامس تختلف عن تصورات تجمعات المقاومة التى ظهرت بعد
الصدمة الأولى وحاولت أن تثبت وجودها بمنطق العمل المباشر من دعاية أو
تخريب، ولكن العوامل التى أشرنا إليها والتى مكنت النازى من قمع كل صور
للمقاومة أولاً بأول واشاعة جو من الارهاب الوبيل ، أوضحت سلامة مبادئ
حركة « بداية جديدة » وأصبح من المسلم به أن غرض أى حركة للمقاومة يجب
أن يتركز حول الحفاظ فى نفوس الاعضاء على التقاليد الثورية واللبادىء
الشعبية التى أصبحت فى خطر الزوال بتأثير الدعاية المنهجية للمنظمة والمتوالية
لننازى وتكوين نواة من الأفراد المؤمنين يمكن أن يتحركوا عندما يثون
الأوان حتى لا تنكسر المساهمة مرة أخرى . أى أن تأتى نهاية المتطرية دون أن
يمكن هناك قيادة ثورية رشيدة مستعدة للعمل ولتقلد زمام الأمور والحيلولة
دون التخبط ، وكانت هذه السياسة سليمة فى ظل الظروف الاستثنائية ونقطة
الضعف فيها أن من المسير الحفاظ على النفسية الثورية فى بيئة سلمية ، وكما طال

الامد .. كلما استكانت النفس ووهنت قوى وقابلية المقاومة الأمر الذى حدث بالفعل وجعل مصير كل حركات المقاومة محكوما عليه وإمبا الاختلاف هو فى المدى ، فتجمعات العمل المباشرة تكتشف وتقمع وتجمعات التكوين والتنظيم فى انتظار الخلاص تطول ، ولسكنها قلما تدرك ساعة الخلاص ..

* * *

وعندما أعلنت الحرب تصور المراقبون أن ساعة ثورة الشعب الألماني قد حانت ولكنهم أخطأوا فإنا أن أعلنت الحرب حتى شدد الجستابو قبضته على البلاد بحيث زادت صعوبة القيام بأى عمل وفى الوقت نفسه ، فلم تكن الاحتمالات التى تتمخض عن المقاومة بأفضل من احتمالات الاستسلام ، فلو هزمت المانيا فسيحاصبها المنتصرون حسابا عسيرا ، وسيدفع شعبها عن هزيمة هتلر ، وليس فى هذا ما يشجع على الثورة . ومع قسوة الحرب ، فإن احتمالات سلام الهزيمة كانت اقصى .. ومن هنا ذاعت فى السنة الأخيرة للحرب تلك القالة « تمتع بالحرب فإن السلام قريب ... »

لم يكن هناك من سبيل إلا الاستسلام ، فقد كانت المانيا محكومة بعباساتها التاريخية كما كانت محصورة فى موقعها الجغرافى ، وكان لابد لهذه الرواية التى بدأت بالاندفاع الولهى ، وما اعقبه من هزيمة ، وتمثر فإيمار وظهور هتلر ، والاندفاع الهتلرى والهزيمة الثانية . أن تتم فصولا ... ولكن ثمة فصل بعد لما يتحقق تماما - الفصل بعد الأخير . فمع أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى بمتقضى برنابج جودسبيرج (١٩٥٩) أقلع أخيرا عن الشعارات التى ظل يتمسك بها فى الظاهر .. ويخالفها فى الواقع بفضيل شجاعة « شوماخر » مجدد الحزب ، وبفضيل الموامل المواتية الأخرى عندما كشف الاتحاد السوفيتى النقاب عن مطامعه .. ومع أن التطورات الإجتماعية والحضارية للفترة المعاصرة أهدمت الشعب الألماني عن تلك الجنود العسكرية البروسية التى تحسكت فيه

من ظهور بروسيا حتى ظهور هتلر .. مع كل هذا .. فإن تقسيم المانيا إلى شرقية وغربية يفسح المجال أمام فصل جديد .. وما يمكن أن يأتي به .. . وهناك ثلاثة احتمالات .. فيما أن تكون المانيا هي الصعيد الأول الذي يثبت التطور فيه إمكان التلاقي ما بين الماركسيه .. والديمقراطية بعد أن تفقد كل واحد منها شفتنتها القابلة .. وأما أن يقتصر النظام الديمقراطي ويثبت أفضليته .. وأما أن يحدث العكس والاحتمال الأول أفضله .. وعندما يتحقق فستعود المانيا الموحدة لتقوم بدورها في المجتمع للدولى .. بقيم جديدة تبرأ من البروسية والماركسية على سواء .

والحقيقة أن السنوات التي أعقبت الحرب كانت بعيدة الأثر في كشف الشيوعية وتعمية الاتحاد السوفيتي فبعد أن كان حكمه الشمولى الناشم مقصورا على شعبه ، فإنه امتد في اعقاب انتصاره إلى شعوب أوروبا الشرقية ، وذاقت هذه الشعوب طعمه المر ، كما رأت بعينها مظامه واستعمارها الجديد واصطدامه مع الحجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا فكان ذلك بداية اليقظة وتبدد أو هامها عن النعيم الشيوعى ، ثم جاء المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى الروسى وكشفه مخازى ستالين فكان سببا في أن يميد الكثير من الشيوعيين الألمان حساباتهم وافسكارهم .

ومن الدعوات التي تمثل هذا الاتجاه دعوة ولفجانج هاريش العضو المنشق على الحزب الشيوعى بألمانيا الشرقية وكن ولفجانج هاريش يقوم بتدريس العلوم الإجتماعية في جامعة برلين الشرقية وتجمعه أوامر الفكر المشترك بعدد من المثقفين والأدباء مثل الكاتب المسرحى برنولد برخت . وفي سنة ١٩٥٧ حكم على هاريش بالسجن عشر سنوات بتهمة الخيانة وقبيل القبض عليه استطاع أن يصور فكرته في وثيقة حملت اسم « وصية نأثر حزبى » هربت إلى الاثراكية الديمقراطية في المانيا الغربية وطبعت هناك .. .

واخلط الرئيسي في هذه الوصية « هو التخلص نهائياً من كل الآثار الستالينية والنبعية للاتحاد السوفيتي والعودة إلى منابع الفكر الماركسي التي أغلقتها الستالين روزا لوكسمبرج ينجارين ، تروتسكي ، كاوتسكي ، وكذلك المحدثين منهم مثل فرنز ستيربرج والإفادة من التجارب الصينية واليوجوسلافية .

وترى الوثيقة أن الحزب الشيوعي الألماني عندما يتخلص من الرواسب والقيود الستالينية فإنه يمكن أن يكون جناحاً يسارياً للحزب الاشتراكي الديمقراطي ويمكن لهذا أن يكون بداية توحيد المانيا .

ولا تؤمن الوصية بالرأسمالية ولكنها لا ترى أن انتصار الاشتراكية يتطلب ثورة . إنها مستسود بطريقة سلمية بل حتى دون دفع الحزب الشيوعي لأن ظهورها أمر موضوعي .

والناظر في هذه الوثيقة يرى أنها تشبه شبيهاً كبيراً «بداية جديدة» التي ظهرت مع ظهور هتلر ، كما تشبه الأفكار الاشتراكية التي سادت في مستهل القرن حتى وإن لم تذكر اسم برنشتين .

والنقص الوحيد هو أنها لما تتوصل بعد إلى التخلص من الوهم اللينيني ، وإن تخلصت من الوهم الستاليني . الأمر الذي نعتقد أنه سيكون نهاية المطاف . وأن اقتلاع ستالين سيؤدي حتماً إلى التخلص من لينين لأن ما يمكن أن يؤخذ على ستالين إنما هو فجاجة الأسلوب وليس خطأ الغاية ، ولو كان لينين محله لاستهدف الغاية نفسها حتى وإن كان الأسلوب مهندياً أو مغلفاً بغلاف من الظاهر . وعندما يحدث هذا فيكون المجال منفسحاً أمام تجديد الفكر الاشتراكي ، وإعادة الديمقراطية إليه ، كما سينفتح المجال للوحدة الألمانية .

فهرس

٣

مقدمة :

الباب الاول : ألمانيا حتى الحرب العالمية الاولى

- ١٣ الفصل الأول : التطور السياسى
- ٣٢ الفصل الثانى : الحركات التحررية والشعبية حتى ثورة ١٨٤٨
- ٤٤ الفصل الثالث : تطور الحركة الاشتراكية الألمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر
- ٧٤ الفصل الرابع : صراع الأفكار والوقائع
تطور الاشتراكية الألمانية من بداية القرن العشرين حتى الحرب العالمية الأولى .

الباب الثانى : تحديد المسار

- ٩٥ الفصل الخامس : ودارت رحى الحرب ...
- ١١٧ الفصل السادس : الثورة وإعلان الجمهورية
- ١٣٥ الفصل السابع : المعسكرات تنقلب
- ١٦٥ الفصل الثامن : الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ظلل النمام
- ١٨٧ الفصل التاسع : سبارتا كوس يصلب من جديد
- ٢٠٢ الفصل العاشر : أحداث بافاريا العجيبة
- ٢١٣ الفصل الحادى عشر : نهاية البداية

الباب الثالث : المسيرة المتعثرة

- ٢٢٢ الفصل الثانى عشر : معاهدة فرساي المشثومة

٢٤٩ الفصل الثالث عشر : مؤامرة كاب

٢٧٣ الفصل الرابع عشر : ثورة بالمراسلة

الباب الرابع : سنوات التحول

٢٧٤ الفصل الخامس عشر : الديمقراطية العزلاء في معسكر الأعداء

٢٩٠ الفصل السادس عشر : الحركة النقابية تدفع الثمن

٣٢٧ الفصل السابع عشر : من الانهيار إلى الازدهار

الباب الخامس : النهاية

الفصل الثامن عشر : الصيف الهندي

٣٣١ الفصل التاسع عشر : للمستشار الألماني الأخير

٣٥٩ الفصل العشرون : ذلك الرجل أدولف هتلر

٣٧٧ الفصل الحادي والعشرون : خمس دقائق قبل الثانية عشر

٣٨٨ الفصل الثاني والعشرون : النهاية

٣٨٨ الفصل الثالث والعشرون : الفصل بعد الأخير

بقلم المؤلف

مؤلفات

- ثلاث عقبات في الطريق إلى الجهد (١٩٤٥)
ديمقراطية جديدة (١٩٤٦)
مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة (١٩٥٢)
ترسيد النهضة [سودر قيل التوزيع] (١٩٥٣)
الأزمة والبطالة في الرأسمالية (١٩٥٧)
موقف الفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة (١٩٥٧)
قصة فرسان العمل (١٩٦٢)
القانون والقضاء في المجتمع الاشتراكي (١٩٦٣)
التنظيم والبيضان للنقابي (١٩٦٦)
نشأة الحركة النقابية وتطورها (١٩٦٧)
في التاريخ النقابي المقارن (١٩٦٧)
دور النقابات في المجتمع الاشتراكي (١٩٦٧)
الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها (١٩٦٩)
منظمة العمل الدولية ملحق مجلة العمل العدد ٦٤ سنة ١٩٦٩
الحركة العمالية الدولية ملحق مجلة العمل العدد ٧٢ سنة ١٩٦٥
العمل في الإسلام ملحق مجلة العمل العدد ٨٥ سنة ١٩٦١
محاضرات في الإدارة النقابية (١٩٧٢)
روح الإسلام (١٩٧٢)
الحرية النقابية ملحق مجلة العمل عدد مارس سنة ١٩٧٣
قضية الإنتاج (١٩٧٣)
العمال والدولة المصرية ملحق مجلة العمل عدد مايو سنة ١٩٧٥

مترجمات ومراجعات

- الانتخابات في الولايات المتحدة (١٩٦٢)
- د د المملكة المتحدة (١٩٦٢)
- د د الاتحاد السوفيتي (١٩٦٢)
- د د السويد (١٩٦٣)
- د د بورما (١٩٦٣)
- د د الملايو (١٩٦٣)
- الأزمة المقيمة (١٩٦٢)
- العمالة والتنمية الاقتصادية (١٩٦٦)
- مدخل لتنمية الأجور (١٩٦٦)
- الادارة العمالية في يوجوسلافيا (١٩٦٧)
- العمل يجابه عصرأ جديداً (١٩٦٨)
- الديمقراطية للنقابية (١٩٦٩)
- دستور منظمة العمل الدولية (١٩٧٠)
- اتفاقيات العمل الدولية « مجلدين » (١٩٧١)
- توصيات العمل الدولية (١٩٧١)
- البرنامج العالمي للعمالة (١٩٧١)
- « تقرير المدير العام لمنظمة العمل الدولية »